السيد عليّ صدر الدين المدنيّ

رحلة ابن معصوم المدنيّ

أو سلوة الغريب وأسوة الأريب



تحقيق:
شاكر هادي شكر

الدار العربية للموسوعات

رحلة ابن معصوم المدني

أو

سلوة الغريب وأسوة الأريب


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

رحلة ابن معصوم المدني

أو

سلوة الغريب وأسوة الأريب

تأليف

السيّد علي صدر الدين المدني

تحقيق

شاكر هادي شكر

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م - ١٤٢٦ هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ص.ب: ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢
هاتف نقال: ٠٠٩٦١٣/٣٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com
البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام خالد العاني

ترجمة المؤلف في سطور(*)

* - هو السيد علي صدر الدين بن الأمير أحمد نظام الدين بن محمد معصوم المدني. يتصل نسبه بزيد الشهيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع).

* - ولد بالمدينة المنورة ليلة السبت الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٥٢ هـ. وأمّه كريمة العلاّمة الشيخ أحمد المنوفي إمام الشافعية في الحجاز.

* - هاجر إلى الهند سنة ١٠٦٦ هـ بطلب من والده الذي كان يشغل وظيفة نائب السلطنة في حيدر آباد أيام السلطان عبدالله قطب شاه.

* - بوفاة السلطان المذكور تغلّب أحد الوزراء على الملك، وفرض على المؤلف وعلى أبيه الإقامة الجبرية، ومات الأب في الحجر سنة ١٠٨٦ هـ ، وعندئذ شعر الابن بمؤامرة تدبّر لقتله فهرب إلى برهان بور ملتحقاً بالسلطان محمد أورنك زيب شاه.

* - ضعف السلطان المذكور لتقدّمه بالسن، وأصبحت أخلاقه لا تطاق، فوجد المؤلف نفسه غير قادر على القيام بواجبات وظيفته - رئاسة الديوان في البلاط - فسعى جاهداً للعودة إلى الحجاز، وبعد لأي تمكّن من استحصال الإذن بالسفر بحجة أداء فريضة الحج. فسافر هو وعائلته سنة ١١١٤ هـ .

(*) مقتبسة من مقدمتي لكتاب أنوار الربيع للمؤلف نفسه.

* - وصل إلى مكة المكرمة - وهو ينوي الإقامة في الحجاز - ولما حلّ الموسم أدّى فريضة الحج، ثم قصد المدينة لزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وتحرّى الوضع في المدينتين المذكورتين فوجد كل شيء فيهما قد تغير ولا يكاد يعرف أحداً من الناس بعد غياب دام (٤٨) سنة.

* - واصل سفره إلى العراق، وزار البصرة والنجف وكربلاء وبغداد، ودرس الحالة عن كثب فلم يجد في العراق آنذاك الجوّ الملائم للتأليف والتدريس اللّذين نذر لهما ما بقي من أيام حياته، فقرر مواصلة السفر إلى إيران.

* - دخل البلاد الإيرانية وزار أُمّهات المدن مثل خراسان، وقم وأصفهان - العاصمة - وكان يودّ الإقامة فيها، غير أنه وجد الأمور مضطربة على السلطان حسين الصفوي فواصل سفره إلى شيراز وهي آنذاك عامرة بالعلم والعلماء، فألقى بها عصا الترحال، واتخذ المدرسة المنصورية مقرًّا لعمله في التدريس والتأليف.

* - توفي بشيراز سنة ١١٢٠ هـ على أصح الأقوال، ولم يرم القلم من يده إلاّ قبيل وفاته ببضع ساعات، ودفن بحرم السيد أحمد بن الإمام موسى بن جعفر الملقب بشاه جراغ.

*** - له مؤلفات عديدة، المعروف منها:**

(١) كتابه هذا - سلوة الغريب وأسوة الأريب.

(٢) سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر - مطبوع.

(٣) أنوار الربيع في أنواع البديع طبع مرتين، والثانية بتحقيقي.

(٤) الدرجات الرفيعة - طبع جزء واحد منه -.

(٥) رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية - طبع على الحجر مرتين -.

(٦) الحدائق النديّة في شرح الصمدية للشيخ البهائي الحارثي في النحو - مطبوع على الحجر أكثر من مرة -.

(٧) شرحان على الصمدية أيضاً - متوسط وكبير -.

(٨) الكلم الطيّب والغيث الصيّب في الأدعية المأثورة.

(٩) موضع الرشاد في شرح الإرشاد في النحو.

(١٠) المخلاة في المحاضرات.

(١١) الزهرة في النحو.

(١٢) ملحقات سلافة العصر.

(١٣) الطراز في اللغة.

(١٤) رسالة في أغلاط الفيروز أبادي في القاموس.

(١٥) التذكرة في الفوائد النادرة.

(١٦) رسالة في المسلسلة بالآباء شرح فيها الأحاديث الخمسة المسلسلة بآبائه.

(١٧) نفثة المصدور.

(١٨) محك القريض.

(١٩) نغمة الأغان في عشرة الأخوان وهي أرجوزة تقارب السبعمائة بيت، وجدتها في بعض المخطوطات ملحقة بديوان شعره.

(٢٠) ديوان شعره وهو كبير يضم بين دفتيه حوالي خمسة آلاف بيت، وقد فرغت من تحقيقه، وسيطبع إن شاء الله في أقرب فرصة ممكنة.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التعريف بالمخطوطات المعتمدة في التحقيق

وقفت على ثلاث نسخ مخطوطة من الكتاب، اثنتان منها في مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد:

الأولى: مسجلة برقم ٩٦٣٦ وهي من كتب المرحوم الأستاذ عباس العزاوي المحامي، خطّها نسخي غاية في الجودة، ولكنها غير مضبوطة وكثيرة التصحيف والأخطاء الإملائية. جاء في آخرها (وافق الفراغ منه نهار الأربعاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان المبارك سنة ١٠٧٥ هـ على يد أقل عباد الله وأحوجهم إلى مغفرته ورحمته، الفقير جلال الدين بن الشريف حسن النجفي العباسي الشهيرين أهله بآل ظفر).

يستفاد من هذا التاريخ أن هذه المخطوطة كتبت في الهند بعد الفراغ من تأليف الكتاب بثلاثة أشهر، وأنها أقدم النسخ، ولكنها على كل حال ليست نسخة المؤلف بدليل أنها محشوة بالتصحيفات والأخطاء.

الثانية: مسجلة برقم ١٤٦٢٠ وهي من كتب الأستاذ السيد صادق كمونه المحامي. خطها نسخي متوسط الجودة، خالية من الضبط، وهي بالإضافة إلى ما فيها من تصحيفات وأخطاء لا تخلو من تصرف في بعض الجمل يوحي أنه من عمل النُسّاخ وقد أشرت إلى ذلك في مواضعه من الكتاب. كتابتها حديثة جاء في آخرها (كان الفراغ من تسويد هذه النسخة ضحى يوم السبت السابع عشر من جمادى الثانية سنة ألف واثنتين ومائة حامداً مصلياً مسلماً مستغفراً). ثم يأتي بعد ذلك ما نصه (وقد كتبها لنفسه محمد بن الشيخ طاهر السماوي النجفي على نسخة كتبها علي بن ابراهيم الدرازي أصلاً،

والشاخوري[1] مسكناً. وظنّي بهذا التاريخ المتقدم في حياة المصنف. ونسخته كثيرة التصحيف والغلط، فصحح الضعيف ما أمكنه، وكان كتبها في النجف على استعجال، وفرغ منها ليلة الاثنين لثمان بقين من ذي الحجة من شهور سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف حامداً مصلياً داعياً إلى الله تعالى أن ينفع بها أنه على كل شيء قدير، وله الحمد والشكر في البدء والختام).

أما النسخة الثالثة: فهي في مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد ومسجلة لديها برقم ١٢٣١٧. خطُّها نسخي لا بأس به، خالية من الضبط وهي كسابقتيها من ناحية التصحيف والأغلاط. جاء في آخرها ما نصه (وقع الفراغ من نسخ هذه الرحلة على يد كاتبها المفتقر إلى عفو ربه الجليل عبدالله بن عيسى بن اسماعيل، الشهير بالعباسي، غفر الله له الزلل، وستر له الخلل، ووفقه لصالح العمل، هو ووالديه وإخوانه ومحبيه في الله وسائر المسلمين، في اليوم الخامس عشر من ذي الحجة الحرام من شهور سنة إحدى وثلاثين بعد المائتين والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين سبحانه وتعالى.

قابلتها وأصلحتها. وإلاّ (كذا) فالمرجو من الاخوان المسامحة على ما فيها من التحريف، وأن يصلحها من هو أهل لذلك لتخلو من التصحيف. والله سبحانه وتعالى يصفح عن الجميع بمنه وكرمه آمين).

ولما لم أوفّق إلى العثور على نسخة المؤلف أو نسخة مقروءة عليه، لم أشأ التوسع في الحصول على نسخ أخرى لا يجني المحقق منها غير التعجيز، وتضخيم الكتاب بكثرة الشروح لبيان ما فيها من تصحيفات وما يوجد بينها من اختلافات، ومثل هذا العمل في الواقع إحصائي أكثر منه أدبي، ويكفي المحقق أن يطمئن إلى سلامة النص، ويتثبت من صحة عمله.

---

(١) لعلها الشاغوري، نسبة إلى الشاغور: محلة خارج الباب الصغير من قبلي دمشق ظاهر المدينة.

المنهج الذي سلكته في التحقيق

* اعتبرت النسخ الثلاثة التي مر ذكرها معتمدة في التحقيق، الواحدة منها تكمل الأخرى، وجعلت للنسخة الأولى - نسخة العزاوي فضلاً على النسختين الثانية والثالثة لقدم كتابتها أولاً، ولجمال خطها وسهولة قراءته ثانياً.

* - فإذا وجدت تصحيفاً أو خطأ في إحداهن، وكان الوارد في الأخرى صحيحاً أخذت بالصحيح دون أن أُشير إلى ذلك في الهامش تجنباً للإطالة، فلو ذكرت كل تصحيف أو خطأ وارد في كل نسخة من النسخ الثلاث - وهي كثيرة جدًّا - لطغت الهوامش على الكتاب دون أن يستفيد منها الباحث أو القارئ.

* - إذا اختلفت النسخ في الرواية وكانت الروايات كلها مقبولة أخذت بما في نسخة العزاوي حتى ولو كان الذي في سواها أرجح معنى وأقوى مبنى ثم أشير إلى ذلك في الهامش.

* - إذا كان الاختلاف في نص منقول عن أحد المصادر، فإني آخذ برواية النسخة التي تنطبق روايتها مع ذلك المصدر، ثم أنوّه عنه في الهامش.

* - أرجعت النصوص المنقولة إلى مصادرها - على قدر المستطاع - وأحلت عليها في الهامش، وذكرت فيه كل اختلاف وقفت عليه، وأهملت الأخطاء والتصحيفات الواردة في تلك المصادر.

* - عزوت - على قدر الإمكان - الأشعار التي لم ينسبها المؤلف، إلى أصحابها.

* - اكتفيت بإيضاح أسماء الأعلام من الرجال وبذكر تواريخ وفياتهم، وأشرت إلى مصادر تراجمهم، ولأجل أن لا أُطيل في تعداد تلك المصادر فقد عوّلت في الأعم الأغلب على (١) - الأعلام للزركلي و (٢) - معجم المؤلفين لكحالة و (٣) - هوامش أنوار الربيع لابن معصوم، لأن في هذه الكتب تراجم مختصرة تفي بالغرض، وفي عقب كل ترجمة قائمة بالمصادر التي ترجمت لذلك العلم.

* - أهملت ذكر من لم أتوصل إلى معرفته.

❊ - عرّفت بالكتب والمواقع التي ورد ذكرها في الكتاب إلاّ ما تعذّر الوقوف عليه.

❊ - لم أتوسّع في شرح الغريب من اللغة.

❊ - استعملت في الهوامش الرموز الآتية:

(ع) = مخطوطة الأستاذ عباس العزاوي التي انتقلت ملكيتها إلى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد (مسجلة برقم ٩٦٣٦).

(ك) = مخطوطة الأستاذ صادق كمونه التي انتقلت ملكيتها أيضاً إلى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد (مسجلة برقم ١٤٦٢٠).

(أ) = مخطوطة مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد (مسجلة برقم ١٢٣١٧).

(❊) = وضعت هذه الإشارة إلى جنب أسماء بعض الأعلام للدلالة على أنه قد سبق التعريف به.

وختاماً فإني في الوقت الذي أعترف فيه بقصوري عن أن أقدّم للقارئ الكريم عملاً متكاملاً يسعدني أنني بذلت في إخراج هذا الكتاب بهذا الشكل غاية جهدي خدمة لأمتي العظيمة ولغتها المقدسة، سائلاً المولى جلّ وعلا أن يتقبل أعمالنا التي حسنت فيها نياتنا «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

المحقق

مقدّمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل الأرض مهاداً، وسلك فيها سبلاً، وأودعها من عجائب صنعه ما شاهدته أبصار أولي الأسفار قُبُلاً[1]. سبحانه ما أعجب ما قدَّر في أمور عباده، وألطف ما دبَّر في أرضه وبلاده. أنفذ كيف شاء في خلقه أحكامه، فقضى على هذا بشعث السفر، وعلى هذا بلمّ الإقامة، والصلاة والسلام على نبيّه الذي بعثه بأشرف البقاع، وشرّف بمواطئ أقدامه الشريفة كثيراً من الفجاج والقاع، وجعل دينه المنيف مألفاً لعباده بلا حيف، فأغناهم عن إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، وعلى آله وصحبه البررة الهادين الذين مهّدوا طرق الحق، وأوضحوا مناهج الدين.

وبعد، فيقول المفتقر إلى ربّه الغني علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين الحسيني الحسني، هداهما الله إلى سواء السبيل، وأنالهما من جزيل ما ينيل: غير خافٍ إنّ شيمة الأيام وسخيمة[2] صدور اللئام هما كمد نفس كلّ فاضل، ورمد جفون الأفاضل، فما من ذي فضل إلا مُنيَ بدهرٍ عبوس، أو غَمر ببنيه كؤوس الهمّ والبوس. ذاك ينصب له المصايد وهذا يجرّعه غصص المكايد، فقلّما انتُدب ذو أدب لنيل أرب إلاّ وأدركته حرفة الأدب، أو جدّ واحتشد لأمر برشد إلاّ عاقه ذو حسد. بهذا جفّ القلم فيما ألمّ، وقضى القضا فيما مضى. ومن هنا استولى النقص على الكمال، واستعلى على الرشد الضلال، وركدت ريح الفضل وخوى[3] طالعه وخبت مصابيح الأدب ودجت

---

(١) قبلا (بضمتين): عياناً.

(٢) السخيمة: الضغينة، والموجدة.

(٣) خوت النجوم: أمحلت، أي سقطت ولم تمطر في نوئها.

مطالعه. حتى سئمت الفضائلَ أهلُها، وحمد من الأراذل جهلها، فشكا كلُّ أديب من دهره، وبكى كلُّ أريب من رعاع عصره.

هـذا زمـانٌ لـيـسَ فـيـه سـوى الـنَّـذالـةِ والـجـهَـالَـهْ
لـم يـرقَ فـيـه صـاعِـدٌ إلاَّ وسُـلَّـمُـه الـنَّـذالَـهْ

ثم هذا ليس إشارة إلى هذا الزمن العديم، بل العلَّة عاديّة، والبلاء قديم حتى قيل: ما فسد الناس، وإنَّما اطَّرد القياس، ولا اظلمَّت الأيّام وإنَّما امتدَّ الظلام، وهل يفسد الشيء إلاَّ عن صلاح، ويمسي المرء إلاَّ عن إصباح، وقديماً ما بثّت الأفاضل خطوب الدهر ونكوب الزمن، ونثت[1] من أهوال أحوالها بخس الحظ ووكس الثمن، وكم جدّت بجدودها العواثر في هذه الدنيا لنيْل العلياء، فضربت شرقاً وغرباً، وأوغلت بُعداً وقرباً، فلم تحصُل على طائل، وما أشبه الأواخر بالأوائل.

وإذا السَّعيُ لم يُلاحَظْ بسَعدٍ فالتماسُ المُنى من الحِرمانِ[2]

وهيهات مع شرف العلم عزّ المال، ومع حرفة الأدب بلوغ الآمال، ولا سيما من انتمى إلى بيت النبوّة، وارتدى مع ذلك رداء صيت الفتوّة، فإنّ الدهر أشدّ حقداً عليه، وأسرع نهداً إليه.

نحن بَني المصطَفى ذوو محنٍ يجرعُها في الحياة كاظِمُنا
عـجيبـةٌ فـي الأنـام مـحنتُنـا أوَّلُـنـا مُبتـلـىً وخـاتـمـنـا[3]

هذا وإنّي منذ كبر عن الطوق عَمري[4]، وارتفع عن منافثة الأتراب عُمري، لم أزل أصابح وأماسي ما يهدّ أيسرُه الرواسي، وأكابد وأقاسي ما يليِّن أهونه القواسي. أسوق من دهرٍ قصصاً، وأسيغ من غمرٍ غصصاً.

---

(١) نثت: حدّثت وأذاعت.

(٢) في ك، و أ (فالتماس المنى به حرمان).

(٣) الشعر للخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار بن معد المتوفى سنة ٣٨٦ هـ (أنوار الربيع ٤/٩١). في ك (في الأنام) مكان (في الحياة).

(٤) إشارة إلى المثل القائل (شبّ عمرو عن الطوق).

كلَّ يومٍ لي خصيمٌ [ضالعٌ] والمقاديرُ لها حُكمٌ شَطَطْ[1]

وإذا كشَّفتُ ما يُرمِضُني من مَضيضِ الدَّاءِ قال الحلم غَطْ

ولقد منيت بكربة الغربة، وتشعّث الحال وعهد الصِّبا مخيِّم ما همَّ بالارتحال، وبليت بورود منهل البين الأكدر، وباهر العمر مشرق أشرف على الكمال وما أدبر. رمتني مرامي النوى بجهدها، وأبدلتني عن خير بلاد الله المشرَّفه بأرض هندها، وناهيك بأرض شاسعة نائية، وبلد أهلها كفرة طاغية، وليس ذلك والله لطلب نائل، أو بلوغ وطرٍ امتثلت له قول القائل:

وارحَلْ ركابَكَ عن ربعٍ ظَمِئتَ به إلى الجنابِ الذي يَهمي به المطرُ[2]

كيف وقد علمت أنَّ الحرمان من شيم الزمان، وربَّ عطب تحت طلب، ولكن قضاءٌ حتم، وأمرٌ لزم فأين المفر، وهيهات طلب المستقر.

لو أنصفَ الدهرُ دلَّتني غياهبُه على العُلى بضياءِ العَقلِ والحسَبِ

ما ينفَع المرءَ أحسابٌ بلا جِدَةٍ أليسَ ذا منتهى حظِّي وذاكَ أبي

وكنت بعد أن نزلت على حكم القدر في تحمّل شقَّة البين، وفارقت الأهل والوطن فراق الجفن للعين، حريصاً على أن لا يكون فعلي إلاَّ فعل امرئٍ جدَّ في طلب العُلى جِدُّه.

وما رأيُه في عَسجدٍ يستفيدُهُ ولكنَّه في مفخرٍ يَستَجِدُّهُ[3]

وإن زعم قوم أني على خلاف ذلك فالحسد يُقحم مقتفيه أضلَّ المسالك.

---

(١) البيتان من قصيدة طويلة للشريف الرضي (محمد بن الحسين) المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (أنوار الربيع - ١/٤١، وبين البيتين أكثر من ثلاثين بيتاً. ضالع: جائر. في الأصول (طالع) والتصويب من الديوان.

(٢) البيت للحريري (القاسم بن علي) المتوفى سنة ٥١٦ هـ (انوار الربيع ١/١١١ وهو من ضمن قطعة وردت في مقامته السابعة والثلاثين (الصعيدية).

(٣) البيت لأبي الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين) المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (أنوار الربيع ١/٣٨). والظاهر أن المؤلف حوّره ليلائم غرضه، وإلا فراوية الديوان له:

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنّها في مخفر أستجدّه

وقـد سَـرَّنـي أنّـي مـن الـمـالِ مُـقـتـرٌ
ولا الوجهُ مبذولٌ ولا العِرضُ مَنهوبُ

كما سرَّني أنّي من الفَضل مُوسِرٌ   على أنّه فضلٌ من الرِّزقِ مَحسُوبُ

فجهدت على أن لا أظفر بنكتة طريفة إلاّ نمَّقتها، أو فائدة ظريفة إلاَّ علّقتها، أو شعر فائق إلاّ كتبته، أو نثر رائق إلاَّ أثبتّه، حافظاً لذلك حفظ الجفن لمقلته، والصدر لمهجته، والشحيح لدرهمه، والجريح لمرهمه. حتى كأنّي استدبرت وطناً واستقبلت وطرا، وسلوت عن قديم ما سلف بحديث ما طرا، فاجتمع لديَّ من نخب اللطائف ما رقّ وراق، واقتطفته النواظر من ثمرات الأوراق، وانتخبته نتائج الأفكار، وجنحت إليه جنوح المفرخ إلى الأوكار، وتملّت به النفوس، وتحلّت به المهارق[1] والطروس.

مُـلـحٌ إذا ذُكـرَتْ بـنـادٍ خِـلـتَـهُ   من نَشْرها البادي تَضَمَّخ طِيبا
ولَكم بها قد قامَ رَبُّ فضيلةٍ   بين البريَّةِ في البلادِ خَطيبا

فأزمعت على أن أجمع ما وقع لي من ذلك رحلةً تكون لأولي الألباب من ذوي الآداب نحلةً، أثبتُ فيها ما وقفت عليه، وما سأقف إن شاء الله تعالى جانحاً إليه، إلى أن يمنّ الله سبحانه بالعود إلى الوطن، والأوب إلى العطن، وأورد خلال ذلك من الطرائف المستظرفة، والظرائف المستطرفة ما يروق النواظر، ويجلو صدأ الخواطر، وتقرّط به المسامع، ويطرب له الناظر والسامع. فإذ أشرق من أفق الكمال بدرها المنير، وتفتّق عن حجب الكمام زهرها النضير سمّيتها:

«سلوة الغريب وأسوة الأريب»

ليطابق الاسم مسمّاه، ويوافق اللفظ معناه، وفيها أقول:

رِحـلـتـي الـمُـشـتـهـاة تُـزري   بـالـرَّوضِ عـند الـفَـتـى الأريـبِ
فـإن تَـغـرَّبـتَ فـاصـطَـحِـبْـهـا   فـإنَّـهـا سَـلـوةُ الـغَـريـبِ

---

(١) المهارق جمع المهرق (بالضم): ثوب حرير أبيض يسقى بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه.

فها هي كالمُنية قد أنجحت لراجيها، أو العروس قد أُبرزت في ناديها، فخذها بارك الله لك فيها.

مقدّمة: فيما جاء في السفر والاغتراب من نثر ونظم ذماً ومدحاً، والناس متفاوتون في التفضيل بين التغرب والإقامة، فلنذكر من كلٍّ طرفاً يعدّه الناظر طرفاً.

أمّا ما جاء في الذمّ في ذلك فقد قال الله عزّ وجل ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1] فقرن جلَّ اسمه الخروج من الوطن بقتل النفس.

وروي عن سيّد البشر الشفيع المشفَّع في المحشر أنّه قال صلى الله عليه وآله وسلّم (السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه، فإذا قضى أحدكم مهمّته من وجهه فليعجّل إلى أهله).

وقيل لبعضهم: إنّ السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر، ونظمه من قال:

كلُّ العذاب قِطعةٌ من السَّفَرْ ... يا ربِّ فارْدُدني إلى ريفِ الحَضَرْ

وكان الحَجاج بن يوسف[2] يقول: لولا فرحة الإياب لما عذّبت أعدائي إلاّ بالسفر وقيل: السفر، والسقم، والقتال، ثلاثة متقاربة. فالسفر سفينة الأذى، والسقم حريق الجسد، والقتال منبت المنايا.

وقال حكيم: في السفر خصال مذمومة منها مفارقة الإنسان من يألفه. وعلى ذلك لعلي بن موسى بن سعيد المغربي[3]:

عجبتُ ممَّن يبتَغي بِغْيَةً ... عن حِبِّهِ في نَيلها يَذهَبُ

---

(١) سورة النساء / ٦٦.

(٢) والي العراق المشهور في عهد عبد الملك بن مروان. توفي سنة ٩٥ هـ (أنوار الربيع ٣/ ٢٥).

(٣) هو صاحب التصانيف الكثيرة منها (المغرب في حلى المغرب) توفي في حدود سنة ٦٨٥ هـ وقيل غير ذلك. (أنوار الربيع ١/ ٦٩).

أَقِمْ فلا كانَت مُنىً في نَوىً   من فَقَد المحبوبَ ما يَطْلُبُ

ومنها مصاحبة الإنسان من لا يشاكله، والمخاطرة بما يملكه، ومخالفة العادة في أكله ونومه، ومباشرة الحرّ والبرد بجسمه.

وقيل: السفر اغتنام لولا أنّه اغتمام، والغربة دُرْبه لولا أنّها كربة.

وقيل: شيئان لا يعرفهما إلاّ من ابتلي بهما: السفر الشاسع، والبناء الواسع.

وقال محمد بن ظفر في السلوان[1]: حروف الغربة مجموعة من أسماء دالّة على محصول الغربة. فالغين من غرور، وغبن، وغلّة وهي حرارة الحزن، وغرّة، وغول وهي كلّ مهلكة، والراء من روع، وردى، ورزء، والباء من بلوى، وبؤس، وبرح وهي الداهية، وبوار وهو الهلاك، والهاء من هول، وهون، وهمّ، وهلك.

وقيل: إذا كنت في بلد غيرك فلا تنس نصيبك من الذلّ.

وقيل: الغريب ميّت الأحياء (كالغرس الذي زايل أرضه فهو ذاوٍ لا يثمر وذابل لا ينضر)[2].

وقيل: الغريب كالوحش الذي غاب عن وطنه، فهو لكلّ سبع فريسة ولكلّ رام رميّة.

وقيل: عسرك في بلدك خير من يسرك في بلد غيرك وأنشدوا:

لَقربُ الدارِ في الإعْسار خيرٌ   من العَيش الموسَّع في اغْترابِ[3]

وقيل لبعض الحكماء: ما السرور؟ فقال: الكفاية في الأوطان، والجلوس مع الاخوان.

---

(١) هو شمس الدين محمد بن ظفر الصقلي. من مؤلفاته (سلوان المطاع في عدوان الأتباع. توفي سنة ٥٦٥ هـ (معجم المؤلفين ١٠/ ٢٤١).

(٢) في ك (كالفرس الذي زايل أخيّته فهو حائل لا يثمر وذابل لا ينظر).

(٣) ورد البيت في زهر الآداب ١/ ٣٨٧ من دون عزو أيضاً.

طريفة: قال القاضي أبو الحسن الجرجاني[1] كان الصاحب بن عباد[2] يقسم لي من إقباله وإكرامه بجرجان أكثر ممَّا يتلقَّاني به في سائر البلدان فاستعفيته يوماً من فرط تحفيته بي، وتواضعه لي فأنشدني:

أكـرِمْ أخـاكَ بـأرضِ مَـولـدِه ... وأمِـدَّه مِـن فـعـلـكَ الـحَـسَـنِ

فـالـعـزُّ مـطـلـوبٌ ومـلـتَـمَـسٌ ... وأعـزُّهُ مـا نِـيـلَ فـي الـوطـنِ

الأعشى[3]:

ومن يَغْتَرِبْ عن قَومِهِ لم يزل يَرى ... مَصارعَ مظلومٍ مَجرًّا ومَسْحَبا[4]

وتُدفنُ منه الصَّالحاتُ وإن يُسِئْ ... يكُنْ ما أساءَ النّارَ في رأس كَبْكَبا

وقال آخر:

ومَن يَنأَ عن دارِ العشيرة لا تَزَلْ ... عـلـيـه رُعـودٌ جـمَّـةٌ وبُـروقُ

وقال آخر:

وإنَّ اغترابَ المرءِ من غير خلَّةٍ ... ولا همَّةٍ يسمُو بها لَعجيبُ

فحسبُ الفَتى ذلاًّ وإن أدركَ الغنى ... ونـالَ ثـراءً أن يُـقـالَ غَـريـبُ

وأنشد أبو منصور الثعالبي[5] في يواقيت المواقيت[6] قال: أنشدني أبو

---

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ. (أنوار الربيع ٤/١٨٦).

(٢) هو أبو القاسم اسماعيل بن عباد. توفي سنة ٣٨٥ هـ (أنوار الربيع ١/٥٨).

(٣) هو صناجة العرب ميمون بن قيس. توفي قبيل فتح مكة ولم يسلم (أنوار الربيع ١/ ٢٢٥).

(٤) البيت مأخوذ من بيتين وردا في ديوان الأعشى هكذا:

متى يغترب عن قومه لا يجد له ... على من له رهط حواليه مغضبا

ويحطم بظلم لا يزال يرى له ... مصارع مظلوم مجرًّا ومسحبا

(٥) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ وقيل ٤٣٠ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٧٢).

(٦) هو كتاب في مدح الأشياء وذمها، ورد ذكره في دائرة المعارف الإسلامية ٦/ ١٩٥ ضمن مؤلفات الثعالبي.

الفتح البستي[1] لنفسه:

لا يَعدُم المرء كِنًّا يَستكنُّ بهِ ... وصُفَّةً بين أهليه وأصحابِهْ[2]

ومن نَأى عنهُمُ قلَّتْ مهابتُهُ ... كاللَّيثِ يُحقَرُ إمَّا غابَ عن غابِهْ

ناصر الدين ابن النقيب[3]:

ليسَ من باتَ مُعتَقاً من أمانيـ ... ـهِ كمن باتَ للأمانيّ رِقّا

إنَّ للمرءِ في الحياةِ على اللـ ... ـه إلى أن يموت قُوتاً ورِزْقا

خَلِّني من حديثِ كدٍّ وسَعْيٍ ... واضطرابٍ في الأرض غَرباً وشَرْقا

ما الَّذي أقتَنِيهِ من عَرَضٍ يَفْـ ... ـنى إذا كانَ جَوهَري ليسَ يَبْقى

وأما ما جاء من المدح في ذلك:

فقد مدح الله جلَّ اسمه المسافرين فقال ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[4].

وفي الحديث (سافروا تصحّوا وتغنموا).

وفي التوراة (ابن آدم أحدث سفراً أحدث لك رزقاً).

وقيل: إنّما سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن آيات الله، وقيل: لأنّه يسفر عن أخلاق الرجال.

ومن كلامهم: السفر ميزان الأخلاق. السفر مرآة الأعاجيب. ربما أسفر

---

(١) هو أبو الفتح علي بن محمد البستي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ (يتيمة الدهر ٤/ ٣٠٢، وأنوار الربيع ١/ ٩٨).

(٢) الصفّة (بالضم وتشديد الفاء): الموضع المظلّل، وأهل الصفة: ضيوف الإسلام من فقراء المهاجرين ممن ليس لهم منزل، فكانوا يأوون إلى مواضع مسقوفة بجريد النخل. وفي يتيمة الدهر (ومتعة) مكان (وصفة).

(٣) هو الحسن بن شاور بن طرخان الكناني المعروف بابن النقيب النفيسي المصري المتوفى سنة ٦٨٧ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٠٥).

(٤) سورة المزمل / ٢٠.

السفر عن الظفر، وتعذَّر في الوطن قضاء الوطر. السفر أحد أسباب المعيشة التي بها قوامها، أو نظامها، لأنّ الله لم يجمع منافع الدنيا بأرض بل فرّقها، وأحوج بعضها إلى بعضها. الحركة وَلُود، والسكون عاقر. الحركة بركة والتواني هلكة، والسكون شؤم. ليس بينك وبين بلد نسب، فخير البلاد ما حملك. أوحش أهلك إذا كان في إيحاشهم أنسك، واهجر وطنك إذا نبت عنه نفسك.

[قال] سهل بن هارون: لست ممّن يقطع نفسه في صلة وطنه. وقيل: لا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار، فإنّ الفقر أوحش من الغربة، والغربة آنس من الوطن، وأنشدوا:

الفقرُ في أوطانِنا غربةٌ والمالُ في الغُربة أوطانُ

وللإمام الشافعي رضيَ الله عنه[1]:

سافِرْ تجِدْ عوضاً عمَّن تفارقُه
وانصَبْ فإنَّ لذيذَ العيش في النَّصَبِ
فالأسدُ لولا فراقُ الغابِ ما قنصَتْ
والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يَصِبِ[2]

ابن قلاقس[3]:

نقِّلْ ركابَك في الفَلا ودَعِ الغواني في القُصورِ[4]
لولا التنقُّل ما ارتقى درُّ البُحور إلى النُّحورِ
والقاطِنونَ بأرضِهِمْ عندي كسُكَّانِ القُبُورِ

أبو تمَّام حبيب بن أوس الطائي[5]:

---

(١) هو الإمام محمد بن ادريس المطلبي الشافعي توفي رضوان الله عليه بمصر سنة ٢٠٤ هـ (معجم المؤلفين / ٣٢).

(٢) في الديوان (والأسد لولا فراق الأرض ما افترست). لا وجود لهذا البيت في ك.

(٣) هو أبو الفتوح نصر بن عبدالله (ابن قلاقس) المتوفى سنة ٥٦٧ هـ (أنوار الربيع ١/ ٨٨). في ع (الرئيس) مكان (ابن قلاقس).

(٤) الأبيات في وفيات الأعيان وفي روايتها اختلاف.

(٥) توفي أبو تمام سنة ٢٣٢ هـ (أنوار الربيع ١/ ٣٧).

وطولُ مقام المرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ لِديباجَتَيْهِ فاغتَرِبْ تَتَجدَّدِ

فإنِّي رأيتُ الشمسَ زِيدَتْ محبَّةً إلى الناس إذْ ليسَتْ عليهم بِسَرمَدِ

الوأواء الدمشقي[1]:

لا تقعدنَّ بأرضٍ قد ربيتَ بها فليسَ تقطعُ في أغمادِها القُضُبُ

قيل: والحق التفصيل في التفضيل، فإنه إن توفّرت الأسباب المحتاج إليها في أمر الكفاية وتكميل النفس وتزكيتها مع الإقامة فهي أفضل، وإلاّ فالتغرب كما قيل[2]:

ولا يُقيمُ على ضَيمٍ يُرادُ بهِ إلاَّ الأذَلاّن عَيْرُ الحيِّ والوَتِدُ[3]

هذا على الخَسفِ مَربوطٌ برُمَّتِهِ وذا يُشجُّ فلا يَرثي له أحَدُ[4]

الحريري(*) وهو من شعره في المقامات[5]:

لا تقعُدَنَّ على ضَيمٍ ومَسغبَةٍ لكي يُقالَ عزيزُ النَّفسِ مُصطَبِرُ[6]

وانظرْ بعينكَ هل أرضٌ معطَّلةٌ من النَّبات كأرضٍ حَفَّها الشَجرُ

فعَدِّ عمَّا تقولُ الأغبياءُ بهِ فأيُّ فضلٍ لعُودٍ ما له ثَمرُ[7]

وارحلْ ركابَكَ عن رَبعٍ ضَمِئتَ به إلى الجَنابِ الذي يَهمي به المطَرُ

واستَنزِلِ الرِيَّ من دَرِّ السَّحابِ فإنْ بُلَّتْ يداكَ به فليَهنِكَ الظَّفَرُ

---

(١) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني (الوأواء الدمشقي) توفي سنة ٣٩٠ هـ (أنوار الربيع ٤/ ٨٦).

(٢) الشعر للمتلمس واسمه جرير بن عبد المسيح، شاعر جاهلي (أنوار الربيع ٢/ ٦٧).

(٣) في أنوار الربيع (ذلّ) مكان (ضيم) وفي شعراء النصرانية قبل الإسلام/ ٣٤٤ (ولن يقيم على خسف يسام به).

(٤) في أنوار الربيع (فلا يأوي) وفي شعراء النصرانية (فما يرثي).

(٥) هي المقامة السابعة والثلاثون (الصعيدية).

(٦) في الشريشي ٣/ ٢١٣ (ضرّ) مكان (ضيم).

(٧) في الشريشي (تشير) مكان (تقول).

وإن رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقَصةٌ | عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

ابراهيم بن العباس[1]، أو غيره[2]:

لا يمنعنَّكَ خَفضَ العَيش في دَعَةٍ | نُزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانِ

تَلقى بكلِّ بلادٍ إنْ حلَلْتَ بها | أهلاً بأهلٍ وجيراناً بجيرانِ

السراج الوراق[3]:

إذا كنتَ في أرضٍ يُهينُك أهلُها | وإن كنتَ مشغوفاً بها فَتَغرَّبِ

فإنَّ رسولَ الله لم يَسْتقِمْ له | بمكَّة أمرٌ فاستقامَ بيَثرِبِ

مهذب [الدين] ابن منير[4]:

وإذا الكريمُ رأى الخُمولَ نزيلَه | في منزلٍ فالحزمُ أن يَترحَّلا

كالبَدر لمَّا أن تَضاءَلَ جدَّ في | طلَب الكمال فحازَهُ مُتنقِّلا

سَفهاً لحلمكَ إنْ رضيت بمشرَبٍ | رَنِقٍ ورزقُ الله قد مَلأَ الفَلا[5]

الأديب أبو محمد غانم[6]:

---

(١) هو ابراهيم بن العباس الصولي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (أنوار الربيع ٤/ ١٠).

(٢) البيتان في ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) وأوردهما ابن خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٢٨ وقال أنه وجدهما في ديواني ابراهيم الصولي، ومسلم بن الوليد.

(٣) هو سراج الدين الوراق (عمر بن محمد) المتوفى سنة ٦٩٥ هـ عن سنّ عالية (أنوار الربيع ١/ ٣١٦).

(٤) هو مهذب الدين (في الأصول: مهذب الملك) أحمد بن منير الطرابلسي المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (أنوار الربيع ٣/ ٢٢٣).

(٥) في وفيات الأعيان ١/ ١٣٩ (الملا) مكان (الفلا) وهو الصواب، ويأتي في المصدر المذكور بعد هذا البيت البيت الآتي:

ساهمت فيك مرّ عيشك قاعداً | افلا فليت بهنّ ناصية الفلا

(٦) هو غانم بن الوليد بن عمر المخزومي المالقي المتوفى سنة ٤٧٠ هـ (المغرب في حلى المغرب ١/ ٣١٧ وأنباه الرواة ٢/ ٣٨٩).

وإذا الديارُ تنكَّرتْ عن حالها فذَرِ الدِّيارَ وأسرع التَّحويلا[1]
ليسَ المقامُ عليكَ حتماً واجباً في بلدةٍ تدعُ العزيزَ ذَليلا[2]

وسئل الزيادة عليهما فقال:

لا يَرتضي حُرٌّ بمنزِلِ ذلَّةٍ لَو لَم يَجدْ في الخافقَين مَقِيلا
فارضَ الوفاءَ لحرٍّ نفسكَ لا تكن تَرضى المذَلَّةَ ما حَيِيتَ سَبيلا
واخصُصْ بودِّكَ مَن خبرتَ وفاءَهُ لا تتَّخِذ إلاَّ الوفيَّ خَليلا
فلقد خَبرتُ الناسَ منذُ عرفتُهم فوجدتُ جنسَ الأوفياءِ قليلاً
سَقياً لأيَّام الشَّباب فإنَّها كالإلْفِ حاولَ أن يَجدَّ رَحيلا

ومن لطائف ما حكاه الأصمعي قال: مررت برجل يكسح كنيفاً وهو يقول:

وايَّاكَ والسُّكنى بدارِ مذلَّةٍ تُعدُّ مُسيئاً بعدَما كنت مُحسِنا
ونفسكَ أكرِمْها فإنْ ضاق مَسكنٌ عليكَ بها فاطلُب لنفسِكَ مَسْكنا

فقلت له والله ما بقي من الهوان شيء إلاّ وقد أهنت به نفسك، فكيف تأمر بإكرام النفس ولا تكرمها؟ فقال: بلى والله من الهوان ما هو أعظم مما أنا فيه. فقلت له: وما هو؟ قال: الوقوف على سِفْلةٍ مثلك، فانصرفت عنه وأنا أخزى الناس.

ياقوت الرومي[3]:

وقفتُ وقوفَ الشَّكِّ ثم استمرَّ بي يَقيني بأنَّ الموتَ خيرٌ من الفقرِ
فودَّعتُ من أهلي وفي القلبِ ما بهِ وسرتُ عن الأوطانِ في طلب اليُسرِ
وباكيةٍ للبَينِ قلتُ لها اصْبِري فَلَلْموتُ خيرٌ من حياةٍ على عُسْرِ

---

(١) بعض هذه الأبيات في (المغرب في حلى المغرب) وفي روايتها اختلاف بسيط.
(٢) في ك (فرضاً) مكان (حتماً).
(٣) يريد ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ وهو رومي أيضاً (معجم المؤلفين ١٣/ ١٧٨).

سأكسبُ مالاً أو أموتَ ببَلدةٍ   يقلُّ بها فيضُ الدُّموعِ على قبري

ثم السعي لا يؤثر في التقدير والإرادة، وإنّما هو من الأسباب التي جرت بها العادة كما قيل:

(للرزقِ أسبابٌ ومن أسبابهِ   إعمالُ ناجيةٍ وشدُّ حِزامِ[1]

وقال آخر:

ألم ترَ أنَّ الله أوحَى لمريمٍ   وهزّي إليكِ الجِذع يسَّاقط الرطَبْ

ولو شاءَ أدنى الجذعَ من دونِ هَزِّه   إليها ولكن كلُّ شيءٍ له سَبَبْ

وحاصل الأمر أنّ السعي إنّما هو لتحصيل ما أراده الله سبحانه، وحضّ عليه في كتابه العظيم بقوله عزّ اسمه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[2] فإنّ بالحركات تنزل البركات، وعدم حصول المرام أمر وراء ذلك كما قيل)[3].

عَلى المرءِ أنْ يَسعى لما فيه نفعُهُ   وليسَ عليه أن يُساعدَهُ الدَّهرُ[4]

فإن نالَ بالمَسعى المُنى تمَّ قصدُهُ   وإن خالفَ المقدورُ كانَ له عُذرُ

ابن عنين[5]:

فإمّا مقامٌ يضربُ المجدُ حولَه   سُرادِقَه أو باكياً لحِمامِ[6]

فإنْ أنا لم أبلغْ مقاماً أرومُه   فكم حَسَراتٍ في نُفوسِ كِرامِ

---

(١) هذا البيت وما بعده إلى نهاية الجملة المختومة بالقوس غير موجودة في (أ).

(٢) سورة الملك / ١٥.

(٣) انتهت الجملة المنوه عنها في الهامش (١) أعلاه، وسقط من ك (وعدم حصول المرام أمر وراء ذلك).

(٤) ورد هذا البيت في ريحانة الألباء ١/ ٧٩ دون عزو.

(٥) هو أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصرالله (ابن عنين) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ. (أنوار الربيع ١/ ٢٣٨ و ٢٣٩).

(٦) في الديوان (فاما مقاماً).

وقال آخر[1]:

سأضربُ في بُطون الأرض ضَرْباً وأركبُ في العُلى غُررَ اللَّيالي[2]

فأمّا والثّرى وأقمتُ عُذراً وأمَّا والثريَّا والمَعالي[3]

وليكن هذا آخر المقدمة وفيه كفاية لمن لحظته العناية. وأما أنا فأقول: إذ كنت في غنى عن هذا المنقول:

لقد ظَلمتني واستطالَتْ يدُ النَّوى وقد طَمِعَتْ في جانبي أيَّ مَطمَعِ

إلى كم أقاسي فُرقةً بعد فُرقَةٍ وحتى متى يا بينُ أنتَ مَعي مَعي

وكان السبب في تجرّع مرارات النوى، وتحمُّل حرارات الجوى، وفراق الأهل والوطن، والبعد عن السوح المحترم والحرم المؤتمن، أن قضى الله على الوالد بفراقه لتلك المواطن واغترابه عن هاتيك المنازل والمعاطن، مدعوًّا إلى الدكن من الديار الهنديّة، مجلوًّا على السكن في ظلالها النديّة، ففارقنا والحال حويلة، والبحر دجيلة، والفصال لم يبلغ حدّه، والوصال قد ثلم البين حدّه، وذلك عام أربعة وخمسين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحيّة.

وكان قد استدعاه إلى تلك الديار مليكها الأعظم ومالكها السلطان المعظّم، الملك الذي انعقدت كلمة الإجماع على شوكة سلطانه، وتلت الخلائق سور عدله وإحسانه، وأصبحت الأملاك خاضعة لدولته وعزّة شأنه، مستسلمة لأقضية صولته، وأحكام سيفه وسنانه، ذو الصفات التي أشرق بها بدر الملك وشمس الخلافة، والحكم الذي جرى القضاء على طبقه فلم يستطع أحد خِلافه. والهمم التي أضحت الأماني دون منتهاها صرعى، ورجعت

---

(١) الشعر لأبي منصور الخوافي (عبدالله بن سعد) المتوفى سنة ٤٨٠ هـ (نزهة الألباء / ٣٦٠).

(٢) في نزهة الألباء (سآخذ في متون الأرض) و (عبر الليالي).

(٣) في نزهة الألباء (وبسطت عذري). وفي ك (فاما للثرى) و (امّا للثريّا) وفي أ (والهلال) مكان (والمعالي).

الأوهام عن تخييل أدناها ضائقة به ذرعا، والبسالة التي وقفت الفرسان عندها، والإيالة التي عمَّ ذكرها البلاد هندها وسندها، فما الغيث الوابل إلاّ مكتسب من بعض هباته، وما اللّيث الصائل إلاّ متنسب إلى وثباته وثباته.

سَلْ عنه وانطِقْ به وانظر إليه تَجِدْ   مِلءَ المسامعِ والأفواهِ والمُقَلِ[1]

ظل الله سبحانه على عباده، وأمينه الذي دارت الأفلاك على مدار مراده.

ملكٌ إذا ازدَحَم الملوكُ بمَوْرِدٍ   ونحاهُ لا يَرِدْونَ حتى يَصدُرا

ملكٌ يروقُكَ خَلقُه أو خُلْقُه   كالرَّوضِ يَحسنُ مَنْظراً أو مَخبَرا

أنْدى على الأكبادِ من قَطْرِ النَّدى   وألذُّ في الأجْفانِ من سِنَةِ الكرى

قَدَّاحُ زَند المجدِ لا يَنْفكُّ من   نار الوغى إلاَّ إلى نَارِ القِرى[2]

حاوي الخلافة كابراً عن كابر، فخر المفاخر والمآثر والمنابر، الإمام العادل والهمام الباذل، الواثق والمعتضد بالله شاهنشاه عبدالله بن محمد قطب شاه.

في كلِّ يومٍ مَجده عجبٌ   وكلِّ ليلٍ لنا من ذِكرِه سَمَرُ

سَقى به اللهُ دُنيانا فأخصَبَها   والعدلُ يَفعلُ ما لا يَفعلُ المَطَرُ

ما أنصَفَتْ مجدَه نُظّامُ سيرَتِهِ   إنَّ الذي سَتَروا فوقَ الذي سَطَروا

لا زال النصر محدقاً بأعلامه المنيفة في كلّ حين، والظفر تالياً على مسامعه الشريفة آيات الفتح المبين.

فلم يسع الوالد إلاّ امتثال أمره المطاع، والانقياد لحكمه الذي لا يطاق ردّه ولا يستطاع. فدخل الديار الهندية في السنة المقدم ذكرها، وزفت إليه من المعالي عوانها وبكرها، وقابله مولانا بمزيد الاحترام، وأكرمه بما هو أهله من

---

(١) البيت من قصيدة لابن شرف القيرواني (محمد بن سعيد) المتوفي سنة ٤٦٠ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٥٥).

(٢) الأبيات من قصيدة طويلة لأبي بكر محمد بن عمار المهري الأندلسي المقتول سنة ٤٧٧ هـ (أنوار الربيع ١/ ٢٧٦).

الإجلال والإكرام. فمهّد له في فنائه موضعاً، وأحلّه من سمائه مطلعاً، ولم يزل يلحظه بعين عناياته، وينشر عليه من العزّ أرفع راياته، ويفصّل له من الشأن مجمله، وينجح له من المعالي ما أمّله، حتى اختاره لمصاهرته، واجتباه لمؤازرته، فأملكه ابنته الطاهرة، وملّكه نعمه الباهرة الزاهرة، فأصبح وقد مدَّ العزُّ عليه رواقه، وألقى شراشره[1] وأوراقه، وأثمر غصن أمله بنجحه، وتبلّج أُفق مرامه بصبحه، وكان عرساً[2] أظهر مولانا السلطان به أيده، وأبدى فيه ما لم يبده المهديّ في أعراس الرشيد بزبيدة، ولم يكتحل مدته جفن بوسن، ولم يحتفل احتفاله المأمون لبوران بنت الحسن. حشر له البادي والحاضر، وأشرقت به المحافل والمحاضر، فقال الأديب الشيخ جابر الجوازري[3] مؤرخا هذا الزواج الميمون الازدواج:

أقبلَ السعدُ يُهنّي سيّداً من خير آلِ
هاشميًّا أحمديَّ الـ خَلْقِ محمودَ الخِصالِ
قال بُشراكَ فأرِّخ ما قَضاهُ ذُو الجَلالِ
زوَّجوا شمسَ المَعالي منكَ يا بدرَ الكَمالِ[4]

استطراد:

ذكر صاحب تحفة العروس[5] قال: أخبرنا أبو ياسر البغدادي قال:

---

(١) ألقى عليه شراشره، أي ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبة، وقيل ألقى عليه أثقاله اعتماداً عليه.

(٢) العرس (بالضم): طعام الوليمة.

(٣) لعله من العراقيين المستوطنين الهند، والجوازري نسبة إلى الجوازر أحد بطون قبيلة الجبور العراقية (عشائر العراق ٣/ ٨٨).

(٤) تضمن هذا البيت تاريخ الزواج بحساب الجمّل وهو سنة ١٠٥٩ هـ.

(٥) هو كتاب (تحفة العروس ونزهة النفوس) في علم الباه لأبي عبدالله محمد بن أحمد التجاني. في هدية العارفين ٢/ ١٤٢: فرغ منه سنة ٧١١ هـ وفي معجم المطبوعات ١/ ٦٥٠: كان حياً سنة ٧١٠ هـ.

وليمتان في الاسلام لم يكن مثلهما ولا يكون. فالأولى وليمة الرشيد عند دخوله بزبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، كانت أواني الذهب تملأ من الفضّة، وأواني الفضة تملأ من الدنانير وتدفع إلى وجوه الناس.

ويقال إنّ العود الهندي إنّما فضّل على العود القماري في هذه الوليمة لأنّهما امتحنا فوجد الهندي أطيب وأبقى في الثوب.

قال أبو ياسر: كانت النفقة في هذه الوليمة من بيت خاصة المهدي سوى ما أنفقه الرشيد خمسين ألف ألف دينار.

والثانية وليمة المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل. قال أبو الفرج: لما خطبها المأمون استعدّ لها استعداداً يجلّ عن الوصف، وخرج المأمون إلى فم الصّلح[1] في سنة عشر ومائتين فأملك بها، وفعل الحسن في هذه الوليمة ما لم يفعله ملك في الجاهلية ولا الإسلام:

نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع، وأسماء جوارٍ، وتعيين صِلات وغير ذلك من كلّ شيء نفيس. فكان إذا وقع شيء من ذلك في يد من نثر عليه فتحه وتوجّه فاستوفى قبض ما فيه. ثم نثر بعد ذلك على عامة الناس الدنانير والدراهم، ونوافج المسك، وقطع العنبر، وأقام الوظائف والنفقات لجميع ما اشتمل عليه عسكر المأمون لكلّ رجل على قدره. ويقال: إنَّ العسكر اشتمل على ستة وثلاثين ألف ملاّح.

قال أبو الفرج: لما جليت بوران فرش لها حصير من ذهب، وجيء بإناء مملوء درًّا فنثر على الحصير، وكان فيمن حضر من النساء زبيدة بنت جعفر، وحمدونه بنت الرشيد وغيرهما من بنات الخلفاء، فلم تلقط واحدة منهنَّ شيئاً من الدرّ. فقال المأمون: أكرمنها بالتقاطكنَّ، فمدت كلّ واحدة يدها وأخذت واحدة، وبقي الدر على الحصير الذهب، فقال المأمون: قاتل الله الحسن ابن

---

(١) فم الصلح (بكسر الصاد) نهر كبير فوق واسط عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون، وفيه بنى المأمون ببوران بنت الحسن (معجم البلدان).

هاني[1] كأنه كان حاضراً حيث قال في صفة الخمر:

قامَتْ تُريني وأمرُ اللَّيل مجتمعٌ صُبحاً تولَّدَ بين الماءِ والعِنَبِ
وكأنَّ صُغرى وكُبرى من فَواقعها حَصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذَّهبِ[2]

قال أبو ياسر: وأوقد تلك الليلة شمعة عنبر وزنها ثمانون رطلاً، فأنكر المأمون ذلك وقال: هذا سرف، فأمرت زبيدة برفعها وقالت: هاتوا الشمع المستعمل. قال: وسأل المأمون زبيدة عما أنفقه الحسن فقالت: بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين، فبلغ ذلك الحسن فقال: أو كانت النفقة على يدها؟ والله لقد حصرتها فكانت ثمانين ألف ألف.

قال: وأقامت البغال وعدَّتها أربعة آلاف تنقل الحطب قبل الوليمة أربعة أشهر، وفي أثناء الوليمة أحوجهم الحطب فكانوا يوقدون الكتان عوضاً عن الحطب.

قال الطبري: ودخل بها الليلة الثالثة من وصوله فم الصِّلح، فلما جلس معها نثرت عليهما جدَّتها ألف درّة، فأمر المأمون بجمع الدرّ وقال: كم هو؟ فقالت ألف حبّة، فأخذه ووضعه في حجرها وقال: هذا نحلتك وسلي حوائجك، فقالت لها جدَّتها: كلّمك سيّدك فكلّميه فقد أذن لك، فسألته الرضا عن ابراهيم بن المهدي[3] لأدبه، فقال: قد فعلت.

ويقال: أنه لما أُدخلت عليه وأراد غشيانها حاضت فقالت «أتى أمر الله فلا تستعجلوه»[4] فنام في فراش آخر، فلما قعد للناس من الغد، دخل عليه

---

(١) هو أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ هـ (أنوار الربيع ١/ ٣٧).

(٢) (فواقعها) كذا ورد في الأصول وديوان أبي نواس، والفواقع جمع الفاقعة: الداهية، والصواب (فقاقعها) جمع فقّاعة (بتشديد القاف) وهي نفاخة الماء والشراب، والبيت من شواهد مغني اللبيب لابن هشام (الشاهد ٦٢٢) وفيه (من فقاقعها).

(٣) هو ابراهيم بن محمد المهدي وعم المأمون بويع بالخلافة بعد قتل الأمين، فأهدر المأمون دمه، ولما تمكن منه عفا عنه. توفي سنة ٢٢٤ هـ (الأعلام ١/ ٥٥).

(٤) الآية الأولى من سورة النحل.

[أحمد بن يوسف] الكاتب[1] وقال: يا أمير المؤمنين هنّاك الله بما أخذت من الأمر باليمن والبركة، وشدّة الحركة، والظفر في المعركة، فأنشده المأمون[2]:

فارسٌ ماضٍ بحَرْبتِه صادقٌ بالطَّعنِ في الظُّلَمِ
رام أن يُدمي فَريسَتَه فاتَّقتهُ من دَمٍ بدمِ

وأكثرت الشعراء في هذا الإملاك، وأستطرف منها قول [ابن] حازم الباهلي[3]:

بارَكَ اللهُ للحسَنْ ولبورانَ في الخَتَنْ
يا ابنَ هارُونَ قد ظَفِرْ تَ ولكنْ ببنتِ مَنْ

فلما نمى إلى المأمون قال: والله ما ندري أخيراً أراد أم شرًّا.

وكان اسحاق يقول: ما رأيت في الملوك مثل المأمون، ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً وعقلاً وأدباً وفضلاً، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه، ولم تزل في صحبة المأمون إلى أن توفي عنها سنة ثمان عشرة ومائتين، وعاشت بعده إلى سنة إحدى وسبعين ومائتين وعمرها ثمانون سنة.

ويحكى أنّ المأمون خلا بها يوماً فقال لها: غنّي، فغنت:

جعلتُكَ مُشتكى حَزَني ومُعتَصري على الزَّمن[4]
وجدتُكَ خائناً غَدِراً فيا أسَفي على بَدَني

---

(١) هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح وزير المأمون. توفي سنة ٢١٣ هـ (الأعلام ٢٥٧/١) في الأصول (يوسف بن أحمد) والصواب ما أثبته.

(٢) البيتان في وفيات الأعيان ٣٢/١ لأبي اسحاق الزجاج المتوفى سنة ٣١١ هـ.

(٣) هو محمد بن حازم الباهلي. في الأصول (أبي حازم) وهو وهم. ترجمته ومصادرها في أنوار الربيع ٨/٢ .

(٤) المعتصر: الملجأ المنيع، ورجل معتصر: جواد عند المسألة. في ك و أ (ومنتصري).

تريد ما كان من غدر المأمون بعمّها الفضل، فقال المأمون: قد كنت عن هذا غنيًّا لولا شقائي.

وعلى ذلك مما يذكر من عظيم حلم المأمون، أن الحسن بن سهل شرب معه يوماً فقال له المأمون: يا أبا محمد لعلكم تتوهمون أني قتلت الفضل بن سهل! والله ما قتلته، فقال الحسن: بلى والله لقد قتلته، فقال: والله ما قتلته، فقال: بلى والله لقد قتلته، (فقالها ثلاثاً والحسن يردّ عليه)[١] فقام المأمون من مجلسه فقال: أفٍّ لك، وانصرف الحسن إلى منزله، فاتّصل الخبر بمعلى بن أيوب، وغسّان بن عبّاد فصارا إلى الحسن وعذلاه على ما كان منه وقالا: اركب فاعتذر إليه، قال: والله لا ركبت إليه أو يبعث إليَّ، فصارا إلى المأمون فقال له غسّان: يا أمير المؤمنين نحن عبيدك، وصنائعك، بك عرفنا وبخدمتك شرفنا، كنا أذلاَّء فرفعتنا، وكنّا عامّة فخصّصتنا، وكنّا فقراء فأغنيتنا، فاغفر خطيئة مسيئنا بمحسننا، فقال: ويلك ما أصنع به؟ حلفت له بالله ثلاثاً فكذَّبني ثلاثاً، فقال المعلّى: يا أمير المؤمنين آنسته فأنس، وساقيته فانتشى، فاغفر له هفوة نشوته فقال المأمون: يا غلام صِرْ إلى أبي محمد فقل له: إمّا أن تجيئنا، أو نجيئك. وللمأمون نوادر في الحلم والعفو، ومن كلامه: حبّب إليّ العفو حتى خشيت أن لا أُثاب عليه.

وهذا وإن كان خارجاً عن وضع الكتاب وغرضه لكن لا بدّ لكلّ واضع كتاب، ومؤلف معنى من اعتنان[٢] شيء ليس من جنس ما قصد له ولا ممّا أراد، بل يراه يحسن ذكره فيذكره ثم يعود، فلنعد إلى ما نحن بصدده.

وفي سنة ست وخمسين قلّد مولانا السلطان - خلّد الله ملكه - الوالد منصب عين الملك فأحلّه من علوّه في فَلك، ومن تيّاره في فُلك، فجنح الوالد إلى الإقامة بتلك الديار واستيطانها، والانتظام في سلك سكّانها وقطّانها، فمكث ثلاث عشرة سنة متبوّئاً من العيش أرغده وأحسنه، ثم رأى أن العود إلى

---

(١) سقطت الجملة التي بين القوسين من (ع) و (أ).

(٢) الاعتنان: الظهور، من اعتنَّ الشيء اعتناناً: اعترض وظهر أمامه.

مسقط رأسه ومنبت غرسه أمل قلّما أسعف بنيله نجح، أو تبلّج لليله صبح، فاستأذن مولانا السلطان - خلّد الله تعالى ملكه، وأجرى ببحار النصر فُلكه - في استدعائنا من المواطن الشريفة، ونقلنا إلى سدّته المنيفة، فأذن له فيما استدعى، وأسعفه بما أكّد عزمه على الاستدعا، فكشف عن وجه عزمه نقابه، وإذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه.

فجهّز إلينا وزيره المعتمد، وأمره بقطع هذه المدّة في أقرب أمد، فورد علينا والقلوب لوروده فزعة، والنفوس من وفوده جزعة، وما ذاك إلاّ لفراق تلك الديار الشريفة، والانتقال عن هاتيك الأقطار الوريفة، مع ما طبعت عليه النفوس من حبّ الوطن، والجزع لفقد السكن، وقد قيل: عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان، وكان يقال: ليس الناس إلى شيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم. وقيل: ميلك إلى موضع مولدك من كرم محتدك.

وقالت الحكماء أنّ من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة، وقال الشاعر[1]:

أحبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعَجٍ إليَّ وسَلمى أن يَصوبَ سَحابُها

بلادٌ بها عقَّ الشبابَ تَمائمي وأوّلُ أرضٍ مسَّ جلدي تُرابُها[2]

فراجعنا الوالدَ في فسخ هذا العزم الذي أبرمه، وإطفاء هذا الوجد الذي أضرمه، فلعلّ الله أن يمنّ بالاجتماع في أشرف البقاع، ويطوي مسافة البين من البين، فلن نعدم منه سبحانه كافياً.

وقد يجمعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعدما يَظنّانِ كلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا[3]

فلم تثن مراجعتنا له عزماً، ولم تغن إلاّ تصميماً وجزماً، فأعاد الجواب

---

(١) البيتان من قصيدة أوردها ياقوت في معجم البلدان (مادة منعج) معزوة لبعض الاعراب، وأوردهما النويري في نهاية الارب ٧/ ٢٩٨، ويراجع الزهرة ٢/ ٣٠٠ للوقوف على المصادر الأخرى.

(٢) عقّ الثوب: شقّه، وعق الرحم: قطعها. وفي معجم البلدان (حلّ الشباب تميمتي).

(٣) البيت لمجنون ليلى من قصيدته المسماة بالمؤنسة.

بالطلب. وحثّ على أن يكون إليه المنقلب، فلم نر بدًّا من الإجابة، كي لا نجيء الخطأ من باب الإصابة، فأخذنا في أهبة السفر، والاستعداد لما دهم به البين وظفر، ثم فارقنا تلك الأوطان مفارقة الأرواح للأبدان.

هذا جَناهُ أبي عليَّ وما جنيتُ على أحَدْ[1]

فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستّ خلون من شعبان المعظّم عام ست وستين وألف، وذلك بعد أن تملّيت[2] من تلك المآثر الكرام، وتلوت ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[3] فسرنا على اسم الله، والمودعون يزرّون الأعضاد على الأجياد، والمدامع تذري هواطل دمعها على أجياد[4] وقد أذن جمع الشمل بالانصداع، وعلمنا صدق قول القائل:

ما خلقَ اللهُ من عذابٍ أشدَّ من وقفةِ الوَداعِ

وعلى ذكر الوداع: حكى القاضي أبو بكر بن العربي: أنهم خرجوا لوداع حُجّ العراق فنظروا إلى فتى يتأمل الهوادج هودجاً هودجاً وهو كالذاهل إلى أن تعب وكلَّ فوقف وأنشد:

أحجاجُ بيتِ الله في أيِّ هَودجٍ وفي أيِّ خِدرٍ من خدُورِكُم حِبِّي

أأبقى رَهينَ الجسم في أرضِ غُربَةٍ وحاديكمُ يَحدو فُؤادي مع الرَّكبِ

فوا أسَفا لم أقضِ منكم لُبانَتي ولم أتمتَّع بالجِوار وبالقُربِ

يقولونَ هذا آخرُ العَهد بينَنا فقلتُ وهذا آخر العَهد من قَلبي

ثم رمى بنفسه إلى الأرض وجعل يقول:

خلِّ نارَ القلبِ تشتَعِلُ خلِّ دمعَ العَين يَنهمِلُ

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري (وفيات الأعيان ١/ ٩٦).

(٢) تملّيت: استمتعت.

(٣) سورة الأسراء / ١.

(٤) أجياد: جبل بمكة المكرمة، وهما أجيادان كبير وصغير، وهما محلتان بمكة.

كــلُّ ســرٍّ صــانَــه جَــلَــدٌ   فهــو يــومَ الـبَـيـنِ مُـبـتَـذَلُ

ثم خفَتَ فقلَبناه فوجدناه ميتاً[1].

وقريب من هذا ما حدّث الأصمعي عن يونس قال: بلغني أن قوماً جاءوا إلى ابن عباس بفتى محمول ضعفاً فقالوا: استشف لهذا، فنظر إلى فتىً حلو الوجه عاري العظام فقال له: ما بك؟ فقال[2]:

بنا من جَوى الأسقامِ والحبِّ لوعَةٌ

تَكادُ لها نفسُ الشَّفيقِ تَذُوبُ

ولكنَّما أبقى حُشاشَةَ ما تَرى

على ما بِهِ عُودٌ هناكَ صَليبُ

فقال ابن عباس: أرأيتم وجهاً أعتق، ولساناً أذلق، وعوداً أصلب، وهوىً أغلب ممّا رأيتموه اليوم؟ هذا شهيد الحبّ لا دية ولا قَوَد.

وفي هذا الفراق أقول من بعض أشعار الصِّبا، وهي كما قال شرف السادة[3]: التمر باللِّبأ[4]:

فارقتُ مكَّةَ والأقدارُ تُقحِمُني   ولي فؤادٌ بها ثاوٍ مَدى الزَّمنِ

فارقتُها لا رضىً منّي وقد شهِدَتْ   بذاكَ أملاكُ ذاكَ الحجْرِ والركُنِ

فارقتُها وبودِّي إذْ فرَقْتُ بها   لو كانَ قد فارقَتْ روحي بها بدني

وفيه يقول الأخ الأعز، المحرز من مكاسب الفضائل ما غلا وعز، أبو

---

(١) الحكاية في مصارع العشاق ٢/٢٤٦ مع اختلاف في السند، ورواية الأبيات وعددها.

(٢) الحكاية في الأغاني ٢٣/٣١٧ ومصارع العشاق ٢/٢٤٥، وفي الأول البيتان لعروة بن حزام وهو الفتى المحمول إلى ابن عباس. يلاحظ وجود اختلاف بسيط في رواية البيتين.

(٣) هو أبو الحسن محمد بن عبيد الله البلخي المعروف بشرف السادة. توفي سنة اربعمائة ونيّف وخمسين. (أنوار الربيع ٣/٣٤٧).

(٤) اللِّبأ (بكسر ففتح): أول اللبن في النتاج.

يَعلى محمد يحيى[1] لا زال به موات الفضل يحيا:

وبـاكـيَـةٍ لـمـصـاب الـنَّـوى وكم بالنَّوى من محبٍ قَتيلِ
ولـم أرَ مـثـلـيَ صـبًّـا غـدا بقَلبٍ حَزينٍ ودمع هَطُول[2]
وصـاحـوا الـفِـراقَ فـهـا أنـا ذا عزيزُ التأسّي كثيرُ العَويلِ[3]
وقـالـوا الـرَّحـيـل فـيـا لـيـتَـنـي عَدِمتُ حَياتيَ قبلَ الرَّحيلِ

وتمثل لسان الحال عند الارتحال بقول الشريق الوضيّ الشريف الرضيّ(*):

تزوَّدْ من الماءِ النُّقاخِ فلن تَرى بوادي الغَضا ماءً نُقاخاً ولا بَرْدا[4]
ونَلْ من نَسيم البانِ والرَّند نفحةً فهيهاتَ وادٍ يُنبتُ البانَ والرَّندا[5]
وعُجْ بالحِمى طَرفاً فلستَ بِرامقٍ طَوالَ اللّيالي ذلكَ العلمَ الفَرْدا
وكُـرَّ إلـى نـجـدٍ بـطـرفِـكَ أنّـه متى تَغْدُ لا تنظرْ عَقيقاً ولا نَجْدا[6]

ثم أدلج الحادي، وأنشدت تلك النوادي:

متّـع لـحاظَـكَ من خِلٍّ تـودِّعُـه فما إخالُكَ بعدَ اليوم بالوادي[7]

* * *

فوقفتُ حتّى ضجَّ من لَغَبٍ نِضْوي وعجَّ بعَذْليَ الرَّكبُ
وتـلـفَّـتَـتْ عَـيـنـي فـمُـذْ خَفِيَتْ عنّي الطُّلولُ تلفَّتَ القلبُ[8]

---

(١) هو أخو المؤلف لأبيه وأكبر منه سناً. توفي بالهند سنة ١٠٩٢ (سلافة العصر / ٣٦، وخلاصة الأثر ٣٩١/٣، ونفحة الريحانة ١٩٦/٤).

(٢) في ك (بدمع هطول وقلب غليل).

(٣) في ك (دعوا بالفراق فها أناذا).

(٤) الماء النقاخ: البارد العذب.

(٥) في الديوان (من نسيم الرند والبان).

(٦) في الديوان (متى يعد لا ينظر).

(٧) البيت في وفيات الأعيان ٣٦٥/٢ منسوب لابن نباتة السعدي.

(٨) البيتان للشريف الرضي، وفي الديوان (لجّ) مكان (عج).

فائدة:

ذكر جماعة من المفسرين وأهل الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لما خرج من مكة شرَّفها الله تعالى مهاجراً، وركب الناقة التفت إلى مكة مسكنه ومسكن آبائه وأجداده فظن أنّه لا يعود إليها ولا يراها بعد ذلك، فأخذته رقّة وبكى، فأتاه جبرئيل عليه السلام وتلا عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. فاستبشر عليه الصلاة والسلام وتوجه مسروراً. فمعاد على هذا من أسماء مكة المشرفة، وفسّر أيضاً بالجنة، وقلت على التفسير الأول:

أمعادُ هل يُفضى إليكِ مَعادي ... يوماً برغم مُعانِدٍ ومُعادِ

فأفوزَ منكِ بكلِّ ما أمَّلتُه ... ذُخراً لآخِرتي ويوم مَعادي

ولعمري أنّي لحريّ بقول العلامة الزمخشري[2]:

هو النَّفَسُ الصعَّادُ من كبَدٍ حَرَّى ... إلى أن أرى أمَّ القُرى مرَّةً أخرى

سَريتُ بشَخصي لا بقَلبي وهمَّتي ... وهَيهات ما لِلأخْشَبَينِ وللمَسْرى[3]

مُنيخانِ بالبَطحاءِ ما ذَرَّ شارِقٌ ... مُقيمانِ عند البيتِ ما وَلَّت الشِّعرى

عُكوفُهما في عاكفي البيتِ واصبٌ ... طَوافُهما بالطَّائفينَ بها يَترى

وما جاوَزَتْ بي أرضُ مكةَ أينُقي ... وقد لجَّ بي جَهد الصَّبابة واسْتَشْرى

فكيف إذا خلَّى الحجازَ وراءَنا ... وجِيفُ المَطايا يا لَها كبِداً حَرَّى

فإنْ حَدَّثتني بَعدُ بالسَّير مُعْنِقاً ... فلا رُزِقَتْ يُسراً ولا لَقِيتْ بُشرى

أأبتاعُ بالفَوز الشَّقاوة خاسِراً ... وأسْتَبدلُ الدُّنيا الدَّنيَّة بالأُخرى

إذا خَطَرَتْ بالبالِ ذِكرى إناخَتي ... على حَرم اللهِ اسْتَفزَّتْنيَ الذِّكرى

---

(١) سورة القصص / ٨٥ .

(٢) هو جارالله الزمخشري واسمه محمود بن عمر، توفي سنة ٥٣٨ هـ (معجم المؤلفين ١٢/١٨٦).

(٣) الأخشبان: جبلان بين مكة ومنى.

أكابدُ هَمًّا كاللَّيالي وحَسْرةً ... ودَمعاً غَزيرَ المُسْتَقى غائِرَ المَجْرى
وأدْعو إلى السُّلوانِ قَلباً جوابُهُ ... لداعِيهِ مهراقٌ من المُقْلة العَبْرى
وما عُذرُ مَطروحٍ بمكَّةَ رحلُهُ ... عَلى غير بُؤسٍ لا يَجُوعُ ولا يَعْرى
ويَرْحلُ عنها يَبْتَغي عِوَضاً بِها ... وحقِّكَ لا عُذراً وربِّكَ لا عُذرا

فسلكنا طريق اليمن الميمون، متوجهين نحو ذلك القطر المأمون، وسرينا نقتحم مهامه وقفارا، ولا نملك للدموع كفافاً ولا للقلوب نفارا، نجوب جيوب تلك الليلة الدهماء، ونخبط خبط عشواء في تلك الفلاة الهيماء، إلى أن أسفر الصباح، فنزلنا بحمى هنالك مباح، يقال له (البيضاء)، قد نشر من محله راية سوداء كأنّه لم يُنبت قطّ نجمة خضراء[1] فقِلْنا فيه ذلك اليوم، وهيهات أن يجنح طرف إلى نوم. وفي هذا المنزل أقول:

ولقد حلَلْتُ من المنازِلِ وادِياً ... مَحْلَ الجَوانبِ اسمُهُ البَيْضاءُ
فرَحلتُ عنه وقلتُ للرَّكب ارحَلوا ... عنه عليهِ الرَّايةُ السَّوداءُ

فارتحلنا منه إلى (السعديّة)، وتبوَّأنا ظلالها وإن كانت غير نديّة، وهي ميقات اليمن بحذاء (يلملم) وهو ميقاتهم الذي وقّته لهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، ومنها فارقنا المشيِّعون، وأخذوا يودِّعون، ويُودِعون القلوب من الوجد ما يودِعون، فعمَّ الغمُّ وشَمَل، وانقرف[2] جرح لم يكن اندمل. وما أحسن قول محمد بن [الحسن بن] عبد الله الزبيدي[3] من أبيات:

ما خلقَ اللهُ من عَذابٍ ... أشدَّ من وقفةِ الوَدَاعِ
ما بينَها والحِمامِ فَرقٌ ... لَولا المناجاةُ والنَّواعي[4]

---

(١) النجمة، واحدة النجم: ما نجم من النبات على غير ساق، وهو خلاف الشجر.

(٢) انقرف الجرح: انقشر بعد أن يبس.

(٣) توفي محمد بن الحسن الزبيدي سنة ٣٧٩ هـ (معجم المؤلفين ٩/١٩٨).

(٤) (المناجاة) كذا ورد في الأصول وهي رواية وفيات الأعيان ٤/٨ والوافي بالوفيات ٢/٣٥١، وجاء في معجم الأدباء ١٨/١٧٩ وبغية الملتمس /٥٦ وجذوة المقتبس / ٤٣ (المناحات).

أنْ يَفتَرِقْ شملُنا وشيكاً ... من بَعد ما كانَ ذا اجْتِماعِ

فكلُّ شَملٍ إلى افْتِراقٍ ... وكلُّ شَعبٍ إلى انْصِداعِ

وكلُّ قُربٍ إلى بِعادٍ ... وكلُّ وَصْلٍ إلى انقِطاعِ

وفي المنزل المذكور وقع بين بعض الخدم والمكارين كَلام أفضى بهم إلى جراحٍ وكِلام، فعطب من المكارين رجلان وكانوا نحواً من خمسين نفساً، فاستجاشوا[1] من حولهم من العرب، وأعولت الحرب بيننا وبينهم بالحَرَب، فانتدب لهم من الترك كلّ غلام لا يعرف إلاّ جاره، والعرب تخالهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة، فتفلّقت من الفريقين رؤوس وهام، بعصيّ وحجارة أغنت السيوف والسهام، وآلت الحال إلى قول من قال:

عِصيٌّ مكلَّلةٌ بالرؤوسِ ... ورؤوس مكلَّلة بالعِصِي

حتى حال بينهم الليل، فضعف منهم الحيل، وقد قال بعض الحكماء: من الخصال المذمومة في السفر سوء عشرة المكارين، وملاقاة الهوان من العشّارين، وعلى ذلك حدّث أبو بكر محمد بن المظفّر الساماني قال: ضجرت في بعض أسفاري من غلام لي استقصرته في خدمتي، وحضرني جرير الطبيب[2] فأنشدني:

أكرِم رَفيقَكَ حتى يَنقَضي السَّفرُ ... إنَّ الذي أنتَ مُوليهِ سينتشرُ

ولا تكنْ كلئامٍ أظهروا ضَجَراً ... إنَّ اللِّئامَ إذا ما سافَروا ضَجِرُوا

ويروى أنّ عمر بن الخطاب قال لرجل زكّى عنده رجلاً ليقبل شهادته: هل صحبته في السفر الذي يستدلّ به على مكارم الأخلاق؟ فقال: لا، فقال: ما أراك تعرفه.

وبالجملة فحسن الصحبة، ومكارم الأخلاق عموماً، وفي السفر خصوصاً من الأمور المحضوض عليها شرعاً وعرفاً وبالله التوفيق.

---

(١) استجاش فلان فلاناً: استثاره وطلب منه جيشاً ومدداً.

(٢) في ك (جرير الخطيب).

ثم ارتحلنا نقطع قفاراً ويباباً، ونفترع إكاماً وهضاباً، والنّوى تحدو بنا وتقود.

ولو قالَ لي الغادُونَ ما أنت مُشتهٍ   غداةَ جَزَعْنا الرَّملَ قلتُ أعُودُ[١]

وفي هذا السفر أقول من صدر قصيدة امتدحت بها الوالد:

سَريرةُ شَوقٍ في الهَوى من أذاعَها   ومُهجةُ صَبٍّ بالنَّوى من أضاعَها

أفي كلِّ يومٍ للبعادِ مُلمَّةٌ   تُلمُّ بنا لا نَستطِيعُ دفاعَها

فللّهِ جمعٌ فرَّقَ البينُ شَملَه   وإلفةُ صَحبٍ قد أبادَ اجتماعَها

وساعاتُ أُنسٍ كان لهواً حديثُها   سَقى اللهُ هاتيكَ اللّيالي وساعَها

ولا مثلَ لَيلى إذْ تبدَّتْ عَشيَّةً   مددتُ لها كفِّي أُريدُ وداعَها

وقد أقبلَتْ تُذري الدُّموعَ تلهُّفاً   إذا هتفَ الداعي إلى البَينِ راعَها

أشاعَتْ بنا أيدي الفِراق فأصبَحتْ   تؤمُّ بنا شُمَّ الذُّرى وتلاعَها

نجوبُ قِفاراً ما وقفنا بقاعِها   ونقطعُ بِيداً ما حلَلْنا بقاعَها

تميلُ بنا الأكوارُ ليلاً كأنَّنا   نَشاوى سُلافٍ قد أدَمْنا ارتضاعَها

إذا نَفحتنا نَسمةٌ حاجِريَّةٌ   أجدَّتْ وهاجَتْ للنُّفوسِ التياعَها

فمن مُهجةٍ لا يَستقرُّ قرارها   ومن كَبِدٍ نَخشى عليها انصِداعَها

تجاذبُنا فضلَ الأزمَّةِ ضُمَّرٌ   أهاجَ نزاعُ البَينِ وَجْداً نِزاعَها

نَقيسُ بها طولَ الفَلاةِ وعَرضِها   إذا هيَ مدَّتْ للمَسير ذِراعَها

ومن أحسن ما سمعت به في المسرى قول بديع الزمان[٢]، وعلاّمة همذان[٣] من قصيدة:

---

(١) البيت من قصيدة للشريف الرضي. جزع الرمل: قطعه عرضاً.

(٢) هو أحمد بن الحسين الهمذاني (بديع الزمان). توفي سنة ٣٩٨ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٤١).

(٣) في ك (وباقعة همذان).

لكَ الله من لَيلٍ أجوبُ جيُوبَه كأنّيَ في عَين الرَّدى أبَداً كحلُ [1]

كأنَّ السُّرى ساقٍ كأنَّ الكَرى طِلاً كأنَّا لها شَرْبٌ كأنَّ المُنى نَقْلُ

كأنَّا جِياعٌ والمطيُّ لنا فَمٌ كأنَّ الفَلا زادٌ كأنَّ السُّرى أكْلُ

كأنَّ يَنابيعَ الثَّرى ثديُ مُرضعٍ وفي حِجْرها منّي ومن ناقتي طِفْلُ

كأنَّا عَلى أُرجُوحَةٍ في مَسِيرنا بِغورٍ بنا يَهوي ونَجدٍ بنا يَعْلُو

ومن أحسن قوله منها في المديح:

كأنَّ فَمي قوسٌ لِساني له يَدٌ مَديحي لهُ نَزْعٌ به أمَلي نَبْلُ

كأنَّ دَواتي مُطفلٌ حبشِيَّةٌ بَناني لها بَعلٌ ونفسي لها نَسْلُ [2]

كأنَّ يَدي في الطِّرس غَوَّاصُ لُجَّةٍ له كَلمي دُرٌّ به قِيمَي تَغْلُو

وهذا الإمام المتقدم الذي صلّى الحريريّ خلفه، وأشار إليه في مقاماته بقول القائل[3]:

فلَو قبلَ مَبْكاها بكيتُ صبَابَةً بِسُعْدى شَفيتُ النَّفسَ قبلَ التندم

ولكن بكَتْ قَبلي فهيَّج لي البُكا بُكاها فقلتُ الفضلَ للمُتَقَدِّم

وعلى ذكر الحريري فما ألطف قول بعض الظرفاء الأُدباء، ونقلته من خطّ الصلاح الصفدي على هامش نسخة من المقامات:

لنا صَديقٌ هو في نَقلِهِ لكلِّ ذي أُكذوبَةٍ وارِثُ

فكلُّ ما ينقُلُه مثلَ ما قالَ الحَريري حَكى الحارِثُ

ولم نزل نقطع كلَّ فدفد، وقد نفد التجلّد أو كاد ينفد، حتى نزلنا بـ (الهضم)[4] وهو واد قفر يتبرّم منه السَّفْر.

---

(١) الأبيات في يتيمة الدهر ٤/ ٣٠٠ وأنوار الربيع ٣/ ١٣٠ وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) النقس (بالكسر): المداد الذي يكتب به.

(٣) البيتان في مقدمة الحريري على مقاماته (شرح الشريشي ١/ ٢٠).

(٤) قال ياقوت (الهضم): المطئن من الأرض، واسم موضع.

قفرٌ غدَتْ ريحُ السَّموم مُثيرةً   من أرضِهِ نَقْعاً إلى أُفق السَّما

فكأنّما صَعَد التُّرابُ ليَشتكي   ما يَلتقِيه إلى السَّماءِ من الظَّما

فمكثنا به يوماً لم نستطب فيه يقظة ولا نوماً، ثم ارتحلنا منه إلى (اللَّيث)[1] فألفيناه قد كشَّر عن نابه، وتحمَّلنا منه تالين ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾[2]. ثم أتينا على (ذكوان) منزل طاب لنا فيه الوقت والأوان، يشتمل على نخلات باسقة، وشجرات فاغية[3] متناسقة، وهو قريب من البحر، بينه بينه وبين السِّيف مسير ساعة مع عذوبة مائه وطيب هوائه.

يُزْهى بِبَرٍّ وبحرٍ من جَوانبِه   فالبرُّ من طَرَفٍ والبحرُ من طَرَفِ

وما يزالُ نَسيمٌ من يَمانِيةٍ   يأتيكَ منه بريًّا رَوضَةٍ أُنُفِ

وفيه كان أول مشاهدتنا للبحر الزاخر، والفلك الماخر، فهالنا من أمر البحر ما رأيناه، ووددنا إن لم نكن نراه ولا راءَيناه[4]. ولما اكتسى الجوّ ثوب الأصيل أخذ الركب في التقويض والرحيل، فما سرنا قليلاً حتى ضللنا الطريق، فتفرق لذلك جمع الفريق، فصار الطريق طريقين، والفريق فريقين، وكانت ليلة نجمها مغموم، وغيمها مركوم، فلم نزل نقطع تلك الفلاة اليهماء، ونخبط تلك الليلة الدهماء، حتى نشر الصبح راياته، وأرانا الله سبحانه آياته، فهدانا إلى (الوادين)[5] وهو أكرم الهادين، وهو المنزل الذي قصدناه، والموضع الذي أردناه، فالتأم به جمع القوم، وأقمنا به ذلك اليوم، وعلى ذلك قلت (من قصيدة مدحت بها الوالد)[6]:

---

(١) (اللَّيث) ضبطه البكري وياقوت بكسر اللام: واد بأسفل السراة، أو موضع بالحجاز، ويظهر أن المؤلف اعتبر الكلمة مفتوحة اللام فورّى بها عن الأسد.

(٢) سورة البقرة / ٢٨٦.

(٣) الفاغية: نَور الحناء، ونور كل ما له رائحة طيبة.

(٤) راءَيناه: قابلناه.

(٥) (الوادين) كذا ورد، وتقتضيه السجعة، وفي معجم ياقوت، الواديين (بياءين): بلدة في جبال السراة بقرب مدائن لوط، وباليمن من أعمال زبيد: كورة عظيمة.

(٦) الذي بين القوسين غير موجود في (ع).

كَم مَهْمهٍ جُبتُه بالسَّيف مُشتَملاً ... والعزمُ يكحلُ جَفْنَ العَين بالسَّهرِ

في لَيلةٍ قد أضَلَّتني غياهبُها ... حتى اهتَديتُ إلى دَيرٍ من الشَّعرِ[1]

بطَلعةٍ كضِياءِ الشَّمسِ غُرَّتُها ... ونَفحةٍ حَمَلتْها نسمَةُ السَّحَرِ

فَظَلْتُ والليلُ تُغريني كواكبُهُ ... أُراقب الفجر من خوفٍ ومن حَذَرِ[2]

وفي الكَنائسِ مَن هام الفؤادُ بها ... تَرنو إليَّ بطَرْفٍ طامِح النَّظرِ

فأقبلَتْ وتجارَيْنا معانَقَةً ... كأنَّنا قد تَلاقَينا على قَدَرِ

حتى بدَتْ غرَّةُ الإصباحِ واضحةً ... وطُرَّة اللَّيلِ قد شابَتْ من الكِبَرِ

ثم انْثَنينا ولم يُدْنِسْ مضاجِعَنا ... إلاَّ بَقايا شَذاً من رِيحها العَطِرِ

فاستَعْجلَت تُحْكِم الزُنَّارَ عُقدتَه ... وتسحبُ الذَّيلَ من خوفٍ على الأثَرِ

واستقبلَتْ ديرَ رُهبانٍ قد اعتكفُوا ... يُزَمْزِمُونَ بألحانٍ من الزُّبُرِ

ثم ارتحلنا فأتينا على (دَوْقَه)[3] وقد بلغ الجهد من كلّ منا طوقه، وهي أرض قفراء، وحَرَّة زوراء[4].

ثم ارتحلنا منها إلى (الحسَبَة)[5] ومامّنا إلاّ والأين قد لسَبَه، فنزلنا بها للاستراحة، وهيهات مع تعب البين راحة.

ثم نهضنا عنها،

نُمزِّقُ جلبابَ الظَّلام كما فَرى ... أخُو الحُزنِ ما نالَتْ يَداه من البُردِ

وقدعَبَّ في كأسِ الكرى كلُّ راكبٍ ... فمالَ نَزِيفاً والجيادُ بنا تَرْدي

---

(١) في الديوان (إلى بيت من الشعر).

(٢) في الديوان (الصبح) مكان (الفجر).

(٣) دوقه (بفتح الأوّل وسكون الثاني): موضع بأرض اليمن، وقيل: واد على طريق الحاج من صنعاء إذا سلكوا تهامة.

(٤) الحرَّة (بالفتح): الأرض ذات حجارة نخرة سود. فلاة زوراء: بعيدة.

(٥) الحسبة (بالتحريك): واد باليمن.

وحلَّ عِقالَ الوَجْد شَوقٌ كأنَّه   شَرارةُ ما يَرْفَضُ من طَرَفِ الزَّنْدِ
وأوْقرَ أجْفاني دُموعٌ نَثرتُها   عَلى مَحْمِلي نثرَ الجُمانِ من العِقْدِ

فلم نزل بين إدلاج وتأويب، وإيجاف وتقريب، وقد طوينا تلك المراحل، وقطعنا هاتيك المفاوز المواحل.

فَكَمْ من نَهارٍ ضَمَّ قِطْرَيْه سَيرَنا   يذوبُ الحَصى من جَزْعِه في لَهِيبِهِ
وليلٍ طَوَيناهُ ولِلرَّكبِ طَرْبَةٌ   إذا غَبَّ نجمٌ جانِحٌ في مَغِيبِهِ

إلى أن جئنا (القُنْفُذة) وقد أنفذ فينا البين ما أنفذه، وهي قرية بالقرب من (حَلْي)[1] على ساحل البحر، ويقال: أنها كانت في القديم فرضة مكة المشرفة بها ترسي جميع السفن الواردة من جميع الأقطار، ثم أُهملت وجعلت الفرضة (جُدَّة) - بضم الجيم - على ما في القاموس، والعامة تقول: جدة (بكسرها) وهي على مرحلتين من مكة شرّفها الله تعالى. وفي القاموس، الجداد (بالضم): ساحل البحر بمكة، كالجدة، وجدة: موضع منه[2].

فائدة:

في سنة سبع وتسعمائة غُرّق القاضي أبو السعود بن ابراهيم بن ظهيرة[3] في بحر القنفذة المذكورة بأمر والي مكة المشرفة: الشريف بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان[4]، وكان السبب في ذلك أنه لما توفي الشريف هزّاع أخو الشريف المذكور، وكان والي مكة غير منازع، وكانت وفاته خامس عشر رجب الأصم من السنة المذكورة، تولى بعده أخوه أحمد الجازاني بمساعدة القاضي المذكور، وربّما أمدّه بنفقة وسلاح وغير ذلك.

---

(١) حلي (بوزن ظبي) مدينة باليمن على ساحل البحر.

(٢) في القاموس (لموضع بعينه منه).

(٣) هو أبو السعود محمد بن ابراهيم بن علي بن محمد بن أبي السعود. ترجمته في الضوء اللامع ٦/ ٢٦٤، والبدر الطالع ٢/ ٨٠ ، وشذرات الذهب ٨/ ٣٦، وفيه أنه أغرق سنة ٩٠٨ هـ.

(٤) توفي الشريف بركات سنة ٩٣١ هـ (سمط النجوم العوالي ٤/ ٢٧٩ - ٢٩٣).

فلما علم الشريف بركات بذلك سار إلى مكة المشرفة فدخلها منتصف شعبان من السنة المذكورة، ففرَّ منه الشريف أحمد جازان، واستقرّ بها الشريف بركات، ولم يقم له أحمد، وأخبر بما كان من القاضي فلم يكد يصدِّق به. ثم دخل عليه القاضي فأظهر غاية الفرح والسرور بقدومه، وأمره بتفريق جنده وقال له: لا حاجة لك إلى هؤلاء فإنّما هم كثرة نفقة، ففرَّقهم. فلما فعل ذلك كتب القاضي إلى الشريف أحمد يستقدمه، ويخبره بما تمَّ له من المكيدة، ووعده بالقبض على أخيه إذا هو وصل مكة في الحرم الشريف من غير مشقّة ولا كلفة، ويقال أنّ بعض خواص الشريف فعل ذلك مكيدة للقاضي فاستدرجه، وظنّ القاضي صداقته، ثم أخذ الكتاب منه ودفعه إلى الشريف بركات. فلما وقف عليه أرسل إلى القاضي المذكور وأوقفه على الكتاب فأنكره، وقد سبقت له ضغائن في قلبه، فأمر بالقبض عليه، واستصفى أمواله وسجنه عنده في بيته، وقيَّده وغلَّه، وعصر عليه بالعصّارات، وصادر ولده وأخاه سيد الناس في خمسة آلاف دينار وأطلقهما على ذلك. فبيعت ذخائرهم وكتبهم النفيسة، وانكسرت شوكتهم من ذلك اليوم، ولم تبق لهم باقية، وكانوا في عظمة لا يقوم بها الوصف.

ثم أرسل الشريف بالقاضي أبي السعود إلى القنفذة فسجنه بها وعياله وخاصته - وكلّ أحد يغضب عليه والي مكة ينفيه إلى القنفذة - ولم يزل مسجوناً بها إلى يوم الأحد ثاني ذي الحجة الحرام[1] فجاء أمر الشريف إلى والي القنفذة بتغريق القاضي وأن لا يراجعه في ذلك.

فأخرجه إلى البحر في زورق وغرَّقه فيه، وأولاده وعياله ينظرون إليه. فنسأل الله العافية. ولم يبق الآن من بني ظهيرة إلاّ الشاذ النادر، وكان لهم بمكة قبل أن يوقع الشريف بالقاضي المذكور من الأمر والنهي ما لا يقصر عن ملوكها، حتى أنّ بنتاً للقاضي المذكور قالت له: يا أبتي لم لا يعرض عليك العسكر كما يعرض على الشريف، لما رأت ما هم عليه من الشوكة والمنزلة.

---

(١) في ك، و أ (ذي القعدة)، وفي البدر الطالع (حادي عشر ذي الحجة).

وهذا قصارى الدنيا، وغاية كلِّ عُليا، والأيّام لا تلوي على أحد، ولا تألو أن تثلم كلَّ حدٍّ، وتفرّق كلَّ عدٍّ، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولله درّ من قال:

ونهايَةُ الدُّنيا وغايةُ أهلِها   مُلكٌ يزولُ وسترُ قَوم يُهتَكُ

تَحلو فتجلبُ غُصَّة ومرارَةً   وتُحَبُّ وهيَ بِنا تصولُ وتَفتِكُ

وتوفي الشريف بركات المذكور سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة.

وفي أيامه وأيّام ابنه أبي نُميْ انتقل ملك مصر إلى ملوك بني عثمان، وذلك في سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، فأول من ملكها منهم وهو عاشرهم السلطان سليم بن السلطان بايزيد[1] فجهّز إلى الشريفين المذكورين قاصداً بالاستقرار والاستمرار وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، وغلط من قال سنة تسع وعشرين. فكان السلطان المذكور أول من ملك الحرمين من آل عثمان.

وفي مفتاح الخير[2]: لا يملك الحرمين إلاَّ ملك مصر. وكانت مصر قبل أن يملكها السلطان سليم لقانصوه الغوري[3] فوقعت بينهما فتنة، وقصد كلّ منهما الآخر في عسكرين عظيمين، فالتقيا في موضع يقال له (مرج رابغ) من نواحي حلب شماليها مسافته منها نحو مرحلة، وكان المصاف والوقعة يوم الأحد خامس عشري رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة، وقيل: بل صبح يوم الخميس تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة. ودام الحرب وصابر الفريقان من أول النهار إلى ما بين صلاتي الظهر والعصر، ثم نزل نصر العثمانية، وانهزم الجراكسة، وقتل سلطانهم قانصوه المذكور، وفتح العثمانية البلاد الشامية، ثمّ المصرية، وكانت ولاية الغوري خمس عشرة سنة وتسعة

---

(١) هو سليم الأول بن بايزيد الثاني. تولى السلطنة بعد وفاة أبيه سنة ٩١٨ هـ وفي عهده انتقلت الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين. توفي سنة ٩٢٦ هـ. (دائرة المعارف الإسلامية ١٢/ ١٢١).

(٢) يراجع إيضاح المكنون ٢/ ٥٢٤.

(٣) هو قانصوه بن عبدالله الظاهري الغوري الملقب بالملك الأشرف. توفي سنة ٩٢٢ هـ (الأعلام ٦/ ٢٣).

أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وأوَّل من ملك مكة من الأشراف من بني حسن: أبو محمد جعفر بن محمد من بني موسى الجون[1] وكان ذلك بعد الأربعين والثلثمائة. وكان حاكم مكة انكجور التركي من قبل العزيز بالله الفاطمي، فقتله الأمير أبو محمد جعفر واستوت له تلك النواحي، وبقيت في يده نيفاً وعشرين سنة.

ثم ولي بعده أخوه[2] عيسى بن محمد، فقتل وولي الأمير أبو الفتوح الحسن بن أبي محمد جعفر.

ثم ولي بعده ابنه تاج المعالي شكر، واشتهرت عنه حكاية غريبة في الكرم، ومن شعره:

قوِّض خيامك عن أرض تضام بها وجانب الذلَّ إنَّ الذلَّ مُجتَنبُ[3]

وارحَلْ إذا كانَ في الأوطان مَنْقصةٌ فالمَنْدلِ الرَّطبِ في أوْطانه خَشَبُ

ولما توفي سنة أربع وستين وأربعمائة بقيت مكة شاغرة، فملكها حمزة بن وهاس[4] من بني سليمان، وقامت الحرب بينهم وبين بني موسى سبع سنين، ثم خلصت للأمير محمد بن جعفر بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن أبي هاشم، ويقال لهم: الهواشم، وبقيت الإمارة في ولده إلى سنة

(١) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض ابن الحسن المثنى. هكذا ساق نسبه ابن حزم في الجمهرة وقال (غلب على مكة أيام الأخشيدية).
أقول: والأخشيدية انتهى حكمها سنة ٣٥٧ هـ. أما إذا كانت تولية العلوي المذكور في زمن العزيز بالله الفاطمي - كما يقول المؤلف - فالعزيز تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٥ هـ. وإذا أردنا التوفيق بين الروايتين احتملنا وجود تحريف في كلمة (العزيز بالله) والمراد (المعز لدين الله). تراجع جمهرة أنساب العرب / ٤٧، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ٢/ ١٩٤، والقاموس الإسلامي ١/ ٤٧.

(٢) في شفاء الغرام (ابنه عيسى).

(٣) في (ك) و (أ): (يجتنب) مكان (مجتنب).

(٤) في شفاء الغرام ٢/ ١٩٢، وسمط النجوم العوالي ٤/ ٢٠٠ (حمزة بن أبي وهاس).

سبع وتسعين وخمسمائة فكان آخر من ولي منهم مكثر بن عيسى بن فليتة[1] فغلب عليه الأمير أبو عزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن[2] وقتله في السنة المذكورة، وملك الحجاز سيفاً وطرد عنها الهواشم، والإمارة في ولده إلى الآن، ويقال لهم القتادات، وأمير مكة في زمننا هذا السيد الشريف، والأيّد المنيف، المصدَّر في دست العظمة والجلالة، والمتفرّع من دوحة النبوّة والرسالة ذو الرياسة التي هي نار على علم، والسياسة التي جمع بها بين السيف والقلم، محيي آثار أسلافه الكرام، وواسطة ذلك العقد والنظام:

السيد الشريف زيد بن المحسن بن الحسين، أقرَّ الله ببلوغ مراده النفس والعين. وليها وهي جمرة تخترم، ونار تضطرم، فأخمد نيرانها، وأمن جيرانها. وكانت ولايته سنة إحدى وأربعين وألف، وله من العمر سبع وعشرون سنة. وقد أرّخ القاضي الفاضل، والإمام النحرير الكامل تاج الدين بن أحمد المالكي[3] ولادته بـ (تاج الشرف)، وولايته المنيفة بـ (صدر الخلافة) ولعمري أنّه التاج المكلّل بلآلئ المجد والشرافة، والصدر الذي امتلأ علماً وحزماً، وبأساً ورأفة، وفيه يقول:

مدائحُ زيدٍ تُكسبُ القولَ رَونقاً ... فيسمُو على زُهر الكَواكبِ والزَّهرِ

مليكٌ به أقطارُ مكّةَ أصبَحَتْ ... مؤرَّجةَ الأرجاءِ نافحةَ العِطْرِ

نمَتْ في رياض المُلكِ سَرحةُ فرعِهِ ... وأفْضى إليه مُلكُ آبائِه الغُرِّ

فمن ذا يُوفِّي قدرَهُ حقَّ حَمدِهِ ... وأوصافُه جلَّت عن العدِّ والحَصرِ

وحسبيَ هذا القولُ في كُنهِ مَدحِهِ ... عن البَسطِ في النَّظم المهذَّبِ والنَّثرِ

---

(١) رآه الرحالة ابن جبير وأورد اسمه في عدة مواطن من رحلته، يراجع فهرس الرحلة طبع دار صادر ببيروت.

(٢) قتادة بن ادريس: هو أيضاً من أولاد موسى الجون الحسني، كانت ولايته لمكة سنة ٥٩٨ هـ ودامت إلى أن توفي سنة ٦١٧ هـ أو ٦١٨ (شفاء الغرام ٢/ ١٩٩).

(٣) توفي القاضي تاج الدين المالكي سنة ١٠٦٦ هـ (أنوار الربيع ١/ ٥١) ويراجع كتاب نفحة الريحانة ٥/ ٣٥٠ (الفهرس).

فلستُ بمُحْصٍ عدَّ أوصافه ولو   صرفتُ على مَدحي له سائرَ العُمرِ

وهذا نسبه الشريف:

هو زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نُمي بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن ابن عجلان بن رميثة بن أبي نمي بن الحسن بن علي الأكبر بن أبي عزيز قتادة بن ادريس بن مطاعن ابن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن أبي محمد عبدالله بن محمد الثائر بن موسى ابن عبدالله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن المجتبى ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه.

نَسَبٌ يُعيرُ الشّمسَ نوراً ظاهِراً   ويُقيمُ للفَلكِ المُنيرِ عَمُودا

ولنعد إلى ما نحن بصدده:

ولما أنخنا بالقرية المذكورة الركائب، وحططنا الحقائب مكثنا بها أيّاماً نجوس خلالها هياماً، حتى أهاب داعي النّفر بالسَّفر، وأذنت الحال بالارتحال، فجنحنا إلى ذلك البحر المتقارب، وامتطينا غارب القارب، فلما أقلعت السفينة عن المرسى، ودجى ليل الهموم وأغسى[1] وجعلت تطير بلا جناح، يقودها القضاء المبرم وتزجيها الرياح، كأنّها سهم فارق وتره، أو حكم أمضى الله قدره، ترتفع تارة وتنخفض أُخرى، وتميس طوراً كأنّها لا تعقل سُكرا. وما ألطف قول أبي الحسين يحيى بن عبد العظيم الجزار[2] في وصفها من أبيات:

أنظرُ الموجَ حولَها فأخال الـ   جيمَ تاءً لخيفَتي وهي جيمُ

لم أجدْ لي فيها صَديقاً حَميماً   غيرَ أنّي بالماءِ فيها حَميمُ

شَنَقوا قِلْعَها مِراراً على الرِّيـ   ـحِ ولا شَكَّ أنّه مَظلومُ[3]

---

(١) أغسى: أظلم.

(٢) توفي أبو الحسين الجزار سنة ٦٧٩ هـ وقيل غير ذلك (أنوار الربيع ١/٢١٣).

(٣) القلع (بالكسر): شراع السفينة.

يسجدُ الجُرفُ كلَّما رَكعَ المَوْ ... جُ فحَسْبي هنالِكَ التَّسلِيمُ

وتلطَّف [أبو] علي بن رشيق[1] حيث يقول:

ولقد ذكرتُكِ في السَّفينة والردى ... مُتوقِّعٌ بتَلاطُمِ الأمْواجِ

والجوُّ يَهطِلُ والرِّياحُ عواصِفٌ ... والليلُ مُسوَدُّ الذَّوائبِ داجِ

وعلى السَّواحلِ للأعادي غارةٌ ... مُتوقِّعينَ لغارةٍ وهِياجِ[2]

وعلَتْ لأصحابِ السَّفينةِ ضجَّةٌ ... وأنا وذكرُكِ في ألذِّ تَناجِ

وفي المعنى للعلامة أبي حيان[3]:

لَقَدْ ذكرتُكِ والبحرُ الخِضَمُّ طغَتْ ... أمواجُهُ والوَرى منه على سَفَرِ

في ليلةٍ أسدَلَتْ جِلبابَ ظُلْمتِها ... وغار كوكبُها في أعيُنِ البَشَرِ[4]:

والماءُ تحتَ وفوقَ المُزْنِ وأكفُهُ ... والبرقُ يستَلُّ أسْيافاً من الشَّررِ

هذا وشخصُكِ لا ينفَكُّ في خَلَدي ... وفي فؤادي وفي سَمعي وفي بَصري

وهذه الطريقة أوّل من أبدعها عنترة العبسي[5] في قوله:

ولقد ذكرتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ ... منّي وبيضُ الهِندِ تقطرُ من دَمي

فوَدَدتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنَّها ... لمعَتْ كبارقِ ثَغرِكِ المتبسِّمِ

وأخذ المتأخرون وزادوا عليه فأكثروا، ووقفت على مقاطيع كثيرة في هذا الباب أحسنها ما تقدم لأبي علي بن رشيق.

---

(١) هو أبو علي الحسن بن رشيق صاحب العمدة (في الأصول: علي بن رشيق). توفي سنة ٤٦٣ هـ وقيل غير ذلك (أنوار الربيع ١/١٩٩).

(٢) في الديوان (يتوقعون) مكان (متوقعين).

(٣) هو أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (أبو حيان النحوي) توفي سنة ٧٤٥ هـ (أنوار الربيع ١/٣٥٨).

(٤) في الديوان (وغاب كوكبها).

(٥) عنترة العبسي: الشاعر الجاهلي المعروف، وأحد أصحاب المعلقات (أنوار الربيع ١/٣٦٧).

ثم لم تزل السفينة ترتفع بنا وتنخفض، وترتعش وتنتفض، وقد بلغت النفوس الحلاقم، وتجرّعت من البحر العلاقم، حتى شارفنا بقعة من الأرض، حقيرة الطول والعرض، فجنحنا إليها، ونزلنا عليها، وأرسينا بها ليلة، وقد عادت الحال حويله، ووددنا لو صار البحر دجيلة. فلما شعشع الصباح، أهاب بالسفينة داعي الرياح، فعُلِّق الشراع، وقد راع من فراق البقعة ما راع ثم غدونا نخوض تلك اللُّجج، ونخاطر بالمهج، حتى أشرفنا على بندرجازان[1]، فقصدنا النزول به فلم يوافق أهل السفينة لاغتنامهم موافقة الريح، ويقال: إنّ بحر ساحله مغاص يخرج منه اللؤلؤ، لكنه ليس بجيِّد، وقد يقذف البحر إليه العنبر.

ومن الغريب ما استفاض خبره في زماننا هذا: إنّ البحر كان قد ألقى إلى ساحل البندر المذكور قطعة عظيمة من العنبر لم يهتدِ إلى معرفتها أحد، وظنوها صخرة، فكان الغسالون يغسلون عليها الثياب. ومضى على ذلك برهة من الزمان، حتى جاء بعض تجار زماننا البندر، وأسلم ثياباً له غسالاً ليغسلها، فذهب بها الغسال إلى تلك الصخرة فغسلها عليها، وجاء بالثياب إلى التاجر، فعرف منها رائحة العنبر، وسأل الغسال هل طيَّب هذه الثياب؟ قال: لا، قال: فأين غسلتها؟ قال: على صخرة على الساحل، قال: فاذهب بي إليها، فذهب به فلما رآها علم أنّها غنيمة عظيمة، فتركها ثم جاءها ليلاً واقتلعها على حين غفلة، فلما أصبح الغسالون فقدوا الصخرة، فأخبرهم الغسال بما كان من أمره مع التاجر، فعلموا أنّ لها شأناً، فذاع الخبر ونمي إلى الوالي فصادر التاجر حتى أظهر منها قطعة صغيرة، وصالحهم على شيء من المال واحتوى على سائرها، فعظم شأنه وكان هذا العنبر سبب غناه، والله المغني.

وقد اختلف في أمر العنبر فقيل: إنه ينبت في البحر وله رائحة ذكيّة. قال الشافعي: سمعت من قال: رأيت العنبر نابتاً في البحر مثل عنق الشاة، وقال: حدثني بعضهم أنّه ركب البحر فوقع إلى جزيرة فيه، فنظر إلى شجرة

---

(١) جازان موضع في طريق الحج من صنعاء.

مثل عنق الشاة فإذا ثمرها عنبر، قال فتركناه حتى يكبر فنأخذه، فهبّت ريح فألقته في البحر.

وقيل: إنّه روث دابة، وقيل: إنّه من غثاء البحر.

قال الزمخشري: سمعت ناساً من أهل مكة يقولون: هو من زبد البحر، وقيل: إنّه يأتي طغاوة على الماء لا يدري أحد معدنه، فلا يأكله شيء إلاّ مات، ولا ينقره طائر إلاّ بقي منقاره فيه، ولا يقع عليه إلاّ نصلت[1] أظفاره فيه، وقيل: إنّ بعض دواب البحر تأكله لدسومته فتقذفه رجيعاً، فيوجد كالحجارة الكبار يطفو على الماء فتلقيه الريح إلى الساحل.

وذكر المسعودي: إن العنبر يقذفه البحر كأكبر ما يكون من الصخور.

وقال ابن سينا: أجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق، ثم الأصفر، ثم الأسود، قال: وكثيراً ما يوجد في أجواف السمك الذي تأكله وتموت. والدابة التي تأكله تدعى: العنبر.

قال المختار بن عبدون[2]: العنبر حار يابس وهو دون السمك، وهو يقوّي القلب والدماغ، ويزيد في الروح، وينفع من الفالج، واللّقوة، والبلغم الغليظ، ويولّد الشجاعة. لكنّه يضرّ من اعتاده، وتدفع مضرّته بالكافور وشمّ الخيار، ويوافق الأمزجة الباردة الرطبة، والمشايخ. وأجود ما يستعمل في الشتاء، قال: وجماجم العنبر أكبرها ألف مثقال، تبرز من عيون في البحر وتطفو عليه، وله زهومة[3] لابتلاع السمك، ويتصفّى منه عند عمله رمل.

والذي حقّقه صاحب الاختيارات: إنّه شمع، قال: وكلّما كان أشدّ بياضاً

---

(١) نصلت - هنا - بمعنى ثبتت.

(٢) هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون، الطبيب المشهور بابن بطلان. في تاريخ وفاته أقوال منها سنة ٤٤١ و ٤٤٤ و ٤٦١ هـ (هدية العارفين ٢/ ٤٢٢، ومعجم المؤلفين ١٢/ ٢١٠).

(٣) الزهومة: الدسومة، وريح لحم دسم منتن، والزهم (بالضم): الطيب المعروف بالزباد.

وخفّة كان أجود. والعنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التّراس، ويقال للترس: عنبر، وقد يقال لهذه السمكة: البال.

قال القزويني: البال: سمكة طويلة، طولها خمسمائة ذراع أو أطول، ويظهر في بعض الأوقات طرف جناحها كالشراع العظيم. وأهل المراكب يخافون منها أعظم خوف، فإذا أحسّوا بها ضربوا لها بالطبول لتنفر عنهم. فإذا بغت على حيوان البحر بعث الله سمكة نحو الذراع تلصق بأذنها ولا خلاص للبال منها، فتطلب قعر البحر وتضرب الأرض برأسها حتى تموت وتطفو على الماء كالجبل العظيم، ولها أناس يرصدونها من تحت الريح، فإذا وجدوها طرحوا فيها الكلاليب وجبذوها[1] إلى الساحل، وشقوا بطنها واستخرجوا العنبر منها[2]، انتهى.

قلت: ولهذه السمكة حديث عجيب رواه البخاري وهو مشهور[3]. والسمك أنواع كثيرة، ولكلّ نوع اسم خاص، ومنها ما لا يدرك الطرف أولها وآخرها لكبرها، وما لا يدركها الطرف لصغرها، وكلّه يأوي الماء ويستنشقه كما يستنشق حيوان البرّ الهواء بالأنوف، ويصل بذلك إلى قصبة الرئة. والسمك يستنشق بأصداغه فيقوم له الماء في تولّد الروح الحيواني في قلبه مقام الهواء، وإنما استغنى عن الهواء في إقامة الحياة ولم نستغن نحن عنه وما أشبهنا من الحيوان، لأنّه من عالم الماء والأرض دون عالم الهواء ونحن من عالم الماء والأرض والهواء - قاله الدميري في حياة الحيوان الكبرى - وهو صريح في أن الهواء لا يدخل جوفه. وقال أيضاً لا يدخل جوفه هواء البتّة.

وفي المسائل الطبيعية للحكيم أرسطا طاليس ما يدلّ على خلاف ذلك، فإنه قال: ما بال السمك يعيش في الماء، فإذا خرج منه إلى الهواء تلف؟ لأن

---

(١) جبذ، كجذب: وزنا ومعنى.

(٢) في دائرة معارف القرن العشرين ٧٥٦/٦ بحث عن منشأ العنبر وخواصه لا يخلو من فائدة.

(٣) أنظر البخاري ٢١١/٥ باب (غزوة سيف البحر).

قلب السمك بارد جدًّا فلذلك يحتاج إلى نفس قليل يجتذبه بمجار ضيّقة، والماء لكونه أغلظ فما يصل إلى نفسه في تلك المجاري من الهواء شيء يسير، فإذا برد الهواء فما يصل إلى نفسه أكثر، لأنه ألطف، فإذا برد الهواء في قلبه برداً مفرطاً تلف، انتهى. وهذا صريح في أن الهواء يدخل جوفه، والله أعلم بالواقع.

وقال الجاحظ: السمك يسبح في غمر الماء ولا يسبح في أعلاه، ونسيم الهواء الذي يعيش به الطير لو دام على السمك ساعة قتله.

واستثنى الغزالي نوعاً لا يضرّه الهواء، قال: ومن السمك نوع يطير على وجه البحر بمسافة طويلة ثم ينزل.

قلت: وقد رأيت أنا هذا السمك الطيّار على وجه البحر. وما أحسن قول ابن التلميذ[1] يصف السمك:

لَبِسنَ الجَواشِنَ خوفَ الرَّدى وعلَّيْنَ مِن فوقهنَّ الخُوَذْ

فلمّا أُتيحَ لها أَهْلَكَتْ بِبَرْدِ النَّسيم الذي يُسْتَلَذّْ[2]

وسنذكر جملة من أخبار البحر وعجائبه فيما يأتي إذا أفضت النوبة إليه إن شاء الله تعالى.

رجع - وما زالت السفينة تنساب بنا انسياب الحيَّة حتى وصلنا بندر (اللحيَّة)[3] فامتطينا صهوة الزورق، وظننا أنّ غصن الخلاص قد أورق ونزلنا البندر المعمور، فألفيناه بكلّ خير مغمور، وفيه من أنواع الفواكه ما يلتذّ به كلّ

---

(١) هو أبو الحسن أمين الدولة هبة الله بن صاعد، المعروف بابن التلميذ. توفي سنة ٥٦٠ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٩٣).

(٢) ورد البيت في طبقات الأطباء / ٣٦٠ هكذا:

فلما أتاها الردى أهلكت بشمّ نسيم الهوا المستلذ

(٣) قال في نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف (لابن زبارة الصنعاني) ٢/ ٩٦ (اللحية، بضم اللام الثانية، تصغير اللحية، وهي مدينة مشهورة بتهامة اليمن. وجاء في معجم البلدان: حيّة، بلفظ الحية من الحشرات: من مخاليف اليمن.

مُفاكه، فما ظنك بسقيم بحرٍ ناقه، من موز كمكاحل الذهب، ورطب كظَلْم الحبيب إذا وهب، وأعناب كالدرر المسلوكة، وحلاوات كالدنانير المسبوكة. فقضينا به يومنا، واستطبنا فيه نومنا. وكان فيه أول مشاهدتنا للكفرة أولي الجحيم، فاستعذنا بالله تعالى من الشيطان الرجيم. ولم يكن يقع النظر قبل ذلك على أحد ممّن هو على غير ملّة الإسلام - عصمنا الله بهدي صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام - وحاولنا المرسول إلينا، والموكّل علينا في السفر من البرّ، فقد سئمت النفوس مكابدة ذلك البحر الأغبر[1] فأبى إلاّ السفر على الماء، وامتطاء تلك المطيّة الدهماء. فعدنا وفي النفوس من الألم ما الله سبحانه به أعلم. وما ألطف قول القائل:

البحرُ أهونُ من مَرارةِ مائِه　　أن تَستقِرَّ بأضلُعي الرَّمضاءُ

فعلَيهِ يومَ مَضيفِنا بفراقِهِ　　من كلِّ قِلْعٍ رايةٌ بَيضاءُ[2]

وما كان منعه من ذلك إلاّ فراراً من الانفاق، وخلافاً للوفاق. وكان ممن يرى دخول النار، ولا خروج الدينار، ووصال الهمّ، ولا فراق الدرهم.

الشمسُ أقربُ من دينارِ صُرَّتِهِ　　والصَّخرُ أندى يداً منه لطالبِهِ

وأبدع البديع في وصف بخيل فقال: قد جعل يمينه أمينه، ودنانيره سميره، ودرهمه شقيقه، ومفتاحه رفيقه، وصندوقه صديقه، وخاتمه خادمه. وبالغ من قال وتلطّف[3]:

إنَّ هذا الفَتى يصونُ رَغيفاً　　ما إليه لناظرٍ من سَبيلِ

فهو في سُفرتينِ من أدَمِ الطَّا　　ئفِ في جَوْنَتينِ في مِنْديلِ[4]

---

(١) في ك (البحر الأخضر).

(٢) ضاف الرجل: أسرع، وفر. ضاف وأضاف: مال، وخاف. القلع (بالكسر): شراع السفينة.

(٣) البيتان في نهاية الارب ٣/ ٣١٠ بدون عزو.

(٤) الجونتان تثنية الجونة (بالفتح): الخابية المطلية بالقار. في نهاية الارب (الطائف في سلتين من زنبيل).

وكان بعضهم شديد العناية بأمر المال كثير الضنّ به، فإذا قيل له في ذلك أنشد:

كلُّ النِّداءِ إذا نادَيتُ يَخذِلُني إلاَّ النِّداءَ إذا ناديتُ يا مالي

وكان المبرِّد يقول: الدرهم ذو جناح إن حرّكته طار، والدينار محموم إن أزعجته مات.

ومن كلام الكندي لابنه: إنّ مالك إذا خرج من يدك لم يعد إليك، وليس كان مثل يكون. ومثل الدرهم مثل الطير هو لك ما دام في يدك، فإذا طار فهو لغيرك. وأعرف بيتاً قد أبات أكثر من مائة ألف إنسان في المساجد، وهو قول القائل[1]:

فَسِرْ في بلادِ اللهِ والتَمِس الغنى تعِشْ ذا يَسارٍ أو تموتَ فتُعذَرا

فاحذر بنيَّ أن تلحق بهم، وتكون منهم. ولتكن مع الناس كلاعب الشطرنج تحفظ شيئك وتأخذ بشيء غيرك.

وكان هذا الرجل إذا صار الدرهم في يده خاطبه وناجاه، وفدّاه واستبطاه وقال: بأبي أنت وأمي كم من أرض قطعت، وكيس خرقت، وكم من خامل رفعت ومن رفيع بمفارقتك إيّاه أخملت. لك عندي ألاّ تعرى ولا تضحى، ثم يلقيه في كيسه ويقول: أسكن على بركة اسم الله في مكان لا تزول عنه ولا تزعج منه.

ومن نوادر البخلاء ما حكاه محمد بن أبي المعافى التميمي قال: كان أبي منتحياً عن المدينة، وكانت إلى جنبه مزرعة فيها قثّاء، وكنت صبيًّا قد ترعرت، فجاءني صبيّان من جيراننا، وكلّمت أبي ليهب لي درهماً أشتري به قثّاء، فقال لي: أتعرف حال الدرهم؟ كان في جحر جبل، فضرب بالمعاول حتى استخرج، ثم طحن، ثم جعل في القدر وصب عليه الماء، وجمع

---

(١) البيت من قطعة لعروة بن الورد مثبتة في ديوانه، ووردت في العقد الفريد ٣/ ٣١ منسوبة لربيعة بن الورد وهو تحريف، وأوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار ١/ ٢٤٣ بدون عزو. تراجع ترجمة عروة بن الورد ومصادرها في أنوار الربيع ٦/ ٢٢٧.

بالزئبق، ثم أدخل النار فسُبك، ثم أخرج فضُرب، وكتب في أحد شقّيه: لا إله إلا الله، وفي الآخر: محمد رسول الله، ثم وُجّه إلى أمير المؤمنين فأمر بإدخاله بيت ماله، ووكّل به عوج القلانس صهب السبال[١]، ثم وهبه لجارية حسناء وأنت والله أقبح من قرد، أو رزقه رجلاً شجاعاً وأنت والله أجبن من صِفْرِد[٢]، فهل ينبغي لك أن تمسّ الدرهم إلاّ بثوب، أو تراه إلاّ من بُعْدٍ؟

وفي الحديث: إنّ أوّل من ضرب الدينار والدرهم حين استخرج المعادن آدم (ع) وقال: لا تصلح المعيشة إلاّ بهما.

وذكر وهب بن منبّه[٣]: إنّ في التوراة: الدينار والدرهم خواتيم رب العالمين، من جاء بخاتم ربّ العالمين قضيت حاجته.

وكان أنوشروان يقول: من زعم أنّه لا يحبّ المال فهو عندي كاذب حتى يصدق، فإذا ثبت صدقه فهو عندي أحمق.

وكان الحصين يقول: وددت لو أنّ لي وزن رضوى ذهباً لا أنتفع منه بشيء، قالوا: فما يجدي عليك إذن؟ قال: تعظمني له حمقى الرجال. وقال محمود الوراق[٤]:

أرى كلَّ ذي مالٍ يُبَرُّ لماله وإن كان لا أصلٌ هناك ولا فصلُ

فشَرِّفْ ذوي الأموالِ حيثُ لَقِيتَهُمْ فقولُهم قولٌ وفعلُهمُ فِعلُ

وتلطّف الشيخ الفاضل شرف الدين يحيى بن عبد الملك العصامي[٥] من

---

(١) الصهب (بالضم) جمع الأصهب، وهو الذي يخالط بياضه حمرة. السبال جمع السبلة (محركة): مجتمع الشاربين، ويريد بهم الجند.

(٢) الصفرد (بكسر الصاد والراء وسكون الفاء): طائر من خشاش الطير يضرب به المثل في الجبن.

(٣) وهب بن منبّه: من التابعين توفي سنة ١١٤ هـ (الأعلام ٩/ ١٥٠).

(٤) هو محمود بن الحسن الوراق توفي في حدود المائتين والثلاثين هجرية (طبقات ابن المعتز /٣٦٧، ونهاية الأرب للنويري ٣/ ٨٨ ، وفوات الوفيات ٢/ ٥٦٢).

(٥) توفي شرف الدين العصامي سنة ١٠٧٤ هـ (أنوار الربيع ٢/ ١٨٢).

فضلاء العصر حيث يقول:

إنَّ الـــدَّراهـــمَ مَـــرْهـــمٌ   قـد جـاءَ فـي تَـصـحـيـفِـهـا
فـدَعِ الــتـــطــيُّـــرَ قــائــلاً   الــهــمُّ بــعــضُ حــرُوفِــهــا

ثم سرنا ليالي وأياماً نلاطم تلك الأمواج لطاماً حتى وافينا جزيرة (كمران) - بفتح الأحرف الثلاثة -[1] وهي جزيرة محيط بها البحر، إلاّ أن ماءها في غاية العذوبة، وبها مسجد عظيم، وأشجار وفواكه، وإليها ينسب الملح الكمراني الذي لا يوجد مثله في غيرها، وهو لا يستعمل إلاّ دواء لشدَّة ملوحته، ينفع لأمراض كثيرة، ولا يدانيه شيء من أقسام الملح في نقاوته وصلابته. وفيها مدفن الشيخ الكبير الشهير محمد بن (عبد ربّه)[2] المشهور بالورع والزهد، وضريحه بها من المزارات المشهورة. قال اليافعي: تفقه على الشيخ أبي اسحاق الشيرازي في بغداد بكتاب المهذب، وهو أوّل من دخل به إلى اليمن. وقال ابن سمرة: كانت النواخيذ[3] وأهل الجلالات يأتون للسلام عليه، ويقبلون رأسه وهو قاعد، وكان كثير الزهد والورع متحرّياً في المطعم، لا يأكل إلاّ الأرز من بلاد الهند، وكان عبيده يسافرون إلى الحبشة والهند ومكة للتجارة، فحصلت له أموال، فكان ينفق على الطلبة منها. وله تصنيف في أُصول الفقه سمّاه الإرشاد، وارتحل إليه خلائق من فقهاء اليمن من بلدان شتى لعلمه وجوده. وكان له ولد عالم بعلم الكلام والأصول، مع تبريز في الفقه يسمى عبدالله تفقّه بأبيه ومات قبله في سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، ودفن بالجزيرة المذكورة، فرثاه بعض فقهاء اليمن بقصيدة طويلة يقول في بعضها:

أمِنْ بعدِ عبدالله نَجلِ مُحمَّدٍ   يصونُ دموعَ العَينِ من كان مُسلِما

---

(١) جزيرة كمران: باليمن قبالة زبيد.

(٢) (عبد ربه) كذا ورد في الأصول، وفي مرآة الجنان لليافعي ٣/ ٢٤٢ (عبدويه).

(٣) النواخيذ، والنواخذة جمع الناخذاة، أي صاحب السفينة (فارسي معرب). في مرآة الجنان (كانت أهل التوحيد) مكان (كانت النواخيذ).

وقد غاضَ بحرُ العِلم مذ غابَ شَخْصُهُ ولكنَّ بحرَ الوَجدِ من بَعدِه طَما

قال اليافعي: وكان الشيخ المذكور قد ابتليَ بذهاب البصر، فقال عند ذلك مخاطباً نفسه:

وقالوا قد دَهى عينيكَ سوءٌ فلو عالجتَه بالقَدْح زالا
فقلتُ الربُّ مُختَبِري بهذا فإنْ أصبرْ أنَلْ منه الجَلالا[1]
وإنْ أجزَعْ حُرمتُ الأجرَ منه وكانَ خَصِيصَتي منه الوَبالا
وإنّي صابرٌ راضٍ شَكورٌ ولستُ مُغيِّراً ما قد أنالا
صنيعُ مليكِنا حَسَنٌ جميلٌ وليسَ لصُنعِه شيءٌ مِثالا
وربِّي غيرُ متَّصِفٍ بحَيفٍ تَعالى ربُّنا عن ذا تَعالى

وتوفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بجنب ولده، وقبراهما هنالك بجنب المسجد يزورهما الصالحون وغيرهم، والله أعلم.

ولم نُقم في هذه الجزيرة إلاّ نصف نهار حتى عدنا إلى اقتحام التيار واستلام ذلك الفلك السيَّار. فسرنا والبحر المديد دائرته مختلفة، ولم نرَ مع وافر دوائره دائرة مؤتلفة، والسفينة قد اشتملت بشراعها الصماء، وتشاممت[2] وهي كما قيل: أنف في السماء وأُست في الماء، فلم نزل كذلك حتى جئنا (بندر الحديدة)، وقد أبدى فينا السأم أيده، فألفيناها عامرة بالخيرات، غامرة بالميرات، وفيها من أنواع الرطب ما يلهي عن استماع الخُطب، ومن أقسام النُّوار ما يسلِّي الفرزدق عن النَّوار، فعلمنا أنّ تصغيرها ليس للتحقير، بل يعذب اسم الشيء بالتصغير، فأقمنا بها ثلاثة أيام حتى قضينا منها المرام.

ثم أقلعنا منها للمسير مستبشرين بأن لم يبق من التّعب إلاّ اليسير، وإن

---

(١) في ك (النوالا) مكان (الجلالا) والمثبت موافق لرواية اليافعي.

(٢) يقال: اشتمل الصمّاء، إذا جَلَّل جسده كلّه بالكساء. تشاممت: تظاهرت بالشمم، أي الارتفاع.

كنّا مع أعظم من هذا على وعد، ولكن المشيئة لله فيما بعد. فرحنا نكابد الأهوال، ونقاسي حؤول الأحوال، إلى أن أسفر الصبح عن ثاني شهر رمضان المعظّم فوافينا (المخا)[1] معدن الأمن والرَّخا، وألفيناها عارية إلاّ من الإيناس. خالية إلاّ من كرام الناس، فكأن أوّل من تلقّانا فيها ببشره، وهفا علينا بطيب خلقه ونشره: واليها الباسق في دوحة النبوّة غصنه النضير، المشرق في فلك الفتوّة بدره المنير، الخافقة رايات عزّه وسعده، الثابتة آيات فخره ومجده، ذو الأخلاق التي دلّت على طيب الأعراق، والمكارم التي انعقد عليها الإجماع والاتفاق، من لم يزل العزّ الباذخ به يهيم مولانا السيد زيد بن علي بن ابراهيم[2]:

له صحائفُ أخلاقٍ مهذَّبَةٍ   منها العُلى والنُّهى والمجد يُنْتَسخُ

لا زالت الأقلام لمدائحه ناظمة ناثرة، وآيات فواضله في سائر الأقطار سارية وسائرة. ولعمري أن الأطناب في نشر مزاياه الشريفة عليَّ دين، ولكن لست بقائل فيه إلاّ ما قاله نادرة بأخرز[3] في السيد الرئيس ذي المجدين[4].

(لو ذهبت أصف ما تلقّانا به من تشريف وتقريب، وأهّلنا من تأهيل وترحيب، لخرجت من شرط هذا الكتاب، واستهدفت من ألسنة النقّاد لسهام العناد. أمّا الأدب فمنه وإليه، ومعوّل أرباب الصناعة عليه، وأمّا الخلق فكما يقتضيه الإسلام، وكأنّه منتسخ من أخلاق جدّه عليه السلام، وأمّا الجاه فمسلَّم له غير منازع فيه، وأمّا المحلّ فسُلَّمٌ لا يسلم من الزلل مرتقيه، وأمّا السياسة فقد ألقت إليه الأرسان، وأمّا الرئاسة فقد فرشت له رفرفها الخضر وعبقريّها الحسان).

---

(١) المخا: من مدن اليمن الساحلية، سيعود المؤلف إلى ذكرها ووصفها.

(٢) ترجم له المؤلف في سلافة العصر / ٤٧٧، وعنه نقل المحبي في نفحة الريحانة ٣/ ٤١٠، والشرواني في حديقة الأفراح / ١٣٠. كان حياً سنة ١٠٦٨ هـ.

(٣) هو أبو الحسن الباخرزي (علي بن الحسن) صاحب دمية القصر المتوفى سنة ٤٦٧ هـ - (أنوار الربيع ١/ ٨١).

(٤) هو أبو القاسم علي بن موسى الموسوي. ترجم له الباخرزي في الدمية ٢/ ١٦٩ كان حياً سنة ٤٦٨ هـ.

وهذا مكان غرر من كلماته، ودرر من حصياته تلوح عليهما سيماء النبوّة، وتحيط بحواليهما سيماء المروّة.

أخبرني شيخي الأفضل، وأستاذي الأكمل، مجمع الفضائل والآداب، ومرجع الأفاضل في كلّ باب، الشيخ جعفر كمال الدين البحراني[1] بلّغه الله غايات الأماني، قال: اجتمعت بالسيد المنوّه باسمه في البندر المذكور سنة ثمان وستين - فأنشدني لنفسه:

وَلي عَتْبٌ على قَومٍ أساءوا   مُعامَلتي وسامُوني اغْتِرارا

جَنَوا عَمْداً وما راعُوا حُقُوقاً   وما اعْتَذروا وسامُوني صَغارا

سَأضرُب عنهم صَفْحاً وأُغضِي   مَخافةَ أن أقلِّدَهُم شَنارا

ولو أنّي رَكبتُ مُتونَ عَزمي   إذنْ لسَقَيْتُهم مُرًّا مِرارا

ولو أنّي هَمَمْتُ بأخذِ حقّي   لولَّوْني ظُهورَهُم فِرارا

قلت: وعندي أنّ الملح الأُجاج لو مزج بمجاج هذه الأبيات لعاد عذباً، والسيف الكهام لو سنَّ على هذا الكلام لصار عضباً.

قال شيخنا المذكور: وسألني أن أقول شيئاً يناسب المقام فقلت:

لَكَ العُتبى ومنكَ الصَّفحُ يُرجى   إذا لم تستَبِنْ مِنهُم وَقارا

وإنْ هُم قد جَنَوْا عَمداً وجَهلاً   وما راعَوا وما طَلَبوا اعتِذارا

فإنَّ البدرَ لا يَثْنِيه شيءٌ   مِن العَجْما ضُباحاً أو جُؤارا[2]

وأنتَ على أذاهُم ذو اقتدارٍ   عَليٌّ إنْ تُسامى أو تُبارى

فطِبْ نَفساً فكلُّهم ذَليلٌ   لعزَّتكَ اختياراً واضطِرارا

---

(١) توفي جعفر كمال الدين بحيدر آباد سنة ١٠٨٨ هـ (لؤلؤة البحرين / ٧٠ ، وأنوار البدرين / ١٢٨ ، وأعيان الشيعة ١٦/ ٦١).

(٢) الضباح (بالضم) صوت الأرنب والثعلب والبوم. في سلافة العصر / ٤٤٨ (صباحا) مكان (ضباحا). الجؤار: الاستغاثة، ورفع الصوت بالدعاء.

ومما يدوَّن من عظيم حلمه، وحسن خلقه وخيمه[1] ما شاهدته منه، وذلك أنّي كنت مسايراً له يوماً في موكبه، فاعترضه رجل مصري من زهاة الناس، فدنا منه حتى أخذ بركابه وقال: أيها الوالي، أنا منذ أربعة أشهر في بلدك ولم ينلني منك شيء، ولم تتفقد لي حالاً، فقال السيد: وما علمي أيّها الرجل بمكانك، ولم تتعرف إلينا فنعرفك، ولا جئتنا فنصلك، على أنّي لم أرك إلاّ في ساعتي هذه، فقال الرجل: والله ما ظننت أنّ مثلك لا يعرف الداخل ببلده والخارج منها، وإنْ لم تتلافَ الأمر طلعت إلى الإمام وشكوتك إليه. وزاد في الكلام حتى أفحش، والسيد مع ذلك صاغ إليه، مبتسم من كلامه. فلما انتهى إلى بيته استدعاه ووصله بشيء وصرفه.

وهذا مستحيل الكون في زماننا معدوم مفقود، بل الضدّ منه هو ما تحلَّى به رؤساء العصر وأظهروه من أخلاقهم، والله الموفق.

ومما جاء من تحلّم الرعاة والرؤساء وكظمهم عن الزهاة السفهاء ما يحكى: أنَّ طائفة من الناس كانوا على عهد المعتضد[2] يجتمعون بباب الطاق[3] ويجلسون في دكان شيخ صيدلاني، ويخوضون في الفضول والأراجيف، وفنون الأحاديث، وفيهم قوم سراة، وكتّاب، وأهل بيوتات، سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس. وقد تفاقم فسادهم وإفسادهم، فضاق المعتضد ذرعاً، وامتلأ غيظاً، وحرج صدره، ودعا بعبيد الله بن سليمان[4] ورمى بالرفيعة[5] إليه وقال: أنظر فيها وتفهَّمها. ففعل وشاهد من تربُّد وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره، وشرَّد إلف صبره وقال: قد فهمت

---

(١) الخيم (بالكسر): السجية، والطبيعة.

(٢) المعتضد، هو الخليفة العباسي واسمه حمد بن طلحة. توفي سنة ٢٨٩ هـ (العالم الإسلامي ٢/٦٧).

(٣) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد القديمة.

(٤) هو عبيد الله بن سليمان بن وهب الحارثي وزير المعتضد توفي سنة ٢٨٨ هـ (الأعلام ٤/٣٤٩).

(٥) الرفيعة: القصة المرفوعة إلى الحاكم وهي كالعريضة. في ك، و أ (الرقعة).

يا أمير المؤمنين. قال: فما الدواء؟ قال: تتقدم بأخذهم، وصلب بعضهم، وإحراق بعضهم، وتغريق بعضهم، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشدّ، والهيبة أتمّ، والزجر أنجع، والعامة بها أخوف. فقال المعتضد: والله لقد برّدت لهب غضبي بقسوتك هذه، ونقلتني إلى اللّين بعد الغلظة، وحضضت على الرفق من حيث أشرت بالخُرق، وما علمتُ أنّك تستجيز هذا في دينك وهديك وحلمك. ولو أمرتُك ببعض ما رأيتَ بعقلك وحزمك لكان من حسن المؤازرة ومبذول النصيحة، والنظر للرعيّة الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكفّ، وتبعثني على الحلم، وتحبّب إليَّ الصفح، وترغّبني في فضل الأغضاء على هذه الأشياء، وقد ساءني جهلك بحدود العقاب، وبما يقابل به الجرائر فيما يكون كفاءً للذنوب، ولقد عصيت الله بهذا الرأي، ودلّلتَ على قسوة القلب، ورقّة الديانة. أما تعلم أنّ الرعيّة وديعة الله عند سلطانها، وأنّ الله سائله عنها ولا يسألها عنه. ألا تدري أنّ أحداً من الرعيّة لا يقول ما يقول إلاّ لظلم لَحِقَه، أو لحقَ جاره، أو داهية نالته أو نالت صاحباً له. وكيف نقول لهم كونوا صالحين أتقياء مقبلين على معائشكم، غير خائضين في حديثنا، ولا سائلين عن أمرنا والعرب تقول في كلامها: غلب علينا السلطان فلبس فروتنا، وأكل خضرتنا، وحقّ المملوك على المالك معروف. وإنّما يُحتَمل السيّد على ضروب تكاليفه، ومكاره تصاريفه إذا كان العيش في كنفه واسعاً، والأمل فيه قويًّا، والصدر عليه بارداً، والقلب معه ساكناً. أتظنّ أنّ العمل بالجهل ينفع، والعذر به يتّسع؟ والله ما الرأي ما رأيت، ولا الصواب ما ذكرت.

وجّه صاحبك، وليكن ذا خبرة ورفق، ومعروفاً ببرٍّ وصدق حتى يتعرّف حال هذه الطائفة، ويقف على شأن كلّ واحد منها في معائشه ودخله، وقدر ما هو متقلّب فيه وإليه، فمن كان منهم يصلح لعمل فعلّقه بعمل، ومن كان سَيِّء الحال فصِلْه من بيت المال بما يعيد نَضِرة حاله، ويفيد طمأنينة باله، ومن لم يكن من هذا الرّهط، بل هو غنيّ ومكفيّ وإنما يخرجه إلى دكان هذا الرجل البطر والزهو فادع به، وانصح له ولاطفه، وقل له: إن لفظك مسموع، وكلامك مرفوع، حتى [إذا] وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك (لم

تجدك)[1] إلاّ في عرصة المقابر، فاستأنف سيرةً تسلم بها من سلطانك، وتحمد عليها عند أخوانك، وإيّاك أن تجعل نفسك عظةً لغيرك بعد أن كان عظة لك. ولولا أنّ الأخذ بالجريرة الأولى مخالف للسيرة المثلى لكان ما تراه تودُّ لو أنّك تسمعه قبل أن تراه.

فإنّك يا عبيد الله إذا فعلت ذلك فقد بالغت في العقوبة (وملكت طرفي المصلحة)[2] وقمت على سواء السياسة، ونجوت من الجور والمأثم في العاقبة.

قال: وفارق الوزير حضرة الخليفة، وعمل بما أمره به على الوجه اللّطيف، فعاد الأمر يرفّ بالسلامة العامة، والعافية التامة.

وتقدّم إلى الشيخ الصيدلاني برفع حال من يقعد عنده حتّى يؤاسَى إن كان محتاجاً، أو يصرف إن كان متعطّلاً، أو ينصح إن كان غُفْلا.

وهذا من أجلّ الكرم والحلم، وأعظم التدبير والحزم.

وفسّر عكرمة[3] قوله عزّ وجل ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[4] بأن السيّد هو الذي يغلب غَضَبَه حلمُهُ، وجهلَهُ علمُهُ. ولما نزل قوله تعالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[5] قال جبرئيل (ع): يا محمد، هو أن تحلم عمّن شتمك، وتعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك.

وكان الواثق في الخلفاء من المشتهرين بالحلم، المنتشر ذكرهم بالعفو وكظم الغيظ.

---

(١) في ك (فأخشى أن لا أجدك).

(٢) في ك (وسلكت طريق المصلحة).

(٣) عكرمة بن عبدالله مولى عبدالله بن عباس، من المتقدمين في علم التفسير. توفي سنة ١٠٥ هـ (الأعلام ٥/ ٤٣).

(٤) سورة آل عمران / ٣٩.

(٥) سورة الأعراف / ١٩٩.

كان المسدود[1] المغني هجاه ببيتين كانا معه في رقعة، وفي رقعة أُخرى حاجة له يريد أن يرفعها إليه، فناوله رقعة الشعر وهو يرى أنّها رقعة الحاجة، فقرأها الواثق فإذا فيها:

مِـنَ الـمَسـدُودِ فـي الأنـفِ إلـى الـمسـدُودِ فـي الـعَـيـنِ
أنـا طَـبـلٌ لـهُ شَـقٌّ فـيـا طَـبـلاً بـشَـقَّـيْـنِ

وكان في عين الواثق نقطة بيضاء، فلما قرأ الرقعة قال للمسدود: (غلطت بين الرقعتين فاحذر أن يقع مثل هذا عليك)[2] وما زاد على هذا القول شيئاً ولا تغيّر له عمّا كان عليه.

وفي بعض الخطب: ابسطوا أعنّة حلمكم واطلقوها، واحبسوا نوازي[3] غضبكم وأوثقوها، واحسنوا معاشرة من يجاملكم ويواصلكم، واتركوا معاشرة من يداخلكم ويغايلكم، ولا تمرّوا في الغيظ على غلوائكم، ولا تظهروا على أحد صولة جوركم واعتدائكم، واثبتوا على الكظم إن وجدتم قدماً، واقصدوا في المشئ إن كان طريقكم أمماً، وتجافوا عن ذنوب الأصدقاء، وتصامموا عن الكلمة العوراء ومما أنشد في هذا المعنى:

وعَوراءَ جاءَت من أخٍ فرددتُها بسالمةِ العَينَينِ طالبةً عُذرا
ولو أنّه إذْ قالَها قلتُ مثلَها ولم أعفُ عنه أو رَثَتْ بينَنا غِمرا[4]
فأغضيتُ عنه وانتظَرتُ بها غداً لعلَّ غداً يُبْدي لمُنتظرٍ أمْرا
لا نزَعَ حِقداً كامِناً في فُؤادِه وأُقلِمَ أظفاراً أطالَ بها حَفْرا

وما أحسن هذا الوصف[5]:

---

(١) هو أبو علي الحسن الملقب بالمسدود لانسداد أحد منخريه. بغدادي متقدم في الغناء (الأغاني ٢٠/ ٢٥٠).

(٢) في الأغاني (غلطت في الرقعتين فهات الأخرى وخذ هذه، واحترز من مثل هذا!).

(٣) النوازي، جمع النازية: الحدّة والبادرة.

(٤) الغمر (بالكسر): الحقد.

(٥) الشعر لودّاك بن ثميل المازني، يراجع سمط اللآلي للبكري ١/ ٥٤٤.

وأحلامُ عادٍ لا يَخافُ جَليسُهم   وإنْ نَطقَ العَوراءَ غربَ لسانِ[1]

إذا حُدِّثوا لم يُخشَ سُوءُ استماعهم   وإنْ حَدَّثوا أدَّوا بحُسنِ بَيانِ

رجع: وكان السيد المنوّه باسمه والياً على المخا من جهة إمام اليمن المتوكل على الله اسماعيل ابن القاسم الزيدي الحسني[2] وهو محتو على جميع اليمن في زماننا هذا غير منازع، وينتهي نسبة إلى ابراهيم طباطبا بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي (ع). وقد رأيت نسبه مثبتاً بخط يحيى بن الحسين بن المؤيد أخي الإمام اسماعيل المذكور، وها هو قد نقلته منه بنصّه فهو:

اسماعيل بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الملقّب بالأشل بن الإمام الداعي إلى الله[3] المنصور بالله يحيى بن الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين الحافظ بن الإمام الأعظم نجل آل الرسول القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه.

وفي العمدة[4]: أنّ يحيى الهادي بن الحسين الحافظ خطب له بمكة سبع سنين، وكان قد خرج باليمن أيام المعتضد سنة ثمانين ومائتين، وهذا يدلّ على بطلان ما نقلنا فيما تقدم عن مفتاح الخير من أنّه لا يملك الحرمين إلا ملك مصر.

وكان شيخنا الشيخ جعفر[5] اجتمع بالإمام اسماعيل المذكور، فأنشده

---

(١) البيتان في أمالي القالي ١/٢٣٨، والزهرة ٢/١١٩، ولم يرد في سمط اللآلي سوى البيت الأول وفي روايتهما اختلاف بسيط.

(٢) توفي الإمام اسماعيل بن القاسم سنة ١٠٨٧ هـ (البدر الطالع ١/١٤٦).

(٣) في البدر الطالع ١/٢٠٥ يأتي بعد الداعي إلى الله (يوسف الأكبر بن الإمام المنصور...).

(٤) يريد عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب. تراجع الصفحة ١٤٥ منه.

(٥) هو الشيخ جعفر بن كمال الدين، وقد تقدم التعريف به.

الإمام قول الشيخ تقيّ الدين ابن دقيق العيد[1] في مدح اليمن، وكتبه له بخطّه في تذكرته، وهو:

تـجادلَ أربـابُ الـفـضائِل إذ رأوْا بضاعَتَهم مَوكُوسَةَ الحظِّ في الثَّمن[2]

وقالوا عَرضناها فلم نُلفِ راغباً ولا مَن له في مِثلها نَظرٌ حَسَنْ[3]

فلم يبقَ إلاّ رفضُها واطِّراحُها فقلتُ لهم لا تَعجلوا السُّوق في اليَمنْ

قال مولانا الشيخ: فقلتُ مادحاً له لما رأيت من شغفه بهذه الأبيات بقولي وفيه لزوم ما لا يلزم:

نَـعـمْ قـد وجَـدنـاهـا فـإنْ كـنـتَ راغـبـاً
فَقِرنُ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن أبـي الـحـسَـنْ

أليفُ النَّدى بَحر الهُدى كاشِفُ الصدى
ومِـصْـقَـعُ أربـابِ الـبَـلاغـةِ والـلَّـسَـنْ[4]

وذاكَ الـذي قـد سِـيـطَ بـالـقـلـبِ حـبُّـه
كـمـا سِيطَ حبُّ الـنَّـوم بـالـعَـيـنِ والـوَسَـنْ

فائِدة: اليمن حدّه مما يلي مكة: الموضع المعروف بطلحة الملك سبع مراحل، ومن صنعاء إلى عدن وهو آخر عمل اليمن تسع مراحل [والمرحلة من خمسة][5] فراسخ إلى ستة، والحد الثالث[6] من حَكَمْ، وجا[7] إلى ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة، ويلي الوجه الثالث بحر اليمن وهو

(١) هو قاضي القضاة تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد، توفي سنة ٧٠٢ هـ. يراجع (أنوار الربيع ٢/ ٢٧٣).

(٢) موكوسة: منقوصة.

(٣) في الديوان، والطالع السعيد / ٥٩٥ (طالباً) مكان (راغبا).

(٤) الأصوب (أليف الهدى بحر الندى). في ك (أليف الندى ري الصدى قمر الهدى).

(٥) في الأصول (والمراحل من خمس فراسخ) وهو من أخطاء النساخ.

(٦) في مروج الذهب ٢/ ٨٩ (الحدّ الثاني).

(٧) في المصدر المذكور (من وادي وحا) مكان (من حكم وجا). وحكم (بالتحريك) مخلاف باليمن سمي باسم الحكم من سعد العشيرة. (جا): لم أجد له ذكراً.

بحر القلزم والصين والهند. فجميع ذلك عشرون مرحلة في ست عشرة مرحلة، كذا في مروج الذهب للمسعودي. وفي بغية المستفيد في أخبار زبيد[1]: اليمن يمنان، أعلى وأسفل، فالأعلى قصبته صنعاء وهي إحدى جنان الأرض وقصرها غمدان من أعظم العجائب الذي عمّره سام بن نوح عند بنائه صنعاء، وأمّا اليمن الأسفل فقصبته زبيد. انتهى ملخصاً.

قلت: وقد اختلف في العلّة التي من أجلها سمّي اليمن يمناً، فقيل: ليمنه، وقيل: لأنه يمين الكعبة، وقيل غير ذلك، وهو خلاف لا ثمرة فيه.

وأما غمدان فقد اختلف في بانيه، وفي القاموس (غمدان) كعثمان: قصر في اليمن بناه (ليسرح)[2] بأربعة وجوه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف، بين كل سقفين أربعون ذراعاً. وقيل أنّه من عمل الجنّ لسليمان (ع).

وفي مروج الذهب: إنّ بانيه الضحّاك، وهو البيت الخامس من البيوت المعظّمة المتخذة على أسماء الكواكب. قال: وكان الضحّاك بناه على اسم الزهرة، وخرّبه عثمان بن عفان، فهو في وقتنا هذا خراب قد هدم فصار تلاً عظيماً كأنّه لم يكن. وكان أسعد بن يعفر[3] صاحب قلعة كحلان، وصاحب مخاليف اليمن أراد أن يبني غمدان فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني الرسّي[4] أن لا يعرض لشيء من ذلك، إذ كان بناؤه على يد غلام يخرج من بلاد سبأ وأرض مأرب يؤثر في صقع هذا العالم تأثيراً عظيماً.

وقد قيل: إنّ ملوك اليمن كانوا إذا قعدوا في هذا البنيان بالليل، واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك على مسيرة أيّام كثيرة والله أعلم. وهو الذي

---

(١) مؤلفه: أبو عبدالله عبد الرحمن بن علي الشهير بابن الديبع الشيباني المتوفى سنة ٩٤٤ هـ (معجم المطبوعات ١/ ١٥٠، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٥٩).

(٢) كذا في الأصول، وفي حاشية القاموس وتاج العروس (ليشرخ).

(٣) هو أسعد بن يعفر الحوالي ملك اليمن توفي سنة ٣٣٢ هـ (الإكليل ٢/ ١٨٤).

(٤) إمام زيدي توفي سنة ٢٩٨ هـ (الأعلام ٩/ ١٧١).

عناه الشاعر[1] بقوله:

اشرَبْ هَنياً عليكَ التاجُ مُرْتَفِقاً   في رأغُمدانَ داراً منكَ مِحْلالا

ومن الآثار الغريبة باليمن عرش بلقيس، قال في معجم البلدان: حدثني الإمام الحافظ أبو الربيع سليمان بن الريحاني[2] قال: شاهدت موضعاً بينه وبين ذمار يوم، وقد بقي من آثاره ستة أعمدة رخام عظيمة، وفوق أربعة منها أربعة، ودون ذلك مياه كثيرة جارية وحفائر، ذكر لي أهل تلك البلاد أنه لا يقدر أحد على خوض تلك المياه إلى تلك الأعمدة، وأنّه ما خاضها أحد إلاّ عدم. وأهل تلك البلاد متفقون على أنّه عرش بلقيس. انتهى.

قلت: إن صحّ ذلك فلعلّ عرش بلقيس كان يوضع على هذه الأعمدة، وإلاّ فوصفه في التفاسير غير هذا الوصف، ولم يقل أحد أنه كان مبنيًّا أو مصنوعاً من رخام، بل المروي أنّه كان من فضّة وذهب مرصّعاً بالياقوت والجواهر. وفي الكشف والبيان[3] للثعلبي: إنّ عرشها كان سريراً ضخماً حسناً، وكان مقدمة من ذهب مفصص بالياقوت الأحمر، والزمرّد الأخضر، ومؤخره من فضة مكلّل بألوان الجواهر، وله أربع قوائم: قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أصفر، وقائمة من زمرّد أخضر، وقائمة من درّ أبيض، وصفائح السرير من ذهب. انتهى.

وما أظن هذا خفي على صاحب المعجم لكنه نقل كما سمع على جاري

---

(١) الشعر لأبي الصلت الثقفي، وقيل لولده أمية (العقد الفريد ٢/ ٢٣). تراجع ترجمة أمية ومصادرها في أنوار الربيع ٣/ ٣٥).

(٢) في ع (سلمان) مكان (سليمان) وفي معجم البلدان - مادة عرش بلقيس - (سليمان بن الريحان).

(٣) الكشف والبيان: كتاب في التفسير لأبي اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وفي رواية ٤٣٧ هـ (معجم المؤلفين ٢/ ٦٠). وقال ابن خلكان ١/ ٦١ نقلا عن السمعاني أنه يقال له الثعلبي، والثعالبي. أقول: وقد وهم صاحب كشف الظنون فنسب الكتاب إلى الثعالبي أبي منصور عبد الملك بن أحمد.

عادته في كتابه. وكانت اليمن هي مقر ملوك التبابعة وغيرهم من ملوك العرب، وهي من الإقليم الثالث، وأسلم أهلها سلماً على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وورد بفضلها كثير من الأخبار والآثار، ووصفها بعض العرب فقال: تضعف الأجسام، وتقوى الأفهام. لأهلها هم كبار، ولهم أحساب وأخطار، مغايضه[1] خصبة وأطرافه جدبه، في هوائه انقلاب، وفي سكانه اغتيال[2]، ولهم قطعة من الحنين، وشعبة من الرقّة، وفقرة من الفصاحة.

وكانت لشيخنا المذكور مع إمام اليمن اسماعيل المقدّم ذكره مناظرات، ومنها الكلام على المنزلة بين المنزلتين. فإن اعتقاد الزيدية والمعتزلة: أنّ الفاسق يخرج بفسقه عن حدّ الإيمان ولا يصل إلى مرتبة الكفر. وهذه المقالة أول من ذهب إليها واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزّال[3]. قال السمعاني في كتاب الأنساب في ترجمة المعتزلي: إن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري، فلما ظهر الاختلاف وقال الخوارج بتفكير مرتكبي الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر خرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال: إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين منزلتين، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد[4] فقيل لهما ولأتباعهما: معتزلون، وألّف مولانا الشيخ في الردّ عليهم رسالة.

ومنها أنّه سأله عن إمامة نفسه وقال: ألستُ بإمام حقٍ؟ قال: لا. والزيدية يجوزون أنّ كلّ من يكون عالماً زاهداً شجاعاً خرج بالسيف يكون إماماً واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن، أو من أولاد الحسين. وعلى هذا قالت طائفة منهم بإمامة محمد وابراهيم الإمامين ابني عبدالله بن الحسن

---

(١) مغيض الماء: مدخله في الأرض، ومجتمعه. جمعه مغايض.

(٢) الاغتيال - هنا - الكثرة والكثافة.

(٣) واصل بن عطاء رأس المعتزلة، وأحد البلغاء المبرزين توفي سنة ١٣١ هـ (معجم المؤلفين ١٣/ ١٩٥).

(٤) عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة وأحد الزهاد المشهورين توفي سنة ١٤٤ هـ (الأعلام ٥/ ٢٥٢).

اللّذين خرجا في أيام المنصور وقتلا[1]. وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان الخصال المذكورة، ويكون كلّ واحد منهما واجب الطاعة.

وممن كان على بيعة محمد الإمام أبو حنيفة[2] وكان من شيعته فرفع الأمر إلى المنصور فحبسه حبس الأبد، وقيل أنّه أرسل ابنه حماداً[3] إلى ابراهيم وبعث معه إليه بأربعة آلاف درهم، وكان يفتي بنصرته وإعانته، وكتب إليه كتاباً يعتذر فيه عن عدم السير إليه بنفسه وقال: لولا ما يمنعني من الوصول إليك للحقت بك وأعنتك، فإذا لقيت القوم، وظفرت بهم فافعل (كما فعل أبوك[4]) في أهل صفين: أقتل مدبرهم، واجهز على جريحهم، ولا تفعل كما فعل في أهل الجمل، فإن القوم لهم فئة.

فظفر بعضهم بالكتاب، وأوصله إلى المنصور، فلما استبان ما فيه تغيّر عليه وحبسه وآذاه حتى مات في الحبس سنة خمسين ومائة.

والزيدية أصناف ثلاثة: جارودية، وسليمانية، وبترية - والصالحية منهم -، والإمام اسماعيل المذكور من الجارودية. وكلّ فرقة منهم تخالف الأخرى في مسائل تفرّدت بها، ولسنا بصدد بيان ذلك[*].

---

(١) قتل محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم ولدا عبدالله المحض سنة ١٤٥ هـ. الأول في المدينة المنورة والثاني بباخمرا في العراق (الأعلام ٧/ ٩٠ ، و ١/ ٤١).

(٢) هو الإمام الأعظم النعمان بن ثابت. توفي سنة ١٥٠ هـ (الأعلام ٩/ ٤).

(٣) هو أبو اسماعيل حماد ابن الإمام أبي حنيفة المتقدم ذكره. توفي سنة ١٧٦ (وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧).

(٤) رواية غريبة، إذ أن الأخبار متواترة على أنّ الإمام علياً لم يجهز على جريح، ولم يقتل مدبراً ولا فاراً في كل حروبه، وكان يوصي أصحابه بذلك. قال نصر بن مزاحم في كتاب صفين / ٥١٩ (وكان علي لا يجهز على الجرحى ولا على من أدبر بصفين). ولعل أصل الخبر (فافعل [لا كما] فعل أبوك في أهل صفين).

(*) والذي بعد هذا الكلام - ويستغرق زهاء ست صفحات، وثلاثة وعشرين هامشاً - جاء معقوداً على خلاف طائفي، وقد استغنينا عنه تمشياً مع النهج الذي التزمناه، وهو - بأية حال - لن يسبب أية خسارة لهذه الرحلة النافعة. [المورد]

وزيد بن عليّ هو الأب التاسع والعشرون من أجدادنا، وبه يتصل نسبنا هكذا:

فأنا علي بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم بن أحمد نظام الدين بن ابراهيم بن سلام الله ابن مسعود عماد الدين بن محمد صدر الدين بن اسحاق عزّ الدين بن علي ضياء الدين بن عربشاه فخر الدين بن أمير عزّ الدين أبي المكارم بن أميري خطير الدين بن الحسن شرف الدين أبي علي بن الحسين أبي جعفر العزيزي بن علي أبي سعيد النصيبيني بن زيد الأعشم أبي ابراهيم بن علي أبي شجاع الزاهد بن محمد أبي جعفر بن علي أبي الحسين بن جعفر أبي عبدالله بن أحمد نصير الدين السكين النقيب بن جعفر أبي عبدالله الشاعر بن محمد أبي جعفر بن محمد بن زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين أبي عبدالله سيّد الشهداء بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أولئِكَ آبائي فجِئني بمثلِهِمْ إذا جَمَعتْنا يا جريرُ المجامِعُ[1]

وكان أول من انتقل من أجدادنا إلى شيراز المحروسة: علي أبو سعيد النصيبيني رحمه الله، وأوّل من انتقل إلى مكة المشرفة من شيراز: السيد محمد معصوم وذلك بعد انتقال عمّه وختنه[2] الأمير نصير الدين حسين إليها. وكان الأمير نصير الدين إماماً فاضلاً مجتهداً مبرزاً في العربية، غالباً عليه الزهد والصلاح، يقال أنه لم يمس بيده درهماً ولا ديناراً قط توزعاً وعزوفاً من نفسه عن الدنيا، وكان يكتب جميع ما يعمله في اليوم، فإذا كان الليل نظر فيه، فإن كان صالحاً حمد الله عليه، وإن كان غير ذلك استغفر الله منه، وكان لا يؤرِّب أحداً من خدمه في الحرم. وفيه يقول الفاضل الأفندي محمد بن حسن الشهير بدراز[3] المكي، وكتبه إليه في صدر كتاب:

---

(١) البيت للفرزدق (همام بن غالب) المتوفى سنة ١١٠ هـ (أنوار الربيع ٢/٣٥).

(٢) الختن (محركة) كل من كان من قبل الزوجة، أو الزوج كالأب والأخ، ويريد به: أبا زوجته.

(٣) هو القاضي محمد جمال الدين بن حسن دراز المكي. كان حياً سنة ١٠١٢ هـ (سلافة =

أمَولايَ يا نجلَ خيرِ البَرايا ... ومَن في العُلومِ إليهِ المَصِيرْ

أبوكَ غياثٌ لدينٍ تَسامى ... وأنتَ لَنا صِرتَ نعمَ النَّصِيرْ[1]

وفيه يقول أيضاً:

أنتَ نعمَ النَّصيرُ في كلِّ نادِ ... أنتَ نعمَ المَولى لكلِّ العِبادِ

ذو الأيادي والأيْدِ أنتَ جميعاً ... سيدُ الناسِ أوْحدُ العُبَّادِ[2]

ولكَ الإرثُ في الولاءِ بحقٍّ ... في رقابِ الوَرى ليوم التَّنادِ

لمقالِ النبيِّ في ماءِ خُمٍّ ... أنتَ مَوليً لمؤمنٍ ذي انقِيادِ[3]

فتهادَى بالطَّوع قومٌ ففازُوا ... وتَمادى الغبيُّ بالانتِقادِ[4]

ثم قالَ النبيُّ والِ عَليًّا ... يا إلهي فكانَ حَتفَ المُعادي[5]

خُصَّ باللَّعنِ من تولَّى عُتوًّا ... وحشاهُ مقطَّعٌ بالعِنادِ

شرفٌ شامخٌ ومجدٌ وفيعٌ ... وافتخارٌ يُذيلُ غُلبَ الهَوادي[6]

كنتَ في الصُّلبِ إذ دَنا فتدلَّى ... كنتَ في الصَّفِّ في مَقرِّ الجِلادِ[7]

ثمَّ من قبلِ ذا أجبتَ نِداءً ... لأَلَسْتُ الإله في كلِّ وادِ[8]

مَن يُباريكَ في السِّيادَةِ غِرٌّ ... ما لَه في الفُهُومِ من مُستَفادِ[9]

= العصر ١٠٧، ونفحة الريحانة ٤/ ٩٤).

(١) في ك (وأنت له بعد نعم النصير).

(٢) في ك (لعمري) مكان (جميعاً).

(٣) في ك (للمؤمن المنقاد) وفي سلافة العصر (لمؤمن ذي قياد).

(٤) في ك (وتمادى بكرهه المتمادي).

(٥) في ك (يا إلهي ومن يعاديه عادي).

(٦) يذيل: يهين. غلب الهوادي: غلاظ الرقاب.

(٧) في ك (وعلى الصف في مقر الجلاد).

(٨) في ك وأطعت الإله في كل ناد.

(٩) في ك (عزاً - عاد في حينه بلا مستفاد).

أنتَ أنتَ المعروفُ في كلِّ فضلٍ   أنتَ صدرُ الإصدارِ والإيرادِ

وسِوى بيتِكَ المنكَّر جَهْلاً   وسواكَ الضَّنين بالأمْدادِ

فابقَ واسلَمْ لكَ السَّلامةُ دارٌ   والمَثاني من الثَّنا في ازْدِيادِ[1]

وتوفي الأمير نصير الدين سنة ثلاث وعشرين وألف بالطائف المأنوس ونقل إلى مكة المشرفة ودفن فيها.

وهنا فائدة سنيَّة: تتعلق بنسبنا أحببت التنبيه عليها حيث انجرّ الكلام إليها وهي أني قرأت على ظهر كتاب من كتب الوالد بخط السيد صدر الدين محمد الواعظ بن منصور غياث الدين ابن محمد صدر الدين بن منصور غياث الدين - جدنا المذكور في عمود النسب -: إنّ أبا الحسن وأبا زيد علي بن محمد الخطيب الحماني بن جعفر أبي عبدالله الشاعر أحد أجدادنا. قال: وهو جدي وأدخله في النسب هكذا.

قال: فأنا صدر الدين محمد الواعظ بن ناصر الشريعة منصور بن محمد صدر الدين بن منصور غياث الدين بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن اسحاق بن علي عربشاه بن أمير انبه بن أميري بن الحسن بن الحسين العزيزي بن علي النصيبيني بن زيد الأعشم بن علي - المحكي عنه، يعني الحماني - بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد الشهيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

هذا كلامه وأقول: ليس علي بن محمد الحماني هذا داخلاً في عمود نسبنا، بل ينتهي نسبه إلى زيد الشهيد هكذا.

هو علي بن [محمد] الخطيب بن جعفر أبي عبدالله الشاعر - الذي هو أحد أجدادنا - بن محمد بن محمد بن زيد الشهيد.

وإنّما أوقع السيد صدر الدين في هذا الغلط تشابه الأسماء، فإن جعفراً جد السيد علي الحماني المذكور الذي توهم صدر الدين أنّه ابن أحمد

---

(١) في ك (وقف) مكان (دار).

السكين، هو أبو أحمد السكين، لكن اشتبه عليه بابنه، فإن ابنه أيضاً اسمه جعفر كما مرَّ في النسب، ويتّضح ذلك بأن محمد بن زيد الشهيد وهو أصغر بني أبيه له عدّة بنين منهم محمد ابنه، والعقب منه في أبي عبدالله جعفر الشاعر وحده، فأعقب أبو عبدالله جعفر هذا من ثلاثة بنين: محمد الخطيب الذي هو أبو السيد علي الحماني، وأحمد السكين الذي هو جدنا، والقاسم، فيكون السيد علي الحماني إبن أخي أحمد السكين لا إبن ابنه، فأحمد السكين عمه لا جدّه.

وأيضاً ما تمّ للسيد صدر الدين إدخال السيد علي الحماني في النسب حتى أسقط منه أبا الحسين علياً الذي هو بين أبي جعفر محمد، وبين جعفر بن أحمد السكين وهو غلط فاحش.

ولقد مرّ على ذلك برهة من الزمان، ولم يتنبّه له أحد من أجدادنا فينبّه عليه. وقد سمعت الوالد مراراً يقول: إن السيد علي الحماني جدّنا، اعتماداً منه على كلام السيد صدر الدين الواعظ، فذكرت له أن هذا غلط منه.

وكان السيد علي الحماني المذكور[1] شاعراً مفلقاً نبيلاً مفتياً مدرساً نسَّاباً، لم يكن في زمنه من يتقدمه في الرئاسة، واشتهر بالشعر، وشعره في الطبقة العليا من الحسن والرقّة، عذب بديع المعاني. وكان نازلاً بالكوفة ومنزله في حمان[2] فأضيف إليهم.

حدّث بعض الصالحين قال: لقيت علي بن محمد المذكور بالكوفة بعد خلاصه من حبس الموفق[3] - وكان قد حبس مرتين، مرّة لكفالته بعض أهله،

---

(١) سيورد المؤلف ترجمته بعد قليل. تراجع مصادر ترجمته أيضاً في (أنوار الربيع ٢/ ٣٣٢).

(٢) حمّان: قبيلة من تميم رحلوا من البصرة ونزلوا الكوفة فسمّيت المحلة باسمهم، ونسب إليها كل من سكنها وإن لم يكن من القبيلة.

(٣) هو الموفق بالله العباسي واسمه طلحة بن جعفر المتوكل. توفي سنة ٢٧٨ هـ (الأعلام ٣/ ٣٣٠).

ومرة لسعاية عليه – وهنيته بالسلامة، وقلت: قد عدت إلى وطنك الذي تلذّه، وإخوانك الذين تحبّهم، فقال: يا أبا علي ذهب الأتراب والشباب والأصحاب، وأنشد:

هَبْني بقيتُ على الأيّام والأبَدِ ... ونلتُ ما شِئتُ من مالٍ ومن ولَدِ
مَن لي برؤية مَن قد كنتُ آلفُهُ ... وبالزّمانِ الذي ولّى ولم يَعُدِ
لا فارقَ الحزنُ قَلبي بعدَ فُرقتِهِمْ ... حتى يفرّقُ بينَ الرُّوح والجسَدِ

ومن شعره العالي الطبقة:

لنا مِن هاشمٍ هَضباتُ مَجدٍ ... مُطنّبةٌ بأبراجِ السّماءِ[1]
تطوفُ بنا الملائِكُ كلَّ يوم ... ونُكفلُ في حُجُورِ الأنبياءِ
ويَهتزُّ المقامُ لنا ارْتياحاً ... ويَلقانا صَفاهُ بالصَّفاءِ

ومن جيد شعره قوله:

أفي كلِّ أرضٍ أو بكلِّ تَنُوفةٍ ... أخُو أملٍ منّا يُحاوِلُ مَطْمَعا
كأنّا خُلقنا لِلنّوى وكأنّما ... حرامٌ على الأيّام أن نَتَجمّعا

ومن بديع افتخاره قوله:

إنّي وقَوميَ من أحسابِ قَومِكمُ ... كمسجدِ الخَيْفِ من بُحبُوحةِ الخَيْفِ
ما عُلِّقَ السَّيفُ مِنّا بابنِ عاشِرة ... إلاّ وهمَّتُه أمْضى من السَّيفِ[2]
ولا استَضافَ بنا ضيفٌ يؤمِّلُنا ... إلاّ غَدا مالُنا في قَبضةِ الضَّيفِ[3]

ومن رقيق تغزّله:

بأبي فَمٌ شهدَ الضَّميرُ لهُ ... قبلَ المَذاقِ بأنّهُ عَذْبُ
كشهادَتي لله خالِصةً ... قبلَ العِيانِ بأنّه الرَّبُّ

---

(١) في عمدة الطالب / ٢٤٠ (هضبات عزّ).

(٢) يريد بالعاشرة: السنة العاشرة.

(٣) سقط هذا البيت من (ع) و (أ).

والعينُ لا تُغني بنَظْرتِها حتّى يكونَ دَليلَها القَلْبُ

ومن قوله الحسن ومطبوعه المستحسن:

وجهٌ هو البَدرُ إلاّ أنَّ بينَهما فَضلاً تحيَّرَ في حافاتِه النُّورُ
في وَجهِ ذاكَ أخالِيطٌ مُسوَّدةٌ وفي مَضاحِكِ هذا الدُّرُّ مَنثورُ

ومن نسيبه وهو المرقص المطرب:

يا شادِناً أفرغَ من فضَّهْ في خدِّه تُفَّاحةٌ غَضَّهْ
كأنَّما القُبلةُ في خَدِّه للحُسنِ من رِقَّتِه عَضَّهْ
يهتزُّ أعلاه إذا ما مَشى وكلُّه في لِينهِ قَبْضَهْ[1]
ارْحَم فتىً لمَّا تملَّكتَهُ أقرَّ بالرقِّ فلَمْ تَرْضَهْ

ومن بديع شعره:

كأنّ همومَ النّاسِ في الأرضِ كلِّها عَليَّ وقَلبي بينَهم قلبُ واحدِ
ولي شاهِدا عَدْلٍ سهادٌ وعَبْرةٌ وكم مُدَّعٍ للحقِّ من غيرِ شاهدِ

ومن قوله يرثي يحيى بن عمر الحسيني[2] الخارج بالكوفة في خلافة المستعين[3]:

(١) في الغدير ٣/ ٦٧ (في يمنه) مكان (في لينه).

(٢) هو يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين السبط (ع). خرج بالكوفة أيام المستعين، وقتل سنة ٢٥٠ هـ، وهو الذي رثاه ابن الرومي بفريدته التي مطلعها:

أمامك فانظر أيّ نهجيك تنهجُ طريقان شتّى مستقيم وأعوج

ترجمته في الطبري ٩/ ٢٦٦، ومروج الذهب ٤/ ١٤٧ وفيه خلط في نسب المترجم وتاريخ مقتله. ومقاتل الطالبين/ ٦٣٦، والكامل لابن الأثير ٥/ ٣١٤، والفخري في الآداب السلطانية/ ٢٤٠.

(٣) هو المستعين بالله العباسي واسمه أحمد بن محمد بن المعتصم. عزل عن الخلافة ثم توفي سنة ٢٥٢ هـ (الأعلام ١/ ١٩٣).

لَعَمري لئِن سُرَّتْ قريشٌ بهُلكِهِ فما كانَ وقَّافاً غداةَ التَّوَقُّفِ[1]

فإنْ ماتَ بِلقاءِ الرِّماح فإنَّه لمِنْ مَعشَرٍ يَشنَوْنَ موتَ التَتَرُّفِ

فلا تَشمتُوا فالقومُ من يبقَ منهمُ علَى سَنَنٍ منهم أمامَ المُخَلَّفِ

لَهُمْ معَكمْ أمَّا جَدَعْتم أُنوفَكم مقاماتُ ما بينَ الصَّفا والمُعَرَّفِ

تُراثٌ لَهم مِن آدَمٍ ومُحمَّدٍ إلى الثَّقلَيْنِ من وصيٍّ ومُصْحَفِ

ومن مراثيه المستحسنة قوله في رثاء أخيه اسماعيل[2]:

هذا ابنُ أمّي عَديُل الرُّوح في جسدي شقَّ الزمانُ به قَلبي إلى كَبِدي[3]

فاليومَ لم يبقَ شيءٌ أستريحُ به إلاَّ تفتُّتَ أعْضائي من الكَمَدِ

أو مُقلةٌ (بحياء) الهمِّ باكيَةٌ أو بَيتُ مرثيَةٍ يَبقى على الأبَدِ[4]

تُرى أُناجِيكَ فيها بالدُّموع وقد نامَ الخليُّ ولم أهجَعْ ولم أكَدِ

مَن لي بمثلكَ أدعُوهُ لحادثَةٍ يُشْكى إليه ولا يَشكو إلى أحَدِ[5]

قد ذُقتُ أنواعَ ثُكلٍ كنتَ أبلَغها على القُلوب وأجْناها على كَبِدي

قل للرَّدى لا تغادِرْ بعدَه أحداً وللمنيَّةِ مَن أحبَبْتِ فاعتَمدي

إنَّ الزمانَ تَقضَّى بَعدَ فُرقَتِهِ والعيشَ آذنَ بالتَّفريق والنَّكَدِ

وله في الافتخار:

لقد فاخَرتْنا من قريشٍ عصابَةٌ بمطِّ خُدودٍ وامتدادِ أصابعِ

---

(١) القطعة في مروج الذهب ٤/ ١٥٢ والغدير ٣/ ٦٢ وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) في الغدير (في رثاء أخيه لامه اسماعيل العلوي).

(٣) في ك (شقيق) مكان (عديل).

(٤) (بحياء الهم) كذا ورد في الأصول، والغدير. الحيا (بالقصر): المطر، ويجوز مدّ المقصور عند الضرورة، ولأنّ الشاعر من الفحول الذين لا تأسرهم الضرورات أرجح رواية مروج الذهب للمسعودي (بخفي الهمّ).

(٥) في ك (وأين مثلك أدعوه).

فلما تنازَعْنا الفَخارَ قَضى لنا　　عَليهم بما نَهْوى نداءُ الصَّوامِعِ
تَرانا سُكوتاً والشُهودُ بفَضْلِنا　　عَليهم جَهيرُ الصَّوتِ في كلِّ جامِعِ[١]

والسيد رحمه الله نظم في هذه الأبيات ما وقع للحسين[٢] مع يزيد بن معاوية، وذلك أن الحسين[٣] دخل يوماً على يزيد فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن، ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا، والحسين[٤] ساكت. فأذّن المؤذن، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الحسين عليه السلام: يا يزيد جدُّ من هذا[٥]؟ فخجل يزيد وانقطع[٦].

وكانت وفاة السيد علي بن محمد الحماني المذكور في خلافة المعتمد سنة ستين ومأتين[٧] رحمه الله تعالى.

وإنّما أكثرت من شعره لحسنه وقلّة وجوده. وقد جمعت هذه المقاطيع من عدَّة كتب، وشعره مرغوب فيه جداً. ولقد تغلغل بنا الكلام وجرَّ بعضاً فأدّى إلى هذا التطويل، لكن أرجو أن لا يخلو ذلك من فائدة إن شاء الله تعالى. ولنعد إلى ما نحن بصدده.

ولما وافينا المخا اتَّصل بنا الخبر بأنّ العدوّ قصد جهة مولانا السلطان - خلَّد الله ملكه - فعاث فيها، وأغار على نواحيها بجموع لا تحصى، وجنود لا

---

(١) في أعيان الشيعة ٤٢/٥١ (وأنا سكوت).

(٢) في ك (ما وقع لعلي بن الحسين).

(٣) في ك (علياً) مكان (الحسين).

(٤) في ك (الإمام) مكان (الحسين) في الموضعين.

(٥) في ك (يا يزيد، ألك جد مثل هذا).

(٦) يأتي في ك بعد هذه الكلمة (ورويت هذه الواقعة للحسين معه لا لعلي. أقول: والمشهور المتواتر أنها لعلي بن الحسين مع يزيد، ذكرها جماعة منهم ابن شهر اشوب في المناقب ٤/١٦٨، والطبرسي في الاحتجاج ١/٣٩ ، والأمين العاملي في المجالس السنية، وغيرهم.

(٧) هذه رواية الكامل لابن الأثير، وفي هدية العارفين ١/٦٧٣: توفي سنة ٢٤٥ هـ وجاء في الغدير ٣/٥٧ أنه توفي سنة ٣٠١ هـ.

تُستقصى، ولا يُعلم ما آل الأمر إليه، وما استقر الحال عليه، فأجمعنا على الإقامة بالبندر المذكور إلى أن توافينا الأخبار من تلك الأقطار.

والمخا (بالخاء المعجمة المخففة وفتح الميم قبلها): مكان قريب من زبيد على ساحل البحر. كذا ضبطها اليافعي في تاريخه في حوادث سنة أربع عشرة وخمسمائة عند ذكر الشيخ أبي بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المخائي. والعوام يقولون: المخا (بضم الميم) وهو بندر في غاية العمارة، فيه قصور مشيّدة، وحدائق عديدة تحتوي على نخل كثير، ويجلب إليه أنواع الفواكه من تعز وغيرها.

ومستقى أهلها من أبآر[1] في جانبه الشرقي إلاّ أن ماءها لا يخلو من ملوحة، ويجلب للأكابر من موزَّع ماء عذب جدًّا.

وفيه حمّام لطيف، بناه رجل من أكابر أتباع مولانا السلطان، يقال له: الشيخ ملك محمد، وأخبرني من كان حاضر بنائه، أنّ الشيخ المذكور فرش أرضه بالقرنفل، ثم ألقى عليه الجص لتطيب رائحته. ولقد اكتسب أجراً عظيماً في بنائه، وكانت وفاة بانيه المذكور سنة ثلاث وسبعين وألف رحمه الله تعالى.

ولم يمدح أحد من الشعراء الحمّام كما مدحه السريّ الموصلي[2] فإنّه أحسن في مدحه وأبدع جدًّا في وصفه حيث قال من أبيات:

بَيتٌ بَنَتْهُ حُكَماءُ الوَرى ... فهوَ إلى الحِكمَةِ مَنْسُوبُ

مُجاوِرُ النَّارِ ولكنَّه ... يُجاوِرُ الحرَّ بِهِ الطِّيبُ[3]

حرٌّ هو الرَّوْحُ لأجْسامِنا ... والحرُّ للأجسامِ تَعذِيبُ[4]

---

(١) أبآر، جمع بئر، كآبار، وأبْؤر، وبئار.

(٢) هو أبو الحسن السري بن أحمد الكندي الموصلي المعروف بالرفاء. توفي سنة ٣٦٢ وقيل ٣٦٦ هـ (أنوار الربيع ١/ ٢٧٣).

(٣) في الديوان (تجاور الروح).

(٤) في الديوان (الظل) مكان (الروح).

وأبدع أبو بكر بن بقي[1] حيث يقول في مدحه ووصفه أيضاً:

حمَّامُنا فيه فصلُ القَيظِ مُحتَدمٌ　　وفيه للبَردِ بَردٌ غيرُ ذي ضَرَرِ[2]

ضِدّانِ يَنعم جسمُ المَرءِ بينَهما　　كالغُصنِ يَنعَمُ بينَ الشَمس والمَطرِ

فائدة: قال الحكيم أرسطاطاليس في المسائِل الطبيعيَّة: ما بال من عطش إذا دخل الحمّام سكن عطشه، ومن لا عطش به يعطشه الحمام؟

لأنّ من به عطش فإنّ بدنه يابس يجذب الرطوبة إلى داخل بالمسام الخفيفة، ومن لا عطش به فإنّ بدنه رطب يستفرغ الرطوبة بالعرق.

لطيفة: حكي أنّ بعض ملوك العجم أُحضرت له حلوى مشهورة فقال: أيكون من لا يعرف هذه الحلوى؟ قالوا: كثير من لم يسمع بها فضلاً عن أن يعرفها، قال: فأحضروا من لا يعرفها، فجاؤا بأعرابيّ فأطعموه من الحلوى وسألوه: أتعرف ما هذا؟ قال: نعم، هو إمّا الحمّام أو الفجل، قالوا: كيف عرفت ذلك؟ قال لأن أبي دخل هذه البلاد قبلي بعشرين سنة، فلما عاد إلى البادية سألناه عن أحسن ما رآه في الحضر قال: شيئان: الفجل والحمام، ولا شك الآن في أن هذا الذي أطعمتمونيه أحد هذين الشيئين، ولكن لا أعرف أيّهما هو بعينه.

ولاقيت بالمخا الشيخ الأديب أحمد بن[3] محمد بن علي الجوهري[4]

---

(١) هو أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي المتوفى سنة ٥٤٠ هـ (أنوار الربيع ٥/ ٢٥٤).

(٢) احتدم الحر: اشتد. في نفح الطيب ٣/ ٣٤٧ (حمامنا كزمان القيظ) و (وفيه للبرد صرّ).

(٣) ابتداء من الكلمة التي بعد القوس إلى نهاية الجملة التي ستختم بقوس آخر، سقط من (ع) وهو يشتمل على قصيدة لوالد المؤلف، وثانية للجوهري، وثالثة للمرزوقي.

(٤) توفي أحمد بن محمد الجوهري سنة ١٠٧٩ هـ (أنوار الربيع ٥/ ١١٤) و (نفحة الريحانة ٤/ ١٥٧) وفيه أنه توفى سنة ١٠٦٩ هـ.

متوجهاً من الديار الهندية إلى الأقطار الحرميّة قاصداً الحجّ هو ووالده، وله شعر كاد يلمّ في بعض الإحسان، وإن زعم بعضهم أنّه أحسن من شعر حسان، ولم يتفق أن ينشدني من شعر نفسه شيئاً، وإنّما استنشدته من شعر والدي فأنشدني قصيدته الدالية المردوفة بالهاء، وهي قوله:

مثيرُ غرامِ المُستهامِ ووَجْدِهِ ... وميضٌ سَرى من غَورِ سَلْعٍ ونَجدِهِ

وباتَ بأعلى الرَّقمتَينِ التِهابُهُ ... فظَلَّ كئيباً مِن تَذكُّرِ عَهدِهِ

يَحنُّ إلى نَحو اللِّوى وطُوَيْلعٍ ... وباناتِ نَجدٍ والحجاز ورَنْدِهِ

وضالٍ بذاتِ الضَّالِ مُرْخٍ غصُونَه ... تفيَّأهُ ظبيٌ يَميسُ بقَدِّهِ[1]

كثيرُ التجنِّي ذو قَوامٍ مُهَفْهِفٍ ... صبيحُ المحيَّا ليسَ يُوفي بوَعْدِهِ[2]

يَغارُ إذا ما قِستُ بالبَدرِ وجهَهُ ... ويغضَبُ إنْ شَبَّهتُ وَرْداً بخدِّه

مليحٌ تَسامى بالملاحَةِ مُنفرِداً ... كشمسِ الضُّحى كالبَدرِ في بُرجِ سَعْدِهِ

ثناياهُ بدرٌ والصَّباحُ جَبينُهُ ... وأمَّا الثريَّا قد أُنيطَتْ بعِقْدِهِ[3]

فمِنْ وصلِهِ سُكنى الجِنانِ وطيبُها ... ولكن لَظى النِّيرانِ من نارِ صَدِّهِ

تراءَى لنا بالجِيدِ كالظَّبي تالعاً ... أُسارى الهَوى من حُكمِهِ بعضُ جُندِهِ

رَوى حسنَهُ أهلُ الغَرامِ وكلُّهم ... يَتيهُ إذا ما شاهَدُوا ليلَ جَعْدِهِ

يُعَنْعِنُ علمَ السِّحرِ هارُوتُ لحظِهِ ... ويَروي عن الرُّمَّانِ كاعِبُ نَهدِهِ

مضاءُ اليَمانِيَّاتِ دونَ لحاظِهِ ... وفعلُ الرُّدَيْنيَّاتِ من دُون قدِّهِ

إذا ما نَضا عن وجههِ البَدرِ حُجبَه ... صَبا كلُّ ذي نُسْكٍ مُلازِمُ زُهدِهِ

وأبدَى مُحيًّا قاصِراً عنه كلُّ من ... أرادَ له نَعتاً بتَوصيفِ حَدِّهِ

---

(١) في سلافة العصر / ١٩ ونفحة الريحانة ٤/ ١٨٠ (يميس ببرده).

(٢) في سلافة العصر (لا وفاء لوعده) وفي أ (ليس يوفي بعهده).

(٣) في السلافة، ونفحة الريحانة (ثناياه برق)، وفي ك (ونجم الثريا قد أنيطت) وما أثبته عن أ وهو موافق لرواية المصدرين المذكورين.

هو الحسنُ بل حسن الورى منه مُجتدىً وكـلُّـهـم يُـعـزى لـجَـوهَـرِ فَـرْدِهِ

وما تفعلُ الراحُ العتيقةُ بعضَ ما بِمبسَمِه بالمُحتَسي صفوَ وِرْدِهِ

وقد عارض هذه القصيدة جماعة وقفت على قصائدهم عند الوالد، منهم الشيخ أحمد المذكور فقال يمدح الوالد:

سلامٌ على وَرْد العَقيق ورَنْدِه وغُـرِّ لـيـالِـيـه وسـالِـف عـهـده

فَلي فيه ظبيٌ صائِد كلَّ ضَيغمٍ أغارُ عليه بين كُثبانِ نَجدِهِ

إذا الشمس غابَتْ في مغارب أُفقها بَدا لكَ بدرٌ من فَواحم جَعْدِهِ

يُعلُّلكَ من فيهِ شَراباً له شَذاً كنَفْحةِ رَوضٍ عند تَفْتيح وَرْدِهِ

أرى الدِّعصَ يَربُو كي يُشاكلَ ردفَهُ وغُصنَ النَّقا يَنمو لتشبيه قَدِّهِ

وبَدرَ الدُّجى يَزهُو إذا قيلَ مثله ويُطوى حديثُ المِسْكِ مع نشرِ بُردِهِ

ويَعلو مقامُ النَّجمِ إنْ قيلَ أنَّه كمبْسِمِه الوضَّاح أو دُرِّ عِقْدِهِ

غَدوتُ أجيلُ الطرفَ في روض حُسنِه فعُدتُ وقلبي في وثاقٍ بِوَجْدِهِ

فمنْ لي بقَلبٍ مثل قلبيَ بعدما أُضيعَ زَماناً في مَهامِهِ بُعْدِهِ

يَقولونَ لي في الحُبِّ هلْ لكَ رتبةٌ فقلتُ لهم أعْلى الذُّرى لي بسَعْدِهِ

فما العِشقُ إلاَّ من كِرام عَشيرتي وما الحسنُ إلاَّ من تَوابع جُندِهِ

وما القَطرُ إلاَّ من تَقاطُرِ أدْمُعي ولا البرقُ إلاَّ من حَشايَ ووَقْدِهِ

فقُولوا لهُ إنِّي صَريعُ لحاظِهِ وإنِّي عليلٌ مُذ بُليتُ بفَقْدِهِ

عسى أنَّه يَرضى بلَثْمةِ كفِّهِ إذا هو لم يَمْنُنْ بتَقْبيلِ خَدِّهِ (1)

سلامي عَليه بُكرةً وعشِيَّةً وإن لم يَفُهْ تَيْهاً عليَّ بِرَدِّهِ

وقد لُذتُ من شَوقي إلى غير مُنصِفٍ بحَضْرةِ من لاذَ الأنامُ بمَجْدِهِ

فما سائلٌ إلاَّ عَلى جُودِ أحمدٍ ولا قائلٌ إلاَّ بإعلانِ حَمْدِهِ

جزيلُ العَطايا يسبقُ القولَ فعلُه كريمُ السَّجايا غير مُخلِفِ وَعْدِهِ

---

(1) في سلافة العصر / ١١٩ (يسمح) مكان (يمنن).

يصولُ على أُسْدِ العَرين بنفسِه ... ويَثني عِنان الجَيشِ صارمُ عَبْدِه[1]

يلوحُ سناءُ الفَضلِ من دُرِّ نُطقِه ... ويظهرُ قدرُ الفَصلِ من قَطْع حَدِّهِ

يَحارُ بسيطُ البَحر في وِسْعِ عِلمهِ ... ويقصرُ فهمُ الحَبْرِ عن نَيل قَصده[2]

فلا زلتُ أُهدي للمسامعِ وصفَه ... وأقطفُ زهر القول من روضِ ورده[3]

ومنهم الشيخ الأديب علي بن حسن المرزوقي[4] وقد أحسن فيها وبزَّ المعاصرين، ونقتصر على القليل خشية الملال والتطويل، وهو قوله منها[5]:

تألَّقَ من نَحو الكَثيبِ ووَهْدِه ... بَريقٌ تَلالا في خَمائِلِ بُرْدِهِ

تراءَى لعَينٍ قد تَقرَّحَ جَفنُها ... وعُوِّضَ عن طيبِ المَنامِ بسُهْدِهِ

فهيَّجَ وجداً مُضمَراً في سَرائري ... وأبدى مَصُوناً ما استطعتُ لردِّهِ

فبتُّ كئيباً والهَ القَلبِ عائماً ... ببحرِ غَرامٍ بينَ جَزرٍ ومَدِّهِ

وما افترَّ إلاَّ جادَ بالدَّمع ناظري ... وأذكرَني ماءَ العُذَيبِ ووِرْدِهِ[6]

ومسرحَ غِزلانٍ يرُحْنَ عشيَّةً ... بذاتِ اللِّوى والأَبرقَينِ وثمْدِهِ

وميَّادَ غُصنٍ مذ تَثنّى بعِطْفِه ... لَوى عَقْرَبي صُدغيه خفَّاقُ بَندِهِ[7]

---

(١) في سلافة العصر (ماضي فرنده) مكان (صارم عبده).

(٢) في ك (في وسط علمه) وفي أ (بسيط بوفر الفضل في وسط علمه) والمثبت من سلافة العصر.

(٣) في الأصلين (وأطلع) مكان (وأقطف) والتصويب من سلافة العصر، (ورده) كذا ورد في الأصلين وسلافة العصر، ولعلها (ودِّه).

(٤) ترجم المؤلف للمرزوقي في كتابه سلافة العصر / ٤٦٠ فقال (... مقامه في الأدب كاسمه، وشعره كاسم أبيه، رأيته بحضرة الوالد وقد أخنى عليه الكبر ...) ولم يذكر تاريخ وفاته، وعنه أخذ المحبي في نفحة الريحانة ٣ / ٤٩٨ وسمّاه (حسن بن علي) وهو وهم.

(٥) القصيدة في سلافة العصر ونفحة الريحانة، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٦) في ك (ما في العذيب) وفي نفحة الريحانة (واذكر ماءً بالعذيب).

(٧) في الأصلين (لوى عبقري صدغيه حقان بنده) والتصويب من سلافة العصر ونفحة الريحانة.

كثير التجنّي والمُجُونِ وطالَما جَنى سيفُ لحظٍ منه وهوَ بغِمْدِهِ

له حَدقٌ صحَّتْ بسقمِ جُفُونِها ومن عجَبٍ تَقويمُ شَيءٍ بضِدِّهِ

وإنّي إذا ما جَنَّ لَيْلي تَخالُني أحِنُّ حنينَ الثّاكلاتِ لفَقْدِهِ

ويُطربُني صَدْحُ الحَمام بأيكَةٍ إذا صاحَ قُمريُّ البَشام برَدِّهِ

وترجيعُ صوتِ العَنْدَليبِ كأنَّه غَدا راهباً فيه زَعيماً بِوِرْدِهِ[1]

وإنْ شُقَّ نَحرُ الفَجر قامَت بلابِلٌ تُسَبِّحُ الله العظِيم بحمدِهِ

وإني على وِدّي مُقيمٌ على الوَفا وما مِلتُ بلْ باقٍ على حفظِ عَهدِهِ

كأنّي وما أرجو كُثَيِّرُ عَزَّةٍ مَتى حارَ فكري فيه أو بشرُ هِندِهِ[2]

ألا في سَبيل الله دهرٌ قضيتُه على ظَمأ لم يَروِهِ ماءُ صَدِّه

أبيتُ على جَمرِ الغَضا متقلِّباً وفي طيِّ أحْشائي تَلُظُّ بوَقْدِهِ[3]

وكان الشيخ أحمد قدم الهند مع والده في أوائل عمره، فأقام بها نحواً من عشرين سنة، ولما دخل الوالد الهند اختصَّ الشيخ أحمد به، فنشأت بينهما مودة أكيدة وكانت بينهما مراسلات من نظم ونثر، فمن ذلك قصيدة كتبها إليه الوالد مطلعها:

إلى أحمد الشيخ النبيل تحيَّةٌ تغشّاه مني بكرة وأصيلا[4]

فأجابه الشيخ أحمد بقصيدة مطلعها[5]:

أتَتْ كي تُداوي بالسَّلام عليلا فقلتُ سلامٌ لا عُدمتِ مُنِيلا

---

(١) الورد (بالكسر): مقدار معلوم من قراءة القرآن، أو الدعاء تدوم على قراءته في أوقات معينة.

(٢) تراجع قصّة بشر وهند في مصارع العشاق ٢/ ٢٣٥.

(٣) تلظّ: تلحّ. إلى هنا انتهى ما سقط من (ع).

(٤) سقط هذا البيت والسطر الذي بعده من (ك) فأوهم أن القطعة التي بعدهما من نظم والد المؤلف.

(٥) القطعة في سلافة العصر /١٩٩ وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

هي الشمسُ جاءت في صَباح صحائِف ‏ هي البدرُ نالَتْ من مِدادِكَ نِيلا

هي الخمرُ في أفعالها بعقُولِنا ‏ هي السحرُ قد زادَتْ بياناً وتَمثِيلا

إذا أُنشِدَت فالطَّرفُ وقتَ نشِيدها ‏ عن السَّمع يَهوى أن يكونَ بَديلا

ترجَّلَتِ الركبانُ عند سَماعِها ‏ وقالوا أعِدْها لا فَقَدْتَ خَليلا

وساقَتْ بها العيسَ الحداةُ تشوقاً ‏ إليه وساروا بكرةً وأصِيلا

وهي قصيدة طويلة حسنة، كلّها على هذا النمط.

وكان شعراء العصر قد تجاروا في ميدان هذين البيتين وهما للشيخ عز الدين الموصلي[1]:

هجرتكَ البيضُ لمَّا ‏ نَصَلَ الصُّبغُ فضَرَّكْ

كشفَ الدهرُ المغطَّى ‏ يا جميلَ السِّتر سِترَكْ

فكان ممن جرى في هذا الميدان، وسابق أولئك الفرسان الشيخ أحمد الجوهري فقال:

زارَني والليلُ داجٍ ‏ قلتُ أخفَى الله أمرَكْ

هجم الصبحُ فنادى ‏ يا جميلَ السِّتر سِترَكْ

وقال العلامة خطيب المالكية بمكة المشرفة القاضي تاج الدين بن أحمد المالكي(*):

إنْ تكن صبًّا أنيساً ‏ فافنِ في الصهباءِ عُمركْ[2]

ثم قُل عند احتِساها ‏ يا جميلَ السِّتر سِترَكْ

وقال الوالد على هذا الأسلوب[3]:

قالتِ الحرَّةُ يوماً ‏ لم أخالِفْ قَطُّ أمرَكْ

---

(1) هو علي بن الحسين (عز الدين الموصلي) المتوفى سنة ٧٨٩ هـ (أنوار الربيع ١/ ٩٢).

(2) في ك (فاقض بالصهباء).

(3) سقطت هذه الجملة والأبيات التي بعدها من (ك).

فـأتـتـنـي بـاحـتـفـالٍ   واخـتـفـاءٍ لـيسَ يُـدرك[1]

ودنَـتْ مـنِّـي ونـادَتْ   يـا جـميـلَ الـسِّـتر سِـتـرَكْ

وقلت أنا في سنة تسع وستين [وألف]:

زرتُـهـا يـومـاً فـقـالَـتْ   وافِـنـي مـن قـبـلِ تُـدْرَكْ

مُـذ كـشـفـتُ الـسِّـتر نـادت   يـا جـمـيـلَ الـسِّـتـر سِـتـرَكْ

وأخبرني الوالد أنّه كتب يوماً إلى الشيخ أحمد بهذه الأبيات:

يا ذا المَعالي إنَّ لي نُزهةً   أرجاؤها أرخَصَتِ الغالِيَه[2]

أنشدتُ فيها حينَ شاهدتُها   كالشَّمس من بين الظِّبا غالِيه[3]

(أنتِ التي لو تُشتَرى ساعةً   منكِ بدهرٍ لم تكن غالِيَه)

فأجابه بقوله:

يا أيُّها المَولى الذي خُلقُه   يُخجلُ عَرفَ المِسْكِ والغالِيَه

لو بعتُ روحي عارِفاً قدرَها   منكَ بوقتٍ كانَت الغاليَه[4]

والبيت الثالث من أبيات الوالد مضمَّن وهو توأم بيت للسيد الأديب محمد كبريت المدني[5] وهما بيتان قالهما مستدعياً بعض أصحابه، أنشدنيهما الوالد، قال: أنشدنيهما السيد المذكور وهما:

يا ذا المَعالي نحنُ في نُزهةٍ   فانقُلْ إلينا القَدَمَ العالِيَه

---

(١) الاحتفال – هنا –: الزينة، ولعلها (باحتفاء).

(٢) الغالية: صنف من الطيب.

(٣) الظبا – هنا – وأصلها (الظباء): كواكب، ويقال لها أيضاً: أولاد الظباء (أقرب الموارد). غالية: مرتفعة.

(٤) في ع ، و أ (منك بدهر)، والدهر: الزمان الطويل. ما أثبته عن (ك) وأخال الأصوب (منك بيوم).

(٥) هو السيد محمد بن عبدالله الحسيني الموسوي المعروف بكبريت المدني. توفي سنة ١٠٧٠ هـ – (نفحة الريحانة ٤/ ٣٥٥).

أنتَ الذي لو تُشتَرى ساعةٌ منه بدهرٍ لم تكن غالِيَه

وزرت بالمخا ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن عمر الشاذلي[1]، وعليه قبّة عظيمة معتنئ بها غاية الاعتناء، وهو من أتباع السيد أبي الحسن علي بن عبدالله بن عبد الجبار الحسني الشاذلي الكبير المدفون بالحمراء. قال في القاموس: شادلة: قرية بالمغرب، أو هي بالذال - يعني المعجمة - ومنها السيد أبو الحسن الشاذلي أستاذ الطائفة الشاذلية من صوفية الاسكندريّة، وفيهم يقول أبو العباس ابن عطاء:

تمسَّك بحبِّ الشاذليَّة تلقَ ما تروم فحقِّق ذاكَ منهم وحصِّلِ

ولا تَعدُوَنْ عيناكَ عنهم فإنَّهم شموسُ هدىً في أعيُنِ المتأمِّلِ

انتهى كلام القاموس. وفي تاريخ اليافعي: إن أبا الحسن الشاذلي المذكور - يعني الكبير - مبدأ ظهوره بشاذلة على القرب من تونس. قال الشيخ تاج الدين بن عطاءالله: لم يدخل في طريق القوم حتى كاد[2] يعدّ للمناظرة، وكان متضلعاً بالعلوم الظاهرة جامعاً لفنونها، من تفسير وحديث ونحو، وأصول وأدب. وكانت له السياحات الكثيرة. ثم جاءه بعد ذلك العطاء الكثير، والفضل الغزير. واعترف بعلوّ منزلته من عاصره من أكابر العلماء والأولياء العارفين بالله تعالى.

قال: وقيل له من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش (بالشين المعجمة المكررة، وبينهما مثناة من تحت، وفتح الميم في أوله). ثم قال: وأنا الآن لا أنتسب لأحد. انتهى.

قلت: والشيخ عبد السلام المذكور هو أحد أجدادي من قبل الأم، وهو من أكابر صوفية المغرب، وترجمته مشهورة عند أهل المغرب.

وتوفي الشيخ أبو الحسن الشاذلي المذكور سنة ستّ وخمسين وستمائة.

---

(١) هو علي بن عمر بن ابراهيم القرشي الصوفي اليمني الشاذلي، استوطن المخا وتوفي بها سنة ٨٢٨ هـ (الأعلام ٥/ ١٣٢).

(٢) في مرآة الجنان لليافعي ٤/ ١٤٦ (كان) مكان (كاد).

وأمّا هذا أبو الحسن المدفون بالمخا فلم أقف له على ترجمة[١].

والإجماع على أنّه الذي أظهر القهوة المتعارفة في هذا الزمان، التي طبّقت شهرتها العالم. والقهوة في الأصل من أسماء الخمرة، ثم أُطلقت الآن على ما يطبخ من البن، أو قشره.

قيل: وسبب اهتدائه إليها أنّه كانت له لقحة[٢] يسرّحها كل يوم للرعي، وكانت ترعى ثمرة هذه الشجرة، فاستطاب لبنها طعماً وخاصية، فتبعها يوماً فرآها ترعى هذه الثمرة فجنى منها شيئاً وقلاه واستعمله، فأحدث في نفسه نشاطاً وأريحيّة، فواظب على استعماله. ثم طبخه فرآه أجدى من استعماله مقلياً، فلم يزل الأمر يزيد حتى بلغ هذه الشهرة.

وقرأت بخطّ بعض فقهاء اليمن أنها حدثت في القرن الثامن أو التاسع، قال بعضهم أنّها تطيّب النكهة، وتصفّي البدن، وتعين على العبادة.

وأخبرني بعض الأصحاب أنّه وقف على رسالة لبعض فضلاء اليمن في الكلام على تحليلها وخواصها ومنافعها[٣].

قلت: وهي على مقتضى ما ذهب إليه جماعة من الإمامية، ومعتزلة بغداد حرام، لأنهم ذهبوا إلى تحريم الأشياء التي ليست باضطرارية قبل ورود الشرع، وجنح إلى هذا القول الشيخ أبو علي بن أبي هريرة من فقهاء الشافعية، وذهب معتزلة البصرة وباقي الإمامية إلى الإباحة، وتوقّف الأشعري، واختلف في معنى توقّفه. والحق الإباحة، والمسألة أُصولية يطلب تحقيقها من مظانّها. وبالجملة فلم يتوقّف أحد في استعمال هذه القهوة، لا معتزلي ولا أشعري ولا غيرهما والأشاعرة أرغب فيها من غيرهم، وقد تلقتها الأمة بالقبول.

---

(١) تقدم التعريف به في الهامش قبل قليل

(٢) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن.

(٣) في مباحث عراقية ٢/١٨٠ بحث طريف مفيد عن القهوة ومكتشفها وانتشارها وطريقة استعمالها.

والأطباء مختلفون فيها. فمنهم من مدحها وعدّد منافعها، ومنهم من ذمّها حتى إنّي رأيت بعض أطباء العجم ينهى عن استعمالها، وينفّر عنها غاية التنفير. وقد ذكر الشيخ داود[1] في التذكرة خواصها فقال: البن ثمر شجر باليمن يغرس حبّه في آذار، وينمو ويقطف في آب، ويطول نحو ثلاثة أذرع على ساق في غلظ الإبهام، ويُزهر زهراً أبيض يخلف حباً كالبندق، وربّما تفرطح[2] كالباقلاّ، وإذا قشّر انقسم نصفين، وأجوده الرزين الأصفر، وأردؤه الأسود، وهو حارّ في الأولى، يابس في الثانية. وقد شاع برده ويبسه وليس كذلك، لأنّهمرّ وكلّ مرّ حار، ويمكن أن يكون القشر حاراً ونفس البن إمّا معتدل أو بارد في الأولى، والذي يعضد برده عُفُوصَته. وبالجملة فقد جرّب لتخفيف الرطوبات والسعال البلغمي، وفتح السدد، وإدرار البول. وقد شاع الآن اسمه بالقهوة إذا حمّص وطبخ بالغاً. وهو يسكّن غليان الدم. وينفع من الجدري والحصبة والشرى الدموي، ولكنّه يجلب الصداع الدوريّ، ويهزل جدًّا، ويورث السهر، ويولد البواسير، ويقطع شهوة الباه، وربّما أفضى إلى الماليخوليا، فمن أراد شربه للنشاط ودفع الكسل فليكثر معه من أكل الحلو، ودهن الفستق والسمن. وقوم يشربونه باللّبن وهو خطأ يخشى منه البرص. انتهى.

وما ألطف قول الصلاح[3] القرشي في الشيخ أحمد بن عواد[4]:

انَّ ابـنَ عـوَّادٍ لـه قَـهـوةٌ بحُسنِها كلُّ الوَرى يَشهدُ
يَحتارُ مَن ينظرُ في لَوْنها ووَجْهِهِ أيُّهما أسْوَدُ

---

(١) هو داود الأنطاكي الطبيب الأديب المكفوف. توفي سنة ١٠٠٨ هـ (معجم المؤلفين ٤/ ١٤٠).

(٢) المفرطح: العريض.

(٣) في ك (ابن الصلاح) وفي أ (أبي الصلاح).

(٤) ترجم الخفاجي لابن عواد في ريحانة الألباء ٢/ ١٠٧ ترجمة مختصرة ولم يذكر تاريخ وفاته.

ومثله قول البدر البشتكي[1] في التقي ابن حجة الحموي[2] وكان يصبغ ذقنه بالحنَّاء:

صَقيعٌ دَعاوِيه لا تَنتَهي ... ويُخطي الصَّوابَ ولا يَشعُرُ

تفكَّرتُ فيه وفي ذَقنِهِ ... فلم أدْرِ أيُّهما أحْمَرُ

وقد أكثر الشعراء من النظم في هذه القهوة، فمن ذلك للفاكهي[3]:

اشرَب القَهوةَ صِرْفاً ... تَجد الصَّفوَ مِزاجا

واذكر الله عَليها ... تَشهد الأُنسَ سِراجا

وقلت أنا من أول نظمي فيها[4]:

يا قهوةٌ قِشْريَّةٌ ... حكَتِ النُّضارَ بلَوْنِها

ولكَمْ حَباكَ حَبابُها ... بخَلاصِها ولُجَيْنِها

جُلِيَتْ عليَّ مَصُونةٌ ... بزَفافِها وبصَوْنِها

وكأنَّ كلَّ حَبابَةٍ ... تَرنُو إليَّ بعَيْنِها

وقال آخر وأبدع في الجناس:

هاتِ اسقِني قهوةً فَضَحَتْ ... بِكرَ المُدام وشَنِّف لي الفَناجِينا

تَدعُو إلى نَحو ما فيه البَقاءُ ولو ... دَعت إلى نحو ما فِيه الفَناجِينا

لو أنَّ ألفاً أحاطُوا حولَ ساحتِها ... قَصْدَ النَّجاةِ رأيتَ الألفَ ناجِينا

---

(١) هو أبو البقاء محمد بن ابراهيم المعروف بالبدر البشتكي. توفي سنة ٨٣٠ هـ (أنوار الربيع ١/١٢٨).

(٢) هو أبو بكر بن علي المعروف بتقي الدين ابن حجة الحموي. توفي سنة ٨٣٧ هـ، وقيل ٨٣٨ (أنوار الربيع ١/١٢٣).

(٣) لعله محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الناظم الناثر اللغوي المتوفى سنة ٩٢٢ هـ (معجم المؤلفين ٨/٢٩٨).

(٤) في ع (وقال آخر وأبدع في الجناس) وهو وهم من الناسخ. يلاحظ العنوان الذي بعده.

وزاد عليها زين العابدين الطبري[1] فقال:

يا ربَّةَ الحُسنِ حَلِّيْنا جِماكِ فإنْ نَطلُبْ فجُودي وإنْ نَمْأل فَناجِينا

وأنشد الشيخ البهائي[2] في الكشكول لبعضهم:

يَقولونَ لي قهوةُ البُنِّ هلْ تُباحُ وتُؤمَنُ آفاتُها
فقلتُ نعم هيَ مأمونَةٌ وما الصَّعبُ إلاَّ مُصافاتُها

وقال آخر، وعزاه بعضهم إلى الشريف حسن بن أبي نمي والي مكّة[3]:

شَربنا قهوةً من قِشرِ بُنٍّ تُعينُ على العِبادةِ للعِبادِ
حكَتْ في كفِّ من أهواهُ صِرْفاً زُباداً ذائِباً وسطَ الزُّبادِ[4]
وعادات الظِّبا تأتي بمسكٍ وهذا الظبي يأتي بالزَّبادِ[5]

وفي تذكرة العلامة جمال الدين بن صدر الدين بن عصام الدين[6] قال: حدثني صديقي وتربي أمام المحراب النبوي الشيخ ابراهيم بن الشيخ يحيى بن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ أحمد بن الشيخ ابراهيم بن الشيخ الأجل جلال الدين الحميدي الإمام العلامة، قال: قرأت على باب قهوة بالشام هذين البيتين على لسان القهوة[7]:

---

(١) هو زين العابدين بن عبد القادر الطبري إمام المقام الابراهيمي بمكة. توفي سنة ١٠٧٨ هـ (سلافة العصر / ٥٠، وخلاصة الأثر ٢/ ١٩٥).

(٢) هو بهاء الدين محمد بن الحسين الحارثي المتوفى سنة ١٠٣١ هـ (أنوار الربيع ٤/ ١٢٩).

(٣) هو الشريف حسن بن محمد بن بركات بن محمد بن أبي نمي. توفي سنة ١٠١٠ هـ (الأعلام ٢/ ٢٣٥).

(٤) الزباد (بالضم وتشديد الباء، ويجوز تسهيلها عند الضرورة الشعرية): لغة في الزبد، وهو خلاصة اللبن، ونبت سهلي له ورق عريض يأكله الناس وهو طيب.

(٥) الزباد (بالفتح): نوع من الطيوب يستخرج من حيوان كالهر يسمّى (سنّور الزباد).

(٦) هو جمال الدين بن صدر الدين اسماعيل العصامي. ترجم له شهاب الدين الخفاجي في ريحانة الألباء ١/ ٤١٧ ولم يذكر تاريخ وفاته.

(٧) البيتان في ريحانة الألباء ١/ ٤١٩، وأنوار الربيع ٥/ ٩٦، و ١١١ منسوبان لمحمد =

أنا المعشوقة السَّمْرا وأُجْلى في الفَناجينِ
وعُود الهندِ عَطَّرني وذكري شاعَ في الصِّينِ

نكتة لطيفة: قال السيد الأديب محمد كبريت المدني(*) في رحلته: يحكى أنّ بعض الصالحين قال لمسيح باشا وقد أمر بإبطال القهوة: لا تبطل أصلاً، قال: ولم؟ قال: لأن حسابها موافق لاسم الله تعالى (القوي) يعني أن كلاًّ منهما له من العدد مائة وستة عشر، فلها منه الاستمداد، فأمرها وشأنها قوي، وكان كذلك. انتهى.

وقال أيضاً: لفظ (جبا) لا أعرف له أصلاً، إلاّ أنّه يستعمل بمعنى الهبة[1]، فكأنه يقول: خذها هبة لك مني.

قال: واستخرج بعضهم لطيفة من ذلك وهي أن لفظ (جبا) عدد ستة، فكأنّ القائل يقول: جلبت لك الصفاء من الست الجهات وحياته هبة مني لك فاقبله. انتهى.

قلت: لم أسمع في عمري بأسمج من هذه اللطيفة، ولا يخفى غموض هذا الاستنباط، والذي بلغني في هذا المعنى: أن الشيخ الشاذلي كان له غلام يهيء له القهوة في كلّ يوم، وكان اسم الغلام (جبا) فإذا أتى بالقهوة إلى الشيخ قرع عليه باب الخلوة، فيقول الشيخ: من هذا، فيقول: جبا، فبقي ذلك سنّة إذا جيء بالقهوة قيل: جبا، وهذا ألطف ما سمعت به في هذا المعنى والله أعلم.

المفتي أبو السعود[2]:

= البكري، أو لمحمد ماماي (أو مامي) الرومي.

(١) كانت كلمة (جبا) مستعملة في العراق إلى ما بعد سنة ١٩٢٥ م وذلك عندما يقدم صاحب المقهى الشاي، أو القهوة المرة إلى أحد الزبائن يكرّر عارفوه من الجالسين كلمة (وير) وهي تركية، فيجيب القهواتي بكلمة (جبا من أبي فلان) - ويعيّن اسم أحدهم - وعندها يكون الرجل المعين ملزماً بدفع الثمن.

(٢) هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، من علماء الترك المستعربين وله شعر مقبول. توفي سنة ٩٨٢ هـ (الأعلام ٧/٢٨٨).

أقولُ لأصحابي عن القَهوة انْتَهوا ولا تَجلسُوا في مجلسٍ هيَ فيه
وما ذاكَ عن بُغضٍ ولا عن كراهةٍ ولكن غَدَتْ مشروبَ كلِّ سَفِيهِ

غريبة: وفي أيام إقامتنا بالمخا انقضَّ كوكب عظيم هائل من جهة الجنوب إلى الشمال بعد المغرب فأضاءت له الدنيا وهو كشعلة النار، وترك وراءه ضياءً مستطيلاً جداً، وفي مثله يقول الأديب أبو محمد بن سارة من شعراء المغرب[1].

وكوكبٍ أبْصرَ العِفريتَ مُستَرِقاً للسَّمعِ فانْقَضَّ يُذكي اثرهُ لَهَبَه[2]
كفارسٍ حلَّ إعْصارٌ عمامَتَهُ فجرَّها كلُّها من خَلفِه عَذَبَه

فائدة: وهذا الكوكب هو الشهاب الذي أشار إليه تعالى بقوله ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[3]. قال الشيخ البهائي(*) في المفتاح[4]: والشهاب ما يرى كأنه كوكب انقضّ، وما خمّنه الطبيعيون من أنه بخار فيه دهنيّة يصعد إلى كرة النار فيشتعل لم يثبت. ولو صحّ لم ينافِ ما دلّت عليه الآية الكريمة، ولا ما دل عليه قوله جلّ شأنه ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[5]. فإن المصباح والشهاب يطلقان على المشتعل، وكلّ مشتعل في الجوّ زينة للسماء، ولا استبعاد في إصعاد الله سبحانه ذلك البخار الدهني عند استراق الشيطان السمع، فيشتعل ناراً فتحرقه، وليس خلق الشيطان من محض النار الصرفة، كما أن خلق الإنسان ليس من محض التراب، فاحتراقه بالنار التي هي أقوى من ناريته. ولعل الشياطين لا يسمعون كلام

---

(١) هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن ساره (ويقال أيضاً: صارة البكري. توفي سنة ٥١٧ هـ (أنوار الربيع ٥/ ١٨٢).

(٢) في نفح الطيب ٢/ ٦٥٢ (يدني خلفه لهبه).

(٣) سورة الصافات / ١٠.

(٤) هو مفتاح الفلاح للبهائي مطبوع عدة طبعات. قال الأمين في أعيان الشيعة ٤٤/ ٢٤٢: لنا على الطبعة المصرية بعض الحواشي.

(٥) سورة الملك / ٥ .

الملائكة إلاّ إذا انتهوا في الصعود إلى قرب كرة الأثير، فإذا استرق الشيطان السمع وبادر إلى النزول لحقه الشهاب فأحرقه، لذلك عبّر سبحانه عن انتهاء الشهاب إليه باتباعه له. انتهى.

وحكي السيوطي[١] في المحاضرة[٢]: أن في سنة ثلاث عشرة وثلثمائة في آخر المحرم انقضّ كوكب من ناحية الجنوب إلى الشمال قبل مغيب الشمس، فأضاءت الدنيا منه وسمع له صوت كصوت الرعد.

وفي بغية المستفيد[٣] أن في ليلة الاثنين الخامس من شهر جمادى الأولى سنة ست عشرة وتسعمائة انقضّ كوكب عظيم قريباً من نصف الليل آخذاً في الشام وأضاءت الدنيا لذلك إضاءة عظيمة، حتى لو أنّ الإنسان حاول رؤية الذرّ بذلك الضوء لم يمتنع عليه، ثم غاب في الجهة الشامية، وبقي أثره في السماء ساعة[٤] طويلة.

وفيها في حوادث سنة أربعين ومائة تناثرت النجوم كالمطر نحو المغرب من أوّل الليل إلى الصبح، وعوفي في تلك الليلة كثير من المجانين فأصبحوا لا بأس بهم.

فائدة: قرأت بخط بعض الفضلاء ما نصّه: أخبرني بعض الثقات عن بعض الأعراب أنّه قال: إذا انقضّ بعض الكواكب ونظر إليه الشخص حال انقضاضه واضعاً في فيه بعض أصابعه - إصبعاً فما فوقه - قائلاً عند وضع الأصابع أو الإصبع: اللّهم صل على محمد وآل محمد، يكرر الصلاة ثلاثاً أو

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (معجم المؤلفين ٥/١٢٨).

(٢) الاسم الكامل للكتاب (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) مطبوع.

(٣) هو بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، لابن الديبع الشيباني (عبد الرحمن بن علي) تقدم التعريف به.

(٤) كذا ورد في الأصول، ولعلها (ساعات) أو أنه أراد بها: الوقت والحين غير المحدود.

أكثر، ويعقبها بالتكبير ثلاثاً أو أكثر أمِنَ من وجع العين سنة إن كان وضع إصبعاً واحداً، وسنتين إن كان وضع إصبعين وهكذا. وأخبرني أنه واظب على ذلك نحو عشرين سنة فسلم من وجع العين. انتهى.

قلت: وقد جرّبت أنا ذلك فوجدته صحيحاً.

ومن الحوادث السماوية الغريبة ما حكاه اليافعي في حوادث إحدى وستين ومائة: أنه رأى الناسُ قمراً ثانياً في السماء، وكان يُرى ذلك في مسيرة شهرين، فسبحان الفعال لما يشاء.

وأغرب من ذلك ما حكاه في البغية: أنّ في خامس شعبان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ظهر عمود من نور في ناحية المشرق كان يرى كالمنارة الكبيرة. ووقف مكانه لا حركة له إلى يوم العشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين، ولم يزل ينحلّ قليلاً قليلاً قليلاً حتى غاب، وكان من تأثيره - بقدرة الله تعالى - حصول موت عظيم في البلاد المرتفعة عن تعز، كجُحاف، ووَصاب، وصهيب[1] وما والاها من المشرق حتى كان يمرّ المار بالقرية فيجد الأنعام سائمة والآدميين موتى في منازلهم لا يتولّى دفنهم أحد البتّة، فسبحان من هذا صنعه.

رجع: وبعد انقضاء الموسم بالمخا وذهاب جميع السفن عنها خليت عمّن رأيناه بها من الأكابر، فلم يبق فيها سوى رعاع أهلها من السوقة وغيرهم، حتى أن واليها والسيد المقدّم ذكره لم يقم بها، بل فارقها وأناب منابه غيره، فوجدنا لذلك من الوحشة والغربة ما ضاعف علينا الكربة، مع سوء عشرة الأتباع الذين كانوا في صحبتنا، وعدم الألفة والأنس بهم. وقد كتبت إلى

---

(١) (صهيب) كذا ورد في الأصول ولمأجد لها ذكراً فيما تيسر لي من كتب البلدان. وجاء في معجم ياقوت (صِهيد): مفازة بين اليمن وحضرموت، وفيه أيضاً وفي معجم ما استعجم (صَيْهد): أرض باليمن منحرفة ما بين بيحان فمأرب فالجوف ...) وجاء في الإكليل ١٢١/١: أنها بلدة وأفاض المحقق في وصفها ووصف بيحان ومأرب والجوف.

الوالد بهذين البيتين مشيراً إلى سوء أخلاقهم وهما لابن بسام[1]:

لقدْ صبرتُ على المكروهِ أسمعُهُ   من مَعشرٍ فيكَ لولا أنتَ ما نطقُوا

وفيكَ داريتُ قوماً لا خلاقَ لهم   لولاكَ ما كنتُ أدري أنَّهم خُلِقوا

فبلغني أنه أعجب باستشهادي بهما. ولله درُّ القائل[2]:

وما غربةُ الإنسانِ في شُقَّة النَّوى   ولكنَّها والله في عَدَمِ الشَّكْلِ[3]

وإنِّي غريبٌ بين بُسْتَ وأهلِها   وإن كان فيها أُسرَتي وبها أهْلي

وقد مسخ هذين البيتين السيد الحسن بن شدقم الحسيني فقال[4]:

وليس غريباً من نَأى عن ديارِه   إذا كانَ ذا مالٍ ويُنْسبُ للفَضلِ

وإنِّي غريبٌ بين سُكَّان طَيبةٍ   وإن كنتُ ذا مال وعلمٍ وفي أهْلي

وليس ذهابُ الرُّوح يوماً منيَّةٌ   ولكن ذهابُ الرُّوح في عَدم الشَّكلِ

وكنت أعاشرهم معاشرة مداراة لا مماراة، ومحاسنة لا مخاشنة، والحال معهم كما قال أبو الفتح البستي(*):

يقولونَ لي عاشَرتَنا ووصَلْتَنا   وهيهات أينَ القومُ منِّي ومن جنسي

وكيفَ وصالي فِرقةٌ فَرقُ بَينهم   وبَيْني كفَرْقِ الجنِّ من فِرَقِ الأنسِ

ومن كلام أمير المؤمنين علي (ع): من سالم الناس سلم منهم، ومن حارب الناس وحاربوه فإن العزّة للكاثر.

وكان يقال: العاقل خادم الأحمق أبداً، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرب إليه بُدًّا، وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكشاف سرّه بدًّا.

---

(١) هو علي بن محمد بن بسام البغدادي المتوفى سنة ٣٠٢ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٣٧٢).

(٢) الشعر لأبي سليمان الخطابي (حمد بن محمد) المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (معجم المؤلفين ٤/ ٧٤).

(٣) في يتيمة الدهر ٤/ ٣٣٥ (وما غمة الإنسان).

(٤) السيد حسن بن شدقم الحسيني المدني، هاجر إلى الهند ولقي حظوة عند أحد ملوكها وبها توفي سنة ١٠٤٦ هـ (نفحة الريحانة ٤/ ٣٢٧).

ومن كلام محمد ابن الحنفية - رض -[1] قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه.

وقال الحسن: حسن السؤال نصف العلم، ومداراة الناس نصف العقل، والقصد في المعيشة نصف المؤنة. **وقال الشاعر وهو لسان الحال:**

وأنزَلَني طولُ النَّوى دارَ غُربةٍ   متى شئتُ لاقيتُ أمرأً لا أشاكِلُهْ[2]

أُحامِقُهُ حتى يُقالَ سَجيَّةٌ   ولو كانَ ذا عَقلٍ لكنتُ أُعاقِلُهْ

وكانت تهب بالبندر المذكور ريح عاصف لا تسكن ليلاً ولا نهاراً، حتى أنّه لا يمكن الخروج معها من البيوت إلاّ اضطراراً، ويسميها أهل اليمن (الأزيب)[3] - كأحمر - وهي الجنوب المقابلة للشمال، وتسمى النعامى، وما أحسن قول ابن القيسراني[4]:

بالسَّفحِ من نَعْمان لي   قمرٌ مَنازِلُهُ القُلوبُ[5]

حملت تحيَّتَه الشما   لُ فردَّها عنِّي الجَنُوبُ

فَرْدُ الصِّفاتِ غَريبُها   والحسنُ في الدُّنيا غَريبُ

لم أنسَ ليلةَ قالَ لي   لمَّا رأى جَسدي يذُوبُ

باللهِ قُل لي من أعلَّك   يا فَتى قلتُ الطَّبيبُ

فائدة: الرياح المعروفة أربعة: الصَّبا والدَّبور والشمال والجنوب. أمّا الصَّبا وتسمّى القَبول، فهبوبها من مطلع الشمس. قال القزويني[6]: وهي قريبة

---

(١) هو محمد بن أمير المؤمنين علي (ع). توفي سنة ٨١ هـ وقيل غير ذلك (الأعلام ٧/ ١٥٢).

(٢) البيتان في عيون الأخبار ٣/ ٢٤ بدون عزو أيضاً وفي روايتهما اختلاف بسيط.

(٣) في القاموس (الأزيب: الجنوب، أو النكباء تجري بينها وبين الصَّبا).

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن نصر المعروف بالقيسراني. توفى سنة ٥٤٧ (أنوار الربيع ١/ ١٣٠).

(٥) الأبيات في وفيات الأعيان ٤/ ٨٣ وفي روايتها اختلاف.

(٦) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ (الأعلام ٣/ ٨٠). والقول في كتابه عجائب المخلوقات / ٦٣.

إلى الاعتدال، فإن كان هبوبها في أول النهار فهي مائلة إلى البرد، لأنّها تمرّ على مواضع باردة، بردت ببعد الشمس عنها بالليل فتكون طيبة جداً إلا أنّ زمانها قليل، لأن شعاع الشمس يسوقها من خلفها، فإذا أشرقت الشمس ساقتها إلى قدامها فلا زالت تمرّ قدّام الشعاع والشمس تلطّفها وتسخنها بحرّها وضيائها حتى تصير معتدلة، وهي النسيم التي تُدعى: الريح السحرية يلتذ الإنسان بها، فإذا مسّته يطيب له النوم عليها.

قلت: وعلى ذلك فما ألطف قول الملك عضد الدولة[1]:

وقالوا أفِقْ من لذّة اللّهو والصِّبا فقد لاحَ صبحٌ في دُجاكَ عجيبُ

فقلتُ أخلاَّئي دَعوني ولذَّتي فإنَّ الكَرى عندَ الصَّباح يَطِيبُ

والمريض والمكروب يجد عند هبوب هذه الريح راحة، فهبوبها بالاسحار من الليل والغدوات من النهار، لأنّ في هذا الوقت اعتدال الهواء لاختلاط برودة الليل بحرارة النهار.

طريفة: حكى أبو الفرج في الأغاني قال: إن أهل المجنون[2] خرجوا به معهم إلى وادي القرى قبل توحُّشه ليمتاروا خوفاً عليه من أن يضيع ويهلك. فمرّوا في طريقهم بجبلي نعمان، فقال بعض فتيان الحي: هذان جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزل بهما، قال: فأيّ الرياح تأتي من ناحيتهما؟ قالوا: الصّبا، قال: فوالله لا أريم هذا الموضع حتى تهبّ الصّبا. فأقام ومضوا، فامتاروا لأنفسهم، ثم أتوا عليه فأقاموا معه ثلاثة أيّام حتى هبّت الصّبا، فانطلق معهم وأنشأ يقول:

أيا جَبَلَيْ نَعمان بالله خَلِّيا نسيمَ الصَّبا يَخْلُصْ إليَّ نَسيمُها

أجِدْ بَرْدَها أو تَشفِ منِّي حَرارةً على كبدٍ لم يبقَ إلاَّ صَميمُها

---

(١) هو أبو شجاع فناخسرو عضد الدولة بن الحسن بن بويه الديلمي. توفي ببغداد سنة ٣٧٢ هـ (أنوار الربيع ٤/ ٢٥٥).

(٢) هو قيس بن الملوح (مجنون ليلى). توفي سنة ٦٨ هـ ، وقيل غير ذلك (الأعلام ٦/ ٦٠ وأنوار الربيع ١/ ٣٧٦).

فإنَّ الصَّبا ريحٌ إذا ما تنفَّسَت   على نفس مكروبٍ تجلَّت همومُها[1]

وقد أكثرت الشعراء من ذكر الصَّبا، فمن أحسن ما سمعت به في هذا الباب قول بعضهم:

ناشَدتُك الله نسيمَ الصَّبا   من أينَ هذا النَّفسُ الطَّيِّبُ

هل أنتَ من لَيلى رسولُ الرِّضا   أم أنتَ عن أسرارِها تُعرِبُ[2]

أم جُزتَ في أرضٍ بها قد مَشَتْ   أم ثَغرُها قَبَّلكَ الأشْنَبُ

فهاتِ أتحِفْني بأخبارها   فعهدُكَ اليومَ بها أقربُ

ومما هو أرقّ من النسيم قول ابن المعلم الواسطي[3] من قصيدته المشهورة:

تنبَّهي يا عذباتِ الرَّندِ   كم ذا الكَرى هبَّ نسيمُ نَجدِ

مرَّ على الرَّوضِ وجاء سَحَراً   يَسحبُ بُردَيْ أرَجٍ وبَرْدِ

حتى إذا عانقتُ منه نفحةً   عاد سَمُوماً والغرامُ يُعْدي[4]

واعجَبا منِّيَ أسْتَشفى الصَّبا   وهَل تزيدُ النارَ غيرَ وَقْدِ[5]

والقصيدة كلّها على هذا النسق الذي فاق الدرر في أسلاكها، والدراري في أفلاكها، وقد اقتفيت أثره فقلت:

سَل الدِّيارَ عن أُهَيْلِ نَجدِ   إنْ كانَ تَسْآلُ الدِّيارِ يُجدي

وقِفْ بها نبكِ الطُّلولَ ساعة   لعلَّه يَشفي غَليلَ وَجْدي[6]

---

(١) في الديوان والأغاني ٢/ ٢٤ (إذا ما تنسمت على نفس محزون).

(٢) في ك (بشير الرضا).

(٣) هو أبو الغنائم محمد بن علي الواسطي المعروف بابن المعلم. توفي سنة ٥٩٢ هـ (أنوار الربيع ٣/ ٧٨).

(٤) في خريدة القصر - القسم العراقي - ٤/ ٤٣٩ (نفحَةً) مكان (نفحةٌ).

(٥) في خريدة القصر (وما تزيد النار).

(٦) ورد البيت في ديوان المؤلف هكذا:

مناَزِلٌ قد حُزتُ فيها أرَبي 	ونلتُ سُؤلي وقضيتُ وعدي
ما عنَّ لي ذكرُ زمانٍ قد مَضى 	في ظلِّها إلاَّ أهاجَ وَقْدي[1]
أصْبو من الهند إلى نَجدٍ هَوىً 	وأينَ نجدٌ من ديارِ الهندِ
وألتَقي كلَّ رياحٍ خطرَتْ 	أحسَبُها ليلاً نسيمَ نَجْدِ
آهِ من البَين المُشتِّ والنَّوى 	كم قرَّحا من كَبدٍ وخَدِّ
فهل تَرى ينتظمُ الشَّملُ الذي 	قد نثرَتْه البينُ نثر العِقْدِ
وهل لأيَّام الصَّبا من مَرجعٍ 	أمْ هل لأيَّام النَّوى من بُعدِ[2]
أنوحُ ما ناحَ الحمامُ غُدْوَةً 	هيهات ما قَصد الحمَام قَصدي
أبكي وتَبكي لوعةً وطرَباً 	وما بكاءُ الهَزْلِ مثلَ الجدِّ
ظنَّت حماماتُ اللِّوى عشيَّةً 	في الحبِّ أنَّ عندَها ما عِندي
تبكي على غُصْنِ النَّقا لهواً ومَن 	شَبَّه غصناً في الهَوى بقَدِّ[3]
شتَّان ما بين جوٍ وفَرِحٍ 	وبينَ مُخفٍ سِرَّهُ ومُبْدِي
ما مَشربي صافٍ وإنْ ساغ ولا 	عَيشيَ من بَعد النَّوى برَغْدِ
سلْ أدمُعي عمَّا تُجنُّ أضلُعي 	فالقلبُ يُخفي والدموعُ تُبْدي
كم أنشُدُ الروضَ إذا هبَّت صباً 	(تَنبَّهي يا عذباتِ الرَّنْدِ)

وأما الدبور فتقابل الصَّبا، لأنّ هبوبها من مغرب الشمس، وخواصها مخالفة لخواص الصَّبا، لأنّها تهبّ والشمس مدبرة عنها فلا تسخنها تسخين الصَّبا. وهبوبها في آخر النهار ولا تهبّ قبله، ولا [تهبّ][4] بالليل لأن الشمس

= وقف بهاتيك الرسوم ساعة 	لعلّه يطفي لهيب وجدي

(١) في الديوان (بظلها إلاّ وهاج).

(٢) في الديوان (رجعة) مكان (مرجع).

(٣) رواية الديوان للبيت كالآتي:

تلهو على غصونها ومهجتي 	تصبو إلى تلك القدود والملدِ

(٤) في الأصول (ولا تهب قبل ولا بالليل) والتصويب من عجائب المخلوقات / ٦٣.

تبلغ محلّ مهبّها في ذلك الوقت، فتتحلّل البخارات منه، ولذلك يكون هبوبها قليلاً جدًّا وأمّا الشمال فهي من ناحية الشام، وهبوبها من نحت بنات نعش، وهي باردة يابسة لأنّها تأتي من الجهة التي لا تسامتها الشمس أصلاً بل لا تقربها، ويكون الثلج وجمود الماء بها كثيراً، وهي أشد هبوباً من الجنوب لأنَّها تهب من موضع ضيّق كالماء الذي يخرج من الأنبوب الضيّق بخلاف الجنوب - كذا في عجائب المخلوقات للقزويني.

والذي رأيناه في اليمن: ان الجنوب أشدّ هبوباً من كلِّ الرياح، فلعلّ ذلك في غير اليمن، وتكون العلة ظاهرة حينئذٍ، لأن الجنوب يمانيّة - كما سنذكره - وقد ذكرت الشعراء الشمال في أقوالها، فمن ذلك قول سيّدنا الشريف الرضي رضي الله عنه(*) من قصيدة:

وهبَّتْ لأصحابي شَمالٌ لطيفةٌ قريبةُ عهدٍ بالحبيب بَليلُ
تَرانا إذا أنفاسُنا مُزِجَتْ بها نُرنَّحُ في أكوارنا ونميلُ
ولم أرَ نَشوى للشَّمالِ عشيَّةً كأنَّ الذي غالَ الرُّؤوسَ شَمولُ

قال النواجي[1]: وتجمع الشمال على شمائل، ولذا حسن به التورية، ومنه قول الشيخ شمس الدين محمد الأرموي[2]:

كم للنَّسيم على الرُّبى من نعمةٍ وفضيلةٍ بين الوَرى لن تُجحَدا
ما زارَها وشكَتْ إليه فاقَةٌ إلاَّ وهزَّ لها الشمائِلَ بالنَّدى

وكان الصاحب بن عباد رحمه الله يترنَّم بقول أبي نواس(*):

هبَّتْ لنا ريحٌ شَماليَّةٌ متَّتْ إلى القلبِ بأسْبابِ[3]

---

(١) هو شمس الدين محمد بن حسن النواجي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ (معجم المؤلفين ٩/ ٢٠٣).

(٢) لعله شمس الدين محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن ظفر العلوي الحسيني الأرموي المصري المعروف بقاضي العسكر المتوفى سنة ٦٥٠ هـ (الوافي بالوفات ٣/ ١٧. في خزانة ابن حجة / ٣٥٠ ، وأنوار الربيع ٥/ ٨٦ (شمس الدين الأدفوي).

(٣) البيتان في حلبة الكميت للنواجي / ٣١٧ وخزانة ابن حجة / ٢٢٤ منسوبان لأبي نواس ولا وجود لهما في ديوانه.

أدَّتْ رسالاتِ الهَوى بَينَنا عرفتُها من بينِ أصحابي

قال في الحلبة: والله إنَّ الصاحب لمعذور، فإنّ هذا مما يرنّح الجماد.

وقال ابن حجة في تقديمه[1] بعد أن مثّل بهما لنوع النوادر: وقد جارى أبا نواس في بديع هذا النوع ونادرة هذا المعنى محيي الدين الخياط[2]، ولولا الحياط[3] لقلت إنّه أحرز قصبات السبق عليه حيث قال:

يا نسيمَ الصَّبا الوَلُوعَ بوَجدي حبَّذا أنتَ إنْ مررتَ بهِنْدِ[4]

ولقد رابَني شَذاكَ فبِاللّهِ متَى عهدُهُ بأطْلالِ نَجدِ

قال: بين (ولقد رابني شذاك)، وبين (عرفتها من بين أصحابي) معرك ذوقيّ لا يُدركه إلاّ من صفت مرآة ذوقه في علم الأدب. انتهى.

وأما الجنوب فتقابل الشمال وهي من ناحية اليمن، وهي حارة رطبة، لأنّ هبوبها من ناحية خطّ الاستواء، والحرّ هناك مفرط، لأنّ الشمس تسامتها في السنة مرتين، ولا تباعد عنها فتزداد بذلك حرًّا، وايضاً هذه الجهة كثيرة البخار فتبخر الشمس منها أبخرة كثيرة رطبة، فتكتسب الجنوب منها الرطوبة، وهي ترخي الأبدان وتحدث ثقلاً في الأسماع وغشاوة في الأبصار، وتورث الكسل ومن العجب أنّ الجنوب إذا هبّت على المار الحار برّدته، والشمال تتركه على حرارته كما كان.

قالوا: سبب ذلك أنّ عند هبوب الشمال تكمن الحرارة في داخل الماء

---

(١) سمّى ابن حجة الحموي شرحه لبديعيته التي احتواها كتابه خزانة الأدب (تقديم أبي بكر).

(٢) في خزانة ابن حجة / ٢٢٤ (بدر الدين) مرة، و (مجير الدين) أخرى، والبيتان اللذان سيذكرهما المؤلف من قصيدة لأبي عبدالله أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقي المتوفى سنة ٥١٧ هـ وموجودة في ديوانه. تراجع ترجمته ومصادرها في أنوار الربيع ٤/١٢٧ ومقدمة ديوانه لخليل مردم.

(٣) في ع (الحياء) مكان (الحياط)، والحياط: التحفّظ.

(٤) في الديوان (مررت بنجد) وتأتي قافية البيت الثاني (بأطلال هند).

كما نرى في الشتاء، فإن الحرارة تكمن في جوف الأرض، فيبقى داخلها حاراً. وأمّا عند هبوب الجنوب فالحرارة تخرج من داخل الماء كما نرى في الصيف فإنّ الحرارة تخرج من جوف الأرض إلى ظاهرها، ويبقى (داخلها بارداً يعود إلى طبعه)[١]، والعرب تحمد الجنوب لأنّها تنشيء السحاب، ويزعمون أنّ اللواقح إنما تكون من الجنوب، ولا مطر مع شيء من الرياح، والله أعلم. انتهى من عجائب المخلوقات.

وكلّ ريح انحرفت عن مهابّ هذه الرياح الأربع فوقعت بين ريحين منها فهي نكباء، وجمعها: نُكُب. ونظم بعضهم مهاب الرياح فقال:

شَمِلَت بشامٍ والجَنوبُ تيامَنَتْ وصباً بشَرقٍ والدَّبُور بمغربِ

فائدة سنيّة: قال العلامة بدر الدين الدماميني[٢] في شرح التسهيل: قال ابن هشام: سألني سائل، من أين تهبّ الصَّبا؟ فأنشدته[٣]:

ألـم تَعلَمي يا عَمرَكِ الله أنّني كريمٌ على حينَ الكرامُ قَليلُ

وأنّيَ لا أخزَى إذا قِيل مُمْلِقٌ سخيٌّ وأخْزى أن يُقالَ بَخيلُ

ولم يزد على ذلك، وفيه غموض فتنبّه. انتهى.

وقال في شرح المغني بعد حكايته ذلك: وجه صلاحية هذا للجواب، إنه اشتمل على بناء (حين) المضافة إلى الجملة في قوله (على حين الكرام قليل). فأشار به بيت مشارك له في هذا الحكم، وهو قول الشاعر:

إذا قلـتُ هـذا حيـنَ أسلـو يُـهيـجُـني

نسيمُ الصَّبا من حيثُ يطّلع الفَجر[٤]

---

(١) كذا ورد في الأصول، وجاء في عجائب المخلوقات (داخلها بارداً، فخرجت الحرارة من داخل الماء عند هبوب الجنوب، والماء في نفسه بارد يعود إلى طبعه).

(٢) هو محمد بن أبي بكر المخزومي الاسكندري المعروف بابن الدماميني. توفي سنة ٨٢٧ هـ (أنوار الربيع ٢/٥٦).

(٣) البيتان من شواهد مغني اللبيب لابن هشام، براجع الشاهد (٧٨٠).

(٤) يراجع مغني اللبيب أيضاً، الشاهد (٧٧٩).

حيث قيل فيه (حين أسلو) فبنى (حين) المضافة إلى الجملة، ولا يخفى أن هذا البيت المشار إليه بإنشاد ذينك البيتين صريح في ذكر محل الصبا، إذ قيل فيه (نسيم الصبا من حيث يطّلع الفجر). فظهر المقصود ولله الحمد. انتهى.

رجع: ثم لم نزل نقاسي محن الغربة، ونكابد إحن الكربة، وقد طالت أيّام البين والنوى، واضطرمت لواعج الوجد والجوى، نتجرّع من كأس الاغتراب ما هو أمرّ من العلقم، ونعاني من بأس الاكتئاب ما يهون عنده نهش الأرقم. إذا عنَّ التذكّر لما مضى تزايدت آلام الحزن والأسى، وإذا اعترض التفكر فيما حلَّ به القضا، قطعنا الأيّام بلعلّ وعسى. فواهاً لتلك الأعوام التي مضت كيف انقضت، وآهاً من هذه الأيام. (التي برت كيف انبرت[1]).

وهكذا الدّهرُ ما زالّت نوائِبُهُ تقلِّب المرءَ بين الصَّفو والكَدَرِ

ولقد كنت أبرز إلى تلك الحدائق الأنيقة، وأتنقَّل فيها من حديقة إلى حديقة، لعلّي أجد بذلك سلوة عمّا أنا فيه، وهيهات ما لمثلي وللتسلّي أنّي إذن لسفيه. فأعود وقد تضاعفت بواعث الهمّ والتذكار، وترادفت نوابث الغمّ والأفكار.

وما ذاتُ طوقٍ في فُروعِ أراكةٍ لها رنّةٌ تحتَ الدُّجى وصُدوحُ[2]
ترامَتْ بها أيدي النَّوى وتمكّنت بها فُرقةٌ من أهلها ونُزُوحُ
فحلَّت بزوراءِ العراقِ وزغبُها بعُسْفانَ ثاوٍ منهمُ وطليحُ
تحنُّ إليهم كلَّما ذرَّ شارقٌ وتسجعُ في جُنح الدُّجى وتَنوحُ
إذا ذكرَتْهم هيَّجت ذا بَلابلٍ وكادَتْ بمكتوم الغَرام تَبوحُ
بأبرحَ من وجدي لذِكرى أحبّتي إذا لاحَ برقٌ أو تنسَّمَ ريح[3]

---

(١) في ك (التي مرت كيف انمرت).

(٢) الشعر لأبي منصور فخر الدين عيسى بن مودود صاحب تكريت المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (وفيات الأعيان ٣/ ١٦٦).

(٣) في وفيات الأعيان (بأبرح من وجدي لذكراكم متى - تألق برق...).

ولم نزل من أمرنا على غمَّة، ومن دهرنا في ليالٍ مدلهمّة، لا نعرف لمآلنا قبيلاً من دبير، ولا نجد لما تتشوّفه من الخبر من يقول على الخبير. حتى وافت البشائر، ونصبت للتهاني الأشائر، بأن قد أقلع ذلك السحاب، وجاء من ألطاف الله تعالى ما لم يكن في الحساب، وصفت الأحوال، وسكنت الفتن، فسكن الفؤاد عند ذلك واطمأن. وأخذنا في أهبة السفر مستبشرين بالنيل والظفر، زاعمين أن في وصولنا إلى تلك الدار أمناً من شوائب الدهر والأكدار، والقضاء يقول من مكمنه: قد يؤتى الحِذر من مأمنه.

ليتَ الذي عَلِقَ الرجاءُ به	إذْ لم يَجُدْ للصَّبِّ لم يَجِدِ
لم يُثمر الظنُّ الجَميلُ به	فَقَدي من الظَّنِّ الجميل قَدِي
كم مِن مطامعَ قد عَقدتُ بها	طَمَعي فحلَّ مرائِرَ العُقَدِ
وأعادَني منها على أسَفٍ	وأباتَني فيها على ضَمَدِ

ولمّا أهاب بنا من البين داعٍ، وآن أوان الارتحال والوداع، كتبت إلى والي مخا السيّد المقدم ذكره - وكان قد عاد من حضرة مخدومه إلى خدمته - بهذين البيتين:

مددتُ إلى التَودِيع كفاً ضَعيفةً	وأُخرى على الرَّمضاءِ فوقَ فؤادي
فلا كانَ هذا العهدُ آخِرَ عهدِنا	ولا كانَ ذا التَّوديعُ آخِرَ زادي

وهذان البيتان أنشدهما أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك[1] قال أنشدنيهما والدي عند خروجه إلى الحج.

فكتب إليَّ السيد المشار إليه قول أبي الطيب[2]:

يا من يَعزُّ علينا أن نُفارقَهم	وجدانُنا كلَّ شيءٍ بَعدكم عَدَمُ

ثم ودعناه توديع الولد للوالد، ولقينا من فراقه ما هان معه الطارف

---

(١) هو عزيزي بن عبد الملك بن منصور الجيلي المعروف بشيذلة، فقيه واعظ، توفي سنة ٤٩٤ هـ (معجم المؤلفين ٦/ ٢٨١).

(٢) هو أبو الطيب المتنبي (أحمد بن الحسين) المقتول سنة ٣٥٤ هـ (معجم المؤلفين ١/ ٢٠١).

والتالد، فشيَّعنا تشييع الأقارب، إلى أن تبطَّنا القارب، فشكر الله سعيه وأدام بفضله رعيه.

أبو تمام[1]:

وما ابنُ آدمَ إلاَّ ذكرُ صالحةٍ أو ذكرُ سيِّئةٍ يَسري بها الكَلِمُ

أما سمِعتَ بدهرٍ بادَ أُمَّتُهُ جاءَتْ بأخبارِها من بعدها أُمَمُ

وكان خروجنا من المخا يوم السبت لثمان خلون من ذي القعدة الحرام سنة سبع وستين، فكانت مدة إقامتنا بها أربعة عشر شهراً وستة أيام، وعلى ذلك فما ألطف قول عمر بن أبي ربيعة[2]:

باللهِ قُولي لهُ في غيرِ مَعتَبةٍ ماذا أردتَ بطُولِ المُكثِ في اليَمنِ[3]

إن كنتَ حاولتَ دُنياً قد رضيتَ بها فما أصبتَ بتركِ الحجِّ مِن ثَمنِ

أخبر خلاد بن يزيد الباهلي[4] قال: ركب ابن جريج[5] دين - سمّاه وكثّره - فأتى معن بن زائدة[6] باليمن فوعده فطول عليه، قال ابن جريج: إني لفي منزلي ودخل شهر الحج فذكرت بيتي عمر - بالله قولي له، البيتين - قال: قلت: والله هو ذلك، وأصبحت غادياً على معن فقلت: أستودع الله الأمير، قال: وما ذاك؟ قلت: حضر الحج وطال مقامي، قال: لا والله ولكن هذا حادث رأي. فلم يزل بي حتى أنشدته بيتي عمر، فقال: لا جرم، لا تمش حتى

(١) لا وجود للبيتين في ديوان أبي تمام، وأوردهما ابن عبد ربه في العقد الفريد ١/ ٢٣٢ منسوبين إليه.

(٢) هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة المخزومي. توفي سنة ٩٣ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٩٣).

(٣) البيتان في الديوان وفي روايتهما اختلاف.

(٤) توفي خلاد بن يزيد سنة ٢٢٠ هـ. في الأصول (بن زيد) والتصويب من ميزان الاعتدال ١/ ٦٥٧.

(٥) هو أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي فقيه حافظ. توفي سنة ١٥٠ هـ (معجم المؤلفين ٦/ ١٨٣).

(٦) هو معن بن زائدة الشيباني أمير جواد قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ (الأعلام ٨/ ١٩٢).

تُقضى حاجتك. وكان معن يتولى عمل اليمن للمنصور، ثم تولاها بعده ابنه زائدة.

قلت: والشيء بالشيء يذكر، والحديث شجون. قيل: إن المنصور سخط على أحمد بن يزيد السلمي فصرفه عن أرمينية، وألزمه بيته، فنمي الخبر إلى معن وهو يتقلّد اليمن، فكتب إليه:

نمي إليّ يا أمير المؤمنين أن سخطة لحقت أحمد بن يزيد بن أسيد السلمي من أمير المؤمنين، ولم تزل الملوك تعاقب على أشياء، وتصفح عن أشياء، فأمّا الذي تعاقب عليه: فالقدح في الملك، وإفشاء السرّ، والتعرّض للحرم. وأمّا الذي تصفح عنه: فاحتجان الأموال، فإنّ مال الخادم للمخدوم، في يومه وغده. فإن كان أحمد بن يزيد أتى ما يعاقب عليه الملوك فما ينبغي أن يكون حيًّا وإن كان احتجن مالاً فأحمد خيرٌ لأمير المؤمنين من أرمينية وأموالها. فقال المنصور: أفٍ لكم معاشر الكتّاب، ذهب عليكم أن تخبروني به حتى تناولني به معن من اليمن، على لوثة[1] أعرابية. ووجه إلى أحمد بن يزيد فخلع عليه وردّه إلى عمله.

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيكَ نُصحَهُ ولا كلُّ مؤتٍ نُصحَه بلَبيبِ[2]
ولكنْ إذا ما استَجمَعا عندَ واحدٍ فحُقَّ له من طاعَةٍ بنَصيبِ

ولما امتطينا من السفينة صهاها، وتلونا ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِنهَا وَمُرْسَنهَآ﴾[3] شاهدنا من هذا البحر الزاخر، ما أُنسينا معه الأول والآخر، حتى استبان لنا أن ذلك البحر الذي أكبرناه، وأنكرنا منه ما أنكرناه، إنّما هو قطرة من ماء، بالنسبة إلى هذا الدأماء[4]. ولقد سرنا فيه أياماً لا نرى سوى الماء تحت

---

(١) يريد باللوثة - هنا -: البطء والتمكث في العمل.

(٢) البيتان لأبي الأسود الدُؤلي (ظالم بن عمرو) المتوفى سنة ٦٩ هـ (أنباه الرواة ١/ ١٣).

(٣) سورة هود / ٤١.

(٤) الدأماء: البحر.

السماء. (وما ألطف قول بعض المعاصرين[1]).

قالوا مسيرُ الفُلكِ في بَحرِه   كالطَّير يَسري بجناحَين

والفرقُ ما بينهما واضحٌ   لكلِّ ذي عَينٍ بلا مَيْنِ[2]

الطيرُ في الجوِّ غَدا طائراً   بينَ السَّما والأرض عن عَينِ

وفُلكُنا لما طَما بَحرُه   طارَ بنا بينَ سَمائينِ

وللصاحب تاج الدين:

أنظرْ إلى قِطَع المراكبِ إذ بَدَتْ   والماءُ يَعلو حولَها ويَدُورُ

مثلَ السَّحائبِ لا يُفرِّق بينَها   نظرٌ وكلٌّ بالرِّياح يسيرُ

ولابن النطاح[3] يصف البحر:

يا مادحَ البَحر وهو يَجْهلُهُ   مَهلاً كفاني قَليلُه عِلْما

مكسَبُه مثلُ قَعرِه بُعُدا   ورزقُهُ مثل مائِه طَعْما[4]

ابن رشيق(*) في ذمه وركوبه:

البحرُ صَعْبُ المَرام مرٌّ   لا جُعِلَتْ حاجَتي إليهِ

أليسَ ماءٌ ونحنُ طِينٌ   فما عَسى صَبرُنا عَليهِ

وقال ابن حمديس[5]: اجتمعت مع أبي الفضل جعفر بن المقترح[6]

---

(١) كذا في (ع). وجاء في (أ) بعد كلمة المعاصرين (وهو المؤلف). وفي ك. (وقلت فيه) مكان الجملة التي بين قوسين.

(٢) في ك (لكل ذي لبّ).

(٣) (ابن النطاح) كذا ورد في الأصول، ومعاهد التنصيص ٢/٢٥، ولعله بكر بن النطاح المتوفى سنة ١٩٢ هـ (الأعلام ٢/٤٦)، أو أنه: أبو محمد عبدالله بن الطباخ الكاتب، ورد ذكره في نوادر المخطوطات (الرسالة المصرية) ١/٥٣، وترجم له العماد في خريدة القصر (قسم شعراء مصر) ٢/٩٨ ولم يذكر تاريخ وفاته.

(٤) البعد (بضمتين): لغة في البعد (بضم فسكون).

(٥) هو عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس الصقلي. توفي سنة ٥٢٧ هـ (أنوار الربيع ٤/ ٢٣٤).

(٦) في الأصول (جعفر بن المعوج) والتصويب من معاهد التنصيص، وديوان ابن حمديس.

الكاتب بسبتة فذكر لي بيتي ابن رشيق ثم قال: أتقدرعلى اختصار هذا المعنى؟ فقلت: نعم أقدر على ذلك وأنشدته[1]:

لا أركـبُ الـبـحـرَ خَـوفـاً | عَـلـيَّ مـنـه الـمـعـاطِـبْ
طـيـنٌ أنـا وهـوَ مـاءٌ | والـطـيـنُ فـي الـمـاءِ ذائِـبْ

فاستحسن ذلك إذ كان على الحال، فأقام عني أياماً ثم اجتمعت به فأنشدني لنفسه في المعنى:

ان ابـنَ آدمَ طـيـنٌ | والـبـحـرُ مـاءٌ يـذيـبُـهُ
لـولا الـذي فـيـه يُـتْـلـى | مـا جـازَ عـنـدِي رُكُـوبُـهْ[2]

فأنشدته:

وأخضرَ لولا آيةٌ ما ركبتُهُ | وذلكَ تصريفُ القَضاءِ بما شاءْ
أقولُ حذاراً من رُكوبِ عُبابِهِ | أيا ربِّ إنَّ الطينَ قد ركبَ الماءْ

ومن بديع إنشاء ابن حجة الحموي(*) رسالته البحرية التي كتب بها إلى البدر الدماميني(*) يصف البحر والسفينة، منها قوله:

يا مولانا وأبثك ما لاقيت من أهوال هذا البحر، وأحدّث عنه ولا حرج، فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطّع منها القلب لمّا دخل إلى دوائر تلك اللجج، وشاهدت منه سلطاناً جائراً ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[3]. ونظرت إلى الجوار الحسان وقد رمت أُزُرَ قُلوعها، وهي بين يديه لقلّة رجالها تُسبى، فتحقّقت أنّ رأيَ من جاء يسعى في الفلك جالساً غير صائب، واستصوبت هنا رأيَ من جاء يمشي وهو راكب. وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ في البحر سبيله، وكم قلت من شدّة الظمأ: يا ترى قبل الحفرة هل أطوي من البحر هذه الشقة الطويلة:

---

(١) انفردت (أ) في إيراد كلمة (وأنشدته)، وهي موجودة في معاهد التنصيص ٢/ ٢٥ وديوان ابن حمديس.

(٢) يريد الآية الكريمة ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ سورة هود / ٤١.

(٣) سورة الكهف / ٧٩.

وهل أُباكرُ بحرَ النِّيل مُنشَرحاً   وأشربُ الحُلوَ من أكوابِ مَلأّحِ

بحر تلاطمت علينا أمواجه حين متنا من الخوف، وحملنا على نعش الغراب، وقامت واوات دوائره مقامع فنصبتنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب، وقارن العبد فيها سوداء استرقَّت موالينا وهي جارية ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[1]، ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[2]. واقعها الحَرَبُ فحملت بنا، ودخلها الماء فجاءها المخاض، وانشق قلبها لفقد رجالها، فجرى ما جرى على ذلك القلب وفاض. وتوشّحت بالسواد في هذا المأتم، وسارت على البحر وهي مَثَل، وكم سمع للمغاربة على ذلك التوشيح زجل. برج مائي ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت، وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسنّدة عدّ من المقبرين في تابوت. تأتي بالطباق ولكن بالقلوب، لأن صغيرها كبير، وبياضها سواد، وتمشي على الماء، وتطير مع الهواء، وصلاحها عين الفساد. إن نقّر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود، وترقصنا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود. تتشامم وهي - كما قيل - أنف في السماء وأُست في الماء، وكم نطيل الشكوى إلى قامة صاريها[3] عند الميل وهي الصعدة الصمّاء، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين، وتتصابى إذا هبَّت الصَّبا وهي ابنة مائة وثمانين، وتوقف أحوال القوم ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾[4] وتدعي براءة الذمّة وكم استغرقت لهم من أموال. هذا وكم ضعف نحيلُ خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج، وكم وجلت القلوب لمّا صار لأهداب مجاذيفها في مقلة البحر اختلاج، وكم أسبلت على وجنة طرَّة قِلعها فبالغ الريح في تشويشها، وكم مرَّ على قريتها العامرة فتركها ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[5]. تتعاظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تُعدّ، ولقد رأيناها

---

(١) سورة طه / ٧٨.

(٢) أصل الآية (هل أتاك حديث الغاشية) سورة الغاشية / ١.

(٣) الصاري: عمود يركز قائماً في وسط السفينة يعلّق به الشراع، جمعه صوار.

(٤) سورة هود / ٤٢.

(٥) سورة البقرة / ٢٥٩ وسورة الكهف / ٤٢.

بعد ذلك قد ثبتت وهي ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[١].

لطيفة: ذكر القاضي ابن خلكان قال: حكى تاج العُلى أبو زيد المعروف بالنسَّابة قال: حدثني أبو الأصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد قال: بعث المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية[٢] إلى أبي العرب الزبيري خمسمائة دينار، وأمره أن يتجهز بها ويتوجه إليه - وكان بجزيرة صقلية وهو من أهلها، وهو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الصقلي الشاعر[٣] - وبعث مثلها إلى أبي الحسن الحصري[٤] وهو بالقيروان، فكتب إليه أبو العرب:

لا تَعجبَنَّ لراسي كيفَ شاب أسىً واعجَبْ لأسودِ عَيني كيفَ لم يَشِبِ

البحرُ للرُّوم لا تَجري به سُفُنٌ إلاّ عَلى غَررٍ والبرُّ لِلعَربِ[٥]

وكتب إليه الحصري(*):

أمَرْتَني بركوبِ البَحر أقطعُهُ غيري، لكَ الخير، فاخصصه بذا الداءِ[٦]

ما أنتَ نوحٌ فتُنْجيني سَفينتُهُ ولا المسيحُ أنا أمشي عَلى الماءِ

وما ألطف قول الخباز البلدي[٧] وقد سافر محبوبه في البحر:

---

(١) سورة أبي لهب / ٥.

(٢) هو أبو القاسم المعتمد على الله بن المعتضد بالله عباد أكبر ملوك الطوائف. توفي سنة ٤٨٨ هـ (أنوار الربيع ١/١٠٣).

(٣) توفي أبو العرب مصعب سنة ٥٠٦ هـ وقيل: كان حياً سنة ٥٠٧ (أنوار الربيع ٢/٣٩).

(٤) هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري. توفي سنة ٤٨٨ هـ (معجم المؤلفين ٧/١٢٥).

(٥) في وفيات الأعيان ٣/٢١ (لا يجري السفين به).

(٦) البيتان منسوبان أيضاً لابن رشيق وهما في ديوانه. وفيه رواية البيت الأول كالآتي:
أمرتني بركوب البحر مجتهداً وقد عصيتك فاختر غير ذا الداء
وما أثبته المؤلف موافق لرواية وفيات الأعيان.

(٧) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن حمدان المعروف بالخباز البلدي. لم =

سار الحبيبُ وخلَّفَ القَلبا يُبدي العزاءَ ويُضمرُ الكَربا[1]

قد قُلتُ إذْ سارَ السَّفينُ به والشوقُ ينهبُ مهجتي نَهبا

لـو أنَّ لـي عِـزًّا أصـولُ بـه لأخذتُ كلَّ سفينةٍ غَصْبا

قيل: وليس في المعمور أعظم من هذا البحر الذي ركبناه وهو البحر الهندي، ويقال له: الحبشي.

قال المسعودي: يمتد طوله من المغرب إلى المشرق، من أقصى الحبش إلى أقصى الهند والصين ثمانية آلاف ميل، وعرضه ألفان وتسعمائة، وفي مواضع أخر ألف وتسعمائة، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ويكثر. وقد قيل في طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة أعرضنا عن ذكره لعدم الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة.

وقد ذكر كيفية تشعّب الخلجان منه، وامتدادها إلى أماكن لا حاجة بنا إلى ذكرها. وإن بحر فارس، وبحر اليمن، وبحر القلزم، وبحر الحبش، وبحر الزنج، وبحر الصين كل هذه البحور خلجان من هذا البحر. وعدَّ بحوراً أخرى تتشعب من هذا البحر، ولسنا بصدد بيان ذلك. ولا بأس بذكر شيء من أخبار البحر وعجائبه، وجزائره إلى غير ذلك مما يفضي إليه المقام لما فيه من الإشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه.

فَـفـي كـلِّ شـيءٍ لـهُ آيـةٌ تـدلُّ عـلـى أنّـه واحِـدُ[2]

تنازع المتقدمون من الحكماء في مبادئ كون البحار وعللها. فذهب طائفة منهم إلى أنَّ البحر هو بقيّة من الرطوبة الأولى التي جفَّف أكثرها جوهر النار، وما بقي منها استحال لاحتراقه ملحاً.

ومنهم من قال: انّ الرطوبة الأولى المجتمعة لما احترقت بدوران

= أقف على تاريخ وفاته. تراجع ترجمته في يتيمة الدهر ٢/٢٠٨، والذريعة إلى تصانيف الشيعة ٩/٢٨٨.

(١) في (ع و ك): ويظهر الكربا. وفي (أ): ويبدى الكربا. والتصويب من يتيمة الدهر.

(٢) البيت لأبي العتاهية. والذي في الديوان (وفي كلّ شيء).

الشمس وانعصر الصفو منها استحال الباقي إلى ملوحة ومرارة.

ومنهم من رأى أنّ البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها.

ومنهم من رأى أنّ البحر هو ما بقي مما صفّته الأرض (من الرطوبة الثانية[1]). وقيل غير ذلك.

وهو خلاف لا ثمرة فيه. وذكر أنّ الله تعالى لما أمر نوحاً (ع) بركوب السفينة (وغرق الأرض[2]) خمسة أشهر، ثم أمر الأرض أن تبلع الماء، والسماء أن تقلع، واستوت على الجودى، أسرع بعض الأرض إلى بلع الماء عندما أُمرت، وبعضها لم يسرع. فمن أطاع كان ماؤه عذباً إذا احتفر، وما تأخّر أعقبه الله بماءٍ ملح. وما تخلّف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه صار[3] إلى قعور مواضع من الأرض، فمن ذلك البحار وهي بقية ماء غضبٍ أهلك به أمم. كذا نقله المسعودي في أول كتابه.

وهذا إن صح في الأثر فلا كلام، وإلاّ فقضيته أنّ البحار لم تتكون قبل زمان نوح (ع) وفيه نظر ظاهر لمن تتبّع الأثر.

وذكر صاحب المنطق: أنّ مواضع البرّ ليست هي أبداً برًّا، ولا مواضع البحر أبداً بحراً بل قد تكون براً حيث كان مرة بحراً، وتكون بحراً حيث كان مرة براً، وعلّة ذلك الأنهار وبدؤها، فإن لمواضع الأنهار شباباً وهرماً، وحياة وموتاً ونشوراً كما يكون ذلك في الحيوان، إلاّ أنّ الشباب والكبر في الحيوان لا يكون جزءاً بعد جزء، بل تشبّ وتكبر أجزاؤها معاً، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد. فأما الأرض فإنها تهرم وتكبر جزءاً بعد جزءٍ وذلك بدوران الشمس. وقد اختلف في علة المدّ والجزر اختلافاً طويلاً لا حاجة بنا إلى التطويل بذكره.

وأمّا عجائب البحر فلا تدخل تحت الحصر، ويكفي في ذلك الحديث:

---

(١) في مروج الذهب ١/١٢٧ (من الرطوبة المائية).

(٢) في مروج الذهب ١/٤٠ (وقد غرق جميع الأرض).

(٣) في مروج الذهب (انحدر) مكان (صار).

حدثوا عن البحر ولا حرج. قيل: الواو للحال، أي حدّثوا عنه حال لا حرج عليكم في ذلك. ولنذكر منها نبذة مستطرفة:

قال القشيري: يقال: أنّ سليمان (ع) سأل ربّه أن يأذن له أن يضيف يوماً جميع الحيوانات، فأذن الله تعالى له، فأخذ في جمع الطعام مدة طويلة، فأرسل الله تعالى له حوتاً واحداً من البحر فأكل كلّ ما جمعه سليمان في تلك المدة الطويلة ثم استزاد، فقال سليمان: لم يبق لي شيء، ثم قال له: وأنت تأكل كلّ يوم مثل هذا؟ فقال: رزقي كلّ يوم ثلاثة أضعاف هذا، ولكن الله تعالى لم يطعمني اليوم إلاّ ما أطعمتني أنت، فليتك لم تضفني، فإني بقيت اليوم جائعاً حيث كنت ضيفك.

وفي هذا إشارة إلى عظيم سلطان الله تعالى وسعة خزائنه، إذ مثل سليمان (ع) مع عظم ملكه الذي آتاه الله تعالى عجز عن أن يشبع مخلوقاً من مخلوقات الله تعالى، ثم انظر ما اشتمل عليه البحر مما يشبع هذا الحوت في كل يوم، فسبحان المتكفّل بخلقه.

وقال أبو حامد الأندلسي[1]: رأيت سمكة بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي أكل منه موسى (ع) وفتاه يوشع، فأحيا الله نصفه فاتّخذ سبيله في البحر سربا، ونسلها في البحر إلى الآن في ذلك الموضع، وهي سمكة طولها أكثر من ذراع، وعرضها شبر واحد، في جانبيها شوك وعظام، وجلدها رقيق على أحشائها (ولها عين ونصف رأس[2]) من رآها من هذا الجانب استقذرها، ويحسب أنّها مأكولة ميّتة، ونصفها الآخر صحيح، والناس يتبركون بها ويهدونها إلى المواضع البعيدة قال ابن عطية[3]: وأنا رأيته كذلك.

---

(١) أبو حامد الأندلسي صاحب كتاب تحفة الغرائب. كان حياً سنة ٥٥٦ هـ، يروي عن كتابه كلّ من الدميري في كتابه حياة الحيوان، والقزويني في كتابه عجائب المخلوقات (كشف الظنون / ١١٢٧ و ١١٢٨).

(٢) في ع (وعينها ورأسها نصف رأس) وفي ك، و أ (ورأسها نصف رأس) والتصويب من حياة الحيوان ١/ ٢٦٩.

(٣) (ابن عطية) يروي عنه الدميري في كتابه المذكور.

(وعن ابن عباس[1]) إن الحوت إنما حيي لأنّه مسه ماء عين هنالك تدعى عين الحياة، ما مسّت شيئاً ميتاً قطّ إلاّ وحيي، وكانت حياة الحوت عند مجمع البحرين: بحر [العرب] وبحر القلزم[2] مما يلي الشرق، وقيل: هما بحر الأردن، وبحر القلزم، وقيل غير ذلك.

والحكمة في جمع موسى مع الخضر عليهما السلام بمجمع البحرين: أنّهما بحران في العلم، أحدهما أعلم بالظاهر - يعني الشرع - وهو موسى (ع)، والآخر أعلم بالباطن - يعني علم الحقيقة وأسرار الملكوت - وهو الخضر (ع). كذا في حياة الحيوان الكبرى للدميري.

ومن العجائب ما حكاه القزويني في عجائب المخلوقات عن عبد الرحمن بن هارون المغربي قال: ركبت بحر المغرب فوصلنا إلى موضع يقال له: البرطون، وكان معنا غلام صقلّي معه صنارة فألقاها في البحر، فاصطاد سمكة نحو الشبر، فإذا خلف أذنها اليمنى مكتوب: لا إله إلاّ الله، وفي قفاها: محمد، وخلف أذنها اليسرى: رسول الله.

ومن عجائب البحر: إنسان الماء، وهو يشبه الإنسان إلاّ أن له ذنبا. قال القزويني: وقد جاء شخص بواحد منها في زماننا مقدداً كما ذكرنا، ويقال: أنه يظهر في بحر الشام في بعض الأوقات من شكله شكل إنسان، وله لحية بيضاء يسمونه: شيخ البحر، فإذا رآه الناس استبشروا بالخصب.

وحكي أن بعض الملوك حمل له إنسان الماء، فأراد الملك أن يعرف

---

(١) في حياة الحيوان (ومن غريب ما يروي البخاري عن ابن عباس في قصص هذه الآية).

(٢) (بحر القلزم) كذا ورد في الأصول، وفي حياة الحيوان (بحر الروم).
قال سيد قطب - في ظلال القرآن، في تفسير الآية (٦٠) من سورة الكهف -: والأرجح - والله أعلم - أنه مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم، أي البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، ومجمعهما: مكان التقائهما في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح.

حاله فزوَّجه امرأة، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال يقول: أذناب الحيوانات كلّها في أسفلها، فما بال هؤلاء أذنابهم في وجوههم؟ وبنات الماء كالنساء.

قال ابن أبي الأشعث: هي سمك ببحر الروم تشبه النساء، ألوانهنّ إلى السمرة، ذوات شعور وفروج عظام وثدي، وكلام لا يكاد يفهم، ويضحكون ويقهقهون، وربَّما وقعن في أيدي بعض أهل المراكب فينكحوهنّ ثم يعيدونهن إلى البحر. ويقال: إن هذا الجنس يوجد في برّ رشيد[1].

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي، قال: حدثني بعض التجار: أنه في سنة من السنين خرجت إليهم سمكة عظيمة، فنقبوا أذنها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها، ففتحت أذنها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء، سوداء الشعر، حمراء الخدين نجلاء العينين من أحسن ما تكون من النساء، ومن سرّتها إلى نصف ساقيها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها، ودائر عليها كالإزار، فأخذتها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها، وتنتف شعرها، وتعضّ يديها، وتصيح كما يصيح النساء حتى ماتت في أيديهم، فألقوها في البحر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقال صاحب تحفة الغرائب: حدثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال: حدثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنّه ركب سفينة في بحر الهند، فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر، وأجمل ألواناً، قال: فكبّرنا لحسنه، فجعل يسبح وينظر إلى نفسه، ينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر.

وفرس البحر يوجد بالنيل أفطس الوجه، ناصيته كالفرس، وأرجله كالبقر، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير، وجلده غليظ، ووجهه أوسع من وجه الفرس. يصعد البرّ، ويرعى الزرع، وربما قتل الإنسان وغيره.

وفي البحر سمكة تسمّى (الدلفين) تنجي الغريق، يدنو منها فتمكّنه من

---

(١) رشيد: بلدة على ساحل البحر والنيل قرب الاسكندرية.

ظهرها ليستعين على السباحة فتكون من أقوى الأسباب في نجاته، وصفتها كصفة الزقّ المنفوخ، ولها رأس صغير جدًّا ولا تؤذي أحداً، ولا تأكل إلاّ السمك.

وحكى القزويني: أنّه يؤتى في بعض الجزائر على قصر مصنوع من بلّور على قلعة محكمة البناء، وحولها قناديل لا تطفأ.

ونقل عن أبي حامد الأندلسي صاحب تحفة الغرائب(*): أنّ على البحر الأسود[1] من ناحية الأندلس كنيسة من الصخر منقورة في الجبل عليها قبة عظيمة، وعلى القبة غراب لا يبرح. ومقابلة القبة مسجد تزوره الناس، يقولون: إن الدعاء فيه مستجاب. وقد شرط على القسيسين ضيافة من زار ذلك المسجد من المسلمين، فإذا قدم زائر أدخل الغراب رأسه في روزنة على تلك القبة ويصيح صيحة، فإن قدم اثنان صاح صيحتين وهكذا كلما قدم زوّار صاح على عددهم، فيخرج الرهبان بطعام يكفي الزائرين. وتعرف تلك الكنيسة بكنيسة الغراب، ويزعم القسيسون أنّهم ما زالوا يرون غراباً على تلك القبة ولا يدرون من أين يأكل.

ومن جزائر البحر العجيبة: جزيرة القُمْر (بضم القاف وإسكان الميم ثم راء مهملة)[2] طولها أربعة عشر في عرض عشرين يوماً إلى أقل من ذلك، وتحاذي جزيرة سرنديب - كذا في الخطط - وقال السمعاني في الأنساب: أظنّها بمصر. وفي المستطرف: يقال أنها بالقرب من نيل مصر. قال: ويقال أن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنّه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال أنّ هذه الأمة التي بها يتمذهبون

---

(١) (البحر الأسود) كذا ورد في الأصول وعجائب المخلوقات / ٨٢ ، ولعل المقصود (بحر الظلمات) وهو المحيط الأطلسي.

(٢) كذا ضبطها ياقوت أيضاً في معجمه وقال (هي في وسط بحر الزنج، وليس في ذلك البحر أكبر منها. فيها عدة مدن وملوك، ويوجد في سواحلها العنبر).

بمذهب الشافعي، وهم في غاية اللّطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بالقرب منهم معدن الذهب والياقوت، وبها الفيلة البيض، وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القماري، والأبنوس، والطواويس، وبها مدن كثيرة. قال في الخطط: وإليها ينسب الطائر القمري. ونقله السمعاني في الأنساب أيضاً عن صاحب الجمل قال: والقمري طائر ينسب إلى هذه البلدة.

ومنها جزيرة واق خلف جبل يقال له أصطنون داخل البحر الجنوبي، قال القزويني: إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وإن بعض المسافرين[١] وصل إليها ودخل فرأى هذه الملكة وهي جالسة على سرير، وعلى رأسها تاج من الذهب، وحولها أربعمائة وصيفة[٢] كلهنّ أبكار. قيل: وفي هذه الجزيرة شجر يشبه شجر الجوز والخيار الشنبر[٣] ويحمل حملاً كهيئة الإنسان، فإذا انتهى يسمع له تصويت يسمع منه (واق) ثم يسقط.

وعن الجاحظ أن الواق واق نتاج بين بعض النبات وبين بعض الحيوانات، ذكره الدميري في حياة الحيوان الكبرى.

قال القزويني: وهذه الجزيرة كثيرة الذهب، يقال أن (سلاسل خيلهم ومقاود كلابهم وأطواقها[٤]) من الذهب، والله سبحانه أعلم.

وبالجملة فعجائب البحر لا تدخل تحت الحصر، وهذه قطرة من بحر، وقليل من كثير.

غريبة: روى أبو نعيم في الحلية في ترجمة سفيان بن عيينه عن مسعر[٥]

---

(١) في عجائب المخلوقات / ٧١ (قال موسى بن المبارك السيرافي: دخلت عليها فرأيتها على سرير عريانة، وعلى رأسها تاج...).

(٢) في المصدر المذكور (أربعة آلاف وصيفة).

(٣) في القاموس (خيار شنبر: شجر).

(٤) في عجائب المخلوقات (سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم).

(٥) في ع (مشعر) وفي ك، و أ (معشر) والتصويب من حلية الأولياء ٧/ ٢٨٩.

بن كدام أنّه قال: أن رجلاً ركب البحر فانكسرت السفينة فوقع في جزيرة، فمكث ثلاثة أيام لم ير أحداً، ولم يأكل ولم يشرب فتمثل فقال:

إذا شابَ الغُرابُ أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللَّبنِ الحَليبِ[1]

فأجابه صوت مجيب يُسمع صوته ولا يُرى شخصه وهو يقول:

عسى الكربُ الذي أمسَيتُ فيه يـكـونَ وراءَه فـرجٌ قـريـبُ[2]

فنظر فإذا سفينة أقبلت، فلوّح لهم فأتوه فحملوه فأصاب خيراً كثيراً.

كان شريح القاضي لا يقبل شهادة من ركب البحر ويقول: من لا يكون أميناً على نفسه لا يكون أميناً على غيره.

وفي الحديث: لا تركب البحر إلاّ حاجاً، أو معتمراً، أو غازياً في سبيل الله، فإنّ تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً.

وأراد عمر بن الخطاب يغزو قوماً على البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عامله على مصر: يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دود على عود. فقال عمر: لا يسألني الله عن أحد أحمله فيه.

امتنع حكيم من ركوب البحر فقيل له في ذلك فقال: إني لأكره أن أركب ما لا أملك عنانه، ولا أضبط زمامه.

قيل لبعض التجار: ما أعجب ما رأيت في البحر؟ قال: سلامتي منه.

فائدة: إذا اضطرب البحر يتكئ الراكب على جانبه الأيمن ويقول: أسكن بسكينة الله. وقرَّ بقرار الله، واهدأ بإذن الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

وروى ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنّه قال: أمان لأمتي من الغرق إذا هم ركبوا السفن أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

---

(١) ورد البيت في أمالي المرتضى ٢/٢٢١ بدون عزو، وفيه (رجوت أهلي).

(٢) البيت لهدبة بن الخشرم المتوفى حوالي سنة (٥٠) هـ (الأعلام ٩/٦٩) وهو من قصيدة - أوردها القالي في أماليه ١/٧٢، وابن الشجري في حماسته /٢٢٧.

يُشْرِكُونَ﴾[1]. ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وما أحسن قول الوزير الكاتب أبي بكر بن سعيد ابن القبطرنة البطليوسي[3] من رقعة كتبها إلى الوزير أبي الحسين بن سراج[4]:

ولولا عوائق الزمان لطرت إليك بجناح، أو لامتطيت أعناق الرياح. إلى أن قال: أو اتخذت السمكة سفينة، وأقمت لها من النعائم ألواحاً، وعطارد ملاّحاً، وشرعتها بالغيوم، وسمرتها بالنجوم، وجدفت بالفرقدين، وحملت من آمالي فيها من كل زوجين اثنين، واعتصمت بالقوّة والحول، وخالفت كلّ من سبق عليه القول، واستعذت من شيطان الكسل وهو رجيم، وقلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وتلطّف من قال:

بلغتُ رشدي وما أدركتُ منكِ منىً … وا حَيْرتي من بُلوغي قبلَ إدراكي[5]

سفينةُ الصَّبرِ في بَحر الدمُوع رسَتْ … فقال جَفْني باسمِ الله مَجراكِ

وما ألطف قول الشيخ الأديب اللابس من أثواب الفصاحة بردها القشيب جعفر بن محمد الخطّي[6] شاعر البحرين، وهو المُبلغ من محاسن الشعر الأماني، وناهيك باللؤلؤ البحراني، من قصيدة:

وعبرةٍ لو دُعي نوحٌ ليركبَها … بفُلكِهِ قال باسمِ الله مُجْريها[7]

---

(١) سورة الزمر / ٦٧، وأصل الآية (وما قدروا...).

(٢) سورة هود / ٤١.

(٣) هو أبو بكر بن عبد العزيز بن سعيد بن القبطرنة، وفي قلائد العقيان / ١٥٤ (القبطرنية) وفي المغرب في حلي المغرب ١/ ٣٦٧ (القبطورنة) وما أثبته المؤلف موافق لرواية الإحاطة في اخبار غرناطة ١/ ٥٢٨.

(٤) هو أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج. توفي سنة ٥٠٨ هـ (بغية الوعاة ١/ ٥٧٦ وقلائد العقيان / ٢١٠).

(٥) في ك (أدركت رشدي).

(٦) هو أبو البحر جعفر بن محمد بن حسن بن علي بن ناصر الشهير بالخطّي من بني عبد القيس، شاعر فحل توفي سنة ١٠٢٨ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٥٧).

(٧) في أنوار الربيع (ليسلكها) مكان (ليركبها).

وما أحسن قوله بعد هذا البيت:

ومُقلةٍ أَلِفَتْ فرطَ السُّهاد فلَو رُدَّ الرُقادُ عليها كادَ يُؤذِيها

ماذا على الطَّيرِ إذ أبْلى الضَّنى جَسدي فخَفَّ لو حَملَتني في خَوافِيها

إن يَقعد الطَّيرُ عن حَملي لكم وسَرَتْ ريحُ الصَّبا فاطلبُوني في مَسارِيها

تُلقي لكم جَسداً لو أنَّ علَّته يُدعى المسيحُ لها ما كانَ يُبريها

لقد تَضاءَل حتَّى لو قَذفتُ به في مُقلةٍ ما أحسَّتهُ مآقِيها

قلت: هذا والله الشعر الخالص من الحشو، الذي يأخذ بمجامع القلوب، وتستشفّه الأسماع[1]. وكانت وفاة الشاعر المذكور سنة ثمان وعشرين وألف بشيراز، وله ديوان شعر أجاد فيه كلّ الإجادة، وكان ذا بديهة قوية بارعاً مفلقاً، مستحضراً لأشعار العرب وأخبارها.

ومن بديع قصائده التي تشهد له بقوة الملكة، وقدرة التصرّف في المعاني والألفاظ: قصيدته الرائية المشهورة التي يصف فيها حاله وقد ضربته سمكة تعرف بالسبيطيّة في وجهه فشجته وهو عابر من قرية تسمى (مرّي) - بكسر الميم، وتشديد الراء المهملة، وبعدها ياء مثناة من تحت - إلى بحرين يقال لأحدهما (البلاد)، وللآخر (توبلي) - بضم التاء المثناة من فوق، وبعد الواو باء موحدة مكسورة، وبعدها لام وياء مثنّاة من تحت - وكان صحبته ابنه حسان، ولا بأس بإيرادها لحسنها وغرابتها، على انّا لم نخرج عن ذكر البحر، وهي:

برَغم العَوالي والمهنَّدةِ البُتْرِ دماءٌ أراقَتْها سُبَيْطِيَّةُ البَحرِ

ألا قد جَنى بحرُ البلادِ وتُوبِلي عليَّ بما ضاقَت به ساحةُ البرِّ

فويلُ بني شَنِّ بن أفْصَى وما الذي رمتْهم به أيدي الحوادثِ من وِتْرِ[2]

دمٌ لم يُرقْ من عهدِ نوحٍ ولا جَرى على حدِّ نابٍ للعدوِّ ولا ظُفْرِ

---

(١) يأتي في (ك) بعد كلمة الأسماع (وتحسوه العقول للنشو).

(٢) بنو شن بن أفصى بن عبد القيس: قبيلة الشاعر.

تَحامَتْه أطرافُ القَنا وتعرَّضت ... له الحوتُ يا بؤسَ الحوادثِ والدَّهرِ

لعمرُ أبي الأيَّام إن باءَ صَرفُها ... بثارِ امرئٍ من كلِّ صالحةٍ مُثْرِ

فلا غروَ فالأيَّامُ بين صرُوفِها ... وبينَ ذوي الأخطار حَربٌ إلى الحَشرِ

ألا فَابْلغ الحيَّين بَكراً وتَغلِباً ... فما الغَوثُ إلاَّ عند تَغلِبَ أو بَكرِ

أيُرضيكما أنَّ امرءاً مِن بَنيكما ... وأيُّ امرئٍ للخَير يُدعى وللشَّرِّ

يُراقُ على غير الظُّبى دمُ وجههِ ... ويَجري على غير المثقَّفةِ السُّمرِ

وتَنبُو نُيُوبُ اللَّيث عنه ويَنثني ... أخو الحُوتِ عنه دامي الفَم والثَّغرِ

ليَقضِ امروٌ من قِصَّتي عجباً ومَنْ ... يُرد شَرْحَ هذا الحال يَنْظر إلى شِعري

أنا الرجلُ المشهورُ ما مِن محلَّةٍ ... من الأرض إلاَّ قد تَخلَّلها ذِكري

فإن أمسِ في قُطرٍ من الأرض أنَّ لي ... بريدَ اشتهارٍ في مَناكبها يَسْري

تولَّعَ بي صَرفُ القَضاءِ ولم تكُنْ ... لتجري صُروفُ الدَّهرِ إلاَّ على الحُرِّ

توجَّهتُ من مِرِّي ضُحىً فكأنَّما ... توجَّهتُ من مِرِّي إلى العَلقَم المُرِّ

تلجَّجتُ خَوْرَ القَريتَينِ مُشمِّراً ... وشِبلي معي والماءُ في أوَّل الجَزرِ [1]

فما هو إلاَّ أن فُجِئتُ بطافِرٍ ... من الحوت في وجهي ولا ضربَة الفهرِ [2]

لقد شقَّ يُمنى وَجْنتيَّ بنطحَةٍ ... وقعتُ لها دامي المحيَّا على قُطري [3]

فخيِّل لي أنَّ السماوات أُطبِقَت ... عليَّ وأبصرتُ الكواكبَ في الظُّهرِ

وقمتُ كَهَديٍ نَدَّ من يَد ذابحٍ ... وقد بلغَتْ سكِّينُه ثُغرَةَ النَّحرِ [4]

---

(١) تلجّجت: ركبت اللجّة . الخور (بفتح فسكون): الخليج من البحر، ومصب الماء في البحر.

(٢) الفهر: الحجر قدر ما يملأ الكفّ، مذكر ويؤنث.

(٣) القطر (بالضم): الناحية ، والجانب.

(٤) الهدي: ما يذبح ويهدى إلى الحرم من النعم. ندَّ: نفر، وذهب على وجهه شارداً. في سلافة العصر / ٥٣٠ (كجدي) مكان (كهدي).

يطوّحُني نَزفُ الدِّماءِ كأنَّني نزيفُ طِلاً مالَتْ به نشوةُ الخمرِ[1]

فمن لا مرئٍ لا يَلبسِ الوَشْي قد غدا وراحَ موشّى الجيبِ بالنُّقطِ الحُمرِ

ووافيتُ بَيتي ما رآني امروٌ ولَم يقُلْ أوَهذا جاءَ من مُلتَقى الكرِّ

فها هُو قد أبْقى بوجهي عَلامةً كما اعترضَت في الطرسِ إعرابةُ الكسرِ

فإن يَمحُ شَيئاً من مُحيّايَ أثرُها بمقدارِ أخذِ المَحو من صَفحةِ البَدرِ

فلا غَروَ فالبيضُ الرِّقاقُ أدلُّها عَلى العِتق ما لاحَتْ به سمةُ الأثرِ

وقلْ بعدَ هذا للسُّبَيْطِيَّةِ افخري على سائِر الشُجعانِ بالفتكَةِ البِكرِ

وقلْ للظُبى فِيئي إليكِ عن الطُّلى وللسُّمر لا تهززنَ يوماً إلى صَدرِ[2]

فلو همَّ غيرُ الحوت بي لتَواثَبَتْ رجالٌ يخوضونَ الحِمامَ إلى نَصْري

فأمَّا إذا ما عزَّ ذاكَ ولم أكنْ لأدركَ ثاري منه ما مُدَّ في عُمري

فلستُ بمَوْلى الشِّعر إن لم أزجَّه بكل شرُود الذكرِ أعدى من العَرِّ[3]

أضرَّ على الأجفانِ من حادث العَمى وأبْلى على الآذان من عارضِ الوَقْرِ

يُخافُ على من يَركب البحرَ شرُّها وليسَ بمأمونٍ على راكب البَرِّ[4]

تَجوسُ خلالَ البَحر تطفَحُ تارةً وتَرسُو رُسوَّ الغَيْصِ في طلب الدر

تَناولُ منه ما تَغالى بسُبْحَةٍ وتَدركُ دون القَعْرِ مُبتَدر القَعرِ

لعمرُ أبي الخَطِّيِّ إن باتَ ثارُهُ لدى غير كُفْءٍ وهو نادرةُ العَصرِ

فثارُ عليٍّ باتَ عند ابنِ مُلجمٍ وأعقبَهُ ثارُ الحسَين لَدى شمرِ

ولما وقف الشريف العلامة السيد ماجد بن هاشم البحراني[5] رحمه الله

---

(١) النزيف: السكران. الطلا (بالكسر) وأصله الطلاء: ما يطبخ من عصير العنب، ويطلق على الخمر.

(٢) في سلافة العصر (مهلاً) مكان (فيئي). الطلى (بالضم): الرقاب.

(٣) العر (بفتح العين وتشديد الراء): الجرب.

(٤) في سلافة العصر (على سالك البرّ).

(٥) هو السيد ماجد بن هاشم بن علي بن المرتضى بن علي بن ماجد الحسيني البحراني. =

تعالى على هذه القصيدة كتب مقرِّظاً:

أجلت رائد الفطنة في معانيها، وسرَّحت صاعد الفكرة في أركانها ومبانيها، فوجدتها قرّة في عين الابداع، ومسرَّة في قلب الاختراع، والحقّ أحقّ بالاتباع. فالحمد لله على تجديد معالم الأدب بعد اندراسها، وتقويم راية البلاغة بعد انتكاسها، وردّ غرائب الفصاحة إلى مسقط رأسها، [وإزالة وحشتها إلى إيناسها][1].

ولنعد إلى ما نحن بصدده: ولم نزل في أسر البحر، وقد دارت علينا منه الدوائر، واختلفت تفاعيله، فهو طويل وبسيط ومديد ووافر، نكابد من نحوه ما مللنا معه رفعه وخفضه، ونلاقي من نصبه ما اخترنا عليه رفضه، حتى رأينا العلامات فرجونا الحياة بعد خشية الممات. والعلامات: حيَّات، أو حِيتان طوال رقاق كالحيَّات في ألوانها وحركاتها، سمّيت بذلك لأنها علامات الوصول إلى بلاد الهند، وإمارات النجاة من المهالك لطول هذا البحر وصعوبته[2]. قال بعضهم: إنَّها التي أراد الله بقوله ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[3]. ذكره الدميري في حياة الحيوان الكبرى[4].

فلما كان ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة الحرام شاهدنا الجبال والبرّ، وأيقنا أن الله تعلى قد لطف بنا وبرّ. فبينا نحن في انتظار الفرج، والخلاص من هذا البحر الذي حدّثنا عنه ولا حرج، إذ عصفت الرياح وأخذت السفينة في الارتياح، وجاءنا الموج من كلّ مكان، ونسينا - للانزعاج - ما كان، فانحرفت السفينة، وهاج البحر دفينه، فجعلت تفور، كأنها التنور، حتى بلغ الماء نصفها، فشاهدنا من مواقع الهلاك ما لا تبلغ الحال وصفها، ولولا

= توفي سنة ١٠٢٨ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٥٥).

(١) في الأصول (وأزال وحشتها وإيناسها) والتصويب من أنوار البدرين / ٢٩٢.

(٢) في ك (وصعوبته على السالك).

(٣) سورة النحل / ١٦.

(٤) ج ٢ ص / ١٥٠.

أن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[1] لكنَّا لا أثر ولا عين، بل دخلنا تحت خبر كان، واندرجنا في جواب أين، فلم نزل ننزف الماء ويكثر، وهو يقوى ونحن نفتر، حتى منّ الله تعالى بريح كان بها النجاء، وتحقّق الرجاء، فطوينا تلك الشقّة الممتدّة، وأغاثنا الله تعالى بالفرج بعد الشدّة، ولله درّ القائل وهو ابراهيم ابن العباس(*):

وَلَربَّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفَتى ... ذَرْعاً وعند الله منها المخرجُ
كمُلَتْ فلما استحكمَتْ حَلقاتُها ... فُرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفرَجُ[2]

قال ابن خلكان: ما ردَّدهما من نزلت به نازلة إلاّ وفرج عنه.

ولما كان بعد الزوال من يوم الجمعة المبارك دخلنا الباب، فسرنا في ماء عذب بين جبلين عليهما من الأنهار والأشجار والأزهار ما لا يمكن وصفه فلم نزل نسير بينهما إلى آخر النهار. ولما جنحت الشمس للغروب وصلنا المرسى فحمدنا الله على ما أذكر وأنسى، وأعلن لسان الحال بقول من قال:

يا ذا المعارِجِ كم سألتُك نعمةً ... فمنحتَها لي بالذَّنُوبِ الأوفَرِ[3]
أيَّ العوارفِ منكَ أشكرُ فضلَهُ ... عجَزَ المقلُّ وزادَ طَوْلُ المُكثِرِ
أكفايَتي ما قد حذِرتُ وقُوعَهُ ... أم ما كفَيتَ من الذي لم أحْذَرِ[4]

ثم نزلنا البندر وهو بندر (جيتابور) - بجيم مكسورة وياء مثناة من تحت، فتاء مثناة من فوق، وبعد الألف باء موحّدة مضمومة، فواو ساكنة، فراء مهملة - وكان وصولنا ابّان الربيع بالديار الهندية، فألفيناه قد نشر مطارفه وأبرز تالده وطارفه. لا تقع العين إلاّ على رياض خضرة، وغياض يانعة نضرة، والأرض تشكو والسماء تُشكي، والروض يضحك والغمام يبكي

---

(١) سورة الرعد / ٣٨.

(٢) في معجم الأدباء ١٨٧/١ (وكنت أظنّها)، وما أثبته المؤلف موافق لرواية وفيات الأعيان ٢٩/١.

(٣) الذنوب (بالفتح): الحظ والنصيب، والدلو التي لها ذنب. تؤنث وتذكر.

(٤) في ك (آمنتني) مكان (أكفايتي) و (أم ما أمنت) مكان (أم ما كفيت).

(للبحتري)[1]:

إذا أردتَ ملأت العَينَ من بلدٍ   مُسْتحسَنٍ وزمانٍ يُشبِه البَلَدا[2]

يَمشي السحابُ على أجْبالها فِرقاً   ويُصبحُ الغيثُ في صَحرائِها بَرَدا

فليسَ تُبصرُ إلاَّ زاكياً خَضِلاً   أو يانِعاً خَضِراً أو طائِراً غَرِدا

فأصبحنا نستنشق روائح الأزهار، ونختال في رياض محفوفة بحياضٍ وأنهار، وتتملّى بتلك الخمائل، ونتنزّه ما بين غصن معتدل إلى غصن مائل، والصوادح تخطب على منابر أغصانها، وتبدي فنون نغماتها على أفنانها. (لابن خفاجة)[3]:

وقد جالَ من جَوْنِ الغمامَةِ أدهَمٌ   له البرقُ سَوطٌ والشَّمالُ عِنانُ

وضمَّخَ رَدْعُ الشمسِ نحرَ حَديقَةٍ   عليه من الطلِّ السَّقيطِ جمانُ[4]

ونمَّتْ بأسرار الرِّياض خمِيلةٌ   لها النَّورُ ثغرٌ والنسيمُ لِسانُ

وما ألطف قول ابن رشيق(*)، وقيل: النامي[5]:

خَليليَّ هَل لِلمُزنِ مقلةُ عاشقٍ   أم النَّارُ في أحشائِها وهيَ لا تَدري

---

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي، توفي سنة ٢٨٤ هـ (أنوار الربيع ١/ ٣٨). وردت كلمة البحتري في (ع) على الهامش، ولا وجود لها في ك، و أ.

(٢) للوقوف على الروايات المختلفة يراجع ديوان البحتري ٢/ ٧١٠ (المتن والهامش).

(٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (أنوار الربيع ١/ ٢٦٥). لم ترد كلمة (ابن خفاجة في ك، و أ).

(٤) الردع: الزعفران، وأثر الطيب في الجسد.

(٥) هو أبو العباس أحمد بن محمد النامي الدارمي. توفي بحلب سنة ٣٩٩ هـ وقيل غير ذلك (أنوار الربيع ٥/ ١٢٥). في ك (وما أنمى قول النامي)، والأبيات في يتيمة الدهر ٢٤٧/١ منسوبة للنامي، وفي حلبة الكميت / ٣٢٩ للزاهي وقيل لابن رشيق، وفي زهر الآداب ١/ ١٩٥ لأبي العباس الناشي. وفي تلك المصادر اختلافات في الرواية وعدد الأبيات. وما أثبته المؤلف موافق لرواية حلبة الكميت، وعليها عوّل جامع شعر ابن رشيق.

سحابٌ حكَت ثَكلَى أُصِيبَت بواحِدٍ　　فعاجَتْ له نحوَ الرِّياضِ على قَبرِ
تَرَقْرَقُ دَمعاً في خُدودٍ تَوشَّحَتْ　　مطارِفُها بالبَرْقِ طِرزاً من التِّبْرِ
فَوشيٌ بلا رَقمٍ ونَسْجٌ بلا يَدٍ　　ودمعٌ بلا عَينٍ وضحكٌ بلا ثَغْرِ

وأعجب لقول ابن نباتة[1]:

قِفا فاعْجَبا من هامِلِ الغَيثِ إنَّه　　لأعجبُ شيءٍ يُعجب العين والفكرا[2]
يَمُدُّ على الآفاقِ بيضَ خُيُوطِه　　فَيَنْسِجُ منه لِلثَّرى حُلَّةً خَضْرا

فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، ثم انتقلنا إلى بندر أعظم منه، وكان هذا فرضة لذاك، فسرنا في الخور على الزورق بين ذينك الجبلين حتى وصلنا إليه، وهو قرية لطيفة يقال لها (راجابور) - براء مهملة وبعد الألف جيم ثم ألف فباء موحدة مضمومة فواو ساكنة فراء -، وفيها عمارة حسنة لمصطفى خان أعظم وزراء عادل شاه، ولم يكن في تلك القرية عمارة سواها فنزلنا بها. وهذه القرية من أعمال (كُوكَن) - بكاف مضمومة فواو ساكنة فكاف أخرى مفتوحة فنون - وهو صقع عظيم ليس في أرض الهند أكثر خراجاً منه لحسن ربيعه فإن المطر يكون فيه ستة أشهر لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً بخلاف سائر أرض الهند. فإنّ مدة المطر فيها لا تزيد على أربعة أشهر.

ورأينا بهذا البندر أشياء لم نكن نراها من قبل منها: الطائر المعروف بالطاووس وتكنّيه العرب أبا الوشي (وترخيمه)[3] طويس، وهو من الطير كالفرس عزاً وحسنا، وفي طبعه العفّة وحب الزهو بنفسه والخيلاء، والإعجاب بريشه، وعقده لذنبه كالطاق لا سيما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه. فإذا نظر في أعطافه ورأى ألوانه المختلفة زهي بنفسه وتاه، وإذا نظر إلى ساقيه وَجَمَ لذلك

---

(١) هو الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (أنوار الربيع ١/ ٤٥).

(٢) في الديوان (لأحسن شيء).

(٣) (ترخيمه) كذا ورد في الأصول، والذي في حياة الحيوان ٢/ ٨٨ (تصغيره). وجاء في لسان العرب (وأراه: تصغير طاوس مرخماً).

وانكسر نشاطه وزهوه فصاح صياح العويل لحزنه، وذلك لدقّة ساقيه ونتوء عرقوبيه.

وذكر الحكماء أنّه يعيش خمساً وعشرين سنة وهو أقصى عمره، ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام، ويحضنها ثلاثين يوماً ويفرخ، ولكن لا تستكمل قوى أفراخه في أقل من ثلاث سنين[1] ويلقي ريشه مع سقوط ورق الشجر، وينبت مع ابتداء نبات الورق.

وزعم قوم أنّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقح من تلك الدمعة. وليس كذلك فإنّ سفاده يشاهده كثير ممن يعتني به.

وهو مع حسنه يتشاءم به، وقلّما اتخذ في دار إلاّ وباد أهلها، وقد جرّب ذلك وهذا علة التشاؤم به[2]. وما ألطف قول الثعالبي صاحب اليتيمة:

طالعُ يومي غير مَنحُوسِ ... فسقِّني يا طاردَ البُوسِ
خمراً كعين الدِّيك في روضةٍ ... كأنَّها حُلَّةُ طاوُوسِ

فائدة حكيمة: أفاد صاحب الاشراق[3]: إن اختلاف ألوان رياش الطاووس (مثلا)[4] مستندة إلى رب نوع الطاووس، وإذا كان لكل نوع رب - جوهراً أو عرضاً - لم يتصور ذلك ولم يكن ذلك كذلك، بل الأشبه الأقرب

---

(١) في ك (في أقل من سنة) وفي المعجم الزوولوجي ٤/ ١٥٤ (ويتم نمو الذكر منه في السنة الثالثة).

(٢) لي صديق مولع بتربية الطواويس منذ زمن بعيد، ولا يزال هو وعائلته بخير والحمد لله. ويخيّل لي أن التشاؤم من الطاووس تحريف للمثل القائل (أشأم من طويس).
وطويس هذا: مخنث من أهل المدينة يقال أنه ولد يوم وفاة النبي ﷺ وفطم يوم وفاة أبي بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد له يوم قتل علي، فتشاءم الناس به.

(٣) لعله يريد صاحب كتاب حكمة الاشراق يحيى بن حنش السهروردي المقتول بحلب سنة ٥٨٧ هـ (كشف الظنون ١/ ٦٨٤).

(٤) لا وجود لهذه الكلمة في (ك).

بإشراقنا أن يكون على وجه آخر، ولعلّه أن الأسباب الفلكية أوجبت أن يكون الطاووس (بمزاجه ومادته تحت تدبير كواكب مختلفة، فالطاووس)[1] لعلاقة تدبير الكواكب إيّاه يستفيض من أرباب أنواع[2] مختلفة، وهي أرباب أنواع الجواهر والأعراض استفاضات مختلفة بوجوه مختلفة مناسبة لائقة بتدبير الكواكب المدبرة بوجوه مخصوصة لمناسبة خاصة، خفيّة اللّميّة، جليّة الأنيّة. انتهى، فتدبّر والله المدبر[3].

فائدة: السيد محمد الطاووس (بالأف واللام) بن اسحاق بن الحسن بن محمد بن داود[4] - صاحب عمل النصف من رجب - بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي عليهم السلام، لقّب بالطاووس لحسن صورته وحماشة[5] قدميه. وهو الجد الثامن للسيد علي صاحب مهج الدعوات وغيره[6] وبه يتصل نسبه هكذا، فهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد (بن محمد)[7] بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد، وهو الطاووس بن اسحاق، وكان اسحاق يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، خمسمائة عن نفسه وخمسمائة عن والده، وهو أول من ولي النقابة بسوراء[8].

وطاووس بن كيسان فقيه الحرم، كان اسمه ذكوان فلقّب طاووس -

---

(١) سقطت هذه الجملة من ك. وفي أ (تدوير) مكان (تدبير).

(٢) أرباب الأنواع: هي طبائع الأنواع ومدبراتها باصطلاحهم. أنظر كتاب حكمة الاشراق / ٢٠٠ هـ.

(٣) يأتي في ك بعد قوله: انتهى (فتدبر وانظر خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في الطاووس ووصفه يتضح الأمر).

(٤) في الكنى والألقاب ٢/ ٤٠٤ (محمد بن سليمان بن داود).

(٥) حمشت الساق: دقّت.

(٦) توفي السيد علي ابن طاووس سنة ٦٦٤ هـ (معجم المؤلفين ٧/ ٢٤٨).

(٧) في عمدة الطالب / ١٥٦ ، ومعجم المؤلفين (جعفر بن محمد بن أحمد).

(٨) سوراء (بالضم والمد): موضع إلى جنب بغداد، وقيل بغداد نفسها، وسورا (بالقصر): مدينة تحت الحلة لها نهر ينسب إليها، وكورة قريبة من الفرات.

بدون أداة التعريف - لأنه كان طاووس القرّاء والعلماء، وقيل: إنّ طاووساً اسمه، وله ترجمة في ابن خلكان[1].

ورأينا في هذا البندر من الباغي الخضر ما لا يحصى. واحدتها بَبْغا (بثلاث باآت موحدات، أولاهنّ وثالثتهنّ مفتوحتان، والثانية ساكنة، وبالغين المعجمة) وهي هذا الطائر المعروف بالدرة (بدال مهملة مضمومة) كذا ضبطها في العباب[2]، وضبطها السمعاني[3] في الأنساب بباءين (بفتح الأولى وإسكان الثانية) وقال: لقّب بها أبو الفرج الشاعر[4] لفصاحته، وقال القضاعي[5]: للثغة كانت في لسانه.

قال الشيخ داود الضرير الأنطاكي في تذكرته: وهي ألوان، أجوده الأخضر، فالأحمر، فالأصفر. وأردؤه الأبيض وهو أكبرها، يجلب من الصين، وهو طير لطيف الشكل حادّ المخلب، فإن مال فمه إلى حمرة فهو أسرع تعلماً للكلام، ولسانه كلسان الإنسان فيه مقاطع الحروف، ويخاف فيتعلّم إذا هدّد. ومتى غذي الفستق، و [الأرز][6] والقرطم[7] أسرع تعليمه، وهو أشد الطيور تضرّراً بالبرد، وإذا خرج من بلاده لم تزدوج ذكوره بإناثه، ولم يبض. انتهى.

---

(١) وفيات الأعيان ٢/ ١٩٤.

(٢) العباب الزاخر: كتاب في اللغة للإمام الصغاني (الحسن بن محمد) المتوفى سنة ٦٥٠ هـ (كشف الظنون ٢/ ١١٢٢، ومعجم المؤلفين ٣/ ٢٧٩).

(٣) هو أبو سعيد عبد الكريم بن محمد المروزي السمعاني. توفي سنة ٥٦٢ هـ (طبقات الشافعية ٧/ ١٨٠).

(٤) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغا. توفي سنة ٣٩٨ هـ (أنوار الربيع ٣/ ٢٥٣).

(٥) لعله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي الفقيه المؤرخ. توفي سنة ٤٥٤ هـ (معجم المؤلفين ١٠/ ٤٢).

(٦) في ع، و أ (اللازورد) وفي ك (الانزروت) والتصويب من البيت السادس من أبيات الصابي الآتية.

(٧) القرطم (بالكسر): حب العصفر، والقرطمان: الهرطمان.

ويقال أنه أُهدي لمعزّ الدولة ابن بويه[1] في أيامه درّة بيضاء، سوداء المنقار والرجلين، على رأسها ذؤابة.

والأخضر هو الموجود الآن، وهو يتناول مأكوله برجله كما يتناول الإنسان الشيء بيده. قال أبو اسحاق الصابي[2] في وصفها وتخلّص إلى مدح أبي الفرج الببغا:

أنعَتُها صبيحةً مليحَهْ ناطقةً باللُّغةِ الفصيحَة[3]

عُدَّتْ من الأطيارِ واللسانُ يوهمني بأنها إنسانُ

تُنهي إلى صاحِبها الأخْبارا وتكشفُ الأستارَ والأسرارا

سكَّاءُ إلاَّ أنَّها سَميعَهْ تُعيدُ ما تسمعُهُ طبيعَهْ

زارتكَ من بلادها البَعيده واستَوطنتْ عندك كالقعيده

ضيف قِراهُ الجَوزُ والأرُز والضيفُ في إتيانِه يُعَزُّ

تراهُ في مِنقارِها الخَلُوقي كلؤلؤٍ يُلقطُ بالعَقيق[4]

تنظرُ من عَينينِ كالفُصَّينِ في النُّورِ والظُّلمة بصَّاصين

تَميسُ في حُلّتها الخَضراءِ مثلَ الفتاةِ الغادَة العَذراءِ

خَريدةٌ خُدورُها الأقفاصُ ليسَ لها من حَبْسها خلاصُ

تَحبسُها وما لَها من ذَنبِ وإنَّما الحبسُ لفرطِ الحُبِّ

تلكَ التي قَلبي بها مَشغوف كنَيْتُ عنها واسمُها معروف

---

(١) هو معز الدولة أحمد بن بويه بن فناخسرو. توفي سنة ٣٥٦ هـ (الأعلام ١/١٠١).

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الحراني الصابي المتوفى سنة ٣٨٤ (أنوار الربيع ١/ ٢٤٠).

(٣) القصيدة وجوابها في يتيمة الدهر ١/٢٦٩ ، وحياة الحيوان ١/١١٣ وفي رواية بعض الأبيات اختلاف.

(٤) الخلوقي: نسبة إلى الخلوق (بالفتح) وهو خليط من الطيب أعظم أجزائه من الزعفران، وقيل هو الزعفران نفسه.

يُشرِكُ فيها شاعرُ الزَّمانِ　　الكاتب المعروفُ بالبَيانِ

ذلكَ عبدُ الواحدِ بنُ نصرِ　　يَقيهِ ربِّي حادثاتِ الدَّهرِ

فأجابه أبو الفرج بقوله:

مَن مُنصِفي من مُحْكَم الكُتّاب　　شَمسِ العُلوم قَمرِ الآدابِ

أمسَى لأصْنافِ العُلوم مُحْرزا　　وسامَ أن يَلحقَ لمَّا برَّزا[١]

وهل يُجارِي السابقَ المقصِّرُ　　أمْ هل يُباري المُدرِكَ المُغرَّرُ

إلى أن قال في وصفها:

ذاتِ شغيٍ تحسَبُه ياقُوتا　　لا ترتضي غيرَ الأرُزِّ قُوتا[٢]

كأنَّما الحبَّةُ في مِنْقارِها　　حَبابَةٌ تَطفُو على عُقارِها

ومن محاسن شعر أبي الفرج المذكور:

ومُهفهفٍ لمَّا اكتسَتْ وَجَناتُه　　خِلَعَ المَلاحةِ طُرِّزَتْ بعِذارِه[٣]

لمَّا انتصَرتُ على أليمِ جَفائِه　　بالقَلب كانَ القلبُ من أنْصارِه

كملَتْ محاسنُ وجهِهِ فكأنَّما اقْتَبسَ　　الـهِلالُ النُّورَ من أنوارِهِ

وإذ ألحَّ القلبُ في هِجرانِه　　قال الهَوى لا بدَّ منه فَدارِه

وله في التشبيه وقد أبدع:

وكأنَّما نُقِشتْ حَوافرُ خيلِهِ　　للنَّاظرِين أهلَّة في الجَلْمدِ

وكأنَّ طرفَ الشَّمسِ مَطْرُوفٌ وقد　　جعلَ الغُبارَ له مكانَ الاثْمِدِ[٤]

قال القاضي ابن خلكان في ترجمة الفضل بن الربيع: ان أحمد بن يوسف الكاتب كتب إلى بعض إخوانه وقد ماتت له ببّغا وله أخ كثير التخلّف يسمّى عبد الحميد:

---

(١) سام: أراد، طلب، قصد وابتغى.

(٢) الشغي: اختلاف نبتة الأسنان بالطول والقصر، والدخول والخروج.

(٣) الأبيات في يتيمة الدهر ١/ ٢٧٤ وفي رواية البيتين الأول والثاني اختلاف طفيف.

(٤) عين مطروفة: أصابتها طرفة، وهي نقطة حمراء تحدث في العين.

أنتَ تَبقى ونحنُ طرًّا فِداكا أحسنَ اللهُ ذو الجَلال عَزاكا

فلقد جلَّ خطبُ دهرٍ أتاكا بمقاديرَ أتلفَتْ ببَّغاكا

عجباً للمنُونِ كيفَ أتَتْها وتخطَّتْ عبد الحمِيد أخاكا

كانَ عبد الحميدِ أجملَ للموتِ من الببَّغا وأوْلى بذاكا[1]

شملَتْنا المصِيبتانِ جميعاً فقدُنا هذه ورُؤيةُ ذاكا

قال الزمخشري: إنّ الببغا تقول: ويل لمن كانت الدنيا همته[2].

غريبة: حكى الشيخ كمال الدين الأدفوي في كتابه الطالع السعيد في ترجمة محمد بن محمد النصيبيني القوصي الفاضل المحدث الأديب: إنّه أخبره أنّه [حضر][3] مرة عند عز الدين ابن البصراوي الحاجب بقوص، وكان له مجلس يجتمع فيه الرؤساء والفضلاء والأدباء، فحضر الشيخ علي الحريري وحكى: إنه رأى درّة[4] تقرأ سورة يس، فقال القوصي: وكان غراب يقرأ سورة السجدة، فإذا وصل إلى محلّ السجود سجد فيقول: سجد لك سوادي، واطمأنّ بك فؤادي. انتهى.

وأغرب القزويني في قوله: إن الببّغا لا تشرب الماء وهو غلط البتة، وأكثر قوتها ببلادها الموز، وقصب السكر، والله أعلم.

ومما رأيناه بهذا البندر من الحيوانات الغريبة: سنانير الزباد، الواحد منها كالسنّور الأهلي لكنه أطول منه جثّة وذنباً، ولونه إلى السواد أميل، والزباد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللّزج، ذفر الرائحة، يخالطه طيب حسن يوجد في ابطيه، وفي باطن أفخاذه، وباطن ذنبه، وحوالي دبره. ولم يبرح معه جماعة يلاعبونه ويحرّكونه حتى يعرق فيسيل الزباد، فتمد له ملاعق الفضة ويؤخذ[5]

(١) في وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٨ (أصلح) مكان (أجمل).

(٢) الهمة - هنا -: الهوى، أو أن الكلمة محرفة عن (همّه).

(٣) زيادة من الطالع السعيد / ٦٢١ ، وحياة الحيوان ١/ ٣٣٦.

(٤) الدرة (بالضم وتشديد الراء): الببغا.

(٥) في كتاب الحيوان للجاحظ ٥/ ٣٠٤ (الهامش) وصف أوسع لسنور الزباد، والطيب =

ويسمّى هذا السنّور: الرباح (بفتح الراء المهملة والباء الموحّدة المخفّفة). وللجوهري هنا وهم مشهور[1].

قال الدميري: والزباد طاهر، لكن قال الماوردي، والروياني: إن الزباد لبن سنّور في البحر يحلب، كالمسك ريحاً واللبن بياضاً. يستعمله أهل البحر طيباً، وهذا يقتضي أن يكون حلالاً، فإن قلنا بنجاسة لبن ما لا يؤكل ففي هذا وجهان. قال النووي: والصواب طهارته وصحّة بيعه. لأنّ الصحيح جميع حيوان البحر طاهر يحلّ أكله ولبنه، هذا بعد تسليم أنه حيوان بحري، والصواب أنه برّي. فعلى هذا هو طاهر، لكنّهم قالوا: إنه يغلب فيه اختلاطه بما تساقط من شعره، فينبغي أن يحترز عما فيه شيء من شعره لأنّ الأصح نجاسة شعر ما لا يؤكل إذا انفصل عنه في حياته غير الآدمي. انتهى من حياة الحيوان الكبرى[2].

قال الشيخ داود في التذكرة: (أرفع أنواع الزباد)[3]: (الشمطري)[4] الأسود الضارب إلى حمرة ولمعة. قلت: والشمطري: منسوب إلى شمطر من أعمال الهند. قال: وأردؤه الأبيض. ويعرف الجيّد منه بوجود طيور حمر فيه كالذباب الصغير، وإذا دلكت به اليد لم تدبق، وإن غسل بالماء لم تزل رائحته. قال: وهو حار في الثانية رطب في الأولى، أو معتدل. إذا شرب مع الشراب أذهب الغثى[5] والخفقان، وأوجاع فم المعدة. ومع الزعفران يزيل

= الذي يستخرج منه.

(١) الوهم المنسوب للجوهري هو، قال صاحب القاموس - مادة ربح - (والرباحي جنس من الكافور. وقول الجوهري: الرباح: دويبة يجلب منها الكافور خلف. وأصلح في بعض النسخ وكتب (بلد) بدل (دويبة) وكلاهما غلط، لأن الكافور صمغ شجر...).

(٢) حياة الحيوان ٢/ ٣٧.

(٣) سقطت هذه الجملة من (ك).

(٤) في ك (السمطري) بالسين المهملة.

(٥) الغثى، كالغثيان: جيشان النفس.

الوسواس والجنون والتوحّش والماليخوليا، ويفرّح تفريحاً عظيماً، ويقوّي الذهن والحواس، ويسهّل الولادة، مجرَّب. وشربته إلى دانق، وأخطأ من جعله درهماً. انتهى باختصار كثير.

ورأينا بهذا البندر أشجاراً لم نكن نراها. منها: شجر الفلفل وهو أشبه ما يكون بشجر الدجر[1] يلتفّ على شجرة أخرى، وقول الأطباء ممن لم يره أنّه كشجر الرمّان خلف. والفلفل فيه كعناقيد العنب وهو أخضر، فإذا يبس اسودّ. والفلفل الأبيض شجر برأسه قطعاً. واختلفت أقوال الأطباء فيهما في كون كليهما من شجرة واحدة، أو هما غيران؟ والأصح ما ذكرناه عن عيان. وخواصهما مذكورة في كتب الطبّ وكلاهما حار. وحكماء الهند تقول: إنه بارد ويكثرون استعماله في الحمّى فينفعهم.

ومنها شجر النارجيل، وهو كالنخل إلاّ أنّ جذعه في الغالب أمتن من جذع النخل، وسعفه كسعفه، غير أن سعف النخل أصلب منه وأقوى شوكة. وقول الشيخ داود في التذكرة: أنّ وجه الجريدة فيه إلى أسفل غير صحيح، بل جريدته كجريدة النخل، والآفة من الراوي. وبالغ صاحب القاموس في وصف طولها ولينها فقال: النارجيل: جوز الهند واحدتها بهاء، وقد يهمز. ونخلته طويلة تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض ليناً. ويكون في القنو الكريم منها (ثلاث عشرة)[2] نارجيلة، ولها لبن يسمّى الاطراق، وخاصّيّة الزنخ منها: إسهال الديدان، والطريّ: باهيّ جدًّا. انتهى. وشجره يثمر بعد سبع سنين، ويبقى مائة عام وأكثر، وهو يزرع ثمراً لا قضباً، وله منافع كثيرة مذكورة في مظانها.

ومنها شجر الفوفل وهو طويل جدًّا حسن الساق معتدل القامة لا يرى فيه اعوجاج أصلاً، وساقه كلّه شديد الخضرة من أسفله إلى أعلاه، ولا يكاد يعلوه المرتقي إلاّ بجهد شديد للينه، وهو شبيه بالنخل وشجر النارجيل، إلاّ أنّ هذا

---

(١) الدجر (مثلثة): اللوبياء.

(٢) كذا في الأصول ، والذي في القاموس (ثلاثون).

رفيع الساق جدًّا بالنسبة إليهما، وهو يحمل كبائس فيها الفوفل داخل قشر صلب، عليه طبقات ليفيّة كالنارجيل، ولا يستعمل في جميع الأرض، ولا يحمل إلى سائر الأقطار (إلاّ فوفل هذا الصقع المسمى بكوكن)[١] وإن وجد في سائر بلاد الهند إلاّ أنّه رديء جداً لا يستعمل، وإنّما يتخذ شجره في البساتين للنظر إلى ساقه وحسن قامته.

ومنها: شجر الأنبا، وهو العنب المعروف الآن (بفتح العين المهملة وسكون النون). وفي القاموس: الأنبج (كأحمد) وتكسر باؤه: ثمرة شجرة هندية (معرّب أنب)[٢] وهو شجر عظام، وكنّا رأينا ثمره باليمن ولم نر شجره، وهو من محاسن ثمر الهند، يغذي غذاء حسناً، ويتفاوت في بلاده حسناً ورداءة. قال الشيخ في التذكرة: وهو حار في الثانية يابس في الثالثة، وقبل النضج بارد في الأولى. يفتح الشهوة إنْ خُلّل، ويقطع الطحال، ويفتّت الحصى. والمربّى يمنع الخفقان والصداع البارد، ونواه يبيّض الأسنان، ويطيّب رائحة الفم، وهو كيف كان يغسل الأخلاط اللزجة، ويذهب البواسير. ورماد شجره يحبس الدم، وقيل: إنّ الأخضر منه يمنع الشيب، وهو يضعف الكبد، ويصلحه الزبيب. انتهى. وإنّما تعرّضنا لذلك لقلّة من نبّه عليه.

وكتب إليّ سيدي الوالد دام مجده، وكان قد أهدى إليّ منه شيئاً:

هو العَنْبُ لوناً كالنُّضار ولذّةً   كظَلْم العَذارى والرَّحيقِ المصَفَّقِ
فكُلْهُ هَنيئاً يا سُلالَة هاشمٍ   ولا زلتَ بالتَّوفيقِ خيرَ مُوَفَّقِ

فأجبته بقولي:

أتانا لذيذُ العَنْبِ رَطباً ويانِعاً   بطَعمٍ كطعمِ الخُسرَوِيِّ المعتَّقِ[٣]
ونظمٌ كنظمِ الدُرِّ يَزهو على الدمى   ذكيٌّ متى يُتلى على السَّمع يَعْبَقِ

---

(١) في ك ، و أ (إلا فوفل الهند من الصقع المسمى بكوكن).

(٢) تسمى بالعراق (عنبه) وفي مصر (منجه) أو (منجو). يراجع القاموس، ولسان العرب، ومعجم متن اللغة مادة (ن ب ج) و (أ ن ب) و (ع ن ب).

(٣) الخسروي: صنف من الشراب.

فشرَّدَ همًّا بين جَنبيَّ كامِناً   وطابَ به عيشُ الزَّمان المُرَنَّقِ[1]

وأهدى الوالد إلى السيد الجليل الفاضل العلامة محمد بن عبد الحسين البحراني[2] عنباً فكتب إليه السيد قصيدة يصف فيها العنب أولها:

أحمدُ من أصْعَدَ كعبَ أحمدِ   في ذِرْوَة المجدِ وهامِ السُّؤددِ

بالعلمِ والفَضل وطيبِ المحْتَدِ   وهِمَّةٍ تدوسُ فَرْقَ الفرقَدِ

السيِّدِ النَّدبِ الجَواد الأوحَدِ   من لا يُحاطُ وصفُه بالعَددِ

هِمَّتُه مصرُوفةٌ في مَدَدي   ولم تفارِقْ بِدْه قَطُّ يَدي

فمن جَزيلِ فَضلِه المجدَّدِ   ولُطفِه بعَبْدِه محمَّدِ

بليلةٍ بها الزمانُ مُسعِدي   قد أسفَرتْ عن صُبح يَوم الأحدِ

إهداؤهُ العَنْبَ الذي مَذاقُه   ألذُّ من وَصْل الحِسانِ الخُرَّدِ

أحْلى من السُكَّر في الطَّعم وإن   نَسْتَشهِد الشَّهد بذاكَ يَشْهدِ

لو قلتُ لم تَحو الجِنانُ مثلَه   طَعماً ولوماً وشَذاً لم أبْعِدِ[3]

قد كادَ لُطفاً أن يذوبَ عندما   تَلمَحُه العينُ كذوبِ البَرَدِ

من نالَ شَيئاً منه في زَمانِه   كأنَّما نالَ حياةَ الأبَدِ

كأنَّما الشمسُ إذا ما طَلَعَتْ   قد كُسِيَتْ من لونهِ المُوَرَّدِ

تَرى إذا رأيتَه شمسَ الضُّحى   بازِغةً في كُرَةِ الزَّبَرْجَدِ

---

(١) المرنّق: الكدر، وقد جرّه بالوصفية للزمان، ويجوز اعتباره صفة للعيش ويكون جره بالمجاورة.

(٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبد الحسين بن ابراهيم بن أبي شبانة الحسيني البحراني. كان حياً سنة - ١٠٧٠ هـ (سلافة العصر / ٤٩٧، وأعيان الشيعة ٤٥/ ٢٨٤) واسمه فيهما (محمد ابن عبدالله بن ابراهيم) وما أثبته المؤلف مطابق لما جاء في أنوار البدرين / ٩٥.

(٣) الجنان، جمع الجنة، ويريد مفهومها اللغوي: الحديقة ذات الشجر. في ك (لو قلت ما حوى الزمان مثله)، وفي أ (لم يحو الزمان).

قد جاءَنا من دَوحَةِ الجُود التي	أثمارُها ما بَرِحَتْ كالعَسْجَدِ[١]

وهي قصيدة طويلة كلّها على هذا النمط[٢] اقتصرنا منها على ما تعلّق به الغرض.

ومن محاسن شعر السيد المذكور ما كتبه إلى الوالد من شيراز المحروسة بعد فراقه له سنة سبعين وألف:

لولا مَضايِقُ أحوالٍ وقعتُ بها	لم تُبْقِ لي سَبَداً يوماً ولا لَبَدا[٣]

لَما جَرى بشَكاةِ الدَّهرِ لي قَلَمٌ	ولا جمعتُ عليه إصبَعاً أبَدا

والحرُّ ما زالَت الأقدار تُقحِمُه	شدائِدَ الدَّهرِ حتى يَفْقِدَ الجَلَدا

مازلتُ في مَوقِف الإخلاصِ منتصباً	وفي مُجاهَدةِ الأعْداءِ مُجتَهِدا

وكنتُ عندَكَ في قُربٍ ومَنزِلةٍ	فليتَ شِعريَ ما بعدَ البِعادِ بَدا

لا زالَ عمرُكَ بالتَّأييدِ متَّصِلاً	وعَضْدُ عزِّكَ بالتأيِيد مُعْتَضِدا

ومن الأشجار التي رأيناها بالهند شجر التانبول، ويقال له: التامول، والتنبل. وهو ضرب من اليقطين كاللّوبيا ينصب له قعيد فيرتقي فيه وإلاّ فيرتقي على الشجر، وورقه كورق الأترج سبط رقيق فيه حرافة[٤].

قال الشيخ في التذكرة: ورائحته قرنفلية، وأجوده الرقيق السبط الطيّب الرائحة، الشديد إذا قطع، وهو حار في الثانية، أو الأولى، يابس في أول الثالثة. يقوم مقام الخمر في كل ما لها من الأفعال النفسية والبدنية، والهند تعتاض به عنها. وهو يشدّ الحواس، ويقوّي اللثة والمعدة والكبد، ويفتّ الحصى، ويدرّ الفضلات، ويفتح السدد، ويجوّد الحفظ والفهم، ويذهب النسيان ويحمّر الشفة والأسنان جداً إذا أطيل مضغه. والناس يستعملونه

---

(١) في سلافة العصر (ما برحت أثمارها).

(٢) القصيدة كلها في سلافة العصر.

(٣) السبد: القليل من الشعر. اللبد: الصوف، وفي المثل (ما له سبد ولا لبد) أي لا شيء عنده.

(٤) الحرافة: طعم يحرق اللسان والفم.

بالجير[١] والفوفل إلى سبع ورقات كلّ مرة معها ربع درهم من كلّ من المذكورين، وقد يربَّى فيعظم نفعه جداً، ويزيد في العقل، وينشّط ويذهب الكسل. والإكثار منه يثقل الرأس، ويصدع المحرور، ويصلحه السكنجبين، وشربته إلى مثقال. انتهى بنصّه.

قلت: ولا يستعمله أهل الهند وغيرهم إلاَّ بشيء من الكلس المبلول.

قال المسعودي: إذا مضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل شدّ اللثّة وقوى عمود الأسنان، وطيّب النكهة، وشهّى الطعام، وبعث على الباه، وحمّر الأسنان كأحمر ما يكون من حبّ الرمان، وأحدث في النفس طرباً وأريحيّة، وقوّى البدن وثارت من النكهة روائح طيبة. والهند تستقبح - خواصّها وعوامها - من أسنانه بيض، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا. انتهى.

ومنها: قصب السكّر وهو بالهند نوعان، أبيض وأسود، فالأبيض ألطف وأكثر ماء وأطول عقداً، والأسود أصدق حلاوة. وكلاهما كقصب الذرة إلاّ أنّه أغلظ وأطول غالباً، وليس له حبّ وإنما يغرس قُضُباً. وظنَّ بعض كبار الأطباء المتقدمين أنّ السكر رطوبات كالمنّ سقط على هذا القصب فيجمع ويطبخ، والحال أنه عصارة القصب.

قال في التذكرة[٢]: وأجوده المصري، ثم الهندي الغليظ الغضّ الكثير الماء الصادق الحلاوة الطويل العقد. وهو حار في الأولى رطب في الثانية يُهضّم ويُفتّح السدد، ويلطّف الدم، وهو أشدّ ملاءمة من السكر.

وما أحلى قول الشيخ شهاب الدين ابن [أبي] حجلة[٣]:

أمسيتُ في قصَبِ الجَزيرة مُغرماً ... وبقدِّه العسّال كالوَلْهانِ

عيدانُه لولا حَلاوةُ مائِها ... شَبَّهتُه في الشَّكلِ كالمُرّانِ

---

(١) الجير: الجص.

(٢) القول للشيخ داود الانطاكي.

(٣) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى التلمساني المعروف بابن أبي حجلة (في الأصول ابن حجلة). توفي سنة ٧٧٦ هـ (أنوار الربيع ١/ ٣٨٧).

ولابن حجّة قصيدة ملغزاً فيه منها قوله:

يَلَذُّ قُبَيْلَ العَصْرِ في الظُّهرِ رشفُها — وبَردُ لَماها من أليمِ الجَوى يُبْري

وفي أوَّلِ الأعْرافِ تَرْوي من الظَّما — وتضرمُ نيرانَ الجوى وهي في العصر[1]

وأنشد الصفدي في الجزء الثامن من تذكرته[2] لغيره ملغزاً فيه:

وذي هَيَفٍ كالغُصْنِ رَنَّحه الصَّبا — يَفوقُ القَنا الخَطِّي بغَيرِ سِنانِ[3]

لـهُ ولَـدٌ كـلُّ البَـرايـا تُـحِـبُّـهُ — وتَـشْـتـاقُـه إنْ عَـزَّ مـنـه تَـدانـي

وأعجبُ ما فيهِ يَرى النَّاسُ أكلَهُ — حلالاً قُبَيْلَ العَصرِ في رَمَضانِ

ورأينا بهذا البندر عيناً جارية وماؤها في غاية الحرارة، يتصاعد منه الدخان، فيقال: إنها تمرّ على معدن الكبريت فيفيدها هذه الحرارة، ولقد كنا نشمّ منها رائحة الكبريت.

وقد روي في الأثر كراهية استعمال هذا الماء الحار. روي عن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاستشفاء بالحميات، وهي العيون الحارة التي تكون في الجبال التي توجد فيها روائح الكبريت فإنّها من فوح جهنم. وعنه (ع) قال: أنّ نوحاً (ع) لما كان في أيّام الطوفان دعا المياه فأجابته إلاّ ماء الكبريت والمار المرّ. وأمّا خاصيّة ماء الكبريت فإنه يطلق أولاً ثم يعقل، وهو يعقب الحكّة والجرب شرباً، ويمنع منهما غسلاً، ويقال: أن بجبل بالأندلس عينين إحداهما باردة والأخرى حارة والمسافة بينهما شبر.

وأغرب من ذلك ما ذكره المسعودي عن صاحب المنطق: أنّ ببعض المواضع عيوناً حامضة يستعمل ماؤها كما يستعمل الخلّ، وذكر: أنّ العلّة في

---

(١) أول سورة الأعراف (المص).

(٢) في كشف الظنون ١/٣٨٨ (هي في نحو ثلاثين مجلداً جمع فيها نوادر الأشعار ولطائف الأدبيات نظماً ونثراً).

(٣) أورد المؤلف البيتين الأول والثالث في كتابه أنوار الربيع ٦/٤٢ منسوبين إلى موفق الدين علي بن الجزار، مع اختلاف في الرواية.

هذه المياه أنّ الأرضين المختلفة مثل مواضع الشب، والمواضع النارية والرمادية إذا خالطت الماء أفادته طعوماً مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها. انتهى.

ومن الغرائب ما رأيناه بهذا البندر، وهي عين على قلّة جبل تنبع وتجري في السنة ثلاثة أيام ثم تغور وتنقطع، وكانت أول دخولنا البندر منقطعة، ثم بعد إقامتنا هنالك شهرين قيل: نبع ماؤها فقصدناها للتفرج، وقصدتها الهنود للعبادة. وكنا قصدناها قبل ذلك لما وصفت لنا فرأيناها غائرة ومجراها يابساً. وقد اتخذت الهنود عندها حياضاً، ولما نبع الماء امتلأت تلك الحياض، وهو ماء عذب أبيض برّاق. ويحكى مثل هذا كثير إلاّ أن للعيان موقعاً ليس للسماع.

فيقال: أن بالقرب من نهر أذربيجان نهراً يجري فيه الماء سنة ثم ينقطع ثماني سنين ثم يعود في التاسعة. وقيل أنه ينعقد حجراً ثم يستعمل منه اللّبن ويبنى به.

ويقال: أنّ في تلك الأرض بحيرة تجفّ فلا يوجد فيها سمك ولا طين سبع سنين، ثم يعود الماء والسمك والطين.

ويقال: أنّ نهر صقلاب يجري فيه الماء يوماً واحداً في كلّ أسبوع، ثمّ ينقطع ستة أيّام، فسبحان الفعّال لما يريد.

فائدة: كلّ ماء يجري فهو نهر، وحيث ينبع فهو عين. وحيث يكون معظم الماء فهو بحر.

قال بطليموس: إن بهذا الربع المسكون مائتي نهر من خمسين فرسخاً إلى ألف فرسخ وكلّها تبتدئ من الجبال وتنتهي إلى البحار.

قيل: وليس في الأنهار أطول من نهر النيل، وليس في العالم ما يسمى بحراً ونهراً سواه، وقد كثرت أقاويل الناس فيه، وأطالوا الكلام عليه، وهو يظهر من تحت جبل القمر (بلفظ أحد النيرين) وإنما سمي بذلك لما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق.

ذكر أنّ جماعة صعدوا هذا الجبل ليحيطوا خبراً بمبدأ النيل، فرأوا وراءه

بحراً عجاجاً أسود كالليل يشقّه نهر أبيض كالنهار وهو النيل.

ويقال: أنّ أُناساً صعدوه فجعل كلّ واحد منهم يضحك ويصفّق، ويلقي نفسه إلى ما وراء الجبل، فرجع البقيّة خوفاً من أن يصيبهم مثل ذلك، فيقال: أنّهم رأوا حجر الباهت، وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا[1] يتلألأ حسناً، إذا رآه الإنسان ضحك حتى يموت لا يمسك عنه البتّة، ولا أن يستتر عنه بعد أن يكون قد رآه. ثمّ إن وقع عليه الفرفير[2] - وهو طائر في شكل عصفور الشوك الذي يقال له السماني، أسود له طوق أحمر وعيناه حمراوان ورجلاه كذلك - أبطل فعله لوقته، ورآه الإنسان من غير ضرر، وهذا الحجر كثير الوجود بأرض تبت (بضم التاء). وزعموا أنّ أهلها يرونه[3] فلا يضرهم كثير ضرر، والغريب الطارىء على بلدهم كلما تقع عينه عليه يندفع في الضحك الدائم. فالفعل الأول وهو الضحك عند رؤيته لمناسبة وميل في هذه الخاصيّة، والثاني وهو عدم الضحك عند وقوع ذلك الطائر عليه بسببٍ عارض.

ومن نوادر الحكايات أن المتوكّل لما قبض على بختيشوع[4] أصابوا له فيما أصابوا من أعلاق الجواهر ونفائس الطرائف حجراً في درج مختوم بختمه، فدعوا غلامه فسألوه عن الحجر فقال: لا أخبركم أو يضمن لي أمير المؤمنين أن ينفذني إلى ملك الروم، فليس لي بعد مولاي حاجة في العراق، فحلف له المتوكل بأيمان مغلّظة أنه يبذرقه[5] إلى ما هناك، فقال: هذا حجر

---

(١) المرقشيشا (دخيلة سريانية) فسروه بالحجر الصلد، وهو أصناف منها الذهبي والفضي والنحاسي (معجم متن اللغة مادة م ر ق).

(٢) في حياة الحيوان ٢/٢٢٢: الفرفر (كهدهد): من الطيور المائية صغير الجثة على قدر الحمام، وهذا لا ينطبق على ما ذكره المؤلف.

(٣) في ع (يرونهم)، وفي ك (يرونها).

(٤) هو بختيشوع بن جبريل طبيب معروف: توفي سنة ٢٥٦ هـ (عيون الأنبياء / ٢٠١).

(٥) البذرقة (بالذال المعجمة أو الدال المهملة): الخفارة، والمبذرق (بكسر الراء) الخفير.

إذا (قيس)[1] به الشعر حلقه واستغنى فاعل ذلك عن النورة، والحلق بالمواسي، فدعوا برجل على ساعده شعر كثير فأمرّوا الحجر على شعره فلم يبق على ساعده شعرة واحدة، ففرح المتوكل، وأمر بالخادم أن يبذرق إلى بلاد الروم. فقال الخادم: أمّا إذا وفى لي سيدي بالبذرقة فإنّ هذا الحجر يحتاج أن يطرح كل سنة عند طلوع الشعرى العبور[2] في دم تيس حار. فبذرقوا بالخادم، فلما وصل، وطلعت الشعرى العبور ووقد الهجير طرحوه في الدم فبطل عمله.

فكان حلق هذا الحجر الشعر من العضو الذي عليه، وجذبه إلى نفسه حتى ينفصل عنه، ويلتصق به لمشاكلةٍ طبيعيّة، وذهاب ذلك بدم التيس لشدّة المنافرة والمغايرة، ومثل هذا كثير.

ورأينا بهذا البندر معبداً عظيماً للهنود فيه أصنام من ذهب وفضة مصوّرة على صورة الإنسان وصور الحيّات، وقد صوّر حولها من الصخر المنحوت أصنام كثيرة، فمنها صور بقر، وصور رجال ونساء. وهذا المعبد بين عظيم منحوت كله من الصخر الأسود تقصده كفرة الهنود من الآفاق وتنذر له النذور، ورأيناهم يسجدون للأصنام التي فيه، والسرج فيه ليلاً ونهاراً لا تطفأ، وله خدم وحجّاب وأتباع. وبجنبه نهر عظيم يخرّ من شاهق في بئر لا يُعلم قرارها وهي ملآنة يمرّ الماء عليها بين جبلين عليهما من أنواع الأشجار والأزهار ما يجلّ عن الوصف، ثم ينصب الماء إلى البحر. وحكى لنا أهل تلك البلاد أنّ بعض الوزراء أراد أن يعلم عمق هذه البئر التي يمرّ عليها هذا النهر، فأنزل جماعة من الغاصة فلم يخرج منهم أحد، ولا يعلم ما صاروا إليه، وكثير من جهلة الهنود يعتقد في هياكلهم هذه القِدم، وأمّا علماؤهم فيزعمون أنّها تقرّبهم إلى الله زلفى.

قال المسعودي: كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقد أنّ الله عزّ وجل جسم، وأنّ الملائكة أجسام، وأن الله تعالى وملائكته

---

(١) (إذا قيس) كذا ورد في الأصول، والصواب (إذا قُسَّ، أو قسّس) للمجهول، من قس الشيء تتبعه وطلبه، والصاد لغة فيه. والقسّ (مثلثة): تتبع الشيء وطلبه كالتقسّس.

(٢) الشعرى العبور: كوكب طلوعه في شدّة الحرّ.

احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناماً على صورة الباري تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال، ومنها على صورة الإنسان، فعبدوها وقرَّبوا لها القرابين، ونذروا لها النذور لشبهها عندهم بالباري تعالى عن ذلك، فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار، حتى نبههم بعض حكمائهم على أنّ الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئيّة إلى الله تعالى، وأنّها حيّة ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيما بين الله وبينها، وأن كلّ ما يحدث في هذا العالم فإنه على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله، فعظّموها وقرّبوا لها القرابين لتنفعهم، فمكثوا على ذلك دهراً، فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناماً وتماثيل بعدد الكواكب المشهورة. فكلّ صنف منهم يعظم كوكباً منها، ويقرّب لها نوعاً من القربان خلاف ما للآخر. على أنّهم إذا عظّموا ما صوّروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية السبعة بكلّ ما يريدون. وبنوا لكلّ صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً، وسمّوا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب. وقد ذهب قوم إلى أنّ البيت الحرام يكون على مرور الدهر معظّماً في سائر الأعصار لأنه بيت زحل، وأنّ زحل شأنه البقاء والثبوت، فما كان له فغير زائل ولا دائر، وعن التعظيم غير حائل. وذكروا أموراً أعرضنا عن ذكرها لشناعة أمرها. ثم ذكر المسعودي انحرافهم عن هذا المذهب إلى غيره من المذاهب ممّا يطول ذكره.

وبالجملة فإن الهنود لهم مذاهب ومعتقدات مختلفة لا يدركها الحصر، وقد رأينا منهم من يعبد النيّرين، ومنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الأصنام. وقد ذكر الشهرستاني في الملل والنحل جملة من مذاهبهم قال:

ومن عبدة الأصنام (المهاكلكة، لهم صنم يدعى مهاكال)[1] له أربعة أيد

---

(١) في ك (المهاكلكة لهم صنم يدعى مهلكلك) وفي أ (مهلكال) مكان (مهاكال).

كثير شعر الرأس سبطه، وبإحدى يديه ثعبان عظيم فاغرٌ فاه، وبالأخرى عصاً، وبالثالثة رأس، واليد الرابعة قد رفعها. وفي أذنيه حبّتان كالقرطين وعلى جسده ثعبانان عظيمان قد التفّا عليه، وعلى رأسه اكليل من عظام القحف، وعليه من ذلك قلادة. يزعمون أنه عفريت يستحق العبادة لعظم قدره، واستحقاقه الخصال المحمودة المحبوبة، والمذمومة، من الإعطاء والمنع، والإحسان والإساءة، وإنه المفزع لهم في حاجاتهم. وله بيوت عظام بأرض الهند يعتفيها أهل ملته في كلّ يوم ثلاث مرات يسجدون له ويطوفون به. ولهم بموضع آخر صنم يقال له صنم المعبود، عظيم على صورة هذا الصنم، يأتونه من كلّ موضع، ويسجدون له هناك، ويطلبون حاجات الدنيا، حتى أن الرجل يقول له فيما يسأل: زوّجني فلانة، واعطني كذا، ومنهم من يأتيه يقيم عنده الأيام والليالي لا يذوق شيئاً يتضرع إليه ويسأله الحاجة، حتى ربما يتفق هذا. انتهى.

والهنود أقسام مختلفون، وأصناف متباينون، لكلّ فرقة مذهب ومعتقد عدا ما للأخرى، يعرف ذلك من دخل بلادهم وشاهد عباداتهم.

لقد طُفتُ في تلكَ المعاهدِ كلِّها ... وسَيّرتُ طَرفي بين تلكَ المعالمِ[1]

فلم أرَ إلاّ واضِعاً كفَّ حائِرٍ ... على ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادِمِ

وذكر جماعة من أرباب التواريخ: أن السلطان محمود بن ناصر الدولة[2] لمّا فتح بلاد الهند في سنة عشر وأربعمائة كتب كتاباً إلى بغداد يذكر ما فتح الله على يديه من بلاد الهند، وأنه كسر الصنم المشهور بسومنات، وذكر في كتابه أنّ هذا الصنم عند الهنود يحيي ويميت ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد ويبرئ، وربّما كان يتّفق - لشقوتهم - برء عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء، وكثرة الحركة فيزيدون به افتتاناً، ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً، وركباناً. ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتجّ بالذنب وقال: أنه لم يخلص له

---

(١) البيتان في وفيات الأعيان ١/ ٤٢٣ منسوبان للرئيس أبي علي بن سينا (الحسين بن عبدالله) المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (معجم المؤلفين ٤/ ٢٠، و١٣/ ٣٨٢).

(٢) هو السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين المتوفى سنة ٤٢١ هـ (الأعلام ٨/ ٤٧).

الطاعة فلم يستحق منه الإجابة. ويزعمون أنّ الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ وينشئها فيمن شاء. وأن مدّ البحر وجزره عبادة له على قدر طاعته. وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجّونه من كلّ صقع بعيد، ويأتونه من كلِّ فجّ عميق، ويتحفونه بكلِّ مال نفيس. ولم يبق في بلاد الهند والسند - على تباعد أقطارها، وتفاوت أديانها - ملك ولا سوقة إلاّ وقد تقرّب إلى هذا الصنم بما عزَّ عليه من أمواله وذخائره، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية في تلك البقاع، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال. وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه وثلثمائة رجل يحلقون رؤوس حجاجه ولحاهم عند الورود عليه، وثلثمائة رجل وخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه، ويجرى من الأوقاف المصدرة له لكل طائفة من هؤلاء رزق معلوم.

وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصنم مسيرة شهر في مفازة موصوفة بقلة الماء وصعوبة المسالك واستيلائهم على طرقها. وسار إليها السلطان محمود في ثلاثين ألف فارس سوى الرجّالة والمتطوعة مختاراً لهم من عدد كثير، وأنفق عليهم من الأموال ما لا يحصى، فلمّا وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيفاً ففتحوها في ثلاثة أيام، ودخلوا بيت الصنم وحوله أصنام الذهب، والمرصّع بالجواهر عدّة كثيرة محيطة بعرشه، يزعمون أنّها الملائكة. فأحرق المسلمون الصنم فوجدوا في أذنه نيفاً وثلاثين حلقة، فسألهم السلطان محمود عن معنى ذلك فقالوا: كل حلقة عبادة ألف سنة، فكلما عبدوه ألف سنة علّقوا في أذنه حلقة. وقد ذكر المؤرخون من أخبار هذا الصنم شيئاً اقتصر بعضهم على هذا المقدار وفيه الكفاية.

وأسلم في هذه الوقعة نحو عشرين ألفاً، وقتل من الكفار نحو خمسين ألفاً. وكان السلطان محمود قد استصفى نواحي الهند إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تتل به قطُّ آية، ووقائعه وحروبه مذكورة في تاريخ أبي نصر العتبي[1] الذي ألّفه للسلطان المذكور. وسنذكر من أخبار الهند جملاً فيما

---

(١) هو أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ وقيل غير ذلك (معجم =

سيأتي إذا أفضت النوبة إليه إن شاء الله تعالى.

فائدة: أول من غيّر جين اسماعيل من العرب: عمرو بن لحي[1] من خزاعة، فبعثهم على عبادة التماثيل، وذلك أنّه سار إلى البلقاء من أعمال دمشق من أرض الشام فرأى العمالقة تعبد الأصنام، فسألهم عنها فقالوا: هذه أرباب نتخذها. نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فطلب منها صنماً فدفعوا إليه هبل، فسار به إلى مكة فنصبه على الكعبة[2] ودعا الناس إلى تعظيمه وعبادته ففعلوا ذلك، ثمّ استكثروا من الأصنام، واستبدَّت كلّ قبيلة، وقبيلتين بصنم، فكانت لقريش وبني كنانة العُزَّى، وحجَّابها بنو شيبة[3]. ولثقيف اللاَّت وحجابها بنو مغيث[4]، وكانت مناة للأوس والخزرج.

قال الواقدي: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة فرس، ونسر على صورة حصان، ويعوق على صورة فيل. انتهى.

وكان جملة ما حول البيت من الأصنام ثلثمائة وستين صنماً فكسرت كلّها يوم الفتح، والحمد لله ربّ العالمين.

وعلى ذكر الصنم فما ألطف قول أبي الحسن السري الرفاء في العذار[5].

= المؤلفين ١٠/١٢٦).

(١) هو عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (عرضت عليّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي يجرّ قصبه (أمعاءه) في النار، وهو أوّل من غير دين ابراهيم عليه السلام...). جمهرة أنساب العرب / ٢٣٤، وأخبار مكة اللازرقي ١/١١٦).

(٢) في كتاب الأصنام / ٢٨ (إن أوّل من نصب هبل: خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ويقال له هبل خزيمة).

(٣) (بنو شيبة) كذا ورد في الأصول، والصواب (بنو شيبان) يراجع الأصنام للكلبي / ٢٢ ومعجم البلدان ٣/ ٦٦٥ وأخبار مكة ١/١٢٦.

(٤) في كتاب الأصنام / ١٦ (وكان سدنة اللات من ثقيف بنو عتاب بن مالك).

(٥) لا وجود لهذه الأبيات في ديوان السري.

صنمٌ شُغِفتُ بحبِّهِ فعذَرْتُ من عَبَدَ الصَّنَمْ
أحببتُهُ فحملتُ عَن أجْفانِه بعضَ السَّقَمْ
شَعَرٌ ألمَّ بعارِضَيْهِ فزادَ عاشقَهُ لَمَمْ
والسَّيفُ يَحسُنُ في الحِلى والبدرُ يُشوِقُ في الظُّلَمْ
والطِّرسُ أحسَن ما يكونُ إذا جَرى فيه القَلَمْ

ومن محاسن شعر السري المذكور قوله من أبيات يدعو بها صديقاً له ومن ديوانه نقلت:

وقد أضاءَتْ نجومُ مجلِسِنا حتَّى اكتَسَتْ غُرَّةً وأوْضاحا[1]
لو جَمدَتْ راحُنا اغتدَتْ ذَهَباً أو ذابَ تفَّاحُنا اغتَدى راحا[2]

فائِدة: أرخ ابن خلكان وفاة السري المذكور سنة أربع وأربعين وثلثمائة (ونقل عن الخطيب البغدادي في تاريخه أنه قال: في سنة نيف وستين وثلثمائة)[3]. انتهى.

قلت: وعندي أنّ هذين القولين كليهما غير صحيح، لأني رأيت له في ديوانه مرثية في أبي اسحاق ابراهيم الصابي المشهور يقول فيها[4]:

ورأيتُ ابراهيمَ مثلَ سَمِيِّهِ صَبْراً غداةَ غَدا إلى الإحراقِ

والصابي توفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة من غير خلاف فليحرر.

ومما اخترته من شعر السري قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة:

كِليني إلى المهريَّةِ القُودِ إنَّني سآخذُ من أيْدي الخُطوبِ قِيادي[5]
فما تَعبي إلاَّ لِتَجديدِ راحَةٍ ولا سَهري إلاَّ لِطولِ رُقادِ

---

(١) في الديوان (حتى اكتسى).

(٢) في الديوان (غدت ذهبا).

(٣) في ك (وذكر عن غيره سنة ست وستين).

(٤) لا وجود للقصيدة في ديوان السري الذي بين أيدينا.

(٥) في الديوان (أنها) مكان (أنني).

ومن شعره الذي تناقلته الركبان قوله:

يَلقى النَّدى برَقيقِ وجهٍ مُسفِرٍ فإذا التَقى الجَمْعانِ عادَ صَفِيقا

رَحبُ المنازِلِ ما أقامَ فإن سَرى في جَحْفَلٍ تركَ الفَضاءَ مَضِيقا

رجع: وما زلنا راتعين بين تلك الرياض الوريفة، مرتبعين من ذلك خصبه وريفه، والربيع قد خلع على الأرض أثوابه، وفتح من الأنس للزائر أبوابه، فتجلّى الروض بوجه وسيم، وصحّ الهوى واعتلّ النسيم، والرياض مفترّة المباسم، والرياح معطّرة النواسم، والغصون قدود، والورد خدود، والزهر مبلول، والنهر حسام مسلول.

نهرٌ يَهيمُ بحُسنِه مَن لم يَهِمْ ويُجيدُ فيه الشِّعرَ من لم يَشْعُرِ

فكأنَّه وكأنَّ خُضرةَ شَطِّهِ سيفٌ يُسلُّ على بساطٍ أخْضَرِ

وكم من روضة تختال في خلع الغمام، وترتاح أغصانها إلى سجع الحمام، قد التحفت حللاً محضّرة، وجعلت نوّارها للبدر غرّة وللشمس طرّة.

وحَديقةٍ مَطلُولةٍ باكرتُها والشمس ترشف ريقَ أزهارِ الرُّبى[1]

يتكسَّرُ الماءُ الزُّلالُ على الحَصى فإذا غَدا بينَ الرِّياض تَشَعَّبا

فاستقبلنا العيش في هذا القطر جديداً، وحلّينا منه للزمان جيداً، نتبع اليوم بالأمس، ونلحق البدر بالشمس، ونحن في أمان من أخوان الزمان.

لا تبعدنَّ وإنْ طالَ الغَرامُ بها أيامُ لهوٍ عَهدْناها ولَيْلاتُ

ما أمكنَتْ دولةُ الأفراحِ مُقبلةً فانعَمْ ولَذَّ فإنَّ العَيشَ تاراتُ

قبل ارْتِجاعِ اللَّيالي كلَّ عاريةٍ فإنَّما لذَّةُ الدُّنيا إعاراتُ

خُذ ما تيسَّر واترُكْ ما وُعِدْتَ به فِعلَ الأديب وفي التَّأخير آفاتُ

هذا ولولا ما يعتنُّ بالبال لتذكّر الوطن من البلبال لأنشدت في هذه القرية قول القائل من غير فرية:

---

(١) نسب المؤلف هذين البيتين في كتابه أنوار الربيع ٢/٥٤ إلى بدر الدين يوسف الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠ هـ (الأعلام ٩/٣٢٥).

وَجَدْتُ بها ما يَملأ العَين قرَّةً ... ويُسلي عن الأوْطانِ كلَّ غَريبِ

ولكن إذا عنَّ التذكار أذكى لواعج الهموم والأفكار (فنباري تلك الحمائم شجوناً ونجاري تلك الغمائم شؤوناً)[١]:

وحَنيني إذا تَصدَّى لنَفسي ... صَدَّ لَهوي عن ارتيادِ ارْتياحي

علَّم الوُرقَ حُزنَها فهيَ في الأوراقِ ... تَـتْـلـوهُ فـي نَـواح الـنَّـواحِ

لا يردُّ الجَوى اغتِباطُ اغتِباقٍ ... من حَنيني ولا اصطِبارُ اصطِباحِ

فتنهّل غمائم الغموم، وتهمى سحائب الهوم، وينكدر من العيش ما صفا، وأنشد[٢] (كأن لم يكن بين الحجون إلى الصّفا)[٣]:

وما سمِعتُ الحَمام في فَنَنٍ ... إلاَّ وخِلتُ الحِمامَ فاجاني

ما اعْتَضتُ مُذ غبتُ عنهُمُ بَدلاً ... حاشا وكلاَّ ما الغدرُ من شاني

كيف سُلوِّي أرْضاً نَعمتُ بها ... أم كيفَ أنسَى أهْلي وجِيراني

وكانت إقامتنا بهذا البندر ثلاثة أشهر إلاّ عشرة أيام، وذلك مدّة ذهاب البشير إلى الوالد وعوده. فخرجنا منه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ثمان وستين وألف. ولا حاجة بنا إلى إثبات أسامي المنازل التي أتينا عليها في طريقنا هذا لاستعجامها واستبهامها. وما يتعلّق به الغرض نذكره إن شاء الله تعالى.

فسرنا ثلاثة أيام في أرض تباهي زهر السماء بأزهارها، ومجرّتها بأنهارها ونُورها بنَوْرها، وسحابها برحابها. لا يمتدّ الناظر إلاّ إلى يانع ناضر، ولا تقع العين إلاّ على نهر وعين.

---

(١) وردت الجملة التي بين القوسين في (ك) منظومة هكذا:

فنجاري تلك الغمام شؤونا ... ونباري تلك الحمام شجونا

(٢) في ك (وأنشده وأندبه في النشيد).

(٣) صدر بيت من قصيدة لمضاض بن عمرو بن الحارث، وتمامة (أنيس ولم يسمر بمكة سامر). القصيدة وترجمة الشاعر في الأغاني ١٥/١٢ - ٢٣).

ذَهَبٌ حيثُما ذهَبْنا ودُرٌّ حيثُ دُرْنا وفضَّةٌ في الفَضاءِ[1]

حيث انتهينا إلى عقبة يسفُّ عن مرتقاها العُقاب، ويخفُّ عند ارتقاء ذراها أشدُّ العِقاب. لا مطمع لراق فيها إلاّ على قدمه، ولو أفضى إلى إراقة دمه. فأنخنا تحتها ليلة، وكلٌّ قد شمرّ لصعودها ذيله، فما إنجاب الليل إلاّ وارتقيناها كانحدار السيل، فاقتعدنا مع الشمس ذروتها، وامتطينا صهوتها، ورأينا فيها من سيول الماء، وعيون موادها غيوث السماء، ما لا انصبابها دويّ كالرعد القاصف، أو الرياح العواصف، وشاهدنا منها ما يخالف العادات، وتفتقر رواته إلى الشهادات. فإن نفس قُلّتها أرض متساوية الطول والعرض تمتد إلى جميع تلك الأقطار، ولا يحتاج معها إلى هبوط وانحدار. فسبحان المتفرّد بالاقتدار. وكانت هذه البقعة منقطع أعمال (كوكن) ومبتدأ أعمال (الدكن). فألفينا الربيع قد قشع عن هذا القطر سحابه، والشتاء عمّ شعابه ورحابه. فسرنا وقد أرجف بان المسالك شاغرة، وأمراء هذا المُلك متشاجرة، وذلك لموت ملكهم وقيام ابنه مقامه، فاستحوذ كلّ على ما تحت يده، واستبدّ بعدّته وعدده، فاستقبلوا ادباراً ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[2]. ولم نزل نبثّ العيون في تلك الأقطار لتجنب مقاحم الأخطار، وإن كان معنا من العسكر عدد، إلاّ أنّه لا يفي للقيام إلى أمير يدعي الملك بمدد.

ورأينا في بعض المنازل فيلاً لبعض العمال ولم نكن نراه قبل ذلك، فعجبنا من عجيب خلقته، وغريب صورته، وعظيم جثته، فسبحان مبدع العالم باقتداره، ومدبر الأشياء على مشيئته واختياره. والعرب تكني الفيل أبا الحجاج، وأبا مزاحم، وأبا الحرمان، والفيلة: أمّ شبل. قال بعضهم ملغزاً فيه:

ما اسمُ شيءٍ تركيبُه من ثلاثٍ هو ذُو أربَعٍ تعالى الإلهُ[3]

---

(١) ورد البيت في رسالة لعبد الصمد بن علي الطبري من شعراء دمية القصر للباخرزي. تراجع الدمية (طبعة حلب) ص / ٢١٣ - ٢١٥).

(٢) سورة نوح / ٧.

(٣) في ك (أيّ شيء).

قِيلَ تصحيفُه ولكن إذا ما   عكسُوهُ يصيرُ لي ثُلثاهُ[١]

قال المسعودي: وتزعم الهنود أنّ كلّ ذي لسان فأصل لسانه إلى داخل وطرفه إلى خارج، إلاّ الفيل فإن طرف لسانه إلى داخل وأصله إلى خارج. قالوا: ولولا أن لسانه مقلوب ثم لقّن الكلام لتكلّم. والهند تشرفه وتفضّله على سائر الحيوانات لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة، من علوّ سمكه، وعظم جثّته، وبديع منظره، وطول خرطومه، وسعة أذنه، وطول عمره، وثقل جسمه، وخفّة وطئه، وقلّة اكتراثه لما يوضع على ظهره. وإنّه مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة يمرّ بالإنسان فلا يحسّ بوطئه، ولا يشعر به حتى يغشاه لحسن خطوه واستقامة مشيه. وهو إذا اغتلم كثر شرّه وصعبت رياضته، وربّما قتل كلّ من يلقاه في حال اغتلامه. وفيه من الفهم ما يقبل التأديب، ويفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب. وهو ذو حقد شديد، ربّما تعرّض لمن سبّه في وجهه.

قلت: ولقد أخبرني شخص أن فيلاً صغيراً وقف على دكان خيّاط وعبث به فغرز الخياط الابرة في خرطومه، فتركه ومضى ثم عاد إليه وقد ملأ خرطومه وَحَلاً فنفخ به في دكان الخياط، فأتلف عليه ما أصاب من الثياب، وهذا من غريب ما يحكى عن فهمه وفطنته وشدّة حقده[٢]. وحكى أرسطو: أن فيلاً ظهر أنّ عمره أربعمائة سنة، واعتبر ذلك بالوسم. وإذا دخلت البعوضة أذن الفيل قتلته، فهو لم يزل يذبّ عن أذنه ليلاً ونهاراً. وما أحسن قول أبي الفتح البستي(*):

---

(١) (قيل) تصحيف (فيل)، وثلثا كلمة فيل المعكوسة (لي).

(٢) رأيت فيلاً ضخماً - في حديقة للحيوانات بطهران - يروح ويجيء ضمن دائرة ليست بالكبيرة وبالقرب منه حفرة فيها ماء قذر. وكان إلى جنبي رجل إيراني كهل حسن الهيئة فوكز الفيل في مؤخره بعصا مدببة كانت بيده فلم يلتفت الفيل، ولكنه غمس خرطومه بذلك الماء. ولما عاد متجهاً إلينا رفع خرطومه وأفرغ ما فيه على صاحب العصا فغمره بالوحل من قمّة رأسه إلى قدميه.

لا يَستخفَّنَّ الفَتى بعداوةٍ   أبداً وإن كانَ العدوُّ ضئِيلا[١]

إنَّ القَذى يؤذي العيون قليلهُ   ولربَّما قتلَ البَعوضُ الفِيلا[٢]

ومن العجيب أن الفيل مع هذه الأوصاف التي نقلناها قليل الجري جدًّا يسبقه الإنسان إذا سابقه، ولا أشك في كون الحكاية التي ذكرها أبو نعيم في الحلية - في ترجمة أبي عبدالله القلانسي - موضوعة، حيث قال فيها: إن الفيلة سارت به في ليلة مسيرة ثمانية أيام. ولا يصح ذلك البتة[٣]. وقد ذكر مَن لم يرَ الفيل في حليته أوصافاً أكثرها غير صحيح.

منها: أن خرطومه مصمت، وليس كذلك، فإنّه مجوّف إلا أنّه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأه من طعام أو شراب أولجه في فمه، لأنّه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى.

ومنها أن صياحه ليس على مقدار جثته، لأنّه كصياح الصبي، والحال أنّ صوته هائل قريب من رغاء البعير، إلا أنّه أمدّ منه صوتاً.

ومنها قولهم: أنّه لا يبرك، وقد شاهدنا بروكه.

ومنها قول القزويني[٤] أن فرج الفيلة تحت ابطها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها، وهذا غلط البتة، فإنّها كسائر أناثي الحيوانات أولات الأربع.

ومنها قولهم: إن صياحه من خرطومه، وليس كذلك، وإنّما يصيح من حلقه. وقد ذكر من اعتنى بأخبار الحيوان من أخباره شيئاً كثراً، والاختصار بنا أولى.

ووصف بعض العرب الفيل فقال: لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب.

---

(١) في يتيمة الدهر ٤/ ٣٣٣ (بعدوّه) مكان (بعداوة).

(٢) في يتيمة الدهر (جرح البعوض).

(٣) يراجع حلية الأولياء ١٠/ ١٦٠.

(٤) لم أجد هذا القول في عجائب المخلوقات، ووقفت عليه في حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٢٨ ينقله عن القزويني.

وأحسن ما سمعت به في تشبيهه قول العلامة شهاب الدين أحمد بن فضل الله في رسالته (يقظة الساهي)[1] وهو معنى غريب مستطرف:

هــذا هــو الــفـيــلُ الــذي يَـبـدو الـعـجـيـبُ لَـنـا بـهِ
لـيـلٌ قـد افـتـرسَ الـنَّـهـارَ فـبــانَ فــي أنْـيــابِـه[2]

طريفة: ذكر الطرطوشي[3] وغيره: أن الفيل قدم دمشق في زمن معاوية بن أبي سفيان، فخرج الناس لينظروه ولأنّهم لم يكونوا رأوا الفيل قبل ذلك، وصعد معاوية سطح القصر للفرجة فحانت منه التفاتة فرأى مع بعض حظاياه في بعض حجر القصر رجلاً، فنزل مسرعاً إلى الحجرة وطرق بابها، فقيل من؟ قال: أمير المؤمنين، ففتح الباب - إذ لا بد من فتحه طوعاً أو كرها - فدخل معاوية فوقف على رأس الرجل وهو منكس رأسه وقد خاف خوفاً عظيماً، فقال له معاوية: ما الذي حملك على ما صنعت من دخول قصري، وجلوسك مع بعض حرمي، أما خفت نقمتي، أما خشيت سطوتي؟ أخبرني يا ويلك ما الذي حملك على ذلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك. فقال له معاوية: أرأيت إن عفوت عنك تسترها عليَّ فلا تخبر بها أحداً؟ قال: نعم، فعفا عنه ووهب له الجارية وما في حجرتها، وكان شيئاً له قيمة عظيمة. انتهى[4].

وعلى ذلك يحكى أنّ معاوية قال لعمرو بن العاص: إنّي لأحبّ أن تكون فيَّ خصال، قال: وما هنَّ يا أمير المؤمنين؟ قال: أحبّ أن لا يكون جهل أعظم من حلمي، ولا ذنب أكبر من عفوي، ولا عورة إلاّ وأنا أسعها بستري،

---

(١) هو القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري. توفي سنة ٧٤٩ هـ والاسم الكامل لرسالته المذكورة (دمعة الباكي ويقظة الساهي). يراجع معجم المؤلفين ٢/ ٢٠٤.

(٢) جاء عجز البيت في (ك) هكذا (النها - ر وقد بقى في نابه).

(٣) هو أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (معجم المؤلفين ١٢/ ٩٦).

(٤) الخبر في سراج الملوك للطرطوشي /١٤٢ مع اختلاف طفيف في اللفظ.

ولا فاقة إلاّ سددتها بجودي، ولا قلب إلاّ ملكته بعزي، ولا نفس إلاّ علوتها بقهري، ولا يكون زمان أطول من أناتي.

فتبسّم عمرو، فقال معاوية: لم تبسّمت؟ فإني أعلم أنّك إن قلت خيراً أضمرت شرًّا، قال: نعم تمنيت الربوبية. قال معاوية: فاسترها عليَّ. انتهى. من (خلق الإنسان) للعلامة النيسابوري[1] .

وقلت أنا في وصف الفيل وهو قريب من قول ابن فضل الله المتقدم، إلاَّ أنّ بين التشبيهين مغايرة:

يا حبَّذا الفيلُ الذي شاهدتُه ... وشهدتُ منه ما نَمى لي ذكرُهُ

فكأنَّه وكأنَّ أبيضَ نابهِ ... ليلٌ تبلَّجَ للنَّواظِرِ فجرُهُ

وذكر بعضهم أن ابن بابك وهو عبد الصمد بن منصور بن الحسن[2] الشاعر المشهور لما وفد على الصاحب بن عباد وأنشده مدائحه فيه طعن بعض الحاضرين عليه، وذكر أنه منتحل، وأنه ينشد قصائد قد قالها ابن نباتة السعدي[3] فأراد الصاحب بن عباد أن يمتحنه فاقترح عليه أن يقول قصيدة يصف فيها الفيل على وزن قول عمرو بن معد يكرب[4]:

أعددتُ للحدثانِ سابغةً ... وعدَّاءً علندا

فقال:

---

(١) هو القاضي بيان الحق محمود بن أبي الحسن علي بن الحسين الغزنوي النيسابوري، كان حياً سنة ٥٥٣ هـ (بغية الوعاة ٢/٢٧٧، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٤، وهدية العارفين ٢/٤٠٣).

(٢) ترجمة ابن بابك ومصادرها في أنوار الربيع ٣/٣٢٩، وسيذكر المؤلف تاريخ وفاته بعد قليل، وهو سنة ٤١٠ هـ.

(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر (ابن نباتة السعدي) توفي سنة ٤٠٥ هـ (أنوار الربيع ٢/٣٤٢).

(٤) هو أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدي استشهد في حرب القادسية سنة ٢١ هـ (أنوار الربيع ٢/٨١).

قسماً لقد نَشَرَ الحَيا بمناكبِ العَلمَيْنِ بُرْدا[1]

وتنفسَّتْ يمنيَّةٌ كيْ تُضحِكَ الزَّهْرَ المُندَّى[2]

إلى أن قال:

ومُساجِلٍ لي قد شَقَقْتُ لدائِه فيَّ في لَحْدا

لا تَرْم بي فأنا الذي صَيَّرتُ حُرَّ الشِّعرِ عَبدا

بشوارِدٍ شُمْسِ القِيادِ يَزِدْنَ عند القُربِ بُعْدا

ومُمَسَّكِ البُرديْنِ في شِبْه النَّقاشِيَّةِ وَقْدا

فكأنَّما نَسجَتْ عليه يدُ الغَمام الجَوْن جِلْدا

وإذا لَوَتْكَ صفاتُهُ أعْطاكَ مسَّ الرَّوْع نَقْدا

فكأنَّ مِعْصَمَ غادَةٍ في ماضِغَيْهِ إذا تَصَدَّى

ذكرت بقوله (تصدّى) بيتين لطيفين للأديب المهتار[3] من شعراء هذا القرن، وهما في مليح فقير الحال، وقد أجاد في الاقتباس:

تصدُّ وكم تَصدَّى منكَ كَفٌّ لمنْ لم يَدرِ قَدْرَكَ يا مُفدَّى

فصَدُّكَ عن أولي (أدبٍ) وأمَّا من اسْتَغنَى فأنتَ له تَصدَّى[4]

عاد شعر ابن بابك في وصف الفيل:

وكأنَّ عُوداً عاطِلاً في صَفحتَيْهِ إذا تَبَدَّى

يَحدو قَوائمَ أرْبَعاً يَتركنَ بالتَّلعَاتِ وَهْدا

وإذا تَخَلَّلَ هَضْبَةً فكأنَّ ظلَّ اللَّيلِ مَدَّا

ثم أتبع ذلك بالمديح فاستحسنها الصاحب، ولام الطاعن عليه على كذبه

---

(١) القصيدة في يتيمة الدهر ٣/ ٢٣٣، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) في الأصول (المفدى) مكان (المندى) والتصويب من يتيمة الدهر.

(٣) هو ابراهيم بن يوسف الرومي المكي المعروف بالمهتار قتل بصنعاء سنة ١٠٧١ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٤٥).

(٤) (أدب) كذا ورد في الأصول والصواب (أرب).

وادعائه أنّه انتحل شعر غيره. فقال: يا مولانا الصاحب هذا والله معه ستون فيليّة كلّها على هذا الوزن لابن نباته، فضحك منه.

(وكان قد برز أمر الصاحب لابن بابك وغيره من الشعراء الذين يحضرونه أن يصفوا الفيل على هذا الوزن. فمن قصيدة لأبي الحسن الجوهري[١] وقد أطنب في وصفه)[٢]:

فِيلاً كَرَضْوى حينَ يَلْبَسُ ... مِن رِقاقِ الغَيْمِ بُرْدا[٣]

مِثلَ الغَمامةِ مُلِّئَتْ ... أكنافُها بَرْقاً ورَعْدا

رأسٌ كقُلَّةِ شاهقٍ ... كُسِيَتْ من الخُيَلاءِ جِلْدا

فتَراهُ من فَرط الدَّلالِ ... مُصَعِّراً للنَّاس خَدّا

يُزهى بخَرطُوم كمثلِ ... الصَّولجانِ يَرُدُّ رَدّا

متمدِّدٌ كالأُفْعُوانِ ... تمدُّه الرَّمضاءُ مَدّا

أو كُمِّ راقصَةٍ تُشيرُ ... به إلى النُّدْمان وَجْدا

أو كالمُصَلَّل شُدَّ جَنْباهُ ... إلى جِذعَينِ شَدّا

وكأنَّه بُوقٌ يُحرِّ (م) ... كُهُ لينفخَ فيه جِدّا

يَسطُو بسارِيَتَيْ لُجَيْنٍ ... يَحطِمانِ الصَّخرَ هَدّا

أُذناهُ مِروحتانِ أُسْندتا ... إلى الفُوْدَين عَقدا

عيناهُ غائرتانِ ضُيِّ (م) ... قَتا لجمع الضَّوءِ عَمْدا

فكٌّ كفُوَّهَة الخَليجِ ... يَلُوكُ طُولَ الدَهر حقْدا

تَلقاهُ من بُعدٍ فتحْسَبُه ... غَماماً إذْ تَبدَّى

---

(١) أورد له الثعالبي القصيدة الفيلية الآتية، ولم يترجم له.

(٢) وردت هذه الجملة المحصورة بين القوسين في ك مختصرة هكذا (ثم إن الصاحب أمر الشعراء أن يصفوا الفيل على هذا الوزن فقال أبو الحسن الجوهري قصيدة منها).

(٣) يوجد في يتيمة الدهر اختلاف في رواية بعض أبيات القصيدة.

مَتْناً كبُنيانِ الخورْنَقِ   ما يُلاقي الدَّهرَ كَدّا

ذَنَباً كمثل السَّوطِ يضربُ   حولَه ساقاً وزَنْدا

يَخطُو على أمثالِ أعْمِدةِ   الخِباء إذا تَصدَّى

أو مثلِ أمْيالٍ نُضِدْنَ   من الصُّخُورِ الصُمِّ نَضْدا

مُتَورِّداً حوضَ المنِيَّـ (م)   ـةِ حيثُ لا يَشتاقُ وِرْدا

متملِّكاً فكأنَّه   مُتَطاوِلٌ ما لا يُؤدَّى

متلفِّعاً بالكِبْرِياءِ   كأنَّه مَلِكٌ مُفَدَّى

أذكى مِنَ الإنسانِ حتَّى   لو رأى خَللاً لَسَدَّا

لو أنَّه ذُو لهجَةٍ   وفَّى كتابَ الله سَرْدا[1]

ومن قصيدة لأبي محمد الخازن[2]:

وكأنَّما خُرطُومُه   راوُوقُ خمرٍ مُدَّ مَدَّا

أو مثلُ كُمٍّ مُسْبَلٍ   أرخَتْهُ للتَّوديع سُعدى

وإذا النَّوى فكأنَّه الثُّعبانُ   [illegible] ردَّى

فكأنَّما انقلَبَتْ عَصا   مُوسى غداةَ بها تَحدَّى

ومن شعر ابن بابك (*) بيت من قصيدة في غاية الرقة وهو:

ومرَّ بيَ النَّسيمُ فرقَّ حتَّى   كأنِّي قد شَكوتُ إليه ما بِي

ومن لطيف شعره أيضاً قوله[3]:

وأغيدَ مَعسُول الشَّمائِل زارَني   على فَرَق والنَّجمُ حَيران طالعُ

---

(١) سرد الحديث، والقراءة: أجاد سياقهما وأتى بهما على ولاء.

(٢) هو أبو محمد عبدالله بن محمد الخازن له ترجمة في يتيمة الدهر ٣/ ٣٢٥، ومعاهد التنصيص ٢/ ٢٠٦.

(٣) في يتيمة الدهر ٣/ ٣٧٩ بيتان من هذه القصيدة هما الخامس والسابع مع بيت ثالث لم يرد هنا، هو:

تحيّر دمع المزن في كأسها كما   تحيّر في ورد الخدود المدامع

فلمّا جَلا صِبْغُ الدُّجى قلتُ حاجبٌ | من الصُّبح أمْ قَرنٌ من الشَّمسِ لامِعُ
إلى أنْ رَنا والصُّبحُ رائِدُ طَرفِهِ | كما راعَ ظَبياً بالصَّريمةِ رائعُ
فنازَعتهُ الصَّهباء والليلُ دامسٌ | رقيقُ حَواشي البُرْدِ والنَّسرِ واقِعُ
عُقارٌ عليها مِن دَم الصَّبِّ نَفْضَةٌ | ومن عَبَراتِ المُسْهَامِ (فَواقع)[1]
يُديرُ إذا سحَتْ عُيوناً كأنَّها | عُيونُ العَذارى شُقَّ عنها البراقِعُ
معوَّدَةٌ غَصْبَ العُقول كأنَّما | لها عند ألْبابِ الرِّجالِ ودائِعُ
فبتنا وظلُّ الوَصلِ دانٍ وسرُّنا | مصُونٌ ومكتومُ الصَّبابَةِ ذائِعُ
إلى أنْ سَلا عن وِرْدِه فارِطُ القَطا | ولاذَتْ بأطرافِ الغُصُون السَّواجِعُ
فولَّى أسِيرَ السُّكرِ يَكبُو لسانُهُ | فتَنْطِقُ عنه بالوَداع الأصابِعُ

قال صاحب اليتيمة: قرأت للصاحب فصلاً في ذكره فاستملحته وهو، (وأما ابن بابك وكثرة غشيانه بابك، فإنّما تغشى منازل الكرام، والمنهل العذب كثير الزحام).

وكانت وفاته في سنة عشر وأربعمائة ببغداد. وشعره طبقة عالية، ولعمري انّ الطاعن عليه قد أغرب (في قوله، وأدّى به الحسد له إلى ما لا يتوهمه أحد، ولكنّ سورة الحسد تقحم إلى أقطع من هذا)[2].

وهذا الصاحب بن عباد المذكور مع غزارة فضله، وسجاحة خلقه[3] قيل: أنّه كان أشدّ الناس حسداً لأهل الفضل والأدب، وعلى هذا خيطت شواكل الفضل وأقراب العلم. فكان يعمل في أوقات العيد ومواسم النيروز شعراً ويدفعه إلى رجل ويقول له: قد نحلتك هذه القصيدة فامدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من المنشدين. فيفعل الرجل ذلك، فيقول له عند سماعه شعره في نفسه: أعد يا فلان فإنك مجيد محسن، أحسنت يا أبا فلان قد

---

(١) (فواقع) كذا ورد في الأصول ويتيمة الدهر، والصواب (فقاقع).

(٢) وردت الجملة في ك هكذا (فيما قاله وعثر فيما لم تسعه إقالة).

(٣) في ك زيادة بعد كلمة (خلقه) هذا نصّها (ودينه وعقله وعلمه ونبله قال فيه بعض أعدائه).

صفا ذهنك، وزادت قريحتك، وتنقحت قوافيك، فلازمنا تخرّج الناس، وتهب لهم الذكاء، وتحوّل الكودن عتيقاً والمحمَّر[1] جواداً. ثم لا يصرفه عن مجلسه إلاَّ بجائزة سنيّة. وإنّما يفعل ذلك ليغايظ الجماعة من الشعراء والفضلاء، لأنّهم يعلمون أنّ ذلك الرجل لا يزن بيتا، ولا يعرض[2] مصراعا، ولا يذوق عروضاً.

وقال يوماً: من في الدار؟ فقيل: أبو القاسم الكاتب، وابن ثابت، فعمل في الحال بيتين وقال لإنسان بين يديه: إذا أذنت لهذين فادخل بعدهما بساعة وقل: قد قلت بيتين فإن رسمت لي إنشادهما أنشدت. وازعم أنّك بدهت بهما، ولا تجزع من تأفيفي بك، ولا تفزع لنكيري عليك. ودفع البيتين إليه، وأمره بالخروج إلى الصحن. وأذن للرجلين حتى وصلا، فلما جلسا وأنِسا دخل الرجل، وأخذ يتلمّظ يُري أنّه يعرض شعراً ثم قال: يا مولانا قد حضرني بيتان فإن أذنت أنشدت، قال: أنت أنشأت؟ أنت أخرق سفيه سخيف لا تقول شيئاً فيه خير، اكفني أمرك وشعرك. قال: يا مولاي هي بديهتي فإن كسرتني ظلمتني، وعلى كلّ حال فاسمع، فإن كانا بارعين[3] وإلاّ فعاملني بما تحب، فالعبد عبدك والأمر أمرك. قال: أنت لجوج هاتِ. فأنشد:

يا أيّها الصَّاحبُ تاجَ العُلى لا تَجعلنّي نُهزَةَ الشَّامِتِ
بِملحدٍ يُكنى أبا قاسمٍ ومُجْبرٍ يُعزى إلى ثابتِ

فقال الصاحب: قاتلك الله لقد أحسنت وأنت مسيء، قال أبو القاسم فكدت أتفقّأ غيظاً لأني علمت أنّها من فعلاته المعروفة، وكان ذلك الجاهل لا يعرض بيتاً.

ولما توفي الصاحب رحمه الله تعالى رثاه أكثر شعراء عصره (ووقفت على

---

(١) الكودن: البرذون الهجين، وقيل: البغل. العتيق: الفرس الرائع. المحمّر: الفرس الهجين.

(٢) يعرض: من العروض في أوزان الشعر، ولعلها تصحيف (يقرض) من القريض.

(٣) كذا وردت الجملة في الأصول وهي ناقصة.

أكثر مراثيهم في تاريخ غريب. فما اخترته منها قول[1] أبي عيسى المنجم[2]:

واللهِ واللهِ مـا أفـلـحـتُـم أبـداً   بعدَ الوزير بن عبَّاد بن عبَّاسِ
إنْ كانَ منكم جَليلٌ فاجلبوا أجلي   أو كانَ منكم رئيسٌ فاقطعُوا راسي

وقول أبي محمد الخازن(*)،[3]:

يا كافيَ المُلكِ ماوفَّيتُ حقَّكَ من   مَدحي وإنْ طالَ تمجيدٌ وتأبينُ
هذي نَواعي العُلى قد قُمنَ نادبةً   من بعد ما نَدبتْكَ الخرَّدُ العِينُ
تبكي عليكَ العَطايا والصِّلاتُ كما   تَبكي عليكَ الرَّعايا والسَّلاطينُ
قام السُّعاة وكانَ الخوفُ أقعَدهُم   واستَيقَظُوا بعدَما نام الملاعِينُ
لا تعجب الناسُ منهم إنْ هُم انتَشروا   مَضى سُليمانُ فانحلَّ الشَّياطينُ
ما مُتَّ وحدَكَ لا بل كلُّ من ولدت   حَوَّاءُ طُرَّا بَل الدُّنيا بل الدِّينُ

ورثاه الرضي(*) بقصيدة لأميّة عدّتها مائة واثنا عشر بيتاً مثبتة بكمالها في ديوانه يقول فيها:

قالوا وقد فُجِئُوا بنَعْشكَ سائراً   مَن ميَّل الجَبلَ العَظيمَ فَمالا
وتَبادَرُوا عَطَّ الجيُوبِ وعاجَلوا   عَضَّ الأنامِلِ يَمْنَةً وشِمالا

---

(١) وردت هذه الجملة في ك هكذا (إلا هذا فقد وضع رسالة في ذمه، ولقد وقفت على جملة من مراثيه فمنها قول).

(٢) البيتان في يتيمة الدهر ٣/ ٢٩٠ منسوبان لبعض بني المنجم، وفي روايتهما اختلاف طفيف وورد ذكر أبي عيسى هذا في عدة مواضع من اليتيمة دون التصريح باسمه. ثم وقفت على قصيدة في يتيمة الدهر ٣/ ٢١٨ لأبي القاسم الزعفراني يعزي بها أبا عيسى عن برذون له نفق جاء في البيت الثالث منها أن اسمه (أحمد بن موسى). قال:

بك يا أحمد بن موسى التسلّي   والتعزّي من سائر الأشياء

(٣) الأبيات في يتيمة الدهر ٣/ ٢٨٤ منسوبة إلى أبي القاسم غانم بن أبي العلاء الأصبهاني - ترجمته في اليتيمة ٣/ ٣٢٤ - وفي رواية بعض أبياتها وترتيبها اختلاف.

ما شقّقُوا إلاَّ كُساكَ وألَّمُوا إلاَّ أناملَ نِلْنَ منكَ سِجالا

ولنعد إلى ما نحن بصدده:

ومررنا بعد قطعنا عشر مراحل بقلعة (بيجابور) - بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحت، وجيم وبعد الألف باء موحدة أعجميّة وبعد الواو راء مهملة - وهذه القلعة هي دار ملك عادل شاه ملك تلك الأقطار، فمررنا عليها ولم نجنح إليها، وكان برز إلينا أمر مولانا السلطان خلّد الله ملكه بذلك. فنزلنا بقرية بالقرب منها، في بستان الملك المذكور، فيه عمارة عظيمة، وبركة ماء كأنّها قطعة من السماء، وما ألطف قول ابن تميم[1] في البركة:

لقد قابلتنا بالعَجائِب بَحرةٌ
مكمَّلةُ الأَوْصافِ في الطُّول والعرضِ
كأنَّ الذي يَرنُو إليها بطَرفِه
يَرى نفسَه فوقَ السَّما وهو في الأرضِ

وللقاضي أحمد بن عيسى المرشدي[2] فيها أيضاً:

ألا انظُرْ إلى هذا الصَّفاءِ ببركةٍ
تقولُ لمن قد غاب عنها من الصحبِ[3]
لئِن غِبتَ عَن عَيْني وكدَّرتَ مشربي
تأمَّل تَجِدْ تِمثالَ شَخصِكَ في قلبي

كان القاضي أحمد المذكور من علماء مكة المشرّفة، وأكابر أدبائها البارعين نظماً ونثراً. توفي لخمس خلون من ذي الحجة الحرام سنة سبع وأربعين وألف على ما أخبرني به الوالد، وأنشدني له:

---

(١) هو مجير الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن تميم. توفي سنة ٦٠٤ هـ (أنوار الربيع ١/ ٢٧٠).

(٢) هو قاضي مكة أحمد، وقد توفي كما قال المؤلف سنة ١٠٤٧ هـ تجد ترجمته ومصادرها في أنوار الربيع ١/ ٤٩.

(٣) في نفحة الريحانة ٤/ ٧٩ وسلافة العصر / ٩٥ (لبركة) مكان (ببركة).

قصرَ ابنِ عُقبةَ لا زالتْ مُواصِلةً   منِّي إليكَ التَّحايا نَسمةُ السَّحرِ
ولا عَدَتْكَ غوادي الرِّيح تسحبُ في   رِحابِك الفيح ذيلَ الطَّلِّ والمطَرِ[1]
كم لذَّةٍ فيكَ أرضيتُ الغرامَ بها   يوماً وأرغمتُ أنفَ الشَّمسِ والقَمرِ

وهذه الأبيات من قصيدة له فائقة نظمها في دار ابن عقبة بقرية السلامة[2] من الطائف وكتبها عليها.

وكان الشريف مسعود بن ادريس[3] والي مكة المشرفة حلّى شداداً[4] لناقته، فأمر القاضي المذكور أن ينظم بيتين ليكتبهما عليه، فقال وأبدع في التورية:

أفْـقُ الـشِّـدادِ بَـدتْ بـه   شَـمسُ الـخِـلافَـةِ والـهِـلالْ
ومـن الـعَـجـائِـب جَـمْـعُـهُ   لـيـثَ الـشَّـرافَـةِ والـغَـزالْ

والهلال، والغزال في اصطلاحهم اسمان لجزءين من الشداد.

رجع: فأقمنا بهذه القرية أياماً، وقد قام لنا ملكها بالضيافة فيها قياماً.

دَخَلْنا على أنّ المَقامَ بلَيْلَةٍ   فطابَتْ لنا حتَّى أقَمنا بها عَشْرا

ثم ارتحلنا نقطع تلك المراحل والمنازل ما بين نجد طالع وغورٍ نازل فمررنا على (كلبرجا) وكانت إحدى منازلنا، وفيها مدفن العلاّمة بدر الدين الدماميني شارح التسهيل، والمغني[5]، وهو:

محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر بن

---

(١) في نفحة الريحانة (غوادي السحب).

(٢) السلامة: من قرى الطائف بها مسجد للنبي ﷺ وقبة تحتها قبر عبدالله بن عباس وجماعة من أولاده (رض).

(٣) هو مسعود بن ادريس بن الحسن بن أبي نمي الثاني. توفى سنة ١٠٤٠ هـ (الأعلام ٨/ ١١٠).

(٤) الشداد: رحل الناقة المعدّة للركوب (عامية بدوية) ومن عاداتهم وضع الشداد في صدر المجلس ليتكئ الرئيس عليه، وقد يتخلى عنه لأحد الضيوف مبالغة في إكرامه.

(٥) هما، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد في النحو لابن مالك، ومغني اللبيب لابن هشام.

يحيى بن حسين بن محمد بن أحمد بن يوسف بن علي بن صالح بن ابراهيم، بدر الدين القرشي المخزومي الاسكندري المالكي، وعرف بالدماميني. قال السخاوي[1] ولد سنة ثلاث وستين وسبعمائة بالاسكندرية، وسمع بها من البهاء ابن الدماميني. وشيوخه بالقاهرة: السراج ابن الملقن، والمجد اسماعيل الحنفي، وبمكة: القاضي أبو الفضل النويري. ومهر في العربية والأدب، وشارك في الفقه وغيره بسرعة إدراكه، وقوّة حافظته، ودرّس بالاسكندرية في عدة مدارس، وناب عن ابن التنسي في الحكم، وتصدّر بالأزهر لإقراء النحو. ودخل دمشق، وحجّ ورجع إلى بلده. وترك النيابة وولي الخطابة مع إقباله على الاشتغال، وإدارة دولاب متّسع للحياكة وغير ذلك إلى أن وقف عليه مال كثير. فاحترقت داره، وفرّ من غرمائه إلى جهة الصعيد فتبعوه وأحضروه إلى القاهرة. فقام معه التقي ابن حجة، وأعانه كاتب السر ناصر الدين ابن البارزي حتى صلح حاله. وحضر مجلس المؤيد، وعين لقضاء المالكية بمصر، فرمى بقوادح لم تبعد عن الصّحة. واستمرّ بها إلى أن سار إلى الحج سنة تسع عشرة وثمانمائة. ومنها إلى اليمن في أول سنة عشرين، ودرّس بجامع زبيد نحو سنة فلم يرج له بها أمر، فركب البحر إلى الهند، فأقبل عليه أهلها كثيراً وعظّموه وأخذوا عنه، وحصّل دنياً عريضة، وكان أحد الكملة في فنون الأدب. أقرّ له الأدباء بالتقدّم فيه، وبإجادة القصائد والمقاطع والنثر، معروفاً بإتقان الوثائق مع حسن الخطّ. وصنّف نزول الغيث، انتقد فيه أماكن من شرح لامية العجم للصلاح الصفدي المسمى: بالغيث الذي انسجم، وقرّظ له أئمة عصره فأمعنوا. وله تحفة الغريب في حاشية مغني اللّبيب، وهما حاشيتان يمنية، وهندية. وقد أكثر من تعقّبه فيها المتقي الشمني، وشرح البخاري - وجلّه في الاعراب ونحوه -. وشرح التسهيل، والخزرجية في العروض، وله [جواهر][2] البحور في العروض أيضاً، والفواكه البدرية من نظمه، ومقاطع[3] الشرب، وغير ذلك. وقرّظ سيرة المؤيّد لابن ناهض.

---

(١) القول في الضوء اللامع للسخاوي ٧/ ١٨٥. في ك (المناوي) مكان (السخاوي).

(٢) زيادة من الضوء اللامع ٧/ ١٨٥ وكشف الظنون / ٦١٣.

(٣) في الأصول (ومقاطيع) والتصويب من الضوء اللامع، وكشف الظنون / ١٧٨١.

مات في شعبان سنة سبع وعشرين وثمانمائة بكلبرجا، ويقال: أنّه سم في الأنبج[١] ومات من سمه بعده بيسير. وفي معجم العسقلاني كذلك، إلاّ أنه في أنباء سنة ثمان وعشرين. انتهى من الضوء اللامع بنصّه.

قلت: ومن مؤلفاته المشهورة: المنهل الصافي في شرح الوافي، ورأيت له بالهند عين الحياة: مختصر حياة الحيوان للدميري، وقد أخلّ به إخلالاً كثيراً.

ولما دخل الهند طارحه نحاتها فمني منهم بالداء العياء، حتى أنّهم ألّفوا كتاباً في المسائل التي سألوه عنها ولم يجب فيها.

ومن ألغازه التي نظمها بالهند سائلاً نحاتها قوله:

أيا عُلماءَ الهِند لا زالَ فضلُكم ... مَدى الدَّهر يَبدو في منازِلِ سَعْدِهِ

ألَمَّ بِكم شخصٌ غريبٌ لتُحسنُوا ... بإرشادِهِ عندَ السُّؤال لقصدِهِ

وها هو يُبدي ما تَعسَّر فهمُه ... عليهِ لتَهدُوه إلى سُبْلِ رُشدِهِ

فبسأل ما أمرٌ شَرَطتُم وجودَه ... لحكمٍ فلم تَقضِ النُّحاةُ بِردِّهِ

فلمَّا وجَدنا ذلكَ الأمر حاصِلاً ... مَنعتُم ثبوت الحُكم إلاَّ بفَقْدِهِ

وهذا لَعمري في الغَرابة غايَةٌ ... فهلْ من جَوابٍ تُنعِمُون بسَرْدِهِ

والجواب: ان هذا الأمر هو العَلَمية اشترطت في الاسم الذي يجمع جمع تصحيح، ولا خفاء في أن العَلَم إذا جمع زالت العلمية ضرورة. إن تثنية العلم وجمعه يقتضي إخراجه عن كونه علماً إذ يصير نكرة، لأن العلم إنما يكون معرفة على تقدير أفراده لموضوعه، لكونه لم يوضع علماً إلاّ مفرداً، فهو دالّ على الوحدة. والتثنية والجمع يدلان على التعدد. والوحدة والتعدد متضادتان، فيؤول الأمر إلى أنه ما يشترط وجوده شرط للإقدام على الحكم، ويفقد عند ثبوت ذلك الحكم.

وكان دخول البدر الدماميني الهند في دولة الملك أبي الفتح أحمد شاه

---

(١) في الضوء اللامع (سم في عنبا). أقول: والأنبج هي العنبا.

بن محمد بن السلطان مظفّر شاه ملك كجرات، وبرسمه ألّف شرح التسهيل والمغني، والمنهل، واختصر حياة الحيوان. وكلّ تأليف ألفه في الهند ذكره في ديباجته، وفيه يقول:

إمامٌ أحاديثُ العُلى عنه أُسْنِدت ... فبادِرْ لكيْ تَروي لأحمد مُسنَدا

حياةٌ لمظلومٍ هلاكٌ لظالمٍ ... فبالبأسِ والاحسانِ أشْقى وأسْعَدا

فكم من عُفاةٍ نحوه قد تَرَدَّدَتْ ... على أنَّه في برِّهِم ما تَردَّدا

ولمتحوِ أخبارُ السَّلاطينِ غايةٌ ... من الرَّفعِ إلاَّ كانَ في الحالِ مُبْتَدا

لقد وزنَ الأفعالَ بالعَدلِ دائماً ... وعرَّف أسباباً تُنجِّي من الرَّدى

فلم يَنْصرِفْ عن رُتبةِ الفضلِ إذ أتى ... بِوزنٍ وتَعريفٍ أبانا عن الهُدى

وتلكَ رأيناها لأحمدَ سُنَّةً ... فعُدْ لحِماهُ تَشهد العَوْدَ أحْمَدا

وهذا الملك هو الذي عمّر أحمد آباد، وهي بلدة مشهورة من أعمال الهند. وكان ابتداؤه في تعميرها سنة ستّ وعشرين وثمانمائة، وكان قيامه بالسلطنة بعد جدّه مظفر المذكور سنة ثمان عشرة وثمانمائة. وتوفي سنة سبع وأربعين وثمانمائة. وقد بادت ملوك كجرات الآن، واحتوى على ملكهم غيرهم والله الباقي.

وأكثر شعر البدر الدماميني(*) محتوٍ على محاسن التورية، فمنه قوله:

يا عَذُولي في مُغنٍّ مُطرِبٍ ... حرَّكَ الأوتارَ لمَّا سَفَرا

كم تهزُّ العِطفَ منه طَرَباً ... عندما تسمع منه وَتَرا

وقوله:

قلتُ له والدُّجى مُوَلٍّ ... ونحنُ في مَجلسِ التَّلاقي[1]

قد عَطَسَ الصُّبحُ يا حَبيبي ... فلا تُشَمِّتْهُ بالفِراقِ[2]

---

(١) في الضوء اللامع ٧/١٨٦، وشذرات الذهب ٧/١٨١ والبدر الطالع ٢/١٥١ ونحن بالانس في التلاقي.

(٢) تشمته، من الشماتة: الفرح ببليّة العدو. وشمّت العاطس وسمّته (بالمعجمة =

وقوله:

غَنَّى على العُود شادٍ سهمُ ناظِرِهِ ... أمْسى به قَلبي المُضْنى عَلى خَطَرِ
رنا إليَّ وجسَّتْ كفُّهُ وَتَراً ... فراحَت الرُّوحُ بين السَّهم والوَتَرِ

وقوله:

قُمْ بنا نركبُ طِرْفَ اللَّهوِ ... سَبْقاً للمُدامِ
واثْنِ يا صاحِ عِناني ... لكُمَيْتٍ ولِجامِ

وقوله في الشهاب الفارقي:

قُل للَّذي أضحَى يُعظِّمُ حاتِماً ... ويقولُ ليسَ لجُودِه من لاحِقِ
إنْ قِستَه بسماحِ أهل زَمانِه ... أخْطَا قياسُكَ مع وجودِ الفارِقي[1]

ومن قوله في الاكتفاء:

أقولُ لصاحِبي والرَّوضُ زاهٍ ... وقد بَسطَ الرَّبيعُ بساطَ زَهْرِ
تعالَ نُباكرُ الرَّوضَ المُفدَّى ... وقُمْ نَسعى إلى وَرْدٍ ونَسْري[2]

وأنشد له السيوطي في بغية الوعاة قوله ملغزاً في كادي[3]:

وما شيءٌ له نَشْرٌ ذكيٌّ ... لعاطرِهِ إلى الطِّيب انتِسابُ
تروحُ له على رِجلَيكَ تمشي ... وتقلبُه (يداك) فما الجوابُ؟

قال[4]: وقد نظمت جوابَهما بديهاً لما أنشدتهما بثغر الاسكندرية في

= والمهملة) دعا له بقوله يرحمك الله.

(١) في الضوء اللامع (أهل زمانا).

(٢) (المفدى) كذا وردت الكلمة في الأصول ولعلها تصحيف (المندى). اكتفى الشاعر بكلمة (نسري) عن (نسرين) وهو ورد أبيض عطري قوي الرائحة.

(٣) (كادي) بالدال المهملة، كذا وردت في الأصول وفي بغية الوعاة ١/٦٧. وقال صاحب القاموس (الكاذي) بالذال المعجمة: شجر له ورد يطيّب به الدهن. وسيذكر المؤلف بعد قليل قول صاحب القاموس.

(٤) القول للسيوطي في بغية الوعاه. وقد سقطت هذه الجملة مع البيت الأول من جواب =

رحلتي إليها فقلت:

وَمُذ سَمِعَت بهذا اللُّغز أُذني أتاني مِن تفضُّلِهِ الجَوابُ

فَذا طيبٌ إذا صَحَّفتَ منه أخِيرَيْهِ له في الخُبثِ بابُ.

المراد من (أخيريه) الدال المهملة[1] تصحّف بالمعجمة، والياء المثناة تصحّف بالباء الموحّدة فيكون منه (كاذب). ولا شكّ أنّ له في الخبث باباً.

وعلى ذلك فمن نوادر الأكاذيب مما يتعلّل به ويجري مجرى الفكاهة ببعض الهزل، وإحجام النفس عن الجدّ، كما قيل[2]:

أفِدْ طبعَكَ المكدُودَ بالجِدِّ راحةً يَجُمُّ وعلِّلهُ بشيءٍ من المَزْحِ

ولكنْ إذا أعطَيتَه ذاكَ فليَكنْ بمقدارِ ما تُعطي الطَّعامَ من المِلْحِ[3]

ما حدّث الصاحب بن عباد عن الوزير أبي محمد المهلبي: أنّ بعض الأحداث من بغداد من أولاد أرباب النعم فارق أباه مستوحشاً، وخرج إلى البصرة، وكان في الفتى أدب وظرف. فدخلها وقد انقطع به الحال، وتحيّر في أمره، فسأل عمّن يستعان به من أهلها من الفضلاء، فوصف له نديم لأمير كان بها في ذلك الوقت من المهالبة، فقصده وعرض عليه نفسه، وعرّفه أمره. فقال: أنت من أصلح الناس لمنادمة هذا الأمير، وهو من أحوج الناس إليك إن صبرت منه على خَلَّة، فقال: وما هي؟ قال: هو رجل مشغوف بالكذب لا يصبر عنه ولا يفيق منه، ولا بدّ لك من تصديقه في كلِّ شيء يقوله، وكلّ كذب يختلقه لتحظى بذلك عنده، وإن لم تفعل ذلك لم آمنه عليك، فقال الفتى: أنا أفعل ذلك، واحتذي رسمك فيه ولا أتجاوزه.

فوصفه هذا النديم لصاحبه، فقال: لا يكون بغداديًّا يسيء الأدب،

= السيوطي من (ك) وأُلحق البيت الثاني ببيتي بدر الدين الدماميني في اللغز.

(١) يريد الدال المهملة من كلمة (بداك).

(٢) البيتان في يتيمة الدهر ٤/ ٣٣٠ وزهر الآداب ١/ ١٦٥ لأبي الفتح البستي، ووردا في نهاية الارب ٦/ ٩٧ بدون عزو.

(٣) في نهاية الارب (المزح) مكان (ذاك).

فضمن عنه حسن الأدب وإقامة شروط الخدمة. واستحضرهُ فحضر، وأعجب به وخلع عليه، وحملت له صلة من ثياب ودراهم وغيرها، ووضع بين يديه مائدة وواكله، وأحضره في مجلس أنسه، وهو في أثناء ذلك يأتي بالعظائم من الكذب فيصدّقه. إلى أن قال مرّة وقد أخذ الشراب من الفتى: إنّ لي عادة في كلّ سنة أن أطبخ قدراً كبيراً وقت ورود حاج خراسان أدعوهم وأطعمهم جميعهم من تلك القدر الواحدة. فتحيّر الفتى وقال: وأيّ شيء هي هذه القدر؟ بادية العرب، دهناء بني تميم، بحر القلزم؟ فغضب الأمير وأمر بتمزيق الخلع عليه، وردّ الصلة إلى الخزانة، وطرده في بعض اللّيل. وأقبل على النديم يعنّفه ويلومه. وعاد الفتى إلى باب النديم وبات عليه إلى أن أصبح، وعاد الرجل إلى منزله فدخل عليه واعتذر بالسكر، وضمن أن لا يعود لمثل ذلك. فاستوثق منه النديم ثم عاد إلى صاحبه وحسَّن أمره وقال: أنّه كان بعيد عهد بالشراب فلم تتحمله قوّته، وعمل النبيذ فيه عملاً لم يشعر معه بشيء مما جرى، وأنّه بكَّر إليّ يزعم أن اللّصوص عند عوده إلى مبيته عارضوه وأرادوا أن يأخذوا منه صلة الأمير فمانعهم عن ذلك فمزّقوا عليه خلعة الأمير.

فرسم الأمير إعادته إلى المجلس، وأضعف له في اليوم الثاني الجائزة، وزاد في الخلعة والكرامة، وجعل الفتى يتقرّب بأنواع التقرّب إليه، وإذا كذب الأمير صدّقه وحلف عليه. إلى أن جرى ذكر الكلاب الزينيّة الصغار[1] فقال الأمير: قد كان عندي منها عدّة في غاية الصغر، حتى أنّي كنت آمر بأن تلقى في المكحلة، وكان لي مضحك أعبث به فآمر أن يكحل من تلك المكحلة إذا نام وسكر، وكان إذا أصبح وأفاق من سكره يرى تلك الكلاب وهي تنبح في عينيه، ولا يقدر عليها لصغرها. قال: فقام الفتى وخلع الثياب المخلوعة عليه، وترك الجائزة وعدا عرياناً وقال: لا صبر لي على كلاب تنبح في أجفان العين، اعمل بي ما شئت وعاد إلى بغداد[2].

---

(١) صنف من الكلاب ورد ذكره في الحيوان للجاحظ ١/٣١١.

(٢) للمؤلف أرجوزة طويلة في ديوانه الذي انتهيت من تحقيقه تبلغ ٦٩٣ بيتاً سماها (نغمة الأغان في عشرة الاخوان) ضمّن أحد فصولها هذه الحكاية وجعل عنوانها =

وورد على الصاحب، وقبله على ابن العميد شيخ حسن الهيئة والشيبة، مقبول الشارة والبزّة، يرجع إلى فضل كثير وتفنن في العلوم، ويقول شعراً جيّداً، ولكنه كان مشغوفاً بالكذب وكانت له أوابد وعجائب يحدِّث بها عن نفسه ولا يتحاشى.

فممّا حكي أنّه قال: سلكت طريقاً بالروم في شدّة البرد، فلما ارتفع النهار سمعنا في الهواء أصواتاً مختلفة، وكلاماً عالياً ولم نر أحداً، فإذا قوم كانوا سلكوا ذلك الطريق قبلنا في الليل، وجمدت أصواتهم من شدّة البرد في الجوّ، فلما حمي النهار وطلعت الشمس على الأصوات الجامدة ذابت فكنّا نسمعها، وواحد يقول: اشدد الرحل، وآخر يقول: اسرج الدابة مما يجانس من كلام جماعتهم. وذكر أنّه وجد في هذه الطريق حبلاً أسود فشدّ به رحله، فلما طلعت عليه الشمس تقطّع وطار وسقط رحله على الطريق، وانّ ذلك من اجتماع خطاطيف كثيرة أصابها البرد وأدخل كل واحد رأسه في است الآخر وصارت على هيئة الحبل، فلما مسّها حرّ الشمس طارت. انتهى من (خلق الإنسان) للعلامة النيسابوري.

ورأينا بالهند نوعاً من الكادي الأصفر، وهو أذكى رائحة من الأبيض، لا يشكّ من رآه ولم يعرف ذلك أنّه مضمّخ بزعفران. وقد استفيد ممّا مرّ من كلام السيوطي أن الكادي بالدال المهملة، وهو خلاف المشهور. وذكره في القاموس في مادة (كذا) - بالذال المعجمة - والله أعلم.

رجع: وزرنا بكلبرجا هذه ضريح السيد محمد المشهور بكيسو دراز، أي طويل اللمّة، وهو أحد الصوفية المشهورين، والسادة المباركين تقصده ملوك الهند للزيارة وتنذر له النذور، وعلى ضريحه قبّة عظيمة معلّق فيها عقود لآلٍ ثمينة، يقال: انّ بعض التجار كان في البحر فأشرفت سفينته على الغرق فنذر أن أنجاه الله تعالى أن يعلّق على ضريح السيد هذه اللآلئ وكانت معه، فأنجاه الله تعالى ووفّى بنذره. وكانت وفاة السيد المذكور سنة خمس وعشرين وثمانمائة.

= (التحذير من صحبة الكذاب).

وعلى ذلك فما ألطف قول أبي الفتح البستي:

تنازعَ الناسُ في الصُّوفيّ واختلَفوا   فيه وظنُّوهُ مُشتَقًّا من الصُّوفِ

وليسَ أنحلُ هذا الاسم غيرَ فتىً   صافى فصُوفيَ حتَّى لُقِّبَ الصُّوفي

وقد اختلف في مأخذ هذا الاسم والوصف به. قال أبو نصر السراج[1]: إنّما قيل لهم الصوفيّة نسبة إلى ظاهر اللِّبسة، إذ كان لبس الصوف دأب الأنبياء والأولياء والصديقين وعباد الله المخلصين، فنسبوا إليه، حتى يكون ذلك اسماً مجملاً عاماً مخبراً عن جميع أوصاف التنسّك وآداب التعبد، إذ لو كان الاسم ببعضها لم يكن ذلك البعض بأولى من غيره فوصفوا باللِّبسة الظاهرة.

وقال بشر بن الحارث[2]: هو مَن صفا قلبه لله.

وقد قربت عباراتهم عن الصفوة على مخرج اسمهم فقالوا: هو مَن صفًا نفسه عن كدورة المخالفات، وقالوا: هو من صفت لله معاملته، وصفت له من الله كرامته.

وسئل محمد بن علي أستاذ الجنيد[3] عن التصوف فقال: التصوّف جملته[4] أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام.

وقال أبو الحسن الثوري: التصوف في الحقيقة هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد في التصوّف. وقيل: أنّه سئل عن التصوف فأنشد:

عُـــريٌ وجــوعٌ وحَــفـا   ومـاءُ وجـهٍ قـد عَـفـا

ولـيـسَ إلاّ نَـفَـسٌ   يُـخـبِرُ عـمَّا قـد خَـفـا

قـد كـنـتُ أبـكي طَـرباً   فـصـرتُ أبـكي أسَـفـا

---

(١) هو عبدالله بن علي الطوسي (أبو نصر السراج) صاحب كتاب اللمع في التصوف. توفي سنة ٣٧٨ هـ (شذرات الذهب ٣/ ٩١، ومعجم المطبوعات / ١٠١٧).

(٢) هو بشر الحافي بن الحارث من كبار الصالحين. توفي ببغداد سنة ٢٢٧ هـ (الأعلام ٢/ ٢٦).

(٣) هو أبو جعفر القصاب (محمد بن علي) المتوفى سنة ٢٧٥ هـ (تاريخ بغداد ٣/ ٦٢).

(٤) في ك (جملة) مكان (جملته).

وقيل: التصوف هو أن يستعذب البلاء ولا يسأل كشفه، ويستحلي العناء ولا يبغي صرفه، وأنشِدَ[1]:

لستُ أشكو هَواكَ يا مَن هَواهُ   كلَّ يَومٍ يَرُوعُني منه خَطْبُ

مُرُّ ما مرَّ بي من أجلْلكَ حُلوٌ   وعَذابي في مِثلِ حُبِّكَ عَذبُ

وقيل: التصوّف صيرورة الأهواء هوىً، والهموم همًّا، وأنشِد:

سَرَتْ في سوادِ النَّفسِ حتى إذا انْتَهى
بها السَّيرُ وارتادَتْ حِمى القَلبِ حلَّتِ

فَواللهِ ما في القَلب شيءٌ من الهَوى
لأخْرى سِواها أكثَرت أم أقلَّتِ

وكلامهم في ذلك يطول. ومن املاء المولى الأعظم قطب الدين الشيرازي[2]: التصوف في زماننا عبارة عن متابعة التيوس [اللحيانية][3] وتقوية النفوس الشهوانية، والرقص بالحركات الميلانية، والانسلاخ من جميع الأخلاق الإنسانية، ومخالفة رسول الله ﷺ في جميع الوظائف الإيمانية. انتهى.

وكتب بعض الأفاضل لعلّ في قوله: في زماننا، دفعاً لما يفهم من مذمتهم على الاطلاق. وعلى ذلك فما ألطف قول القاضي أحمد بن عيسى المرشدي(*):

صُوفيَّةُ العَصْرِ والأوانِ   صُوفيَّةُ العَصْرِ والأواني

فاقُوا على فعلِ قَوم لُوطٍ   بنَقْرِ زانٍ لِنقْرِ زانِ[4]

وبالجملة فالحال الآن كقولة من قال:

لقد هَزَلتْ حتَّى بَدا من هُزالها   كُلاها وحتَّى اسْتامَها كلُّ مُفلسِ

---

(١) نسب المؤلف هذين البيتين في كتابه أنوار الربيع ٤/٩٧ لأبي اسحاق الصابي.

(٢) هو محمود بن مسعود (قطب الدين الشيرازي. توفي سنة ٧١٠ هـ (معجم المؤلفين ١٢/٢٠٢).

(٣) اللحياني (بالكسر): الطويل اللحية. في ع (اللخياتية) وفي ك و أ (اللحسانية والصواب) ما أثبته.

(٤) قال محقق نفحة الريحانة ٤/٧٩ (نقرزان) الثانية: الآلة الموسيقية.

نقل القرطبي[1] عن أبي بكر الطرطوشي(*) أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان يقرؤن شيئاً من القرآن، ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر فيرقصون ويطربون ويضربون بالدف والشبَّابة[2]، هل الحضور معهم حلال أو لا؟. فأجاب: مذهب السادة الصوفية، ان هذا بطالة وجهالة.

(قال العلامة الدميري في حياة الحيوان الكبرى: وقد رأيت أنه أجاب بلفظ غير هذا وهو أنّه قال: مذهب الصوفية بطالة وضلالة وجهالة ، إلى آخر كلامه). وما الإسلام إلاّ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ عجلاً جسداً له خوار قاموا يرقصون حوله ويتواجدون، فهو دين الكفار، وعباد العجل. وإنّما كان النبي ﷺ يجلس مع أصحابه كأنّ على رؤوسهم الطير مع الوقار. فينبغي للسلطان ونوّابه أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم من أئمة المسلمين. انتهى.

ولنعد إلى ما نحن بصدده. ثم لم نزل نصل المسير بالسرى، ونفترع الآكام والذرى، حتى طوينا جملة تلك المراحل، وقطعنا الخصب منها والماحل، فكان آخر منزل نزلناه، وأمطنا فيه شعث السفر وأزلناه: قصراً لبعض خدام مولانا السلطان، يشتمل على بستان يملأ العين قرّة ويسلي عن الأوطان. مستحكم الأركان والقواعد، قد استدار به نهر استدارة القُلب[3] بالساعد، يختال من روضه في حلّة مفوّفة بالأزهار، مطرّزة بالجداول والأنهار. فبتنا به ليلة نراقب فيها تشمير الليل ذيله، فلما أسفر الفجر عن صبح يوم الجمعة المبارك بقدرة الله تعالى وتبارك، لثمان بقين من شهر ربيع الأول

---

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، من كبار المفسرين. توفي سنة ٦٧١ هـ (الأعلام ٦/ ٢١٧).

(٢) الشبابه (بفتح الشين وتشديد الباء): قصبة الزمن.

(٣) القلب (بالضم): سوار للمرأة غير ملوي.

قضى الله بانقضاء مدة هذا السفر المطوّل، فسرنا وقد استقبلتنا المواكب ما بين راجل وراكب حتى وافينا قلعة (كَلكُنْدَه) نصرالله صاحبها وجنده، وهي دار الملك الخطير، ومقرّ المنبر والسرير، وغاية الجهة التي قصدناها، ونهايتها التي أردناها فوردناها، فكانت محطّ رحالنا وإليها مطارح آمالنا.

واجتمعنا بالوالد في ذلك اليوم اجتماعاً لم يخطر ببال في يقظة ولا نوم، فأقرّ الله به العين، وأراح من مشاق السفر ومتاعب البين، وبها ألقينا عصا الترحال، والحمد لله على كلّ حال.

ومن الغريب أن بعض الفضلاء الذين بحضرة الوالد أرّخ اجتماعنا هذا بقوله (تمَّ سرور اللِّقاء) فكان والله كذلك فأنا لم نر بعد ذلك اليوم يوم سرور خالياً من بواعث الهموم والشرور، بل لم تنتج الأعمال إلاّ خلاف مطمح الآمال، وآلت الحال إلى قول من قال:

يا ضيعَةَ الأمَل الذي وجَّهتُه طَمعاً إلى الأقوام بل يا ضَيعَتي

وسُرى السَّفائن يَنثَني بصدُورها مَوجَ كأسنِمة الجِمال الجِلَّةِ[1]

يا دهرُ حسبُكَ قد أصبتَ مَقاتلي ما زلتَ تطلبُ بالمقادِر غِرَّتي

مالي أحيلُ على سِواكَ بما جَنى قَدَرٌ على قَدرٍ وأنتَ بَلِيَّتي

هذا وإنّما أعجلنا هذا الكلام في هذا المقام ليستدل على الآخر بالأول، ويستغنى بالمختصر عن المطوّل، فاللّبيب تكفيه الإشارة، والغبي لا يفهم بصريح العبارة، على أني أقول بعد هذا المنقول:

وثَمَّ أمورٌ ليسَ يُمكنُ كشفُها شِكايتُها عَزَّت فواجبُها الكَتْمُ

وقد أسلفت في الديباجة ما قضيت به الحاجة، فحبس العنان عن هذا المدى، أولى عند أولي الهدى. فطوبى لمن عقل لسانه وكفَّه، وأطلق بالخير بنانه وكفَّه، فمن فرّط في التحفّظ أسف على ما فرط منه من التلفّظ. عصمنا الله بالمراقبة لصون اللسان عما يدني من الإساءة ويثني عن الإحسان، فإنه

---

(١) الجلة (بالكسر): الابل العظام، للواحد والجمع، والذكر والأنثى.

السميع البصير وإليه المصير.

وهذه نبذة من شعر الوالد الأعظم[1] تزهى زهوّ الدر المنظّم. قال دام مجده في الحماسة[2]:

إلى كم تَقاضاني الظُّبا وهي ضامِيَه	وتَشكو العَوالي جوعَها وهي طاوِيَهْ
وتشجي الجيادُ الصَّافناتُ صهيلُها	متيَّمَ وَقْعاتٍ على الدَّم طافِيَه
فمن مُبلغٍ عنِّي نِزاراً ويَعرُباً	أولئكَ قومُ أرْتجيهمْ لما بِيَهْ
حماةٌ كماةٌ قادةُ الخَيلِ في الوَغى	ضراغمُ يومَ الرَّوع تلقاكَ ضارِيَهْ
بها ليلُ في البأساءِ يومَ تناضُلٍ	إذا ما التَقى الجَيشانِ فالعارَ آبيَهْ
ثيابُهمُ من نَسج داودَ سُبَّغاً	وأوجُههمْ تحكي بُدوراً بِداجِيه[3]
سَمَوا لدراكِ المَجد والثأر والعُلى	وروَّوا قَناهُم من دِما كلِّ طاغِيَهْ
وساروُا على مَتنِ الخيُول وسَوَّروا	بِذي شُطَبٍ عَضبٍ وسَمراءَ عالِيَهْ
علاءٌ لهم لم يَبرحُوا في حِفاظِه	مَدى الدَّهر والأزمانِ عَنه مُحامِيهْ
فهم سادةُ الأقوام شَرقاً ومَغرِباً	وبرًّا وبَحراً والقرُومُ المُباهِيَهْ
فلا غَروَ إن كانَ النبيُّ محمَّدٌ	إليهم لَيُنمى في جَراثيمَ سامِيَهْ
به كَسَرُوا كِسْرى وفَلُّوا جموعَهُ	لكَثْرتِها في العدِّ لم تَدرِ ما هِيَهْ
ونافُوا على الأطوادِ عزًّا ورِفعَةً	وزادُوا على الآسادِ بأساً وداهيَهْ
بَلاغاً صَريحاً واضحاً كاشفاً له	قِناعَ المُحيَّا فليُلَبِّينَ داعِيَهْ
وإيَّاهَمُ والرَّيْثُ عن نَصرِ خِدْنِهِمْ	ولا يأمَنوا الدنيا فلَيْسَتْ بصافِيه[4]

---

(١) هو الأمير أحمد نظام الدين بن الأمير محمد معصوم. انتهت إليه الرئاسة في حيدر أباد. توفي سنة ١٠٨٦ هـ (سلافة العصر / ١٠ ونفحة الريحانة ٤/ ١٧٨).

(٢) القصيدة في سلافة العصر / ١٨ ونفحة الريحانة ٤/ ١٨٥ مع وجود اختلاف في رواية بعض أبياتها.

(٣) في ك (مسبغ) و (بدور الدياجيه).

(٤) في ك (يأمن) وفي أ (تأمن) مكان (يأمنوا).

وقل لهمُ يَسْرُونَ فوقَ جيادِهم خَفايا كما تَمْشي مع السُّقم عافِيَهْ

وقال[1]:

نَصلَ الهَوى من قَلبِ ذي الوَجْدِ وسَلا المتيَّمُ عن لِقا هِنْدِ
وعَدَت عن الآرام نيَّتُهُ وغدَتْ غُوايتُه إلى رُشدِ
وتبدَّل التقوى عن الأهوا لرجا ثواب الله ذي المجدِ
ونَضا الصِّبا عنه غَوايتَه فاستقبلَ الأيّامَ بالزُّهدِ
فتَراهُ لا يَصبُو إلى دَعدِ كلاًّ ولا منها إلى وَعْدِ
لكن ثَنى نَفساً مُوَلَّهةً عن كلِّ أمرٍ مُهلِكٍ مُرْدِ
أضنَتهُ ذكرى أزْمُنٍ سَلفَتْ بالجِزع أو بالبانِ من نَجدِ
إذ كانَ فيها جمعُ اخوتِهِ دَهراً ولمَّا يُرمَ بالبُعدِ[2]
اخوانِ صدقٍ حائزي كرَم أهلِ الفَواضِلِ مَنجَعِ الوَفدِ
من كلِّ غِطريفٍ تَراهُ إذا حميَ الوغى كالخادِرِ الوَرْدِ
حاوي المعالي سَيِّدٍ فَطِنٍ طَبٍّ بهَتْكِ الجَوشَنِ السَّردِ
وعَقيدِ كلِّ كَتيبةٍ طَرَقَتْ ليلاً وفارسِ خيلِها الجُرْدِ
ومُغِيرها وقتَ الضُّحى أمَماً تَنْبو عن التَّعدادِ والحَدِّ
خفَّاقُ ألويةٍ على الأعدا حمَّالُ كلِّ مُلِمَّةٍ تُرْدِي
صَبْحُ الجَبينِ تَراهُ ذا بَهَرٍ تحتَ التَّريكةِ نيِّرٌ يَهْدي[3]
كم من يدٍ بيضاءَ قلَّدَها جيدَ الرِّجال بنعمةٍ تَلْدِ[4]
وعَفا عن الذَّنبِ القَطيع وكم أعْطى عَطاً يَربُو على العَدِّ

---

(١) القصيدة في سلافة العصر، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) عجز البيت في ك (دهر ومجمع أكرم الولد).

(٣) التريكة - هنا - بيضة من حديد يضعها المحارب على رأسه.

(٤) التلد (بفتح فسكون) كالتالد: المال القديم.

حُلوُ الجَنى مرٌّ مذاقتُهُ يومَ الوَغى للفارسِ الصَّلْدِ

ما زالَ صَفواً وِرْدُهُ عَسَلا للوَفدِ إنْ جاؤا بلا وَعْدِ

أهْفُو إلى مَرْآهُ أنَّ به نيلَ المُنى ومنابتَ السَّعْدِ

وعَوارِفاً ومَعارِفاً عُرِفَتْ أبدَ الدُّهورِ وغايةَ القَصْدِ

لَهفي عَلى وقتٍ به حَسَنٍ أيّامُه أعْيادُه عِنْدي[1]

في كلِّ حينٍ لي بعَقْوَتِه أنسٌ أنيقٌ زاهرُ الخدِّ[2]

حيثُ الصِّبا عُقَّتْ تمائِمُهُ عنِّي وأصحابي أولو ودِّي[3]

لم ألقَ غيرَ ذَوي الصَّفا أحداً فكأنَّني في جنَّة الخُلدِ[4]

وأنشدني دام مجده لنفسه إجازة في المحبرة:

مِحبَرةُ الحَبْرِ الَّذي من يَرِدْ بِحارَه يَنهَلْ بماءِ الحَياةْ

بألسنِ الأقلام تتلو لنا من داؤه الجهل فإنِّي دواه[5]

ولبعضهم في المعنى:

هذي دَواةٌ للسَّخا والعَطا تَقَّنَها المجدُ بماءِ الحَياه[6]

قد فتحَتْ فاها وقالَت لَنا من مسَّه الفقرُ فإني دَواه

وأنشدني الوالد لنفسه وهو ذو قافيتين:

طابةٌ طابَتْ بشربِ الظَّبي [زاهي الخدِّ] مَعسُولِ الشِّفاهْ (اللّمى)[7]

---

(١) صدر البيت في ك (لهفي على زمن به نضر).

(٢) في ك (أنس أنيق ساحب البرد).

(٣) عقّت (للمجهول): قطعت. في ك (ذوو) مكان (أولو).

(٤) في ك (لم ألف) مكان (لم ألق).

(٥) في ك (بألسن الأقلام تدعو الورى).

(٦) تقّنها (بفتح التاء وتشديد القاف المفتوحة): سقاها.

(٧) طابة: من أسماء الخمرة. الذي بين القوسين سقط من الأصول والتكملة من أنوار الربيع ٢/ ١٥٦.

يا لَه من مَنهلٍ عذبٍ يُزيلُ الكَرْبَ بَل يَروي الظِّماه (الظَّما)

وأنشدني لنفسه أيضاً:

تَراءَى كظبيٍ خائِفٍ من حَبائِلٍ يشيرُ بطرفٍ ناعسٍ منه فاتِرِ
وقد مُلِئَت عيناهُ من سُحبِ جَفْنِه كنَرجِسِ رَوضٍ جادَهُ وبلُ ماطِرِ

وكتب بهما إلى مولانا وشيخنا محمد الشامي[1] مع رقعة صورتها:

يا مولانا عمّر الله بالفضل زمانك، وأنار في العالم برهانك. سمحت للعبد قريحته في ريم هذه صفته بهذين البيتين، فإن رأى المولى أن يجيزهما ويجيرهما من البخس، فهو المأمول من خصائل تلك النفس، وإن رآهما من الغث فليدعهما كأمس، ولعل الاجتماع بكم في اليوم هذا بعد الظهر قبل العصر[2] لنحثّ كؤوس المحادثة ما راق بعد العصر. والمملوك كان على جناح ركوب، بيد أنه كتب هذه البطاقة بسرعة وأرسلها إلى سوق أدبكم العامرة التي ما برح إليها كلّ خير مجلوب.

فأسْبلِ السِّتر صَفحاً إن بَدا خللٌ تَهتِكْ به سِتْر أعداءٍ وحُسَّادِ

فكتب مولانا الشيخ بهذين البيتين بديهة، فعين الله على تلك الفطرة النبيهة:

ولربَّ مُلتَفِفٍ بأجيادِ المَها نَحوي وأيْدي العِيس تَنفُثُ سَمَّها
لم يَبكِ من ألم الفِراقِ وإنَّما يَسقي سيُوفَ لحاظِهِ لِيُسمَّها

ثم نظم معنى بيتي الوالد فقال:

ولقد يُشيرُ إليَّ عن حَدقِ المَها والرُّعب يَخفقُ في حَشاهُ الضَّامرِ
أسْيانَ يفحصُ في الحِبال كأنَّه ظبيٌ تخبَّطَ في حِبالَةِ جازِرِ[3]

---

(١) هو محمد بن علي بن محمود الشامي أستاذ المؤلف. توفى سنة نيف وتسعين وألف (أنوار الربيع ١/ ٥٠).

(٢) في ك (في هذا اليوم يقدر بعد الظهر) وفي نفحة الريحانة ٤/ ١٨٣ (قبل الظهر أو بعد العصر). وما في سلافة العصر موافق للمثبت وهو رواية (ع) و (أ).

(٣) في ك (خادر) والخادر: الأسد، وفي أ (حاذر) وفي سلافة العصر ونفحة الريحانة - (جاذر) مكان (جازر).

غشَّتْ نواظرَهُ الدُّمُوع كأنَّها ماءٌ تَرقرقَ في مُتونِ بَواتِرِ
رقَّت شمائِلُه ورقَّ أديمُهُ فتكادُ تَشربُهُ عُيونُ النَّاظِرِ

وقال الشيخ أحمد الجوهري(*) معارضاً:

وظَبيٍ غريرٍ بالدَّلالِ مُحجَّبٍ يرى أنَّ فرضَ العَينِ سَتر المحاجرِ[1]
رَماني بِطَرفٍ أسبلَ الدَّمع دونَه لِئَلاً أرى عَينَيْهِ من دونِ ساترِ

وقلت أنا في سنة ثمان وستين وهو أوَّل شعري:

ألا ربَّ ظبيٍ كالهِلالِ جَبينُهُ رَماني بسَهمٍ من جُفونٍ فَواتِرِ[2]
يُشيرُ بطرفٍ وهو يَرتاعُ خِيفَةً كما ارتاعَ ظَبيٌ خوفَ كُفَّةِ جازِرِ[3]
وعيناهُ مَملوءانِ دَمعاً كنرجسٍ عليه سقيطُ الطلِّ ليسَ بقاطِرِ

ومما أنشدنيه الوالد لغيره، قول القاضي تاج الدين المالكي(*) وهو المبتكر لهذا المعنى:

بَدا البُرقعُ الشَّرقي كالشَّفق الذي
عَلى فَرْقِه لاح الهِلالُ بلا فَرقِ[4]
وأبدَى عجيباً في عَجيبٍ لأنَّه
أرانا هِلالَ الأفقِ يَبدو من الشَّرقي

وقال القاضي أحمد بن عيسى المرشدي(*) معارضاً:

وخودٍ كبَدرِ التمِّ في جنحِ مِصْوَنٍ
حَماها عن الأبصارِ برقُعُها الشَّرقي[5]

---

(١) في سلافة العصر ونفحة الريحانة (يرى أن ستر العين فرض المحاجر).
(٢) في سلافة العصر ونفحة الريحانة (ولله ظبي).
(٣) الكفة (بضم الكاف وتشديد الفاء المفتوحة): حبالة الصياد. لا وجود لهذا البيت والذي بعده في سلافة العصر ونفحة الريحانة. وجاء في محلهما البيت الآتي:
جرت بمآقيه الدموع كأنها مياه فرنْدٍ في شفار بواتر
(٤) جاء صدر البيت في ك هكذا (بدا في ظلام الليل والبرقع الشرقي).
(٥) المصون (بكسر فسكون ففتح): رداء أسود لنساء الحجاز.

سِوى طرَّةٍ مثل الهلالِ بَدت لنا
على شفقٍ والفرقُ كالفَجر في الأفقِ[1]

فقلتُ هلالٌ لاحَ والفجرُ طالعٌ
من الأفقِ أم لاحَ الهلالُ من الشَّرقِ[2]

وقوله أيضاً في المعنى:

بالبُرقُع الشَّرقي تحتَ المصْوَنِ الباهي الجمالْ
أبدَتْ لنا شَفَقاً وليلاً لاحَ بينَهما هِلالْ

ونظم المعنى الشيخ شرف الدين العصامي(*) فقال مع زيادة وجه آخر في التورية:

وخَوْدٍ من الأعرابِ لمَّا تلثَّمَتْ
ببُرقُعِها الشَّرقيِّ في مَعشر العشقِ[3]

وشَرَّقَ خدَّيها الحياءُ بحُمْرةٍ
أرَتنا هِلالَ الأفْقِ يَبدو من الشرقِ

وللنظر في هاتين البيتين مجال.

وأنشدني الوالد للقاضي تاج الدين المذكور فيما يكتب على هياكل الصدور:

غَنِيَتْ بحِلْيَة حُسنِها عن لُبْس أصنافِ الحُلي
وبدَتْ بهَيْكلِها البَديع تقولُ شاهِدْ واجتلِ
تَجدِ المحاسِنَ كلَّها قد جُمِّعت في هَيكلي

وقد زاحمه على سبكه هذا جماعة من معاصريه، منهم السيد أحمد بن مسعود بن حسن ابن أبي نمي بن بركات[4] فقال:

---

(١) سقط هذا البيت من ك.

(٢) في نفحة الريحانة ٤/٧٨ وأنوار الربيع ٥/١١٣ (من الغرب) مكان (من الأفق).

(٣) في ك (تلفتت) مكان (تلثمت) و (فئة) مكان (معشر).

(٤) هو الشريف أحمد بن مسعود ابن أبي نمي المتوفى سنة ١٠٤١ هـ(أنوار الربيع ١/ ٢٩١).

لله ظـبـيٌ سـربُـه … يَـزهُـو بـه فـي الـمَـحـفِـلِ[1]

قَـنـصَ الأسـودَ بـقـالَـبٍ … قَـيـدِ الأوابـد هَـيْـكَـلِ[2]

ولـه الـجَـوارِ الـمُـنْـشِـئـاتُ … جَـوى الـحُـشـاشَـةِ لـلـخَـلـي

مـن كـلِّ رُؤدٍ لـحـظُـهـا … يُـزري بـحَـدِّ الـمُـنْـصُـلِ

مُـشـتـاقُـهـا مـن ثَـغـرِهـا … وأثِـيـثِـهـا فـي مُـشْـكِـلِ

مـا قـالَ فـي ظَـلـمـائِـهـا … يـا أيُّـهـا الـلَّـيـلُ انـجَـلِ

فـاقَ الـغَـوانـي حـالِـيـاتٍ … عـاطِـلاً فـي هَـيْـكَـلِ

وغـدا يـنـصُّ بـه فـأزرى … الـحَـلْـيُ بـالـنَّـصِّ الـجَـلـي

ومنهم القاضي أحمد بن عيسى قال وأجاد[3]:

أنـا ربَّـةُ الـحُـسـنِ الـجَـلـي … لـمـؤمِّـلـي الـمـتـأمِّـلِ

صَـدري ووَجْـهـي مُـنـيَـةٌ … لـلـمُـجـتَـنـي والـمُـجْـتَـلـي

فَـالْـحَـظْ بـديـعَ مـحـاسِـنـي … مـن تـحـت أنـواع الـحُـلـي

تَـجِـد الـمـحـاسِـنَ والـحُـلِـيَّ (م) … جَـمـالـهـا مـن هَـيْـكَـلـي

ومنهم القاضي شرف الدين بن السيد عمر الحسيني المالكي الخلوتي القاضي بمكة[4] المشرفة قال:

أفدي كعُوباً ذاتِ حُسنٍ ناهداً … قد صاغها الباري بأجمل هَيْكل[5]

---

(١) الأبيات في سلافة العصر / ٢٥ ونفحة الريحانة ٤/ ٩٠، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) الهيكل: غلاف من الفضة يتخذ للتعاويذ (سلافة العصر / ٢٨).

(٣) الأبيات في نفحة الريحانة ٤/ ٩١ وفي رواية البيتين الأول والرابع اختلاف.

(٤) سماه المؤلف في كتابه (أنوار الربيع ٥/ ١١٣): يحيى بن السيد عمر المكي، وقلت أنا في الحاشية: أحتمل أنه نجل العلامة السيد عمر بن السيد عبد الرحيم الحسيني الشافعي المكي المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ.

(٥) (كعوباً) كذا ورد في الأصول، وأنوار الربيع ٥/ ١١٣، وسلافة العصر / ٢٧، وأخال الصواب (كعاباً).

خَطرَتْ بهَيكلِ قدِّها وبهَيْكلٍ　　　في جِيدها الباهي السَّنى المُتَهلِّل[1]

بينَ الغَواني المُبدعات بحُسنِها　　　وجمالُها مُهدي الجَمالة للحُلي[2]

وتقولُ عُجباً بينَهن ورقةً　　　هل هَيكلٌ في الحسنِ يحكي هيكَلي[3]

وأنشد الوالد لنفسه في المعنى[4]:

خَوْدٌ جَلا الأنوارَ نورُ جَبينِها　　　والفرعُ مِنها كالبَهيم الأليَلِ

تَزهو بجيدِ الرِّيم إلاَّ أنَّهُ　　　هادٍ إلى الوَجه المنيرِ الأجملِ

قالت لصبٍّ قد تزايدَ وَجدُه　　　مِن صدِّها بتعزُّزٍ وتَدلُّلِ

أنا نُزهةُ الأبصارِ ذاتاً فَاجتلِ　　　منّي محاسِنَ قد حَواها هَيكلي

وله أيضاً في المعنى:

خَودٌ جَلالي وَجْهُها　　　بَدراً مُنيراً مُعتَلي

قالَت لمُدنِفٍ هَجرِها　　　بتَعزُّزٍ وتَدلُّلِ

أنا نُزهةُ الألبابِ ذاتاً　　　والبَها بي يَعْتَلي[5]

ومحاسنُ الدُّنيا جَميعاً　　　قد حواها هَيكَلي

وأنشدني لكثير عزَّة[6]:

---

(١) في ك (الباري السني) وفي أنوار الربيع ٥/ ١١٤ (السنيّ المنهل).

(٢) في ك (الغواني المعجبات) و (جمالها يهدي الجمال إلى الحلي).

(٣) في ك (ورفعة) مكان (ورقة).

(٤) في ك (ومنهم الوالد وأنشدنيه بنفسه فقال).

(٥) في أنوار الربيع (الأبصار) مكان (الألباب). وورد البيت والذي بعده في ك وكأنهما مستقلان عن البيتين السابقين لاختلاف الوزن وهما:

أنا نزهة الألباب جلوة كـ (م)　　　لّ شيء والبهابي بجتلي

ومحاسن الدنيا جميعاً جمّعت　　　لي إذ حواها للملاحظ هيكلي

(٦) هو أبو صخر عبد الرحمن بن الأسود المعروف بكثيّر عزة. توفي سنة ١٠٥ هـ (أنوار الربيع ١/ ٢٤٩).

أقولُ لها عُزَيْزُ مطلتِ دَيْني   وشرُّ الغانِياتِ ذَوُو المِطالِ[1]

فقالَت ويحَ غيرِكَ كيفَ أقضي   غريماً ما ذَهبتُ له بمالِ

ومن أملائه زِيد في علائه، وعزاه للشريف أبي نمي بن بركات[2]:

بشَّرَتْني بغُلامٍ   حَسَنِ الوَجْهِ وسيمْ

قلتُ عَزِّي لا تُهنِّي   ولدُ الشَّيخ يَتِيمْ

ومنه وهو لجدي الشيخ محمد المنوفي[3]:

عتبتُ على دهري بأفعالِه الَّتي

أضاقَ بها صَدري وأضْنَى بها جسمي

فقالَ ألم تَعلم بأنَّ حَوادثي

إذا أشْكلَتْ رُدَّت لمن كانَ ذا عِلمِ

ومنه وهو لأبي الحسين الجزَّار(*):

أحمِّلُ نَفسي كلَّ يوم ولَيلةٍ

هُموماً على مَن لا أفوزُ بخَيْره[4]

كما سَوَّد القصَّارُ في الشَّمس وجهَهُ

ليَجهدَ في تَبييضِ ثَوبٍ لغَيرهِ[5]

ومنه وهو من قصيدة لعربيّ من شهران[6]:

والله ما الثَّوبُ الذي مُتَقلِّلٌ   على شرفٍ ترمي الذَّواري بجانِبهْ[7]

---

(١) في ك (أولي المطال).

(٢) هو الشريف محمد بن بركات (أبو نمي الثاني) توفي سنة ٩٩٢ هـ (الأعلام ٦/ ٢٧٦).

(٣) هو العلامة محمد بن أحمد المنوفي جدّ المؤلف لأمه. توفي سنة ١٠٤٤ هـ (نفحة الريحانة ٤/ ١٧٢).

(٤) في الغدير ٥/ ٤٣٣ (قلبي) مكان (نفسي).

(٥) في الغدير (حريصاً على تبييض). وفي ك (أثواب غيره).

(٦) شهران: بطن من خثعم.

(٧) متقلل: مرتفع. في ك (متعلق).

بأكثرَ من قلبي خُفُوقاً وحيُنا جَميعٌ وخَوفي من تَنائي عَواقِبُهْ

قلت: ولي قريب من هذا المعنى من قصيدة امتدحت بها الوالد:

لقد كنتُ أبكي قبلَ أن أعرفَ النَّوى
مخافةَ بَينٍ والخطوبُ هُجُودُ
فكيفَ وقد شَطَّ المزارُ وأصبحَتْ
أيادِي النَّوى تَحدُو بنا وتَقُودُ

وفي يوم الجمعة لليلة بقيت من شهر ربيع الأول استدعانا مولانا السلطان خلّد الله ملكه، وأجرى في بحار النصر فلكه، للمثول بحضرته الشريفة، والرقي إلى سدّته المنيفة (فاكتحلنا بتلك الغرّة الزهراء، واستضأنا بتلك الزهرة الغراء)[1] ورأينا من ذلك الأفق المنير، والتاج والسرير نعيماً وملكاً كبيرا، وخَيراً وخِيرا، وفضلاً كثيرا.

رأيتُ امْرءاً ملءَ عَينِ الزَّمانِ يَعلُو سَحاباً ويَرسُو ثَبِيرا[2]
مليكاً شآى الكلَّ لمَّا بَدا نَداً أوَّلاً وعَتاداً أخِيرا
إذا ما حَللتَ حمى جُودِهِ رأيتَ نَعيماً ومُلكاً كبِيرا

وهذا مكان درر من قصيدة الوالد التي أحكم نظامها، وأودعها من صفات هذا الملك الأعظم ما يزين به انتظامها حيث يقول[3]:

(بكلٍّ تَداوَينا فلم يُشفَ ما بنا على أنَّ قُربَ الدارِ خيرٌ من البُعدِ[4])
بَلى ليسَ بُعدُ الدَّارِ يا صاحِ ضائراً إذا كانَ عبدُ الله مُنتَجعَ الوَفْدِ[5]

---

(١) في ك (فاكتحلنا بتلك الغرّة الزاهرة واستضأنا بتلك الزهرة الباهرة).

(٢) في ك (يعل سحاباً ويعلو ثبيرا).

(٣) القصيدة طويلة مثبتة في سلافة العصر / ١١ مطلعها:
سلا هل سلا قلبي عن البان والرند وعن أثلاث جانب العلم الفرد

(٤) البيت مضمن من قصيدة تنسب لمجنون ليلى ولشعراء آخرين، يراجع ديوان المجنون جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج. سقط هذا البيت من ك.

(٥) صدر البيت في ك (ألا أنّ بعد الدار ليس بضائر).

شَهنشاهُ شاهٍ قُطبُ شاهٍ مليكُنا ... وَوالي وُلاةِ الأمر مَشْرَعَةُ الرِّفدِ

مليكٌ سَما فرعَ السَّماكَين راقِياً ... إلى رُتبةٍ عَلياءَ ذاتِ عُلاً نَهْدِ[1]

مليكٌ لَدى الهَيجاءِ تَهنُو لبأسِه ... أسود الشرى هيهات ما صولة الأسدِ[2]

مليكٌ إذا ضاقَ الزمانُ توسَّعَتْ ... خلائقه الحسنى فجاءت على القصدِ[3]

يسومُ جميعَ العالَمينَ نَوالُهُ ... فبوسعُهم جوداً ينوفُ على العَدِّ[4]

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاضِعةً له ... فجبّارُهم عندَ المُلاقاةِ كالوَغدِ

له هَيبةٌ قد ألبسَ اللهُ وجهَهُ ... بهاءً ونوراً شاهِدَيْنِ على السَّعدِ

هو الملكُ المنصورُ ذو الفَخرِ والعُلى ... وربُّ النَّدى والأمرِ والحلِّ والعَقْدِ

وقطبُ مُلوكِ الأرضِ دامَ علاؤهُ ... ودُمنا زَماناً راتعي عَيْشِهِ الرَّغدِ

فأكرِمْ بظلِّ اللهِ في كلِّ أرضِهِ ... ونجلِ مُلوكٍ مُنتَمينَ إلى جَدِّ



(١) في أ (مليكاً) وفي ك (هام السماكين).

(٢) في أ (مليكاً) وفي ك (لدى العلياء).

(٣) في أ (مليكاً) وفي ك (فكان على القصد).

(٤) يسوم: يقصد، ويبتغي. في سلافة العصر (ويشمل كلّ العالمين).

ذكر نسب المولى المذكور

هو الملك الأعظم والسلطان المعظّم عبدالله بن محمد قطب شاه بن محمد أمين بن ابراهيم قطب شاه بن سلطان قلي المشهور ببر املك قطب الملك، وهو أوّل من استبدّ بالملك واحتوى على الصقع الدكني من الديار الهندية وذلك سنة اثنتي عشرة وتسعمائة[1]. وكان ملكاً منصوراً مظفراً، افتتح بسيفه سبعين قلعة، وكان يبارز بنفسه، فأصابته في وجهه جراحات شانته، فكان يستر وجهه لذلك. توفي سنة خمسين وتسعمائة شهيداً بمواطاة ابن له عن تسعين سنة. وهو ابن أويس بن الأمير بيرقلي بن الأمير قرا يوسف بن قرا محمد - وهو الذي افتتح العراقين، وأذربيجان واحتوى على ذلك الصقع وكسر الأمير أبا بكر بن الأمير تيمور في سنة تسع وثمانمائة - ابن قرا تورسن[2] بن قرا منصور.

ولا حاجة بنا إلى التطويل بذكر النسب كلّه لاستعجام الأسماء وافتقارها إلى الضبط. وهم من ملوك الترك التراكمة، ويتّصل نسبهم بيافث بن نوح عليه السلام. وكان أوّل من أسلم منهم آغز خان بن قراخان[3] والمُلك فيهم منه إلى يافث بن نوح موروث بطناً عن بطن.

ملوكٌ همُ الأنيابُ للمُلْكِ والسِّوى   إذا نُسِبوا كانوا الزَّوائد أو عدُّوا

تولَّوا فأفْضَى ملكُهم لمحجَّبٍ   تَصادَمُ تيجانُ المُلوكِ إذا يَبْدُوا

---

(١) في ك (سنة عشر وتسعمائة)، وفي أ (سنة احدى عشرة وتسعمائة).

(٢) في ك (طورسن)، وفي أ (توربين).

(٣) سقطت كلمة (بن قراخان) من (ك) و (أ).

تأخَّر عَصراً فاستَزادَ من العُلى		كما زادَ بالتأخيرِ ما تَرقمُ الهِندُ

أدام الله أيام ولايته الشريفة، وخلَّد أعوام عدالته المنيفة، ولا زال النصر لافًّا بلوائه، والظفر حافًّا بفنائه، ما اتّصلت عين بنظر، وأذن بخبر.

من قال آمين أبْقى اللهُ مُهجتَهُ		فإنَّ هذا دعاءٌ يَشمَلُ البَشَرا

وكان جلوسه الشريف على سرير الملك المنيف يوم الخميس لأربع عشرة خلون من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وألف، وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وذلك بعد وفاة والده المرحوم في السنة المذكورة.

لقد خَطَبتْ شمسُ الخِلافةِ بَدْرَها		فقارنَها في الأوْجِ الطَّالعِ السَّعدُ

وأصبحَ عُطلاً جيدُ من رامَ عِقْدَها		سواهُ وأضحى يَستَضِيءُ به العِقْدُ

تفرَّد طودُ الملكِ بالمجد جامِعاً		مَزاياهُ فهو الجامعُ العَلَمُ الفَرْدُ

مع الله الممالك في سلك ملكه، وجعل أقطار الأرض جارية في حوزته وملكه وأيّد دولته المشرقة الليالي والأيام إلى قيام الساعة، وساعة القيام.

واجتمعت في حضرة الوالد بجماعة من الأعيان، ورؤساء العصر والأوان. ممن حلّى بهم الدهر جيده، وملكهم الفضل طارفه وتليده، فاكتحل برؤياهم جفني القريح، وهبّت بعرف ريّاهم لكتابي هذا أطيب ريح.

فمنهم العلامة الوحيد، القدوة الفهّامة الفريد، أعلم العلماء الأعلام، وعمدة العظماء الفخام، إمام المنظوم والمنثور، حامل لواء علميهما المأثور، الأستاذ الأعظم والملاذ الأنبل الأفخم، مولانا الشيخ محمد بن علي بن محمود بن يوسف بن ابراهيم الشامي لا زال في أعلى المراتب سامي. وهو الإمام الذي ألقت إليه العلوم مقالدها، وقلّدته الفهوم طارفها وتالدها، فأضحت بسنى أنواره ساطعة، وبشبا أفكاره قاطعة، فهو يتحلّى مع فضله الوافر وصبحه السافر، بأدب يعقد عليه الخنصر على ما يكشف من أبهامه، ويقرطس شواكل الغرض بصوائب سهامه. وأقلّ ما يعدُّ من مأثوره جمعه بين منظوم الأدب ومنثوره، ووصفه بأنّه إذا نثر أخجل العقود في النحور، وإذا نظم استنزل الدراري من الأفلاك واستخرج الدرر من البحور، وما وراء ذلك من

أفانين العلوم، فهو لدى كلّ علم من البديهي المعلوم، وهو الذي أوضح لي من الشعر طرائقه، وعرَّفني (سائغه ورائقه)[1]، وعنه أخذت علمي النحو والبيان، وبعض أبواب الفقه والحساب، فعادت عليَّ بركات أنفاسه، ولاحت لي لوامع نبراسه، وحقَّ لي أن أنشد بين يدي هذا المرشد:

ولَو لَمْ ألقَ غيركَ في اغترابي   لكانَ لقاؤكَ الخَطَرَ الجَزيلا[2]

وقد أثبت من غرر كلامه ودرر نظامه ما يُستنشق له ريًّا، ويُباهَى به عقد الثريَّا. فمن ذلك ما أنشدنيه شفاهاً وهو قوله:

رقَّتْ شمائلُه فقلتُ نسيمُ   وزكَتْ خلائقُه فقلت شَمِيمُ
قَصرَ الكلامَ على المَلام وإنَّما   لِلَّحظِ في وَجَناتِه تَكْليمُ
شَرِقَتْ معاطفُه بأفواه الصَّبا   وجَرى عليه بَضاضَةٌ ونعيمُ
قد كادَ تَشرَبُه العُيونُ لطافةً   لكنَّ سيفَ لحاظِه مَسْمُومُ

ومن بديع شعره، وسحر بيانه أو بيان سحره:

إذا أبصرتُ شخصَكَ قلتُ بدرٌ   يلوحُ وأنتَ إنسانُ العُيونِ
جَرى ماءُ الحياةِ بفيكَ حتّى   أمِنتُ عليكَ من رَيبِ المنُونِ

وقوله من قصيدة فريدة:

طارَت بلبِّكَ حيثُ طار بها الهَوى   وَرقاءُ قطَّع نوحُها الأكبادا
غنَّتكَ أحوجَ ما تكونُ إلى البُكا   هَل تُحسنينَ لواجدٍ إسْعادا
ومُزَيِّفٍ للحبِّ عندي قالَ لي   والعيسُ تَقدحُ للفِراقِ زِنادا[3]
ما بالُ قلبِكَ لا يَقرُّ قَرارُهُ   أحَلاله طعمُ الهَوى فازْدادا
أمْسِك فؤادَكَ إنْ مرَرتَ على اللِّوى   فأجبتُ هلْ أبقى الفِراقُ فُؤادا
خفِّضْ عليكَ من المَلام فإنَّني   عوَّدتُ قلبي حُبَّهم فاعْتادا

---

(١) في ك (سابقه ورافقه). وفي أ (سابقه ورائقه).

(٢) الخطر - هنا -: الشرف وارتفاع القدر.

(٣) في سلافة العصر / ٣٤١ (ومهون للوجد عندي).

وقوله من أخرى[1]:

وقد جَعلَتْ نَفسي تحنُّ إلى الهَوى ... حَلا فيهِ عيشٌ من بُثَيْنةَ أو مَرَّا
وأرسلتُ قلبي نحوَ تيماءَ رائداً ... إلى الخَفِراتِ البيضِ والشُّدْنِ العُفْرا
تعرَّفَ مِنها كلَّ لمساءَ خاذِلٍ ... هي الرِّيمُ لَولا أنَّ في طَرفِها فَتْرا
من الظَّبياتِ الرُّؤدِ لو أنَّ حُسنَها ... يُكلِّمها أبدَتْ على حُسنِها كِبْرا
وآخر إنْ عرَّفتُه الشَّوقَ راعَني ... بصَدٍّ كأنِّي قد أبنتُ له وَتْرا[2]
أناشِدُ فيه البَدرَ والبدرُ غائرٌ ... وأسألُ عنه الرِّيمَ وهو به مُغْرى
وأسْترشِدُ الشِّعْرى العَبُور وقلَّما ... تَبينُ لنا عن ليلِ طُرَّته الشِّعرى
فما رَكبَ البَيْداءَ لوْ لم يكنْ رَشاً ... ولا صَدَعَ الدَّيجُورَ لوْ لم يكُنْ بَدْرا
لحاظٌ كأنَّ السِّحرَ فيها عَلامةٌ ... تعلِّمُ هاروتَ الكهانَةَ والسِّحرا
وقدٌّ هو الغُصنُ الرَّطيبُ كأنَّما ... كسَتْهُ تَلابيبُ الصَّبا وَرَقاً نَضْرا
رَتقتُ على الواشِينَ فيه مَسامِعاً ... طريقُ الرَّدى منها إلى كَبدي وَعْرا
أعاذلتي - واللومُ لؤمٌ - ألم تَرَيْ ... حُشاشَتيَ الحرَّى ومُقلتيَ العَبْرى[3]
وأذنيَ لا تُصْغي إلى متكلِّم ... كأنَّ بها عن كلِّ لائمةٍ وَقْرا
بفِيكَ الثَّرى ما أنتَ والنُّصحُ إنَّما ... رأيتُ بعَيْنَيكَ الخِيانةَ والغَدْرا
وما للصَّبا - ياويحَ نَفسي من الصَّبا - ... تبيتُ تُناجي طولَ ليلَتِها البَدْرا
تُطارِحُه - والقولُ حقٌّ وباطِلٌ - ... أحاديثَ لا تُبقي لمستَودَعٍ سِرَّا
وتُلقي على النَّمامِ فصلَ ردائها ... فيعرفُ للأشواقِ في طيِّها نَشرا

---

(١) القصيدة في أنوار الربيع ١٤١/٤، وسلافة العصر /٣٤١، وخلاصة الأثر ٦٨/٤، ونفحة الريحانة ٣٥٥/٢، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

(٢) لا وجود لهذا البيت في (ك).

(٣) لا يوجد في (ع) و (أ) والمصادر الأربعة المذكورة آنفا من هذا البيت غير صدره. ثم ألحق به عجز البيت الذي بعده، فلفق منهما بيت وأهمل الباقي. ما أثبته عن (ك).

يُعانقُها خوفَ النَّوى ثمَّ تَنثَني ... تمزَّقُ من غَيظٍ على قدك الأَزْرا

ألمَّا تَرَى بأن النَّقا كيفَ هذه ... تحيلُ بِعطْفَيها حُنوًّا على الأخرى

وكيفَ وشَى غُصْنٌ إلى غُصُنٍ هَوىً ... ومن رشأٍ يُوحي إلى رشأٍ ذِكرا[1]

هما عَذَلانا في الهَوى غير أنَّني ... عَذوْتُ الصَّبا لو تَقبلينَ لها عُذْرا

هبيها - فَدتكِ النَّفسُ - راحَت تُسرُّه ... إليها فقد أبدَتْهُ وهي به سَكرى

على أنَّها لو شايَعَتْ كُتُبَ النَّقا ... وشِيحَ الخُزامى إنَّما حَملَتْ عِطرا[2]

ومن نظمه الذي هو أبهى من نظم العقود، وأشهى من سلافة العنقود قوله:

آهِ يا غصنَ النَّقا ما أمْيَلَكْ ... جلَّ يا غُصنَ النَّقا من عَدَّلَكْ

قَد قَضَى لي بتَبارِيحِ الجَوى ... مَن قَضى بالحُبِّ لي والحُسنِ لَكْ

أكلَ الحبُّ فُؤادي بَعدَ ما ... لاكَ منِّي ما تَمنَّى وعَلَكْ

هَلكَ الشاميُّ وجداً وأسىً ... ما يُبالي يا حَياتي لو هَلَكْ

قلَّ لي فيكَ غَراماً وجَوىً ... قلَّلَ اللهُ عذولاً قلَّلَكْ[3]

حكم اللهُ لِفؤادي عَلى ... نُسخَةِ الشَّيبِ وتَسويد الحَلَكْ

أتُراهُمْ قد دَرَوْا أيَّ دَمٍ ... هَرَقَ الواشي على تِلكَ الفَلَكْ[4]

يا غرابَ البَينِ لا كنتَ ولا ... كانَ واشٍ دَبَّ فيهم وسَلَكْ

---

(١) في نفحة الريحانة لفق من صدر هذا البيت وعجز البيت الذي بعده بيت وأهمل الباقي.

(٢) (شيخ الخزامى) كذا ورد في الأصول، والمصادر الأخرى عدا أنوار الربيع فالذي فيه (ريح الخزامى).

(٣) في ك، و أ (عدوا) مكان (عذولا).

(٤) الفلك (بفتحتين) جمع الفلكة (بالتحريك): قطعة الأرض المستديرة المرتفعة عما حولها. في نفحة الريحانة ٤/ ٣٧٠ (أتراهم قد رأوا) وجاء البيت في سلافة العصر / ٣٤١ في آخر القصيدة.

أخَذوا منَّا وأعطَوْا ما اشتَهوا   ما كَذا يَحكمُ فينا من مَلَكْ
جُرْتَ في الحُكم عَلى أهلِ الهَوى   لا تَـخَـفْ فـالأمـرُ للهِ ولَـكْ
ليتَ شِعري أمَليكٌ في الوَرى   أنتَ يا إنسانَ عَيني أمْ مَلَكْ
حكـمَ الـدَّهـرُ عَـلينـا بـالـنَّوى   هـكَـذا تـفـعـلُ أدْوارُ الـفَـلَـكْ

(فلقد راق لي هذا النظم فنظمت عليه وقلت مستعيناً بالله)[١]:

آهِ يا حبلَ النَّوى ما أطْولَكْ   قـطـعَ اللهُ زَمـانـاً وَصَـلَـكْ
حَكمَتْ بالبُعدِ أسبابُ النَّوى   وقضَى فينا بما شاءَ الفَلَكْ[٢]
ذبتَ يا قـلـبُ غَـلـيلاً بعدَهم   وبـهـم مـا كـانَ أروى غَـلَـلَـكْ
كَمْ وكَمْ من أملٍ نِلتَ بِهم   حيثُ لم تَقضِ اللَّيالي أمَلَكْ
لـيتَ دَهـراً كـانَ أغـراكَ هـوىً   بـهـمُ قـد كـانَ يَـومـاً عَـذَلَـكْ
أيُّـهـا الـنَّـائـي عـلـى وَجْدٍ بِـنـا   بَـعـدَ مـا حـازَ فُـؤادي ومَـلَـكْ
أعـجَـلَ اللهُ زَمـانـاً أعـجَـلَـكْ   أتُـرى نـا ضَـرَّه لـو أمْـهَـلَـكْ[٣]
ذبـتُ واللهِ غَـرامـاً وأسَـىً   من فِراقٍ شاكَ قَلبي وسَلَكْ[٤]
هل تَرى بَعدَ التَّنائي والنَّوى   رَجعةً يَحيا بها مَن قد هَلَكْ[٥]
أن تَعُدْ يَوماً على حُكم الهَوى   تَجدِ القَلبَ كما قَد كانَ لَكْ[٦]

وأنشدته يوماً وقد أنشدني شيئاً من شعره.

---

(١) في ك (قلت: ولما رأيت هذا النظم راق لي فنظمت على رويه وقلت:).
(٢) في الديوان (حكم الدهر بأسباب النوى).
(٣) رواية الديوان للبيت:
عـجـل الـدهـر ولـم يـرفـق بـنـا   آه يـا دهـر الـنـوى مـا أعـجـلـك
(٤) في الديوان (من فراق لاك قلبي وعلك).
(٥) في الديوان (بعد التنائي لهم).
(٦) في الديوان (أن تعد يوما على رغم النوى).

ما نَفْثَةُ السِّحر إلاَّ شِعرُكَ السَّامي ... يا مَن عَلا كلَّ نَشَّارٍ ونَظَّامِ[1]

لأنتَ أفصحُ من لاقيتُ من يَمنٍ ... ومِن شَآمٍ عَلى الاطْلاقِ يا شامي

فأجاب بديهة:

رفعتَ يا ابنَ نظامِ الدِّين أعْلامي ... نوَّهتَ باسْمي وإن كَنَّيتَ بالشَّامي

لم ألتفِتْ في حِماكم بينَ أقْوامي ... إلاَّ رأيتُ الغِنَى خَلفي وقُدَّامي

ثم كتب إليَّ بهذه الأبيات المعمورة:

خبَّرتنا الحُظوظُ أن سَوفَ يَحْيا ... بعليٍّ مَيْتُ النَّوالِ ويَحيى[2]

فهُما ما هُما من المجدِ غُصْنا ... دَوحةٍ قد زَكَتْ نَماءً وفيَّا[3]

ما بَدا لي أبُوهما النَّدبُ إلاَّ ... ورأيتُ الغِنَى يَلوحُ عَلَيَّا

بهِمُ يُستَقى الغَمامُ ويُمرى ... دَرُّهُ الجَوْدُ لا بنَوْءِ الثريَّا

ما رجوتُ النَّوالَ إلاَّ أشارَتْ ... راحَتا أحمدٍ إليَّ أليَّا

عَلَّمتني هِباتُ أحمدَ كيفَ الجُودُ ... حتى وهَبْتُ ما في يديَّا

عِفتُ حتى المرآة رغبةَ ألاَّ ... تُبصِرُ العَينُ غيرَ مرآهُ حَيَّا

حبَّذا أنتمُ مُلوكاً إذا هَبَّتْ ... شَمالٌ وقامَ سوقُ الحُميَّا

ومن بديع مديحه قوله في الوالد من قصيدة:

وإنَّ في الشَّعَراتِ البيضِ لو عَلمُوا ... نُوراً لعَيْني ونُوَّاراً على عُودي

بيضٌ وسودٌ إذا ما استجمَعا حَسُنا ... حُسنَ البياضِ على أحْداقِها السُّودِ

كم للزمانِ ولا أخشَى بوائقَهُ ... من ضِنَّةٍ ولعين المُلْكِ من جُودِ[4]

عَفُّ الشبيبَةِ مَيمُونُ النَّقيبةِ مَنْصُورُ ... الكتيبةِ مأمونُ المَواعِيدِ

---

(١) في ك (سما) مكان (علا).

(٢) (يحيى) هو محمد يحيى أخو المؤلف، تقدم التعريف به.

(٣) في ك (نموا ورقيا).

(٤) في ك (من طعنة) مكان (من ضنة).

أخلاقُ أحمدَ في تَقوَى أبي حَسَنٍ   وحسنُ يُوسفَ في مُلكِ ابن داوُدِ
لا يَحْسُنُ الشعرُ إلاَّ في مَدائِحهِ   كالدُرِّ أحْسَنَ ما يَبدُو على الجِيدِ

ومما أنشدنيه لغيره قول السيد أحمد الصفوي الدمشقي[1]:

صَهٍ يا حمامُ فلستَ المَشُوقُ   ولا باتَ حالُكَ فيها كحَالي
فَما مَن تَباكى كما مَن بَكى   ودمعُ الأسَى غيرُ دَمعِ الدَّلالِ[2]

قلت: وهو من قول مهيار الديلمي[3]:

أبْكي وتَبكي غيرَ أنَّ الأسَى   دمُوعُهُ غيرِ دمُوعِ الدَّلالْ

وأنشدني لصدقة الشامي:

في خَدِّه عِرقٌ بَدا   ذا حُمرَةٍ لِصَفائهِ
هذا يُصَدِّقُ قولَهم   الماءُ لونُ إنائهِ

وأنشدني للأمير الخطير، والهمام الكبير الأمير منجك[4]:

دُنوًّا فقَد أوهَى تجلُّديَ البُعدُ   ووَصْلاً فقد أدْمَى جَوانحيَ الصَّدُّ
أجنُّ غَراماً فيكَ خِيفَةَ كاشحٍ   ومِن مَدمَعي وَدْقٌ ومن كبَدي وقْدُ
وبِي فوقَ ما بِالنَّاسِ من لاعجِ الهوى   ولكنْ أبى أن يَجزَعَ الأسدُ الورْدُ
فيا مَن يَبينُ الرُّشدُ فيمنْ أحِبُّهُ   متى يَلتقي الحبُّ المبرِّحُ والرُّشدُ
تَلاعبتُ بالأشْواقِ حتى لَعِبْنَ بي   وما كنتُ أدْري أنَّ هَزلَ الهَوى جِدُّ

---

(١) (الصفوي) كذا ورد في الأصول، وأنوار الربيع. وفي سلافة العصر (الصفدي). ولعله السيد أحمد بن السيد علي الصفوري المتوفى سنة ١٠٤٣ هـ، أو أحمد بن محمد الصفدي المتوفى سنة ١١٠٠ هـ (يراجع أنوار الربيع ٤/ ١٧٠ ونفحة الريحانة ١/ ٤٠٩).

(٢) (كما من بكى) كذا ورد في ع، وسلافة العصر، وفي ك، و أ، وأنوار الربيع (كمن قد بكى).

(٣) هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي. توفي سنة ٤٢٨ هـ (أنوار الربيع ١/ ٤٢).

(٤) هو الأمير الشاعر منجك بن محمد بن منجك. توفي سنة ١٠٨٠ هـ (معجم المؤلفين ١٣/ ٨).

بُـلـيـتُ بـقـاسٍ لا يَـرقُّ فُـؤادُهُ عليَّ وها قد رَقَّ لي الحَجر الصَّلْدُ

أعاني به ما يُعجزُ الدَّهرَ بَعضُهُ وأحملُ ما قَد كلَّ عن حَملِهِ الجَهْدُ

وأدفعُ عنه النَّفسَ وهي عَصِيَّةٌ وهَلْ يُمكنُ الظمآنُ عَن مورْدٍ رَدُّ[1]

إذا جِئتُـه يَـومـاً لـبَـثِّ شَـكِـيَّـةٍ أروحُ بأشجانٍ على مثلِها أغْدو

تـهـدِّدُني من مُـقـلـتَيْهِ إذا رَنـا قواضُب مما يَطبَع اللهُ لا الهِنْدُ

حِدادٌ يلوحُ الموتُ في صَفَحاتِها مَواضٍ لها في كلِّ جارِحةٍ غِمدُ

أشاقُ إذا ما عَنَّ في القلبِ ذكرُهُ أطرَبُ ما باتَ اللِّسانُ به يَشدو

ومنهم السيد الجليل، الأيّد المثيل[2]، المتفرع من دوحة الرسالة والنبوة، المترعرع من سرحة البسالة والفتو، نُورُ حدقة الفضل والسيادة نَوْرُ حديقة المجد والسعادة، ذو الجلالة التي شاع صيتها في الآفاق، والإبالة[3] التي انعقد عليها الاجماع والاتّفاق. السيد الشريف[4]، السند الحنيف: عمّار بن الملك الحي، ولقد كان يجمعني واياه مجلس والدي فنتلاقى ملاقاة الأجسام والأرواح، ونتصافى مصافاة الماء والراح، وهو كهل شبّت بالظرف[5] شمائله، وزرَّت على شخص العرف غلائله. يغدو ويروح بجسم كلّه روح. وقد رأيت جماعة من أبناء جنسه فلم أرَ من يدانيه في جوده وبأسه. أمّا جوده فضرَّة البحار، وأمّا بأسه فأشهر من الشمس في رائعة النهار، وناهيك بمن تحدَّر من سلالة أكابر، ورُقاه أسرَّة ومنابر، وربَّما كانت تجمعنا حلبة أدهم وكميت، أو بيت شعر لم يتحكَّم عليه لو، ولا ليت، فنتنقَّل من متن جواد إلى شرح بيت، ولا أنسى قوله وقد سابقته قبل موته بأيَّام قلائل غدت لقوته ولم

---

(١) في ك (عن ورده) مكان (عن مورد).

(٢) الأيّد: القوي. المثيل: الفاضل. في ك (الفاقد المثيل).

(٣) الإبالة (بكسر الهمزة وتسهيل الباء أو تشديدها): السياسة.

(٤) توفي الشريف عمار بن بركات سنة ١٠٦٩ هـ (سلافة العصر / ٣١).

(٥) في ك (شبت عن الطوق).

يدر أنَّ المنايا تسابقه، وغمرها السابح[1] لاحقه، تحته مهر كلف به كلف أبي محجن[2] بالحميَّا، أو ابن أبي ربيعة(*) بمحبوبته الثريًّا. قريب الرياضة سريع الإفاضة، فقال لي وهو يركضه: إن هلك فمنك عوضه، فكان هو الهالك، ولو أمكن لكنت عوضه من المهالك. وله شعر يفعل بالألباب فعل السحر، أثبت منه أحلى من جني النحل، وأجدى من ندى القطر في البلد المحل. فمن ذلك قوله وهو ممّا كتبه إلى الوالد:

زرتُ خِلاًّ صَبيحةً فحَباني ... بسؤالٍ أشفَى وأرغَم شاني[3]

قالَ لما نظرتُ نورَ مُحيَّاهُ ... ونلتُ المُنى وكلَّ الأماني[4]

كيفَ أصبحتَ كيفَ أمسَيْتَ ممَّا ... يُنبتُ الحبَّ في قلوبِ الغَواني

فتحرَّجتُ أن أفوهَ بما قَد ... كانَ منِّي طَبْعاً مَدى الأزمانِ

يا أخا المَجدِ والمكارِمِ والفَضْلِ ... ومَن لا أرى له اليومَ ثاني

أدرِكْ ادْرِكْ متيّماً في هواكم ... قبلَ تسطُو به يدُ الحِدْثانِ[5]

وابقَ واسلمْ منعَّماً في سُرُورٍ ... ما تغنَّتْ وُرْقٌ على غُصْنِ بانِ

فأجابه الوالد بقصيدة طنانة مطلعها:

ليت شعريَ متى يكون التداني ... من بلاد بها الحسان الغواني

يقول فيها:

كَلماتٌ لكنَّها كالدَّراري ... وسُطورٌ حَوَتْ بَديعَ المعاني

قد أتَتْ من أخٍ شَقيقِ المعالي ... فائقِ الأصلِ غرَّةٍ في الزَّمان

صافيَ الودِّ صافيَ القَلبِ قَرْمٍ ... كعبُهُ قد علا على كِيوانِ[6]

---

(١) الغمر: الفرس الجواد. السابح: السريع الجري. في ك (السابق) مكان (السابح).

(٢) هو أبو محجن الثقفي عمرو بن حبيب. توفي سنة ٣٠ هـ (الأعلام ٥/ ٢٤٣).

(٣) أشفى: أهلك. شاني: شانئ.

(٤) في ك (ونلت المنى به والأماني).

(٥) في سلافة العصر / ٣٣ (واكففن عنه صولة الحدثان).

(٦) في ك (خالص الود خالص القلب) وفي سلافة العصر / ٣٤ (كعبة المجد في ذرى =

ذاكراً فيها تزايُدَ شَوقٍ ... وولوعاً به مَدى الأزْمانِ

فَفهمتُ الذي نحاهُ ولكنْ ... ليتَ شِعري يَدري بما قد دَهاني

أنا قيسٌ في الحبِّ بل هو دُوني ... لا جَميلٌ حالي ولا نَجلُ هاني[1]

يا أخا العَزم - قد سَلِمتَ - فوجدي

طافحٌ زائدٌ بغيرِ تَوانِ ... فَلِحَتْفي أبصرتُ مَن قد رَماني

وعناءٌ تَصَيُّدُ الغِزْلانِ ... إن تَشا شَرحَ حالَ صَبٍّ كئيبٍ

فلقد قالَه بَديعُ البَيانِ[2]

(مَرضي من مَريضةِ الأجفانِ ... عَلِّلاني بذكرها عَلِّلاني)[3]

وكنت أول دخولي هذه البلاد كتبت إليه بقصيدة ضمّنتها التبرم من الاغتراب والبعاد، أقول فيها من المديح:

أرَى فُؤادي وإن ضاقَتْ مسالكُه ... بمَدح نَجلِ رسولِ الله جَذْلانا

عمَّارُ أبنِيَةِ المجدِ الذي رَفَعَتْ ... آباؤه الغرُّ من نادِيه أرْكانا

السيِّدُ الماجد النَّدبُ الشَّريفُ ومَن ... عَلا عَلى ذَروَةِ العَلْياءِ مُذ كانا[4]

فأجابني بقصيدة أولها:

يا مَن تذكَّرَ خلاَّناً وجِيراناً ... وصارَ يُمسِي سَمير النَّجم سَهْرانا

صادٍ إلى مَوردٍ قد كان يالفُه ... عَذبٍ به يَشتَفي من كانَ وَلْهانا

له به مرتعٌ طابَتْ مواردُهُ ... واليومَ بالهندِ يا للهِ ما حانا

= كيوان). وفي نفحة الريحانة ٤/ ٣٤ (كعبة قد علا).

(١) في سلافة العصر، ونفحة الريحانة (ولا كابن هاني).

(٢) في ك، و أ (بديع الزمان) وفي سلافة العصر ونفحة الريحانة (بديع الأماني).

(٣) في نفحة الريحانة (عللاني بوصلها). قال المؤلف في كتابه سلافة العصر / ٣٤: هذا البيت مطلع قصيدة لمحيي الدين بن عربي، وأورد بعده ثلاثة أبيات. توفي ابن عربي سنة ٦٣٨ هـ (معجم المؤلفين ١١/ ٤٠).

(٤) رواية الديوان لعجز البيت هكذا (قد بذ بالفضل اكفاءا واقرانا).

يا ماجداً حازَ سَبْقاً في القَريضِ وفي ... نَهجِ البَلاغةِ حتى فاقَ أقْرانا

أحسنتَ لا زلتَ في أمْنٍ وفي دَعةٍ ... جزاكَ ربُّك بالاحسانِ إحسانا

وحقِّ جدِّكَ أنَّ العينَ في غَرقٍ ... والقلبَ في حُرقٍ وَجْداً لما آنا

عليكَ بالصَّبرِ يا مولايَ مُعْتصِماً ... أنَّ النَّفيسَ غَريبٌ حيثُما كانا

كذا اللّيالي عَهِدْناها مُبدِّلةً ... بالقُربِ بُعداً وبَعد الوصْلِ هِجْرانا

فلا رأيتَ مَدى الأيّام حادِثةً ... من الزَّمانِ ولا هَمًّا وأحْزانا

ومنها:

قد ضاقَ صَدري بما أبدَيْتَ من كمدٍ ... من لاعجِ البَينِ ليتَ البَينَ لا كانا

لكنَّ لي أمَلاً في الله خالِقِنا ... وحُسنُ ظنِّي مَتى نَدعُوه أوْلانا

أنْ يَجمَع الشَّملَ في تلكَ البِقاعِ وأن ... يَروي غليلَ صَدٍ ما زالَ حَرَّانا[1]

بحقِّ آبائكَ الغُرِّ الكِرام ومَن ... غَدوا الناعن جَميع النَّاسِ أعْوانا[2]

ومن شعره قوله مذيِّلاً بيت أبي زمعة[3] جدّ أمية بن أبي الصلت ومادحاً الوالد:

(اشرَبْ هنيئاً عليكَ التَّاجُ مُرتَفِقاً ... في رأسِ غُمدانَ داراً منكَ مِحْلالا)

تَسعى إليكَ بها هَيفاءُ غانِيَةٌ ... مَيّاسةُ القَدِّ كَحْلا الطَّرْف مِكْسَالا

إذا تَثَنَّت كغصنِ البانِ من تَرفٍ ... وإنْ تجلَّت كبَدْرٍ زانَ تِمثالا[4]

كأنَّها - وأدام اللهُ بهجَتَها - ... تكوَّنَتْ في مُحيَّا دَهرِنا خالا[5]

وكيفَ لا وهيَ أمْسَت فيه ساحبةً ... بخدمةِ السيِّدِ المِفْضالِ أذْيالا

---

(١) ورد عجز البيت في ك كلآتي (نرى هنالك اخوانا واخدانا).

(٢) في سلافة العصر (دون كل الناس أعوانا). ولا وجود للبيت في ك ، و أ .

(٣) القول بأنه لأبي الصلت والد أميّة اشهر، وسيرد بيان ذلك.

(٤) في ك (منعطفا) مكان (من ترف).

(٥) في ك (عصرها) مكان (دهرنا)، وورد عجز البيت في نفحة الريحانة ٤/ ٣٠ (شمس على فلك إشراقها طالا) وفي خلاصة الأثر ٣/ ٢٠٦ (ظبي رنا فسبى تيها وادلالا).

ذاكَ الذي جلَّ عن تَنْوِيه تَسْمِيةٍ شَمسٌ عَلتْ هَل تَرى للشمسِ أمْثالا

الباسِم الثغْرِ والأبطالُ عابِسَةٌ والباذِلُ المالَ لم يُتْبِعهُ أنكالا

عارٍ من العارِ كاسٍ من مَحامِدِه لا يعرفُ الخُلْفَ في الأقوالِ إن قالا

إنْ قالَ أفحم نَدبَ القَوم مِقوَلُهُ أوصالَ أخجلَ ليثَ الغابِ إن صالا[١]

علا به النَّسبُ الوضَّاحُ مَنزِلةً عن أن يماثَلَ إعظاماً وإجْلالا

خُذْها رَبيبَةَ فكرٍ طالَما حُجِبَتْ لولا عُلاكَ وودٌّ قَطُّ ما حالا

واسمَحْ بفَضْلكَ عن تقصِيرِ مُنشِئِها وحُسنُ بِشْرِكَ لم يَبرَحْ لها فالا[٢]

ثم الصَّلاةُ على أزكى الوَرى نَسَباً وآلِهِ الغُرِّ تَفصيلاً وإجمالا

قلت: ولقد رأيت هذا المادح ساحباً أذيال العزِّ والجلال بحضرة ممدوحه هذا السيِّد المفضال وقد أنزله بأعزِّ مكان، وأحلَّه محلَّ ابن ذي يزن في رأس غمدان. حتى وعده بوعد شام من وميض بارقة السعد. فلم يلبث أن استوفى ملء مكياله، وأهابت به دواعي آجاله، فوافت المسكين منيَّته قبل أن تقضى أمنيَّته. وهكذا خلق الدهر العُرام[٣]. وكم حسرات في نفوس كرام. وكانت وفاته يوم الجمعة لعشر بقين من شوال سنة تسع وستين وألف، روَّح الله روحه، ونوَّر برحمته ضريحه، وقلت أرثيه:

لنا كلَّ يومٍ رنَّةٌ وعَويلُ وخطبٌ يكلُّ الرأيُ وهو صَقيلُ

بكيتُ لو أنَّ الدَّمعَ يُرجِعُ ميِّتاً وأعولتُ لو أجْدى الحَزِينَ عَويلُ

لَحا اللهُ دَهراً لا تَزال صرُوفُه تطولُ علينا دائماً وتَغُولُ[٤]

علامَ وفِيما قد أصابَ مقاتِلي وغادَرَني هامي الدُّموع أعُولُ[٥]

---

(١) في ك (إن قال أفحم طلق القول مقوله - أو جال...).

(٢) في سلافة العصر (واصفح) مكان (واسمح) و (لم يبخس) مكان (لم يبرح).

(٣) العرام (بالضم): الشرس.

(٤) في الأصول (لم يزل متشمتا - بطول) والتصويب من الديوان. تعول: تجور.

(٥) في ك (وغادر قلبي بالدموع بسيل).

وحمَّلني خَطباً تَضاءَلْتُ دَونَه ... وما أنا قِدماً للخُطُوبِ حَمُولُ[1]

بمَوتِ كريمٍ ماجدٍ وابن ماجدٍ ... لـه الـعزُّ دارٌ والـعَـلاءُ مَـقِـيـلُ

فتىً قد عَنَتْ يومَ الهِياجِ له القَنا ... وراحَ الحسامُ العَضبِ وهو ذَليلُ[2]

بكاهُ القَنا الخَطِّيَّ علماً بأنّه ... كسِيرٌ وأنَّ المَشرفيَّ كَلِيلُ

فمَن لِلعَوالي بعدَ كفِّيهِ والنَّدى ... ومَن في صفُوفِ النَّاكثينَ يَجُولُ

ومِن بَعدَه للسَّيفِ والضيفِ والعُلى ... ومَن بَعده لِلمكرُماتِ كَفِيلُ

رَبيبُ عُلاً شحَّ الزَّمانُ بمثلِه ... وكـلُّ زمـانٍ بـالـكِرام بَـخِـيـلُ

ولما نَعى النَّاعي به ضاقَ بي الفَضا ... وراحَت دُموعي الجاحداتُ تَسِيلُ

وهيهات أن تَأتي النِّساءُ بمثلِه ... ويَخلُفَ عنه في الأنامِ بَدِيلُ

سَأبكيكَ يا عمَّارُ ما ناحَ طائرٌ ... وما نُدِبَتْ بعدَ الرَّحيلِ طُلولُ

مُصابي وإن طوَّلتُهُ عنكَ قاصِرٌ ... ودَمعي وإن أكثرْتُ فيكَ قَليلُ

سَلكتَ وأسْلكتَ الأسَى في حُشاشتي ... مَـمَـرَّ سَـبـيـلٍ ما سـواهُ سَـبِـيـلُ

لكَ اليومَ في قَلبي مكانُ مَوَدَّةٍ ... ووِدادُكَ فـيـه مـا حَـيِـيتُ نَـزِيـلُ

فإنْ هاطِلاتُ السُّحبِ شَحَّتْ بسَقْيها ... سقاكَ من الجفن القريح هطول[3]

عـلـيكَ سـلامُ الله مـنـي تـحـيَّـةً ... مَدى الدَّهرِ ما غالَ البريَّةَ غُول[4]

وبيت أبي زمعة الذي ذيّله السيد المذكور وهو من قصيدة له يمدح بها معد يكرب بن سيف بن ذي يزن[5] لما انتقذ ملك اليمن من الحبشة بالجيوش

---

(١) في ك (وحملني خطبا يؤد بيذبل).

(٢) في ك (فتى أذعنت).

(٣) في ك (فإن بخلت سحب الغمام بسقيها).

(٤) في ك (مدى الدهر ما هبت صبا وقبول).

(٥) هذه رواية مروج الذهب ٢/٨٤، أما سائر المصادر الأخرى كالطبري ٢/١٤٧ والشعر والشعراء /٣٧١ ، والعقد الفريد ٢/٢٣ إنها لأبي الصلت والد أميّة. وفي سيرة ابن هشام ١/٦٥ (وتروى لأمية بن أبي الصلت) وكلهم متفقون على كونها في =

التي بعثها معه كسرى، وجاءه الوفود من العرب تهنئه، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وخويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وأبو زمعة المذكور. فدخلوا عليه وهو في أعلى قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء، وهو مضمّخ بالعبير وسواد المسك يلوح في مفرقه، وسيفه بين يديه، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك، وأبناء المقاول[١] . فتكلّمت الخطباء ونطقت الزعماء وقد تقدّمهم عبد المطلب بن هاشم فقال:

أن الله جلّ جلاله قد أحلَّك أيّها الملك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخا، وأنبتك نباتاً حسناً طابت أرومته، وعزَّت جرثومته، وثبت أصله وبسق فرعه في أكرم معدن، وأطيب موطن فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي يخصب، وأنت أيّها الملك ذروة العرب التي إليها تنقاد، وعمودها الذي عليه[٢] العماد، ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف. فلن يخمل ذكر من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزأة. فقال له الملك: وأيّهم أنت أيّها المتكلّم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. قال: ادن، فدنا. ثم أقبل عليه وعلى الوافدين فقال لهم: مرحباً وأهلاً، وناقة ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً، يعطي عطاء جزلاً. قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم. فأنتم أهل الليل وأهل النهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم. ثم قام أبو زمعة جدّ أمية ابن أبي الصلت فأنشد[٣] :

لِيَطلب الوِترَ أمثالُ ابن ذي يَزَنٍ   ريَّمَ في البَحرِ للأعداءِ أحْوالا[٤]

أتى هِرَقْلَ وقد شالَتْ نَعامتُه   فلم يَجِدْ عندَه النَّصر الذي سالا

= مدح سيف بن ذي يزن.

(١) المقاول، جمع المقول، وهو بلغة أهل اليمن. القيل (بالفتح) وهو هنا: الرئيس الذي هو دون الملك.

(٢) في ع و ك (إليه) مكان (عليه) والمثبت من (أ) وهو موافق لرواية مروج الذهب.

(٣) في رواية الشعر اختلاف بين المصادر المذكورة، وبينها وبين المثبت هنا.

(٤) ريّم بالمكان: أقام فيه.

ثم انتهى عندَ كسْرى بعدَ تاسعةٍ　　من السِّنينَ يُهِينُ النَّفسَ والمالا

حتّى أتَى ببَني الأحرارِ يَحملُهُمْ　　تَخالُهم فوقَ مَتنِ الأرضِ أجْبالا

مَن مثل كسْرى شَهِنْشاهِ الملُوكِ له　　[أو مثلُ وهْرِزَ يومَ الجَيشِ إذْ صالا] [1]

للهِ درُّهُم من فِتيةٍ صُبُرٍ　　ما إن رَأيتَ لهم في النَّاس أمثالا

بِيضٌ مَرازيةٌ غُلبٌ جحَاجِحَةٌ　　أسْدٌ تربِّبُ في الغَيْظاتِ أشْبالا

يرمُون عن شُدُفٍ كأنَّها غُبُطٌ　　في زَمْخَرٍ يُعجِلُ المَرْميَّ إعجالا [2]

لا يَضجِرُونَ وإن كلَّت بوارقُهُم　　ولا تَرى منهمُ في الطَّعنِ مَيَّالا

أرسلتَ أُسْداً على سُودِ الكِلاب فقد　　أمْسى شريدُهمُ في الأرضِ مُلاَّلا

فاشرَبْ هَنيئاً عليكَ التاجُ مُرتَفقاً　　في راسِ غُمدانَ داراً مِنكَ مِحْلالا [3]

ثمَّ اطَّلي المِسْكَ إذ شالَتْ نعامتُهُم　　وأسْبلِ اليومَ من بُردَيْكَ إسْبالا

تلكَ المكارمُ لا قَعْبانِ من لَبَنٍ　　شِيبا بماءٍ فعَادا بعدُ أبْوالا

وواقعة ابن ذي يزن وذهابه إلى قيصر، وعوده إلى كسرى لمّا لم ينجده قيصر، وانجاد كسرى له، ومحاربته للحبشة مشهورة ومسطورة في كتب التواريخ، فمن أحبّ الوقوف عليها فليطلبها من مظانها.

وكنت كتبت إلى الوالد في يوم بُسط فيه بساط السرور، ونُشرت به مطارف الأنس والحبور واكتنفه الانبساط والهنا، وحفّ به البشر من هنا وهنا، (والدست مملوء بسنى طلعته) [4] الشريفة، والوقت مكلوء بعليا رتبته المنيفة،

---

(١) ورد عجز البيت في الأصول محرف هكذا (مثل وهذا يؤم الجيش إرسالا) والتصويب من الطبري.

(٢) الشدف (بضمتين) جمع الشدفاء: القوس العوجاء. الغبط (بضمتين) جمع الغبيط: الرحل يشد عليه الهودج، أو رحل قتبه وأحناؤه واحدة. والزمخر: النشاب. في الأصول (سدف) مكان (شدف) وفي ع (بزمخر) وفي ك (من مجرف) مكان (في زمخر) والتصويب من الطبري وابن هشام.

(٣) لا وجود لهذا البيت في (ك).

(٤) في ك (والدهماء منيرة بسنى طلعته).

وقد عمرت المغاني برنَّات الأغاني:

(اشْرَبْ هَنيئاً عليكَ مُرتفِقاً) بصوتِ شادٍ ودَعْ شاذاً وغُمدانا[1]

إنْ كانَ أَلْبسَتِ العَليا ابنَ ذي يَزَنٍ تاجاً فقد أَلْبَسَتْكَ اليومَ تِيجانا

وعلى ذلك حكى أبو نصر بن خاقان في كتابه قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عبّاد قال: أخبرني ابن اقبال [الدولة][2] ابن مجاهد: أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمة رداء ندٍ، واسكب من قطره ماء ورد، وأبدى من برقه لسان نار، وأظهر من قوس قزحه حنايا آس حفّت بنرجس وجلنار، والروض قد نفث ريّاه، وبثَّ الشكر لسقياه، فكتب إلى الطبيب الأديب [أبي][3] محمد المصري:

أيُّها الصَّاحِبُ الذي فارَقَتْ عَيْني ونَفسي منه السَّنى والسَّناءَ

نحنُ في المجلسِ الذي يَهَبُ الرَّاحةَ والمَسْمَعَ الغِنى والغِناءَ

نَتَعاطى التي تُنَسِّي من الرقَّةِ واللَّذةِ الهَوى والهَواءَ

فأتِهِ تُلفِ راحةً ومحيًّا قد أعدَّا لكَ الحَيا والحَياءَ

فوافاه والفى مجلسه قد [اتلعت][4]، أباريقه أجيادها، وأقامت فيه خيل السرور طرادها وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها، وخلعت عليه، [الشمس][5] شعاعها ونشرت فيه الحدائق أيناعها، فأديرت الراح، وتعوطيت الاقداح، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح. وأظهر المعتمد من ايناسه [ما استرقَّ][6] به النفوس جلاسه. ثم

---

(١) شاذ، تخفيف شاذياخ وهي بستان فيها قصر لعبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي، وفي ذلك إشارة إلى بيتين مدح بهما عبدالله بن طاهر سيذكرهما المؤلف بعد قليل.

(٢) زيادة من قلائد العقيان / ٤٠.

(٣) زيادة من قلائد العقيان، ونفح الطيب ٤/ ٢٨١.

(٤) في ع و ك (أبلعت) وفي أ (ألمعت) والتصويب من قلائد العقيان ونفح الطيب.

(٥) في الأصول (الشموس) والتصويب من المصدرين المذكورين.

(٦) في الأصول (ما استقر) والمثبت من المصدرين المذكورين.

دعا بكبير فشرب به كالشمس غُربت في ثبير وعندما تناولها قام المصري ينشد أبياتاً تمثلها:

اشرَبْ هَنيئاً عليكَ التاجُ مُرتَفِقاً بشاذِ مَهْرَ ودَعْ غُمدانَ لليَمَنِ

فأنتَ أوْلى بتاجِ المُلكِ تَلبَسُه من هَوْذَةَ بنِ عليٍّ وابنِ ذي يَزَنِ

فطرب حتى زحف من مجلسه، وأسرف في تأنّسه، وأمر فخلع عليه خلعة لا تصلح إلاّ للخلفاء وأدناه حتى أجلسه مجلسه الأكفاء، وأمر له بدنانير عدداً، وملأ بالمواهب له يداً. انتهى.

قلت: ووقفت في كتاب العقد لأحمد بن عبد ربه القرطبي أن البيتين الذين أنشدهما المصري لشاعر من أهل الري يقال له أبو زيد، دخل على عبدالله بن طاهر[١] صاحب خراسان، فأنشده ايّاهما، فأمر له بعشرة آلاف درهم.

ومن غريب ما يحكى عن عبدالله بن طاهر المذكور، ما ذكر أحمد بن اسرائيل السلمي قال: كنت مع طاهر بن الحسين بالرقة وأنا أحد قوّاده المختصّين به، فخرج علينا يوماً ومشينا بين يديه، وهو يتمثّل هذه الأبيات[٢]:

عَليكُم بدارِي فاهدِمُوها فإنَّها تراثُ كَريمٍ ليسَ يَخشى العَواقِبا

إذا همَّ ألقَى بينَ عَينَيْه عَزمَهُ وأعرَضَ عن ذكرِ العَواقبِ جانِبا

سأغسِلُ عنِّي العارَ بالسَّيفِ جالباً عليَّ قضاءُ اللهِ ما كانَ جالبا

قال: فدار حول الرافقة[٣] ثم رجع فجلس فنظر في قصص ورقاع، ووقّع فيها بصلات أُحصيت فكانت ألف ألف درهم. فلما فرغ نظر إليّ

---

(١) من الأمراء الأجواد كان مقدماً عند المأمون. توفي سنة ٢٣٠ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٥١).

(٢) الأبيات من قصيدة لسعد بن ناشب من بني مازن بن عمرو بن تميم شاعر إسلامي، وهي في شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٦٧ ، والعقد الفريد ٣/ ١٤ وفي روايتها وترتيبها اختلاف.

(٣) الرافقة: بلد متصل بالرقة على ضفة الفرات.

مستطعماً[1] الكلام فقلت: أصلح الله الأمير ما رأيت أنبل من هذا المجلس وأحسن، ودعوت له ثم قلت: لكنّه سرف، فقال: السرف من الشرف، فأردت أن أذكر الآية التي فيها «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا»[2] فجاءت الآية الأخرى «أنّه لا يحبّ المسرفين»[3]، فقال لي: صدق الله العظيم وما قلنا فكما قلنا. قال: ثم ضرب الدَّهر ضربانه حتى اجتمعنا مع ابنه عبدالله في ذلك القصر بعينه، فخرج علينا راكباً يتمثّل[4]:

يا أيُّها المتَمنّي أن يكونَ فتىً ... مثلَ ابنِ لَيلَى فقد خَلَّى لك السُّبُلا

انظُر ثَلاثَ خِلالٍ قَد جُمِعنَ له ... هَل سَبَّ من أحَدٍ أو سُبَّ أوْ بخلا[5]

ثم دار حول الرافقة، ثم انصرف وجلس مجلسه وحضرناه، وأحضرت رقاع وقصص فجعل يوقع فيها وأنا أحصي حتى بلغت صلاته ألفي ألف وسبعمائة ألف، ثم التفت إليَّ مستطعماً الكلام، فدعوت له وحسّنت أفعاله فقلت نعم أعزَّ الله الأمير، السرف من الشرف، وكررتها. فقال: لم كرَّرتها؟ فقلت أني كنت أسقطت[6] عند ذي اليمينين[7] وقصصت عليه القصّة فما زال يضحك ويتعجب.

رجع: ومنهم شيخ الإسلام، وعلاّمة العلماء والأعلام، مالك زمام الفضائل، مرجع سائر الأفاضل، ذو الخصال التي تميَّز بها عن الأعيان والخلال التي عزت عن أن تعزّز بثان، رافع رايات الشريعة الشريفة، وحافظ آيات الذريعة المنيفة، من تطابقت على فضله الألفاظ والمعاني، وبلغت به

(١) استطعمه الحديث: سأله أن يحدثه.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ١٤١ من سورة الانعام، والآية ٣١ من سورة الأعراف. في الأصول (أن الله لا يحب المسرفين) وهو من أوهام النسخ.

(٤) الشعر لمحمد بن بشير بن بشير من بني خارجة (ترجمته في الأغاني ٦١/١٦).

(٥) في الأغاني (أعدد ثلاث خصال قد عرفن له).

(٦) أسقطت: أخطأت. في أساس البلاغة أسقط في كتابه وحسابه: أخطأ.

(٧) ذو اليمينين: طاهر بن الحسين الخزاعي، توفي سنة ٢٠٧ هـ (الأعلام ٣٤٨/٣).

العلوم منتهى الآمال وغايات الأماني: شيخنا ومولانا جعفر بن كمال الدين بن محمد بن سعيد بن ناصر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن سليمان بن عيسى البحراني:

هو طودُ علمٍ لا يُبارى رِفعَةً ... ومحيطُ فَضلٍ لا يَزالُ مَدِيدا[1]

عَلَمٌ إذا جارَتْ صَوائبُ غَيرِه ... أبْدى لنا رأياً لَدَيْه سَدِيدا

أحيا رِباعَ المكرُماتِ بِفَضْلِه ... مِن بعدِ أن كانَت مَهامِهَ بِيدا

وإليه ألقَى الفَضلُ صَعبَ زِمامِه ... ودَنا له طَوْعاً وكانَ بَعِيدا

كم حُجَّةٍ في الخَلقِ شاد عِمادَها ... كَرْهاً وأرْضى العَدْلَ والتَّوحِيدا

لا زالت كواكب هدايته تعمُّ بضيائها الوجود وفرائد فوائده تخجل بنظامها جواهر العقود. ولعمري أنّه الإمام الذي كشف قناع الفضائل وأوضح لها سبيلا، والهمام الذي ارتشف من كؤوس المكارم كأساً مزاجها زنجبيلا.

قدم علينا الهند في سنة تسع وستين فعلقت منه يداي بالحبل المتين وقد أودعت من أنفاسه رحلتي ما أعده من نفائس نحلتي.

فمن ذلك ما كتبه لي بخطّه الشريف في بعض تذاكري، وقال لي لسان قلمه: كن شاكري:

وقائلةٍ سَمِعنا أنَّ بَكراً ... له فضلٌ على عَمْرٍ و زَيدِ

فقلتُ لَها سَماعُكِ ليس شَيْئاً ... وهذا مثلُ تَسمَعُ بالمُعَيْدي

ولا يخفى أنّ هذا التعريض عِقد للبّة القريض، وصريح عند أرباب البلاغة أنّه أعلى من التصريح. ثم هذا التلميح هو ما أجمع عليه أرباب البديع أنه المليح. ومن نفائس حكمه قوله:

إن تُرِدْ إيلادَ مَن زُوِّجْتَه ... فاتَّخذْ-وُفِّقْتَ-زَوجاً صالحا[2]

---

(١) جاء في حاشية ع بقلم الناسخ ما نصه (الأبيات للمؤلف) ولا وجود لهذه الإشارة في (ك) و (أ).

(٢) في ك (أن ترد من زوجة إيلادها).

إنَّ ماءَ المُزنِ عذبٌ طعمُهُ   فإذا أسْبَخَ أضحَى مالِحا

ومن بدائع معانيه التي أعيت على المعنيّ بالأدب ومُعانيه قوله في تعزّ: قرية من أعمال اليمن، وكان قد اجتمع بواليها السيد يحيى بن محمد بن القاسم الزيدي، فأحله بناديه، وأوجب عليه شكر أياديه:

تَعِزٌّ دارٌ تناهَتْ في مَحاسِنِها   فليسَ يُوجَدُ في الدُّنيا مُضارِعُها

وحيثُ كانَ الفَتى يَحيى العزيز بها   عَزَّت فصارتَ على الماضي مُضارِعُها[1]

وكان قد عرض عليّ نسخة من اللّباب فأعدتها عليه وكتبت إليه:

يا أيُّها المَولى الذي   أضْحى بمَجْدٍ مُستَطابِ

ما كانَ ردِّي لِلكتابِ   وحقِّ فَضلِكَ والكتابِ

إلاّ لِعلمِكَ أنّه   قِشرٌ وسُمِّيَ باللُّبابِ

فاصفَحْ بفَضْلكَ عن فتىً   قد ضَلَّ في لَيلِ الشَّبابِ

والشَّيخُ أوْلى من عَفا   عَن ذَنبِ غرٍّ في التَّصابي[2]

فأجاب وأجاد:

يا ماجِداً في شِعْرِهِ   قد جاءَ بالعَجبِ العُجابِ

أنّى لِمثلي يَستَطيعُ   لِمِثْلِكم ردَّ الجَوابِ

إذ أنتُمُ بيتُ العُلى   بَل أنتمُ لُبُّ اللُّبابِ

وكلامُكُم خيرُ الكَلامِ   وعندَكم عِلمُ الكِتابِ

تَبْني كما تَبْني كُهولُكُمُ   أماجِيدُ الشَّبابِ

لكن تَفضُّلُكُم عَلى أذلَّ   شـ ـاردَةَ الـ صّـ ـعـ ـابِ

كم نِعْمةٍ لكُمُ وكَمْ   مِن مِنَّةٍ مَلأَتْ وِطابي

أنا عاجِزٌ عَن شُكرِها   حتَّى اوسَّدَ في التُّرابِ

---

(١) سقط هذا البيت من (ك).

(٢) سقط هذا البيت من (ع).

وأنا المِوَدُّ عَلى الحَقِيقَةِ　　أيْنما اتَّجهَتْ رِكابي[1]

يَحلُو لديَّ عَلى الهَوى　　فِيكُم تجرُّعُ كلِّ صابِ

وإذا رأيتُمْ لي صَلاحاً　　فهوَ لي عينُ الصَّوابِ

هذا وإنْ رَغَمَتْ بِه　　آنافُ أقوامٍ غِضابِ

دِيني الذي مِنه افتِخارِي　　في الوَرى وله انْتِسابي

وإليكُمُ من مُخلِصٍ　　أزْكى دعاءٍ مُستَجابِ

ومن فوائده: هذه المسائل السنيّة. قال: سئلت عن المسائل التي نظمها اليافعي[2] محاجياً فأجبت عنها على تشعّب فنونها، وهي:

إلى أهلِ فقهٍ والفَرائضِ والأدبْ　　سُؤالَ فَقيرٍ مُذنبٍ يافِعي النَّسَبْ

فأيُّ مُباحِ الفِعْل مَضمُون فاعلٍ　　ومَحظُورُ فعلٍ ليسَ يضمنُ بالعَطَبْ

وأيُّ مُعارٍ ليسَ يُغرَمُ هالِكاً　　وعاريَةٍ ليسَتْ تُرَدُّ لَدى الطَّلَبْ

ومُستَعمَلٍ في غيرِ فَرضٍ وحِكمَةٍ　　طَهُورِيَّةَ الماءِ الطَّهورُ لها سلَبْ[3]

ولِلأمِّ ربعُ المالِ في أيِّ صُورَةٍ　　ولا عَولَ والباقي لزوجٍ وخابَ أب[4]

ومَنصوبِ اعرابٍ تراهُ معَوَّضاً　　برفعٍ ومَرفُوعٍ تراهُ قد انتَصَبْ

ومَنصوبُه حاكى لمجرُورٍ عكسِهِ　　فهل من مُجيبٍ للجوابِ قد انتَدَبْ

يُجِبْ بجوابٍ صائبٍ في جَميعِها　　ومَجموعُها عَشرٌ بإحصاءِ من حسَبْ

مُحاجاتُها من قبلِ هذا نَظمتُها　　برَوضِ علومٍ من رآها رَأى العَجَبْ

يغرِّدُ في الأفنانِ زاهي فنُونِها　　ويُطربُ قُمرِيها لمن لا لَه طَرَب[5]

---

(١) المود (بكسر الميم وفتح الواو، وتشديد الدال): الكثير الحب. في ك (وأنا المحب).

(٢) هو عفيف الدين عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (معجم المؤلفين ٦/ ٣٤).

(٣) في ك، و أ (إذا استلب) مكان (إذا سلب).

(٤) في ك (لزوج له حدب).

(٥) في ك (ويطرب قمري الهناء لمن طرب).

إذا في بِحارٍ خاضَ لُجيَّ بَحرِها لِبيضِ المعاني ذُو ارتياحٍ لها خَطَبْ

فطالعْ لها إنْ كنتَ أهلَ فُنونِها لتعرفَ ما قَولي إلى وَصْفِها نَسَبْ

الجواب:

أما جواب الأولى: فالأكل من مال في المخمصة قهراً.

وأما جواب الثانية: فقتل المشرك المستأمن في دار السلام عمداً.

وأما جواب الثالثة: فالبالي بالاستعمال المأذون، حتى خرج من المالية بحيث يعدّ تالفاً، أو هالكاً، وعارية السفينة.

وأما جواب الرابعة: فالعارية الواجبة، كاستعارة الحبل ليتعلّق الغريق به قبل حصول الغرض منها، أو العارية الفاسدة، كعارية الصغير والمستعير:

وأما جواب الخامسة: فوضوء الصبي.

وأما جواب السادسة: فالمكاتبة إذا ماتت وقد أدّت نصف مكاتبتها، وتركت مالاً ولها زوج، وأمّ، وأب ممنوع من الارث بإحدى الأسباب، وليس لها ولد.

وأما جواب السابعة: فهو من وجوه: منها: (ما جاء على بعض اللغات في رفع الفاعل والمفعول معاً، ومنها)[1] ما جاء على نصب الفاعل ورفع المفعول عند ظهور المعنى، في مثل قولهم: خرق الثوبُ المسمارَ، برفع الثوب ونصب المسمار، وقول الشاعر:

مثلُ القَنافذِ هَدَّاجُونَ قد بلغَتْ نجرانُ أو بَلَغَتْ سَوآتِهم هَجَرُ[2]

بنصب السوآت ورفع هجر، ومنها: مفعول أفعال القلوب إذا دخله الالغاء.

وأما جواب الثامنة: فإمّا على اللغة الأخرى في نصب الفاعل والمفعول نحو قول الشاعر:

---

(١) الذي بين القوسين غير موجود في ك.

(٢) البيت في مغني اللبيب، الشاهد (٩٦٨).

قد سالَم الحيَّاتِ منها القَدَما الافْعُوانَ والشجاعَ الشَجْعَما[1]

وأما على المثال الثاني في المسألة السابعة.

وأما جواب التاسعة: ففي جمع المؤنث السالم نحو: هندات، ومسلمات.

وأما جواب العاشرة: ففي جميع أقسام غير المنصرف. والحمد لله وحده. انتهى بنصه ومن خطه نقلت)[2].

ومما أنشدني لغيره قول الشيخ عبد علي بن ناصر الحويزي[3] من مرثيه له في السيد مبارك[4]:

سَفَهٌ تَوهُّمُ ما أرَقنَ من الظُّبى أيدي القُيُونِ من الأشعَّةِ جَوهرا

هذا عمودُ الماءِ طَلْقاً جارياً وافاهُ ما صَدَعَ العُلى فتكسَّرا

وقد نظم هذا المعنى الوالد دام مجده فقال:

لا تَحسبَنْ سيفَ الشَّريف المُنْتضى بَدرِ العُلى المسعُود أسْعد من مَضى

هذا اللُّعابُ به جَلاءٌ من ذَكا قَينٍ أجادَ به المضاربَ وارْتَضى

لكنْ لأمرٍ هائلٍ شَنِعٍ جَرى جُرتِ المياهُ تكسُّراً فهو الأضا

ونظمه شيخنا المذكور فقال:

لا تَظننَّ جوهَرَ السَّيفِ فيه مِن جَلاً جادَه القُيونُ صِقالا

بل لأمرٍ من الأمورِ مَهولٍ صادفَ الماءَ فاستحالَ نِمالا

ونظمته أنا فقلت:

لا تحسَبَنَّ فِرِنْدَ صارِمِهِ به وَشْياً أجادَتْهُ القيُونُ وجَوهَرا

---

(١) وهذا البيت أيضاً في المغني الشاهد (٩٦٩) وفيه (منه) مكان (منها).

(٢) الذي بين القوسين غير موجود في (ك).

(٣) كان الشيخ عبد علي الحويزي حيا سنة ١٠٦٣ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٧٥).

(٤) هو مبارك بن السيد عبد المطلب المشعشعي أمير الحويزة. توفي سنة ١٠٢٥ هـ. (تاريخ المشعشعيين / ٩٩ وما بعدها).

بل ذاكَ غَيْلُ الماءِ أزعَجَه الذي   كسَر النَّدى فجَرى به مُتكسِّرا

ثم انتقلت إلى معنى آخر في ظني أني لم أسبق إليه فقلت مادحاً:

لا تحسَبَنَّ فِرِندَ صارمِهِ به   وَشْياً أجادَتْه القُيونُ فأبْهَرا

هذا نَدى يُمناهُ سالِ بمَتْنِه   فغَدا يلوحُ بصَفْحَتَيْهِ جَوهَرا

وأنشدني للسيد الجليل ناصر بن سليمان القاروني[1]:

أيا مَن يُغالي في القَريبِ ويَشتَري   قرابةَ إنسانٍ بألفِ أباعِدِ

تعالَ فإنِّي - ليتَني لا قَريبَ لي -   أبيعُكَ منهم كلَّ ألفٍ بواحدِ

وأنشدني للسيد العلامة ماجد بن هاشم البحراني(*) قدَّس الله سرّه الشريف في قارئ حسن الصوت:

وتالٍ لآيِ الذكرِ قد وَقَفَتْ بنا   تلاوتُه بين الضَّلالَةِ والرُّشدِ

بلَفظٍ يَسوقُ المتَّقينَ إلى الخَنا   ومعنىً يقودُ الفاسِقينَ إلى الزُّهدِ[2]

وأنشدني له أيضاً، قال: وهو مما قاله بديهة، وذلك أنّه كان يؤمّ ويخطب بشيراز فكان ينشيء لكل جمعة خطبة، فنسي ذات جمعة الخطبة التي أنشأها فارتجل خطبة وختمها بهذه الأبيات:

ناشدتُكَ اللهَ إلاَّ ما نظرتَ إلى   صَنيعِ ما ابتَدأ الباري وما ابتَدَعا

تَجِدْ صَفيحَ سماءٍ من زُمُرَّدَةٍ   خضراءَ فيها فَريدُ الدُّرِ قَد رُصِعا

تَرى الدَّراري يُدانينَ الجنوحَ فَما   يَجِدنَ غِبَّ السُّرى عَيًّا ولا ضَلَعا

والأرضَ طاشَتْ ولم تسكُن فوَقَّرَها   بالراسياتِ التي من فَوقِها وَضَعا

فقرَّ طائشُها من بعدما امتَنَعا   وانحطَّ شامخُها من بعدما ارتَفَعا[3]

---

(١) ترجم المؤلف في كتابه سلافة العصر / ٥١٤ للسيد ناصر القاروني البحراني، ولم أقف على تاريخ وفاته.

(٢) في أنوار البدرين / ٩٠ ونفحة الريحانة ٣/٢٠٢ (ومعنى يشوق العاشقين إلى الزهد) وفي سلافة العصر (هند) مكان (الزهد).

(٣) في أنوار البدرين (ساحتها) مكان (طائشها).

وأرسلَ الغادياتِ المُعْصِرات لها ... فقهقهَتْ ملءَ فيها واكتَسَت خِلَعا[1]

هذا ونفسُكَ لو أمَّ الخَبيرُ لها ... لارتَدَّ عنها كَليلَ الطَّرفِ وارتَدَعا

وليس في العالمَ العُلْوِيِّ من أثرٍ ... يُحيِّرُ اللُّبَّ إلاَّ فيكَ قَد جُمِعا

وهذه الأبيات طبقة عالية لو كانت عن رويّة لكانت غاية، فكيف وهي عن بديهة وارتجال. ومما أنشدني قوله أيضاً وهو معنى بديع:

مِن شَيبِ رأسي بكتْ عَيني ولا عجَبٌ ... تَجري العُيونُ لوَقْعِ الثَّلجِ في القُلَلِ

وقوله (رحمه الله في الجناس)[2]:

وأحْوى أطار القَلبَ منّي وما انْطَوى ... عليه جَناحا مَضْرَحيٍّ ولا نَسْرِ

عَقَقْنا العُلى إنْ سامَنا دَلَجَ السُّرى ... إليه إلى أحْقافِ قافٍ ولا نَسْري

وقوله فيه أيضاً:

يعزُّ جَنابُ الظَّبيِ إنْ قِسْتَهُ به ... وما هوَ منه في سُكونٍ ولا نَفْرِ

فرَتْنا ظُبى الأعداءِ إنْ قالَ قائلٌ ... فُرُوا كلَّ جيبٍ في هَواهُ ولا نَفْري

وقوله فيه:

وذي هَيَفٍ ما الوَرْدُ يوماً ببالغٍ ... مَدى وَجْنَتيهِ في احمرارٍ ولا نَشْرِ

بَرِئنا من الاسلامِ إنْ سِيمَ وَصلُهُ ... عَلينا بما فَوقَ النُّفوسِ ولا نَشْري[3]

وقلت أنا في هذه المادة:

وأهيفَ قَد قَدَّ القُلوبَ بقَدِّهِ ... وما هو عَن حَدَّيْ سِنانٍ ولا نَصْلِ

صَلَتنا لَظَى الهَيْجاءِ إن سامَنا هوى ... على حُبِّهِ صَلْيَ النُّفوسِ ولا نَصْلي

وقلت أيضاً:

ومُزرٍ بِضَوْءِ الشَّمسِ لم تَرَ وَجْهَهُ ... ولا ما ثَلَتهُ في علوٍّ ولا نُبْلِ[4]

---

(١) في سلافة العصر / ٤٩٣ (فقهقهت ملأ ثم اكتست خلعا).

(٢) الذي بين القوسين غير موجود في ك.

(٣) كذا في الأصول، والذي في سلافة العصر (برئنا من العلياء).

(٤) في ك (قابلته) مكان (ماثلته).

بَلينا جَوىً إنْ رامَ منّا تـدَلُّلاً   بلاءَ نُفوسٍ في هَواهُ ولا نُبْلي

وذكرت بقول السيد قدس سرّه (برئنا من الاسلام) حكاية لطيفة ذكرها الصلاح الصفدي في شرح الرسالة[1] قال: كان القاضي الخليجي عبدالله بن محمد[2] ابن أخت علّويه المغني تيّاهاً صلفاً، تقلّد القضاء للأمين، وكان علّويه عدوًّا له، فجرت له قضية في بغداد فاستعفى من القضاء، وسأل أن يتولّى بعض الكور البعيدة، فولي قضاء دمشق، أو حمص. ولما تولى المأمون الخلافة غناه يوماً علّويه بشعر الخليجي وهو:

بَرِئتُ من الاسلام إنْ كانَ ذا الذي   أتاكِ به الواشُونَ عنِّي كما قالُوا

ولـكـنَّـهـم لـمَّـا رأوكِ غَـرِيَّـةً   بِهَجري تواصَوْا بالنَّميمَةِ واحتالوا

فقد صِرتِ أذناً للوشاةِ سَميعةً   يَنالونَ من عِرضي ولو شئتِ ما نالُوا

فقال له المأمون من يقول هذا الشعر؟ قال: قاضي دمشق، فأمر المأمون بإحضاره، فأشخص وجلس المأمون للشرب، وأحضر علّويه، ودعا بالقاضي فقال له: أنشدني الأبيات، فقال يا أمير المؤمنين هذه ابيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبيّ. والذي أكرمك بالخلافة وورّثك ميراث النبوّة ما قلت شعراً منذ أكثر من عشرين سنة إلاّ في زهد أو عتاب صديق. فقال له: اجلس، فجلس، فناوله قدح نبيذ كان في يده، فأرعد وبكى وأخذ القدح من يده وقال: والله يا أمير المؤمنين ما غيّرت الماء بشيء قط ممّا يختلف في تحليله، فقال: لعلك تريد نبيذ التمر، أو الزبيب فقال: والله يا أمير المؤمنين لا أعرف شيئاً من ذلك. فأخذ المأمون القدح من يده وقال: أما والله لو شربت شيئاً من هذا لضربت عنقك، ولقد ظننت أنّك صادق في قولك كلّه، ولكن لا يتولى لي القضاء رجل بدأ في قوله بالبراءة من الاسلام، انصرف إلى منزلك، وأمر علّويه فغيّر هذه الكلمة وجعل مكانها (حرمت مكاني منك).

---

(١) يريد رسالة ابن زيدون.

(٢) ذكره صاحب الأغاني ٣١٨/١١ وسماه محمد بن عبدالله الخلنجي، وأورد الحكاية التي سيرويها المؤلف عن الصفدي.

قال الصفدي: ما جرى للمأمون عفا الله عنه مع هذا القاضي المسكين على خلاف المعهود من حلمه ومكارم أخلاقه، وكان غير هذا الفعل أولى به وبرئاسته، ولكن صان منصب القضاء ووقّره وأجلّه فعفا الله عنه. وأما القاضي الخليجي فقد اختلج في خاطره من الوشاة ما أضرَّ به عند محبوبته وعند الخليفة، وهذا من كهانة الشعر ومما يتّفق وقوعه للشاعر بعد مدَّة مديدة. وأما علّويه فأعلَّه الله ولا أعلى له كعباً، فقد أضرّ بحاله وعطّله من حلي القضاء. انتهى[1].

قلت: (وظني أن السيد رحمه الله لو وقف على هذه الواقعة لم يفه بما قاله احتياطاً، ولقد كان رحمه الله قاضياً فلا يأمن أن يرميه الدهر بمثلها)[2].

(وكانت وفاة السيد المذكور سنة ثمان وعشرين وألف بشيراز، وكان أوحد أهل زمانه وأفضلهم على الاطلاق رحمه الله تعالى)[3].

ومنهم الشيخ الكبير المستفز دون وقار فضله يلملم وثبير، الجامع بين علمي الأديان والأبدان، والمحرز من فنون العلم ما عزَّ ودان، محيي مآثر الطبابة على نسق السلف الأول، ومذكي شهاب سمائها الخامد بما فسرّ منها

---

(١) ورد في ك بعد كلمة (انتهى) التعليق الآتي، وأظنه زيادة من الناسخ:
(أقول: ولم لم يصن هو منصب الخلافة ومقام الإمارة، ويوقر خلافة المسلمين وإمارة المؤمنين وهما هما:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها — فإذا انتهت عنها فأنت حكيم
فهناك تسمع ما تقول ويشتفى — بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله — عار عليك إذا فعلت عظيم

(٢) وردت هذه الجملة في ك هكذا (وأقول أن السيد رحمه الله لعله مكذوب عليه، ولقد كان قاضيا في عصره أيضاً فكيف يأمن أن يرمى بمثلها لو اطلع عليها. وبعد فالظن فيه أنه كان اتقى الله، واعرف بحرمة الإسلام من أن يقول مثل هذا وقد علم حال البراءة.

(٣) في ك (وكان أوحد أهل زمانه علماً وأفضلهم على الإطلاق. توفي سنة ثمان وعشرين وألف بشيراز).

وأوّل، ذو الخطر السامي حسين بن شهاب الدين الشامي هو مع ما تحلّى به من الطبابة، له في مراتب العلم أعظم بابه، فقد طوى أديمه من الفضل على أغزر ديمه، وأمّا الأدب فقد نسل إليه من كلّ حدب، ومتى انفهقت لهاته بالشعر أرخص من عقود اللآلي كلّ غالي السعر. هذا إلى خلق في المجون تستنير به اللّيالي الجون، جاعلاً ذلك له شيمة، يستلّ لها من القلوب كلّ سخيمة.

قدم علينا الهند سنة أربع وسبعين[١] فورد منهل أمله العذب المعين، وكان الوالد كثيراً[٢] ما يشتاق إلى لقيانه، لتحلي فرائده وعقيانه، ولما بلغ خبر وصوله قلت لشوقه إليه وثنائه عليه:

جاءَ البَشيرُ مُبشِّراً ... فأقرَّ من بَشراهُ عَيني

وافى يقولُ أتى الحُسَيْنُ ... فقلتُ أهلاً بالحُسَينِ

أهوَ الّذي حازَ المكارِمَ ... والعُلى مِلءَ اليَدَيْنِ

قالوا نَعمْ هُو ذاكَ من ... فاقَ الوَرى من غير مَيْنِ[٣]

وقد أثبت له ما يستحلى جناه، وتستجلى حسناه، فمن ذلك قوله وهو من غرر القصائد التي امتدح بها الوالد[٤]:

تبدَّتْ لنا والبَدرُ للغَرب جانحُ ... وكأسُ الكَرى في راحَةِ الطَّرف طافحُ

بحيثُ السُّها ترنُو بعينٍ كليلَةٍ ... وإنسانُها في لجَّة الجوِّ سابحُ

وحيث النجومُ الزاهراتُ كأنَّما ... توقَّدُ منها في الظَّلام مَصابحُ

كأنَّ على الآفاقِ روضَ بنَفْسَج ... وهُنَّ الظباءُ العِيسُ فيها سَوانحُ

---

(١) وتوفي سنة ١٠٧٦ هـ ترجمته في أنوار الربيع ١/٥١.

(٢) ابتداء من هذا القوس إلى انتهاء الجملة التي ستختم بقوس آخر - وهي تشتمل على ثلاث قصائد - سقط من (ع) وسأشير إلى نهاية ذلك في موضعه.

(٣) في أ (هو ذاك بل فاق الورى).

(٤) القصيدة في سلافة العصر / ٣٥٤.

فلمَّا تجلَّى نورُها نَسخَ الدُّجى فلا أعزلٌ إلاَّ غَدا وهو رامِحُ
لِكَ اللهُ شَمساً يكسِفُ الشمسَ نُورها وبَدراً لنُور البَدرِ في اليَمّ فاضِحُ
كأنّ نجُومَ اللَّيلِ وُرْقُ حَمائمٍ وفي كلِّ جزءٍ من محيَّاكِ جارِحُ
خَليليَّ عُوجابي على أيْمنِ الحِمى لعلَّ سَماحاً بالوِصالِ تُسامِحُ
سَواءٌ عليَّ الموتُ أم شَطَّتِ النَّوى بِسمحاءَ أمْ حَزَّ الوَريدَيْن ذابحُ
تَجنَّبتُها لا عَن مَلالٍ ولا قِلىً ولكنْ مُصابٌ يَصدَعُ القلبَ فادِحُ
مصابٌ إذا أخفيتُهُ متُّ لوعَةً ووَجْداً وإن أبدَيتُه فهو فاضِحُ
وإن رُمتُ أسْلُو حبَّها حالَ دونَه رسيسُ جَوىً ضُمَّتْ عليه الجَوانِحُ
قَضى اللهُ يا سمحاءُ بالبَينِ بَينَنا ألا كلُّ ما يَقضي به اللهُ صالحُ
حنانَيْكِ أنتِ البُرءُ والداءُ إنَّما يَفوزُ ويشقَى فيكِ دانٍ ونازحُ
لقد فتكَتْ بي غارَةٌ منكِ شَنَّها عَلى القَلبِ غادٍ في هَواكِ ورائحُ
فلا نَفعَ إنْ شَطَّتْ بكِ الدارُ أو دَنَتْ وسِيَّانِ عِندي فيكِ لاحٍ وناصِحُ
سَقى اللهُ هاتِيكَ المعاهدَ عارِضاً من المُزنِ تُمْرِيه الرِّياحُ اللَّواقحُ
ليَغدُو بها نَشرُ الخُزامى كأنَّما يخالِطُهُ من نَشْرِ دارينَ نافِحُ
كأنّ خُدودَ الوَرْدِ والطَّلُّ فوقَها خُدودُ الغَواني فوقَها الدَّمع ناضِحُ
كأنَّ ابتسامَ الرَّوضِ والجوُّ عابِسٌ محيَّا نِظامِ الدِّينِ والدَّهرُ كالِحُ
هُمامٌ إذا يَمَّمْتَ أعتابَ مَجدِهِ نأتْ عنكَ أحداثُ الزَّمانِ الفوادِحِ (1)
يَزيدُ عَلى اللأواءِ حِرْصاً على النَّدى كما أرْهَفَ السَّيفَ اليَمانيَّ ماسِحُ
مُقيمٌ بظلِّ المجد حيثُ تَوطَّدَتْ أواخِيهِ مَهما يَبرح المجدَ بارِحُ
إذا أظْلمَتْ شهبُ الكَمالِ أنارَها وإن خَمدَتْ زَندُ العُلى فهو قادِحُ
وإنْ ضَنَّتِ الأنواءُ جادَت يمينُهُ وإنْ مَنعتْ أهلُ النَّدى فهو مانِحُ
أحاتِمٌ أمْ كعبُ بنُ مامةَ مثلُهُ أبى اللهُ أنَّ الفَرقَ كالصُّبحِ واضِحُ

(1) في سلافة العصر / ٣٥٥ (تحامتك أخطار الزمان الفوادح).

وكلُّ امرئٍ رامَ الغِنى دون بابِه   فقَد حُجِبَتْ عنه المُنَى والمنائحُ

أقائسَهُ بالبَحْر لا يَنْبغي لَه   وهَل يَسْتَوي عذبٌ فُراتٌ ومالحُ

وتَزعمُ أنَّ الغَيثَ مثلُ يَمينِهِ   وهيهاتَ رَشَّاحُ القَطار وطافحُ

هُو البَدرُ بدرُ التمِّ لولا مِحاقُهُ   هو الشمسُ لا بَلْ منه فيها مَلامحُ

إلى مِثلهِ عَمداً وفي ظلِّ مثلِه   تُحَثُّ المَهارى أو تُراحُ الرَّوازِحُ

هُو ابنُ رَسولِ الله وابنُ وصيِّهِ   فماذا عَسى أنْ يَبلُغَ القَولَ مادِحُ

فيا مُستَفيد المالِ كيما يُفيدُهُ   إذا غُلَّ في الأزْمِ الأكفِّ الشَّحائح[1]

سأكسُوكَ من مكنونِ نَظمي [وشائعاً]   تُناطُ بجيدِ الدَّهرِ منها وشائح[2]

تَدومُ دَوامَ الفَرقَدينِ على المَدى   إذا لَحِقَتْ بالمادِحِينَ المَدائحُ

وقال يمدحه أيضاً[3]:

لَكَ الخيرُ لا زيدٌ يدومُ ولا عمرُو   ولا ماءُ يَبقى في الدِّنانِ ولا خَمرُ

فبادِرْ إلى اللَّذاتِ غير مُراقِبٍ   فما لَك إنْ قَصَّرتَ عن نَيْلها عُذرُ

فإن قيلَ في الشَّيب الوَقارُ لأهلِه   فذاكَ كلامٌ عنه في مَسمَعي وَقْرُ

وقالُوا نَذيرُ الشَّيب جاءَ كما تَرى   فقلتُ لهم هيهاتَ أن تُغْني النُّذْرُ

لئن كانَ رأسي غيَّر الشَّيبُ لونَه   فرِقَّةُ طَبعي لا يُغيِّرُها الدَّهرُ

يَقولونَ دَعْ عنكَ الغَواني فإنَّما   قُصاراكَ لحظُ العَينِ والنَّظر الشَّزْرُ

وهَل فيكَ لِلغيد الحِسانِ بَقيَّةٌ   وقَد ظَهر المكنُونُ وارتفعَ السِّترُ

وما لِلغَواني وابنِ سَبعينَ حِجَّةً   وحلمُ الهَوى جهلٌ ومَعروفُهُ نكْرُ

---

(١) الأزم (بسكون الزاي) جمع الأزمة: الشدة والقحط.

(٢) في الأصلين (مثانحا) مكان (وشائعا) والمثبت من سلافة العصر، ولعله (وشائحا)، الوشائح جمع الوشاح، وهو شبه قلادة تنسج من أديم عريض يرصع بالجواهر.

(٣) القصيدة من سلافة العصر / ٣٥١ وخلاصة الاثر ٢/ ٩٣ ونفحة الريحانة ٢/ ٣٨٦ وفي بعض أبياتها اختلاف في الرواية مع تفاوت في عدد أبياتها.

فقلتُ دَعُوني فالهَوى ذلك الهَوى ... وما العُمر إلاّ اليومُ والعامُ والشَّهرُ

نَشأتُ أحبُّ الغيدَ طِفلاً ويافِعاً ... وكَهلاً ولو أوْفى على المائة العُمرُ

وهنَّ وإنْ أعرضنَ عنِّي حبائِبٌ ... لهنَّ عليَّ الحكمُ والنَّهيُ والأمْرُ

أحاشِيكَ بي منهنَّ من لَو تعرَّضَتْ ... لنَوءِ الثريَّا لاسْتَهلَّ لها القَطرُ

تَرقرقَ [ماءُ] الحُسنِ في نارِ خدِّها ... فماءٌ ولا ماءٌ وجَمرٌ ولا جَمرُ(١)

فيا بُعدَ ما بينَ الحِسانِ وبَيْنَها ... لهنَّ جَميعاً شَطْرُهُ ولها الشَّطرُ

بَرَهْرَهَةٌ صِفرُ الوِشاحِ إذا مَشَتْ ... تَجاذَبَ منها الرِّدفُ والعِطْفُ والخِصْرُ(٢)

من البِيضِ لم تَغمِسْ يَداً في لَطِيمَةٍ ... وقد مَلأَ الآفاقَ من طِيبها نَشْرُ

تخرُّ لها زُهرُ الكواكبِ سُجَّداً ... وتَعنُو لها الشَّمسُ المنيرةُ والبَدْرُ

تَخالُ بجَفْنَيها من النَّومِ لُوثَةً ... وتَحسَبُها سَكرى وليسَ بها سُكرُ(٣)

وقالُوا إلى هارُوتَ يُنسَب سحرُها ... أبى اللهُ بَلْ من لَحْظِها يُؤخذ السِّحرُ

تَخالفَ حالي في الغَرام وحالُها ... لها مَحضُ ودِّي في الهَوى ولي الهَجرُ

فيا ويحَ قلبي كم يُقاسي من الهَوى ... ويا وَيْلَه كم لا يُنَهْنِهُهُ الزَّجرُ

على أنّني لا جازع إن تباعدت ... بها الدار أو عزّ التجلُّد والصبرُ

فمَدحُ نِظام الدِّين دامَتْ سُعُودُه ... هو القَصدُ لا بيضُ الكواعبِ والسُّمرُ

شريفٌ له في كلِّ قلبٍ مَدينةٌ ... عزيزٌ له في كلِّ جارحَةٍ مِصرُ

من النَّفر البِيض الأُلى شَهِدَتْ لهُم ... صُدورُ العَوالي والمهنَّدةُ البُتْرُ

إذا عُدَّ أهلُ الفَضْلِ كانَ أمامُهم ... وإنْ عُدَّ أهلُ البَذلِ كانَ له الفَخْرُ

نَهوضٌ بأعباءِ المكارمِ كلِّها ... فإنْ ضاقَ صَدرٌ منهم رَحُب الصَّدرُ

له تِسعَةُ الأعْشارِ من رُتَب العُلى ... وللنَّاسِ منها ما بَقِي وهو العَشْرُ

---

(١) في الأصلين (نار الحسن) والتصويب من المصادر المذكورة.

(٢) البرهرهة: المرأة البيضاء الشابة والناعمة.

(٣) اللوثة (بضم اللام): الاسترخاء والبطء.

تجِلُّ عن الدُّنيا – وإنْ جَلَّ قدرُها – يَمينُ ابنِ مَعصُومٍ ونائلُه الغَمْرُ
وما بِي إلى نَوءِ السِّماكَينِ حاجَةٌ وقد لامَسَتْ كفِّي أنامِلَه العَشْرُ
فلا وعدُهُ خُلفٌ ولا البَرق خُلَّبٌ ولا جُودُهُ مَطْلٌ ولا سَيبُه نَزْرُ
عَلِقتُ إليه البَحرَ لا أرهَبُ الرَّدى فصادَفتُ بَحراً لا يُقاسُ به بَحرُ
وأدركت من نعماه ما دونه الغنى فدامت لي النُّعمى ودام له الشكرُ
لئن ملتُ يَوماً عن هَواهُ لغَيره فلا كانَتِ الدُّنيا ولا وَفَر الوَفْرُ
فكفرانُ ما أسْدى إليَّ من النَّدى هو الكفرُ لا بَلْ دُونَه عندي الكُفرُ
إذا أنكَر الحُسَّادُ سابقَ فَضْلِه أقَرَّ له الركنُ اليَمانيُّ والحِجْرُ
وما قلتُ ما قد قُلتُ إلاَّ تعلُّلاً وإلاَّ فماذا يَبلغُ النَّظمُ والنَّثرُ
ولا زالَ مَحروسَ الجَنابِ مُؤيَّداً من اللهِ ما دامَ السِّماكَينِ والنَّسرُ

وقوله من قصيدة يمدح بها بعض الأكابر[1]:

أشمسُ الضُّحى لا بَلْ مُحيَّاكِ أجملُ وغُصنُ النَّقا لا بَلْ قَوامُكِ أعْدَلُ
سَفَرتِ لنا حَيثُ النُّجومَ كأنَّها كواعبُ في سُودِ المطارِفِ تَرْفُلُ
[وحيثُ الهَزيعُ الآبنوسيُّ] حالِكٌ كأنَّ الدُّجى سِترٌ على الأرضِ مُسْدَلُ[2]
كأنَّ الثريَّا إذْ (تراءَتْ) لناظِري وِشاحٌ على جيدِ الظَّلام مُفصَّلُ[3]
كأنَّ سُهيلاً والنُّجومُ تَؤمُّهُ نوافِرُ وُرْقٍ خَلفَها لاحَ أجدَلُ
كأنَّ السُّها ذو صَبوةٍ غالَه النَّوى فأنحلَهُ والبينُ للصَّبِّ يُنحِلُ
فلمَّا بَدا مرآكَ شابَتْ فروعُهُ وقد كانَ مُسْوَدَّ الغَدائِرِ ألْيَلُ[4]

---

(١) القصيدة في سلافة العصر / ٣٥٧ ، ونفحة الريحانة ٢/ ٣٨٨ . وفي عدد أبياتها ورواية بعض الأبيات اختلاف.
(٢) في الأصلين (كان الهرير الابن أسود حالك) والتصويب من نفحة الريحانة.
(٣) في ك (تناءت) مكان (تراءت).
(٤) (اليل) كذا ورد في الأصلين، والمصدرين المذكورين وحقها النصب. وقد نوه محقق نفحة الريحانة عن هذا الاقواء.

[لعاً] لِعِثاري كيفَ لا أبلُغُ المُنى وأدرِكُ شَأواً نَيلُهُ لا يُؤمَّلُ[1]

وقد أدْرَكَتني من أبي الجُودِ نظرَةٌ فأشرقَ نَجمي بَعدَ ما كانَ يَأفَلُ

وللمَجدِ فَضلٌ حيثُ كانَ وإنَّه إذا كانَ في زاكي الأرُومةِ أفضَلُ

كذا الدرُّ يَزهُو حيثُ نِيطَت عُقودُهُ ولكنَّه فوقَ التَّرائبِ أجْمَلُ

ومنهم الأديب الضارب بسهم لا يدرك له ضريب. حامل رايات النباهة، حافظ آيات الروية والبداهة، شيخ الأدب وفتاها، ومصطافها ومشتاها عفيف الدين عبدالله بن الحسين[2] لا زال موفّى الشأن من الشين. هو وإن كان ثقفي الأصل إلا أنّه مثقف قناة النصل، له في الأدب مكانة يعرفها من شاهد مكانه. ما سما إلى صهوة منه إلاّ امتطاها، ولا شدّ كتيبة ذهنه عليها إلاّ سباها. ينظم الدراري أسلاكاً، ويجعل[3] خاطره لها أفلاكاً. لا يتكلّف نحو وعروض، بل بسليقة أبانت له السنن والفروض. فمن ثمّ أخذ بمجامع القلوب وفق ما قيل[4]:

حُسنُ الحِضارة مَجلوبٌ بتَطرِيَةٍ وفي البَداوَةِ حُسنٌ غيرُ مَجلُوبِ[5]

وكم أنشد لسان حاله المطرب:

ولستُ بنحويٍّ يَلوكُ لسانَهُ ولكن سَليقيٌّ يقولُ فيُعرِبُ

وقد أثبت له ما تغتبقه راحاً، وتملأ بمواهبه راحاً. فمن ذلك قوله يخاطب الوالد:

أبا هاشمٍ سُدتَ الأنامَ بِباذخٍ من المجدِ مَبنيٍّ على الحَزْمِ والوَفا

---

(١) لعاً لفلان: دعاء له معناه: سلمت ونجوت. في الأصلين (أما العثاري) والتصويب من سلافة العصر.

(٢) عفيف الدين: ترجم له المؤلف في سلافة العصر / ٢٣٧ والمحبي في نفحة الريحانة ٤/١٤١ ولم أقف على تاريخ وفاته.

(٣) إلى هنا انتهى ما سقط من (ع).

(٤) يأتي في ك بعد هذه الكلمة (والذي هو مثل مضروب).

(٥) البيت من قصيدة للمتنبي مطلعها (من الجآذر في زي الأعاريب).

خُلقتَ نحيفاً والمُروءةُ والذَّكا   تصوغُ الفَتى ماضِي الضَّرائبِ مُرهَفا
فما شَرفُ الإنسانِ إلاَّ بِقَلْبِهِ   مَتى طابَ ما واراهُ من شخصِهِ كَفى

وكنت كتبت إليه سنة تسع وستين وهو من أول شعري

يا رَبيبَ النَّدى وتِربَ المَعالي   وأدِيباً فاقَ الوَرى بالمَقالِ
استَمِعْ لِي - لا زلتَ - واصْغِ لقَولِي   وأجِبْني بما يُخِفُّ ثَقالي
فأنا اليومَ مُنذُ عامَينِ صَبٌّ   بغَزالٍ يفوقُ كلَّ غَزالِ
رَقَّ لي مِن جَفاه كلُّ عَذولٍ   ورَثا لي من صَدِّه كلُّ قالي
كلَّما رمتُ رشفَةً من لَماهُ   صَدَّ عنِّي وسامَني بالمِحالِ
وأنا والَّذي أعَلَّ فُؤادِي   بِهواهُ لستُ الغَداة بسالي
كيفَ والوجدُ قد أباحَ اصْطِباري   ودمُوعي لمَّا تَزَلْ في انهِمالِ
فَافْتِني - لا بَرِحْتَ - فَتوى أريبٍ   فعَساهُ يُصْغي ويَرثي لحالي
وابقَ واسلَمْ في عزَّةٍ وعَلاءٍ   يا رَبيبَ النَّدى وتِرْب المعالي[1]

فأجاب وأجاد:

يا هُماماً قد حازَ طِرْفَ الكَمالِ   وتَحلَّى بالفَضْل والافضالِ
وجَواداً يَلوحُ في فَلَكِ المَجْدِ   سَناهُ يُزري بضَوْءِ الهِلالِ
لا تنكِّرْ مِن مَطلِ ظَبي كِناسٍ   إنَّما يَعذُبُ الهَوى بالمِطالِ
ربَّما لاحَظَ الأغَنُّ لعُذرٍ   واحتِشامٍ من خوفِ قِيلٍ وقالِ[2]
الهَوى غَورُهُ بعيدُ المَنالِ   يا مُنَى كلِّ غادَةٍ مِكْسالِ[3]
فاتَّئد في الأمُور واستَعمِل الصَّبْرَ   وراقِبْ لغَفلَةِ العُذَّالِ
واطَّرِحْ في الكِناسِ كُفَّةَ حَبْلٍ   إنَّما تَعلُقُ الظِّبا بالحِبالِ[4]

---

(١) في ك (وهناء) مكان (وعلاء).

(٢) في ك (الأنام) مكان (الأغن).

(٣) لا وجود لهذا البيت في ك.

(٤) الكفة (بضم الكاف وتشديد الفاء المفتوحة): ما يصاد به الظباء.

عَلَّ تَحظَى منها بطيبِ الوِصالِ يا هُماماً قد حازَ طِرْفَ الكَمالِ[1]

ومن شعره قوله:

ويحَ قَلب المحبِّ ماذا يُقاسي كلُّ قَلبٍ عليه كالصخر قاسي

يا جُفوني أينَ الدُّموعُ فقد أحْرَقَ قَلبي تَوقُّدُ الأنْفاسِ

جَدَّ وَجْدي بحبِّ لاهٍ وأوْدَى بفُؤادي تذكارُهُ وهو ناسي

وقوله في الجناس التام:

لقد صارَ لي مَدمَعٌ بعدَهُمْ يَفيضُ على وَجْنَتي كالعَقِيقِ[2]

لتَذكارِ أيّامِنا بالحِمى وتلكَ اللَّيالي بوادي العَقيقِ

وقوله مخاطباً لي وقد وافى الخبر بانتقال والدتي إلى جوار ربِّها[3]:

يا أيُّها العَلم النَّدبُ الذي شَهِدت بفَضلِهِ جُملةُ السَّادات والعُلَما

ومن تملَّك رِقَّ المكرُماتِ فَتىً وشادَ رُكنَ العُلى حِلماً وما احتَلَما

لا تَبتَئِسْ من زَمانٍ فَرَّ ناجِذَهُ وفوَّقَ السَّهمَ لما أنْ عَدا فَرَمى[4]

فالدَّهرُ حربٌ وإنْ أبْدى مُسالمةً لم يُعطِ سِلْماً ولم يُبقِ امْرءاً سَلَما[5]

فالحرُّ إنْ نابَه دَهرٌ بآزِمَةٍ تُعيِي فإنَّ الأسَى في فَقْد من عَلِما[6]

فصل في ذكر جملة من أخبار الهند، وأحوالها وما يتَّصل بذلك من النكت والنوادر وأمثالها، حلاًّ لعقد البيان بتقييدها، وتبييضاً لوجه الكتاب بتسويدها.

---

(١) في ك (عل تحظي بطيب وصل فتشفي).

(٢) في سلافة العصر / ٢٤٢ ونفحة الريحانة ٤/١٤١ (بعدكم) مكان (بعدهم).

(٣) الأبيات في سلافة العصر / ٢٤٠ وفي رواية بعضها اختلاف.

(٤) فرناجذه: كشفه، أو كشر عنه.

(٥) في ك (تلق) مكان (يبق).

(٦) الآزمة (بالمد) كالأزمة: الشدة. في ك (بنائبة) مكان (بآزمة)، وجاء عجز البيت في أ (يعيي الأسى للأسى محيي بها علما).

ذكر أبو الحسن عليّ بن الحسين المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجواهر[1] قال: ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه: أن الهند كانت (قديماً كزمان الغرّة)[2] التي كان بها الصلاح والحكمة، فإنّه لما تجيّلت الأجيال وتحزّبت الأحزاب حاولت الهند أن تضمّ المملكة، وتستولي على الحوزة، وتكون الرئاسة فيها فقال كبراؤهم: نحن أهل البدء وفينا التناهي، ولنا الغاية والصدور، والانتهاء. ومنا سرى الأب إلى الأرض فلا ينازعنا أحدٌ موقفاً، ولا عاندنا وأراد بنا الاغماض إلاّ أتينا عليه وأبدناه، أو يرجع إلى طاعتنا، فأزمعت على ذلك، ونصبت لها ملكاً وهو البرهمن الأكبر والملك الأعظم، والإمام المقدم. ظهرت في أيامه الحكمة، وتقدّمت العلماء، واستخرجوا الحديد من المعادن، وضربت في أيامه السيوف والخناجر، وكثير من أنواع المقاتل، وشيّد الهياكل ورصّعها بالجواهر المشرقة المنيرة، وصور فيها الأفلاك والبروج الاثني عشر والكواكب (وبيَّن كيفيّة صورة العالم، وأورد أيضاً بالصورة)[3] أفعال الكواكب في هذا العالم واحداثها للأشخاص الحيوانية، وبين حال المدبّر[4] الذي هو الشمس، وأثبت كتاباً في براهين جميع ذلك، وقرّب إلى عقول العوام فهم ذلك، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، وأشار إلى المبدئ الأول المعطي سائر الموجودات وجودها، الفائض عليها بجوده. وانقادت له الهند وأخصبت بلادها، وأراهم مصالح الدنيا، وجمع الحكماء فأحدثوا في أيامه كتاب السند هند وتفسيره دهر الدهور، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات، وأحدثوا الأحرف التسعة المحيطة بالحساب الهندي. وكان أوّل من تكلّم في أوج الشمس، وذكر أنه يقيم في كلّ برج ثلاثة آلاف سنة، وأنه إذا انتقل في البروج الجنوبية انتقلت العمارة، فصار العامر

---

(١) الجزء الأول / ٧٦.

(٢) كذا ورد في الأصول، والذي في مروج الذهب (في قديم الزمان الفرقة).

(٣) كذا في الأصول، وفي مروج الذهب (وبين بالصورة كيفية العالم، وأرى بالصورة).

(٤) في مروج الذهب (المدبر الأعظم).

غامراً والغامر عامراً، والشمال جنوباً والجنوب شمالاً، ورتب في بيت الذهب حساب البدء الأول، والتاريخ الأقدم الذي عليه عمل الهند في تاريخ البدءة وظهورها في أرض الهند وسائر الممالك. ولهم في البدء خطب طويل.

وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلثمائة وستين سنة، وولده يُعرفون بالبراهمة إلى وقتنا هذا، والهند تعظّمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرافهم، ولا يغتذون بشيء من الحيوان، وفي رقابهم - الرجال والنساء منهم - خيوط صفر مقلّدون بها كحمائل السيوف فرقاً بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

قلت: وما ذكره باقٍ إلى زماننا هذا، ولهم مذاهب تفرّدوا بها عن سائر ملل الهند.

قال[١]: وكان قد اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم منهم في بيت الذهب. فقال بعضهم لبعض: تعالوا حتى نتناظر فننظر ما قصّة العالم وما سرّه؟ ومن أين أقبلنا ومن أين نمرّ؟ وهل خروجنا من عدم إلى وجود حكمة أو ضد ذلك؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشيء لأجسامنا يستجلب بخلقنا منفعة؟ أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرّة؟ أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا؟ أم هل هو غني (من كلّ وجه عن اقتنائه إيّانا وإبلائنا بعد وجودنا؟)[٢].

فقال الحكيم المنظور إليه منهم: أترى أحداً من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الادراك فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة؟.

وقال الحكيم الثاني: لو تناهت حكمة الباري عزّ وجلّ في أحد العقول كان ذلك نقصاً من حكمته، وكان الغرض غير مدروك، وكان التقصير مانعاً من الادراك.

وقال الحكيم الثالث: الواجب علينا أن نبتدئ بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا، ونحن أولى بعلمنا من أن نتفرغ إلى علم ما بعدنا.

---

(١) القول للمسعودي في مروج الذهب.

(٢) في مروج الذهب (فما وجه أفنائه ايانا، وإعدامنا بعد وجودنا وإيلامنا وملاذنا).

قال الحكيم الرابع: لقد ساء وقوع من وقع وقعاً احتاج فيه (بنفسه)[1].

قال الحكيم الخامس: من ههنا وجب الاتصال بالحكماء الممدودين بالحكمة.

قال الحكيم السادس: الواجب على المرء المحبّ لسعادة نفسه ألاّ يغفل عن ذلك لا سيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعاً والخروج منها واجباً.

قال الحكيم السابع: أنا لا أدري ما تقولون غير أني أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرًّا، وعشت فيها حائراً، وأخرج منها مكرهاً.

فاختلف الهند من سلف وخلف في آرائهم السبعة، وكلّ قد اقتدى بهم، ويمّم مذهبهم وتفرّعوا بعد ذلك في مذاهبهم، وتنازعوا في آرائهم، فالذي يقع الحصر من طوائفهم سبعون فرقة.

قال المسعودي: وقد تنوزع في البرهمن، فمنهم من زعم أنّه آدم (ع) وأنّه رسول من الله عزّ وجل إلى الهند. ومنهم من يقول أنّه كان ملكاً على حسب ما ذكرنا - وهذا أشهر - ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديداً، وفزعت إلى نصب ملك آخر عليها من أكبر ولده، وكان وليّ عهد أبيه الموصى عليه من ولده وهو (الناهور)[2]، فسار فيهم سيرة أبيه، وأحسن النظر لهم وزاد في بناء الهياكل، وقدّم الحكماء وزاد في مراتبهم، وحثهم على تعليم الناس الحكمة وبعثهم على طلبها. فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة. وفي أيامه عملت النرد وأحدث اللعب بها، وجعل ذلك مثالاً للمكاسب وأنّها لا تنال بالكسب ولا بالحيلة في هذه الدنيا، وإنّ الرزق لا يتأتى بالحذق.

وقد ذكر أن أردشير بن بابك أوّل من صنع النرد ولعب بها، وأرى تقلّب الدنيا بأهلها واختلاف أمورها، وجعل بيوتها اثني عشر بيتاً بعدد الشهور، وجعل كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر، وجعل [الفصّين][3] مثالاً للقدر وتقلبه

---

(١) في مروج الذهب (إلى معرفة نفسه).

(٢) في مروج الذهب (الباهبود) وقال المحقق (في نسخة: الناهود).

(٣) في ع و أ (القصة) وفي ك (الفص) وما أثبته عن مروج الذهب.

بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب فيبلغ بإسعاد القدر إيّاه في مراده باللعب بها ما يريد، وأنّ الحازم الفطن لا يتأتى له ما يتأتى لغيره إلاّ إذا أسعده القدر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال [إلاّ][(١)] بالجدود.

ثم ملك (دامان بعد الناهور)[(٢)] فكان ملكه نحواً من مائة وخمسين سنة. ولدامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس، وملوك الصين.

ثم ملك فور إلى أن هلك مائة وأربعين سنة.

ثم ملك بعده (دبشليم)[(٣)] وهو الواضع كتاب كليلة ودمنة الذي (نقله ابن)[(٤)] المقفع[(٥)] .

قلت: وقد ذكر أن أول من نقل كتاب كليلة ودمنة وجعله شعراً: أبان بن عبد الحميد[(٦)] الشاعر المشهور. وكان قد نقله للبرامكة ونظمه ليسهل حفظه، أوّله:

هـذا كـتـابُ أدَبٍ ومِـحْـنَـه   وهو الّذي يُدعى كُلَيْلَه دِمنه[(٧)]
فـيـه احـتـيـالاتٌ وفـيـه رُشْدُ   وهو كتابٌ وَضعَتْه الهِندُ[(٨)]

قال المسعودي: وكان ملكه مائة وعشر سنين.

ثم ملك بعده (تلهيث)[(٩)] وصنعت في أيامه الشطرنج فقضى بلعبها على

---

(١) زيادة من مروج الذهب اقتضاه المعنى.

(٢) في مروج الذهب (زامان بعد الباهبود).

(٣) في ع (د سليم) وفي ك (سلم) وفي أ (دسلم) وما أثبته عن مروج الذهب.

(٤) في مروج الذهب (ينسب لابن).

(٥) هو عبدالله بن المقفع الكاتب الشاعر. قتل سنة ١٤٥ هـ (معجم المؤلفين ٦/ ١٥٦).

(٦) هو ابان بن عبد الحميد اللاحقي من شعراء القرن الثاني للهجرة. نظم ليحيى بن خالد البرمكي كليلة ودمنة بأربعة عشر ألف بيت. أورد الصولي في كتابه (الأوراق ـ أخبار الشعراء) جزءاً يسيراً منها ضمن ترجمة الشاعر المذكور.

(٧) في الأوراق (كتاب كذب ومحنة).

(٨) في الأوراق (فيه دلالات وفيه رشد).

(٩) في مروج الذهب (بلهيث).

النرد، وبيّن الظفر الذي ينال الحازم، والنكبة التي تلحق بالجاهل، وحسب حسابها ورتّب لذلك كتاباً للهند يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه، وجعلها مصوّرة تماثيل مشكلة على صور الناطقين وغيرهم من الحيوانات مما ليس بناطق وجعلهم درجات ومراتب. ومثّل الشاة بالمدبّر الرئيس، وكذلك ما يليه من القطع، وأقام ذلك مثالاً للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة، والاثني عشر. وأفراد كل قطعة منها بكوكب، وجعلها ضابطة للمملكة، وإذا كاد عدوّ من أعدائه فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين [يؤتون][١] في عاجل وآجل.

وللهند في لعب الشطرنج سرّ يرونه في تضاعيف حسابها، ويتعلقون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، وما إليه منتهى العلّة الأولى في أنّ مبلغ أعداد أضعاف الشطرنج:

ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف.

وسبعمائة وأربعون ألف ألف ألف ألف ألف[٢].

وثلثمائة وسبعون ألف ألف ألف ألف[٣].

وتسعة آلاف ألف ألف ألف[٤].

وخمسمائة ألف ألف.

وأحد وخمسون ألف وستمائة وخمسة عشر.

ومراتب هذه الألوف الستة الأولى، ثم الخمسة التي هي ألف ألف

---

(١) في ع (يؤتوا) وفي ك (يؤتى) وفي أ (تؤتو) وما أثبته عن مروج الذهب.

(٢) سقط هذا الرقم كله من ك، وفي مروج الذهب (وأربعمائة ألف وست وأربعون ألف ألف ألف ألف ألف).

(٣) سقط هذا الرقم أيضاً من ك، وفي مروج الذهب (وسبعمائة وأربعون ألف ألف ألف ألف).

(٤) في مروج الذهب (وثلاثة وسبعون ألف ألف ألف وسبعمائة ألف ألف، وسبعة آلاف ألف).

خمس مرات، ثم الأربعة، ثم الثلاثة، ثم الاثنان، ثم الواحد. لها عندهم معان يذكرونها في الدهور والأعصار، وتقتضيه سائر المؤثرات العلويّة في هذا العالم لارتباط نفوس الناطقين بها. ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام كثير وأنواع من اللعب بها. قد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم ممن تقدم منهم كالصولي[١] والعدلي[٢] وإليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج.

وما أحسن قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب[٣] في الشطرنج:

تأمَّلْ تَر الشُّطرَنْج كالدَّهر دَولةً   نَهاراً ولَيلاً ثم بُؤساً وأنْعُما

مُحرِّكها باقٍ وتَفنَى جَميعُها   وبَعد الفَنا تَحيا وتُبعَثُ أعظُما

قال ابن حجة في ثمرات الأوراق: وهذا يشبه قول القاضي الفاضل[٤] وقد أخرج له السلطان الملك الناصر خيال الظل[٥] ليفرجه عليه، فقام الفاضل عند الشروع في عمله، فقال له الناصر: إن كان حراماً فما نحضره - وكان حديث العهد بخدمته قبل أن يلي السلطنة - فما أراد أن يكدّر عليه فقعد إلى آخره، فلما انقضى ذلك قال له الملك ناصر: كيف رأيت ذلك؟ قال: رأيت موعظة عظيمة، رأيت دولاً تأتي، ودولاً تمضي، ولما طوي الازار إذا بالمحرك واحد. فأخرج ببلاغته هذا الجدّ في هذا الهزل. انتهى.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن يحيى الصولي البغدادي الأديب الشطرنجي. توفي سنة ٣٣٥ هـ (معجم المؤلفين ١٢/ ١٠٥).

(٢) العدلي: ذكره ابن النديم في الفهرست / ١٥٥ بهذه النسبة ولم يذكر اسمه. وقال: له من الكتب كتاب الشطرنج.

(٣) نسب المؤلف هذين البيتين في كتابه أنوار الربيع ٥/ ٦٥ إلى شمس الدين ابن الصايغ. وما أورده هنا موافق لرواية خزانة الأدب لابن حجة الحموي / ٣٢٤.

(٤) هو عبد الرحيم بن علي المعروف بالقاضي الفاضل. توفي سنة ٥٩٦ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٢٨٥).

(٥) خيال الظل، ويسمى الخيالة: صورة تمثال الشيء. أطلقه مجمع دار العلوم على السينما (معجم متن اللغة).

وقريب من هذا المعنى قول من قال[١]:

رأيتُ خَيالَ الظِّلِّ أكبرَ عِبْرةٍ   لِمَنْ كانَ في عِلم الحَقِيقَةِ راقي

شُخوصٌ وأشباحٌ تَمرُّ وتَنْقَضي   وتَفْنى جَميعاً والمحرِّكُ باقي

قال المسعودي: وكان ملك (تلهيث)[٢] ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنّه ملك مائة وثلاثين سنة.

ثم ملك بعده كورش فأحدث للهند آراء في الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله من التكليف أهل العصر، وخرج من مذاهب من سلف. وكان مَلك الهند هذا إلى أن مات عشرين ومائة سنة.

ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند في آرائها فتحزّبت الأحزاب، وتجيَّلت الأجيال، وانفرد كلّ رئيس بناحية، فتملّك على أرض السند ملك، وتملك أرض القنوج ملك، وتملّك أرض [قشمير][٣] ملك، وتملّك على (أرض المامكين)[٤] وهي الحوزة الكبرى ملك يسمّى (بلهر)[٥] وهذا أول ملك من ملوكهم سمّي بالبلهر فصارت سمة لمن ملك من الملوك في هذه الحوزة إلى وقتنا هذا.

قال: وأرض الهند واسعة في البرّ والبحر والجبال، وملكهم يتّصل بملك (الرانج)[٦] وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر، وهذه المملكة [فَرْزٌ بين][٧] مملكة الهند والصين، وتضاف إلى الهند، والهند متّصلة مما يلي

---

(١) البيتان في ريحانة الألباء من دون عزو، وفي روايتها اختلاف طفيف.

(٢) في مروج الذهب (بلهيث) وفي أ (تاهيث).

(٣) في الأصول (قسمين) مكان (قشمير) والتصويب من مروج الذهب ١/ ٨٢.

(٤) في مروج الذهب (مدينة المانكير).

(٥) في ك و أ (بلهز) وفي مروج الذهب (بلهري).

(٦) في مروج الذهب (الزابج).

(٧) في ع و أ (فرد من) وفي ك (جزء من) وفي مروج الذهب (قدر من) وما أثبته عن رواية أخرى أوردها محقق مروج الذهب في الهامش.

الجبال بأرض خراسان، والسند إلى أرض التبت. وبين هذه الممالك تباين وحدوب، ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متّفقة، والأكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الأرواح.

قال: والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج وغيرهم وسائر الأجناس. وقد ذكر جالينوس: في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد في غيره: تفلفل الشعر، وخفّة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ [الشفتين][1]، وتحديد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقّق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب. قال جالينوس: وإنّما غلب الأسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك عقله. ولقد كان طاووس اليماني[2] صاحب عبدالله بن العباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي ويقول: أنّه عبد مشوّه الخلقة. وبلغنا أن الراضي بالله كان لا يتناول شيئاً من أسود ويقول: أنه عبد مشوّه. فلا أدري أقلّد طاووساً في مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل. ولقد صنّف الجاحظ كتاباً في فخر السودان ومناظراتهم مع البيضان[3].

قال: والهند لا يملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلاّ في كلّ برهة من الزمان معلومة، لأنّ في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقاً لهيبتها واستخفافاً بحقّها. فالرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلاّ بالتكبّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال: ورأيت في بلاد سرنديب - وهي جزيرة من جزائر البحر - إذا مات ملكهم صُيِّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكر[4] مُستَعَدَّة لهذا

---

(١) في الأصول (الساقين) والتصويب من مروج الذهب.

(٢) هو طاووس اليماني بن كيسان الخولاني بالولاء، من أكابر التابعين. توفي سنة ١٠٦ هـ (وفيات الأعيان ٢/ ١٩٤).

(٣) تراجع رسائل الجاحظ ١/ ١٧٧ - ٢٢٥.

(٤) البكر (بفتحتين) جمع البكرة: خشبة مستديرة تدور على محور، ومنها بكرة البئر.

المعنى وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد جاز فيكم حكمه، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدينا، وقبض روحه ملك الموت بأمر الحيّ القديم الذي لا يموت، فلا تغترّوا بالحياة بعد، وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع وقد هيّء له الصّندل والكافور وسائر أنواع الطيب فيطيَّب ويُحرق بالنار، ثم يذرّى رماده في الرياح. وكذلك فعل أكثر الهند بملوكهم وخواصّهم لغرض يذكرونه، ونهج يتمنّونه في المستقبل والمُلك مقصور في أهل البيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيوت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغيَّر ولا تبدَّل. والهند تمنع من شرب الشراب، ويعنّفون شاربه لا على طريق التديّن، لكن تنزيهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم. وإذا صحَّ عندهم عن ملك من ملوكهم شربه، استحقّ الخلع من ملكه، إذ كان لا يتأتى التدبير والسياسة مع الاختلاط. وربّما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري. وللهند سياسات كثيرة. انتهى كلام المسعودي باختصار في بعض المواضع.

وأقول: ما ذكره كان فيما سلف من الزمان وقديم العصر. وأما الآن فقد استولت ملوك الاسلام على كثير من أقطار الهند، واستحوذت على جملة من ممالكها. وأمّا أسامي الممالك التي ذكرها فلا تعرف الآن لتغير الملوك. فكلّ من عمّر منهم بلدة سماها باسمه ونسي اسمها الأول، فلا تكاد تعرف بلدة باسمها القديم إلاّ نادراً، أو جزائر وأماكن شاحطة لم يدخلها ملوك الاسلام، وذلك لسعة هذا القطر، وتباعد ما بين جهاته. وقد بلغنا الآن أنّ ملكاً من الكفرة الهنود إذا ركب إلى بيت الأصنام مشى أمامه ثمانية آلاف فيل.

وقرأت في كتاب لملك الهند إلى ملك سمرقند يفتخر فيه بسعة ملكه ويحدث بنعمة الله تعالى عليه، يقول فيه: وكفى ملكنا اتساعاً أنه ربع الربع المعمور، والله أعلم بصحة ذلك.

وقطر الهند من الاقليم الثاني من الأقاليم السبعة.

فائدة: الأقاليم السبعة: أوّلها أرض بابل، وخراسان، وفارس، والأهواز، والموصل، وأرض الجبال. ولهم من البروج: الحمل، والقوس ومن الأنجم السبعة: المشتري[١].

والاقليم الثاني: السند، والهند، والسودان. ولهم من البروج: الجدي، ومن الأنجم السبعة زحل[٢].

والاقليم الثالث: مكة، والمدينة، واليمن، والطائف، والحجاز وما بينها. ولهم من البروج: العقرب، ومن الأنجم السبعة: الزهرة.

والاقليم الرابع: مصر، وافريقية، والبربر، والأندلس وما بينها. ولهم من البروج: الجوزاء، ومن الأنجم السبعة: عطارد.

والاقليم الخامس: الشام، والروم، والجزيرة. ولهم من البروج: الدلو، ومن الأنجم السبعة: القمر.

والاقليم السادس: الترك، والخزر، والديلم، والصقالبة. ولهم من البروج: السرطان، ومن الأنجم السبعة: المريخ.

والاقليم السابع: [الدبيل][٣]، والصين. ولهم من البروج: الميزان. ومن الأنجم السبعة: الشمس. والله أعلم.

وذكر المسعودي في معرض كلام له في نهر الكنك وهو نهر الهند، ويمرّ بكثير من جبال السند. قال: وهو نهر حاد الانصباب والجريان، عليه تعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد، وتغرقها زهداً في هذا العالم، ورغبة في النقلة عنه، وذلك أنّهم يقصدون موضعاً في أعالي هذا النهر المعروف، وهناك

---

(١) في ك (زحل) مكان (المشتري).

(٢) في ك (المشتري) مكان (زحل).

(٣) الدبيل (بفتح الدال وكسر الباء) هكذا ضبطها ياقوت: مدينة أرمينية، تتاخم أران، وقد وردت في أحسن التقاسيم / ٦١ (بضم الدال). في ع (الذيل) وفي ك (الديل) وفي أ (الدليل) والتصويب من المصدرين المذكورين.

جبال عالية، وأشجار عادية[1] ورجال جلوس، وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر، وقطع من الخشب. فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلاد القاصية، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتّبين على هذا النهر ما يقولون من تزهيدهم في هذا العالم، والترغيب فيما سواه. ويطرحون أنفسهم من أعالي تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية، والسيوف والحدائد المنصوبة، فيقطّعون قطعاً، ويصيرون إلى هذا النهر أجزاء.

قال: وهنالك شجر من إحدى عجائب العالم ونوادره. والغريب من شأنه أنّه يظهر في الأرض أغصاناً مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق ويستقيم في الجوّ كأبعد ما يكون من طوال النخل، ثم [ينحني][2] جميع ذلك منعكساً فيغوص في الأرض مندسًّا، ويهوي في قعرها سفلاً على المقدار الذي ارتفع في الهواء ويسعى وينثني ما يغيب منه تحت الأرض ويتوارى تحت الثرى. فلولا أنّ الهند قد وكّلت بقطعه لطبّق على تلك البلاد، وغشي تلك الأرض.

قال: والهند تعذّب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب، وقد تيقّنت أنّ ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلاً، هو ما أسلفته وعذبت أنفسها في هذه الدار معجلاً.

فمنهم من يصير إلى باب الملك فيستأذن في إحراقه لنفسه. ثم يدور في الأسواق وقد أجّجت له النار العظيمة عليها من قد وُكِّل بإيقادها، ثم يسير في الأسواق وقدّامه الطبول والصنوج وعلى [بدنه][3] أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه اكليل من الريحان، وقد قشر جلدة من رأسه وعليها الجمر، وقد جعل عليها الكبريت والسندروس[4] وهامته

---

(١) الأشجار العادية: القديمة، والعظيمة.

(٢) في الأصول (يحنو) وما أثبته عن مروج الذهب ٢٠٩/١.

(٣) في الأصول (يديه) والمثبت عن مروج الذهب.

(٤) السندروس (بالكسر): صمغ شجر أو معدن شبيه بالكهرب (أقرب الموارد).

تحترق، وروائح دماغه تفوح، وهو يمضغ ورق التانبول[1] وحبّ الفوفل. فإذا طاف في الأسواق وانتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث لا يتغيّر في مشيته، فمنهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمراً كالتلّ العظيم تناول بيده خنجراً فيضعه في لبّته.

قال: وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند سنة أربع وثلثمائة فرأيت رجلاً من فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقّه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم، فقطع منها قطعة بالخنجر فدفعها إلى بعض أخوته تهاوناً بالموت، ولذّة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في الناء. وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل، حرق كثير من الناس أنفسهم لموته.

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفوس، وأنواع المقاتل تألم عند ذكرها الأبدان وتقشعر منها الأبشار.

وذكر أن الأغلب عليهم في لعبهم القمار بالشطرنج والنرد على الثياب والجوهر، وربّما أنفذ الواحد ما معه فيلعب على قطع عضو من أعضاء جسمه، وهو أن يُحضر لهم قِدرٌ من النحاس صغير على نار فحم فيها دهن لهم أحمر، فيُغلي ذلك الدهن، وهو دهن مدمل للجراح وماسك لسيلان الدم، ويجمعون خنجراً. فإذا لعب في أصبع من أصابعه وقُمِرَ قطعها بذلك الخنجر وهو مثل النار، ثم غمس يده في ذلك الدهن فكواها ثم عاد إلى لعبه. فإن توجه عليه اللعب في قطع الأصابع والكفّ ثم الذراع والزند وسائر الأطراف وكل ذلك يستعمل فيه الكيّ بذلك الدهن وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند، وهو عجيب المعنى لما ذكرنا، وما ذكرناه عنهم مستفيض من فعلهم.

قلت: أمّا أنواع تعذيبهم لأنفسهم فباقٍ إلى زماننا هذا، فمن ذلك أنه إذا

---

(١) التانبول، والتامول: ضرب من اليقطين، طعم ورقة كالقرنفل. يمضغونه بقليل من الكلس، ويغلب استعماله في الهند واليمن والحجاز.

مات الرجل منهم وكان له زوجة جعلت له دائرة عظيمة من الحطب كالحظيرة فيوضع الرجل وسطها وذلك قبل أن تؤجج، ثم تأتي زوجته وقد لبست أفخر ثيابها مضمّخة بالدهن المطيّب، وتحلّت بجميع حليها، وقد زفّها أهلها وقرابتها جميعاً وغيرهم ممن هو على ملّتهم، فتقف عند زوجها في وسط تلك الحظيرة[1] وهي تمضغ ورق التانبول، وتتكلّم وتضحك غير مكترثة بالموت. وقد ضرب لها وتدان في تلك الحظيرة من الحطب فتربط رجلاها فيهما بسلسلتين من الحديد، ثم يصب الدهن على ذلك الحطب وتضرم النار وتؤجّج. فإذا اتقدت النار ولحقت المرأة رفعتها عن الأرض فيمنعها قيد رجليها عن أن تلقيها إلى خارج، فلم تزل ترتفع وتنحطّ حتى تفارق روحها بدنها.

وذكر الشيخ البهائي(*) في كشكوله[2]: أنه استمرّت العادة في أقاصي بلاد الهند على إقامة عيد كبير على رأس كلّ مائة سنة، فيخرج أهل البلد جميعاً من شيخ وشاب وصغير وكبير إلى صحراء خارج البلد فيها حجر كبير منصوب. فينادي منادي الملك: لا يصعد هذا الحجر إلاّ من حضر هذا العيد قبل هذا، فربّما جاء الشيخ الهرم الذي ذهبت قوّته وعمى بصره، والعجوز الشوهاء وهي ترجف من الكبر، فيصعدان على ذلك الحجر، أو أحدهما، وربّما لا يجيء أحد ويكون قد فني ذلك القرن بأسره. فمن صعد ذلك الحجر نادى بأعلى صوته: قد حضرت العيد السابق وأنا طفل صغير، وكان ملكنا فلان، ووزيرنا فلان، وقاضينا فلان، ثم يصف الأمم الماضية من ذلك القرن كيف طحنهم الموت وأكلهم البلى، وصاروا تحت أطباق الثرى. ثم يقوم خطيبهم فيعظ الناس ويذكر الموت، وغرور الدنيا ولعبها بأهلها، فيكثر في ذلك اليوم البكاء، وذكر الموت والتأسف على صدور الذنوب، والغفلة عن ذهاب العمر. ثم يتوبون ويكثرون الصدقات، ويخرجون من التبعات. انتهى.

---

(١) الحظيرة: الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الأغنام، أو الإبل.

(٢) كشكول البهائي ١/٧.

وحكى المسعودي[1] وغيره: أنّ الاسكندر لما ملك فارس واحتوى على ملكها وتزوّج بابنة ملكها سار نحو السند والهند، ووطئ ملوكها، وحمل إليه الهدايا والخراج، وحاربه (فورك)[2] وكان أعظم ملوكها، وكانت له مع الاسكندر حروب، وقتله الاسكندر مبارزة، وبلغه أنّ في أقاصي أرض الهند ملكاً ذا حكمة وسياسة، وديانة وإنصاف للرعيّة، وأنّه قد أتى عليه مئون من السنين، وأنه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له: كند، وكان قاهراً لنفسه مميتاً لصفاته من الشهوة والعصبية وغيرها، حاملاً لها على خلق كريم، وأدب رائق. فكتب إليه كتاباً يقول فيه: إذا أتاك كتابي هذا فإن كنت ماشياً فلا تلتفت، وإن كنت قائماً فلا تقعد حتى تصل إليّ وإلاّ مزقت ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند. فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر بأحسن جواب، وخاطبه بملك الملوك، وأعلمه أنه اجتمع قبَلَه[3] أشياء لم يجتمع عند غيره مثلها. فمن ذلك ابنة لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها، وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسأله، وطبيب لا تخشى معه داء ولا شيء من العوارض إلاّ ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية، وحلّ العقدة التي عقدها المبدع لها، والمخترع لهذا الجسم الحسّي المنصوب غرضاً للحتوف والبلايا، وقدح إذا ملأته شرب منه عسكرك جميعه ولا ينقص منه شيء. وأنا منفذ جميع ذلك إلى الملك وصائر إليه. فلما قرأ الاسكندر الكتاب أنفذ إليه جماعة من حكماء اليونانيين والروم، وقال لهم: إن كان صادقاً فيما كتب به فاحملوا ذلك إليّ ودعوا الرجل، وإن تبينتم الأمر على خلاف ذلك، وأنّه أخبر عن الشيء بخلافه فأشخصوه إليّ. فمضى القوم وأظهر لهم الجارية، فلما رمقوها بأبصارهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدّى إلى غيره. فخاف القوم على عقولهم، ثم رجعوا إلى أنفسهم وقهر سلطان هواهم. ثم أراهم بعد ذلك ما تقدّم الوعد به وصرفهم،

---

(١) مروج الذهب ١/ ٢٩٣.

(٢) في مروج الذهب (فور).

(٣) في مروج الذهب (أنه اجتمع له قبله).

وسُيِّر بالفيلسوف والجارية والطبيب والقدح، فلما وردوا على الاسكندر أمر بإنزال الطبيب والفيلسوف، ونظر إلى الجارية فبهرت عقله، وأمر قيمة جواريه بالقيام عليها، ثم صرف همّته إلى الفيلسوف وإلى علم ما عنده وعند الطبيب. فملأ قدحاً من السمن وأرهقه حتى لم يبق للزيادة عليه مجال، وبعث به إلى الفيلسوف، فدعا بألف ابرة فغرس أطرافها في السمن وأنفذها إلى الاسكندر. فأمر الاسكندر بسبك الابر كرة وبعثها إليه، فسبكها وجعلها مرآة مصقولة وأعادها. فدعا الاسكندر بطست من ماء فطرح المرآة فيه حتى رسبت وأعادها، فجعلها طاسة طافية على الماء وأعادها. فملأها الاسكندر بالتراب وبعث بها إليه. فلما نظر الفيلسوف إليها تغيّر لونه وجزع، وتغيّرت صفاته، وأسبل دموعه على صحن خدّه وجعل يكثر شهيقه، وظهر حنينه، وطال أنينه، وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه، ثم أفاق من تلك الحال وزجر نفسه وأقبل عليها كالمعاتب لها فقال: ويحك يا نفس ما الذي قذف بك في هذه السدفة، وأصارك إلى هذه الغمة، ووصلك بهذه الظلمة، أنسيتِ وأنت في النور تسرحين، وفي العلوم تمرحين. تنظرين بالضياء الصادق، تنفسحين في العالم المشرق، أنزلتِ إلى عالم الظلم والمعاندة، والغشم والمفاسدة، تخطفك الخواطف، وتهزّك العواصف، قد حُرِمت علم الغيوب، والكون في العالم المحبوب، ورميتِ بشدائد الخطوب، ورفضت كلّ مطلوب. أين مصادرك الطيّبة وراحتك القوية؟ حللت في الأجساد، وقوي عليك الكون والفساد، واختلطتِ يا نفس بين السباع القاتلة والأفاعي المهلكة، والمياه المالحة، والنيران المحرقة، والرياح العاصفة، تسير بك الأعمار في قرارات الأجسام، لا تشاهدين إلاّ غافلاً ولا ترين إلاّ جاهلاً، جيل قد زهدوا في الخيرات، ورغبوا عن الحسنات. ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته: يا لك من نجوم سائرة، وأجسام زاهرة، من عالم شريف طلعت، ولشيء ما وضعت، إنّك من عالم نفيس قد كانت النفس في أعاليه ساكنة، وفي خزائنه قاطنة، وقد أصبحت عنه ظاعنة. ثم أقبل على رسول الاسكندر فقال: خذه وردّه إلى الملك - يعني التراب - ولم يحدث فيه حادثة.

فلما وصل الرسول إلى الاسكندر أخبره بجميع ما شاهد، فتعجب الاسكندر من ذلك، فلما أن كان في صبيحة تلك الليلة جلس الاسكندر جلوساً خاصاً ودعا الفيلسوف، فلما أقبل رآه طويل الجسم رحب الجبين معتدل البنية فقال في نفسه: هذه بنية تضاد الحكمة، ومن كان كذلك فهو أوحد زمانه، فأحسّ الفيلسوف بذلك فأدار اصبع السبابة حول وجهه ثم وضعها على أنفه، ثم دنا مسرعاً فحيّا الملك، فأشار إليه بالجلوس، وسأله عن وضع اصبعه على أنفه، فقال: فهمت ما خطر لك فأشرت إلى أنّه ليس في الهند غيري، كما أنّه ليس في الوجه إلاّ أنف واحد، قال: فما معنى غرز الابر في السمن؟ قال: فهمت أنّك تقول: علمت حتى لا مجال للزيادة كما ملئ هذا الاناء، فأشرت إلى أن الكامل يقبل الكمال. قال: فما المراد من بسط الكرة؟ قال: فهمت أنّك تقول: قلبي قسا من سفك الدماء واشتغل بهذا العالم فلم يقبل العلم، فأشرت إلى أنّ جلاء الصدأ ممكن كما صار من الكرة مرآة تري الأجسام. قال: فما المراد من جعلها طاسة طافية على الماء؟ قال: فهمت أنك تقول: الأيّام قصيرة، والأجل قريب، ولا يدرك العلم الكثير في الزمن القليل، فأشرت إلى أن قطع المسافة الطويلة في الأمد اليسير متيسّر كما طفت الراسبة على وجه الماء في أسرع وقت. قال: فما بالك حين ملأت الإناء بالتراب لم تردّ الجواب؟ قال: فهمت أنك تقول: ثم الموت، فأخبرتك أنّه لا حيلة في ذلك. فقال الاسكندر: صدقت، ولا حسنٌ إلى الهند لأجلك، وأمر له بجوائز كثيرة، فقال: لو أحببت المال ما أردت[1] العلم فلست أدخل علمي ما يضادّه وينافيه. ثم نصح الاسكندر بنصائح يأمره فيها بالعدل والاحسان. فخيّره الاسكندر بين المقام عنده، والعود إلى وطنه، فاختار العود إلى وطنه فلحق بأرضه. وما أحسن قول من قال:

ولو أنّ الغَريبَ غَدا مليكاً ... ونالَ من العُلى أقْصى مُرادِهْ
لباتَ وقلبُهُ يَصْلى بنارٍ ... لتُربةِ أرْضِه وهَوى بلادِهْ

---

(١) في ك (ما نلت) مكان (ما أردت).

ولله درّ القائل[1]:

فيا وَطني إنْ فاتَني بكَ سابقٌ   من الدَّهر فَليَنْعم لساكِنكَ البالُ

فإن أستَطِعْ في الحَشرِ آتِكَ زائِراً   وهَيهات لي يومَ القِيامَةِ أشْغالُ

وأما القدح فامتحنه من أدهقه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقصه شربهم منه شيئاً، وكان معمولاً بضرب من خواص الهند الروحانية [والطبائع][2] التامة وغير ذلك من العلم مما تدعيه الهند. وقد قيل: أنه كان لآدم أبي البشر بأرض سرنديب من بلاد الهند، مبارك له فيه، فورث عنه وتداوله الأملاك إلى أن انتهى إلى الملك كند لعظم شأنه. وأمّا الطبيب فكان كما وصفه صاحبه.

وقرأت في خلق الإنسان للعلامة النيسابوري[3]: أن الملك كند المذكور رأى قبل مكاتبة الاسكندر له بمائة سنة رؤيا راعته، فجمع لها علماء مملكته وقصّها عليهم فقال: إني رأيت كوة صغيرة إلى بيت فيه فيل عظيم محبوس، وأنّه خرج من تلك الكوة كلّه ما خلا ذنبه، وتعجبت من خروج الأكبر وبقاء الأصغر، ورأيت قرداً على سرير الملك، وكرباسة[4] في أيدي طائفة يتنازعونها فلا تنخرق، ولا يغلب بعضهم عليها بعضاً، ورجلاً عطشان يهرب من الماء والماء يتبعه فلا يعطف عليه حتى يشربه، ورأيت أهل المدينة في المبايعة والتصرّف، ورأيت قوماً مرضى يعودون صحيحاً ويسألونه عن حاله، وبرذونا ذا رأسين يأكل بكليهما ولا يروّث، ولا له مراث، وثلاث خوابي[5] مصفوفة ينصبّ ما في اليمنى واليسرى بعضها إلى بعض ولا يقطّر في الوسطى شيء وهي فارغة، وبقرة ترتضع من عجلها، وعيناً قد يبس مخرج مائها وما دونها ممتلئ.

---

(١) الشعر لأبي العلاء المعري أحمد بن عبدالله المتوفى سنة ٤٤٩ هـ(أنوار الربيع ١/ ٣٩).

(٢) لا وجود لهذه الكلمة في ك ، وفي ع و أ (الطماع) وما أثبته عن مروج الذهب.

(٣) هو بيان الحق محمود ابن أبي الحسن النيسابوري وقد تقدم التعريف به.

(٤) الكرباسة، والكرباس: ثوب من القطن، وقيل الثوب الخشن (معرب).

(٥) الخوابي، جمع الخابية (وأصلها الهمز): الجرة الكبيرة.

وقد علمت أنّ هذه الرؤيا لأمر عظيم وخطب فظيع، وخاصة لتتابعها في وقت واحد. فقالوا له: إنّ علمك يفضل على علمنا فضل قدرك على أقدارنا، فليقل في التأويل خيراً، فإن الحكماء أمروا بذلك. فقال الملك: وهل لكلمة الأنس اقتدار على ردّ ما قد قضى الله، وسبق به علمه؟ فقالوا: لا يفي علمنا بتأويل هذه الرؤيا، ولا يستقلّ به غير مهراي العالم، ووصفوا له أمره فقال: لو لم تكن لي إلى هذا الرجل حاجة لآتينّه اعظاماً له وتيمّناً بلقائه، فكيف ولي إليه حاجة. ثم ركب إلى أرضه في خفٍّ[1] من رجاله وأتاه وخرّ له ساجداً وأخبره الخبر فقال العالم: لا بأس عليك من رؤياك إلى مائة سنة، ثم تضرّك بعض الضرر، ولا يبيد سلطانك، ولكنّك تسلم، وتسلم بلادك بجارية، وطبيب، وفيلسوف. قال: وكيف ذلك أيها الصادق؟ قال: إذا تمّ الأجل أتت أمّة من المغرب يملكها الاسكندر، والنصر محتفّ به. لا يطيقه الأنس والجن، يدخل المشرق ويعطيه أهله المقادة، وستسلم منه بما ذكرت، فلا يطأ لك حريماً، ولا يخرّب بلداً، وأمّته أمّة سوء، وهذه الرؤيا عليهم.

أمّا الفيل: فملك تلك الأمة خرج من الدين قبله إلاّ أتباعه.

وأمّا القرد: فالملوك على عهده يصيرون سفلاً، والسفل ملوكاً تسجد لهم الملوك.

وأمّا العطشان: فالناس في زمانه يهربون من العلم ولا يلتفتون إليه.

وأمّا المرضى: ففقراء تلك الأمة يهدون لأغنيائهم.

وأمّا البرذون: فإنّهم يرون الأخذ من الولي والعدو، ولا يرون للبذل موضعاً.

وأمّا الخوابي: فأهل المسكنة تكون فيما بين أغنيائهم فلا تنال منهم خيراً.

وأمّا الكرباسة: فتقريره ممالك الأرض على طوائف متساوية في القدر،

---

(١) الخف (بكسر الخاء وتشديد الفاء): الجماعة القليلة.

لا يغلب بعضهم بعضاً، ويتوادعون على ذلك زماناً.

وأمّا العين: فهي مخرج الأمور من غير مجاريها، وتحوّل الأمر إلى غير أهله.

وأمّا البقرة: فالمطعم يصير مستطعماً، والملوك عبيداً، إلاّ أنت وأهلك. فانصرف وقرّ عيناً إلى تمام الأجل، فإذا أتاك فلا تحاربه واهدِ له ابنتك الحسناء، وطبيبك الماهر، وفيلسوفك الطويل. ففعل ما أمره وسلم.

وهذه القصة مع صدق أمر الرؤيا في انعقاد الدول فائدة العلم بتأخرها إلى حين والله أعلم.

ورأيت في كتاب العقد[1] لأحمد بن عبد ربه القرطبي[2]: أن أحد ملوك الهند كتب إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك والذي تحته بنت ألف ملك، والذي في مربطه (مائة ألف)[3] فيل، والذي له نهران ينبتان العود، والبوّة[4]، والجوز، والكافور الذي يوجد ريحه على [مسيرة][5] اثني عشر ميلاً. إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً. أما بعد فإني أردت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني الاسلام، ويوقفني على حدوده والسلام.

وفي المروج[6]: أن ملك الهند كتب إلى كسرى: من ملك الهند

---

(١) العقد الفريد ٢/ ٢٠٢.

(٢) توفي أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي سنة ٣٢٨ هـ (أنوار الربيع ٤/ ٢٢٣).

(٣) في العقد الفريد (ألف فيل).

(٤) البوة (بفتح الباء وتشديد الواو المفتوحة): جوزة صلبة تدق وتخلط مع أجزاء التوابل والأفاويه. وهي معروفة بالعراق بهذا الاسم، ولم أجد لها ذكراً في معاجم اللغة. في العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ (الألوة) مكان (البوة) وقال المحقق: هي ضرب من العود يتبخر به.

(٥) زيادة من القعد الفريد.

(٦) مروج الذهب للمسعودي ١/ ٢٦٦.

صاحب قصر الذهب (وايوان)[1] الياقوت والدرّ إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية كسرى أنو شروان. وأهدى إليه ألف منٍّ عود هندي يذوب في النار كالشمع، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتتبين فيه الكتابة، وجاماً من الياقوت الأحمر فسحته شبر مدوّر مملوءاً درًّا وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر من ذلك، وجارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها خدَّها، وكأنّ بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ورقة تخطيطها واتقان تشكيلها، مقرونة الحاجبين لها ضفائر تحوزها، (تغنى بالفارسية والهندية والصينية، يستغرق الوجد سماعها، وترقص رقص الفرس والهند والصين، عاملة بأنواع الملاهي)[2]. وفرشاً من جلود الحيّات ألين من الحرير، وأحسن من الوشي، والله أعلم.

قيل: وقد كان الملك العظيم، والعدل الكثير، والنعم الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرخاء والأمن الذي لا خوف معه في بلاد الهند، وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب وعلم النجوم، والهندسة والصناعات العجيبة التي لا يقدر سواهم على أمثالها.

قلت: وهي الآن كما قيل:

فتَغيَّرَتْ كلُّ البلادِ وأهلُها ... وغدَتْ حَديثاً مثل أمسٍ قد مَضى

وفي بلادهم وجزائرهم ينبت العود، وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقرنفل والسنبل[3]، والدارصيني[4] والكبابة[5] والبسباسة[6] وأنواع الأدوية.

---

(١) في مروج الذهب (وأبواب).

(٢) الذي بين القوسين غير موجود في مروج الذهب.

(٣) السنبل (بالضم): نبات طيب الرائحة، يتداوى به، ويسمى سنبل العصافير.

(٤) الدارصيني: مثل لحاء الشجر ويسمى في العراق (الدارسين) يخلط مدقوقة مع التوابل (معرب).

(٥) الكبابة: دواء صيني ويستعمل مع التوابل أيضاً.

(٦) البسباسة: أوراق صفر تحذي اللسان كالكبابة.

ومن كلام ابن القِرِّيَّة[1] لما سأله الحجاج عن البلدان: الهند بحرها درّ، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر، وأهلها طغام كقطع الحمام.

وقال المسعودي: بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ، وفي جباله الجواهر، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي[2]. وفي أفواه دوابه العاج، ومن نباته الأبنوس والخيزران والقنا، والبقّم والعود وأشجار الكافور، وأشجار كثيرة، والجوز بوّاء، والقرنفل والصندل وأنواع الأفاويه والطيب والعنبر، وطيوره البباغي[3] البيض والخضر، ثم الطواويس وأنواعها في صورها واختلافها في الصغر والكبر، ومنها ما يكون كالنعامة كبراً، ومن حشرات أرض الهند سنانير الزباد، وظباء المسك. قيل: وعلة كون الطيب بأرض الهند أنّه من الورق الذي خصفه عليه آدم أبو البشر من ورق الجنّة، فإنّه لما هبط بالهند في جزيرة سرنديب على جبل الراهون وعليه الورق، يبس فذرّته الرّياح فانتثر في بلاد الهند فكان هو العلّة في ذلك والله أعلم.

وجبل سرنديب من أعجب الجبال، طوله مائتان ونيّف وستون ميلاً وفيه أثر قدم آدم عليه السلام. قيل: لا بدّ له كلّ يوم مطرة تغسل موضع قدمه، وقد لمعت عليه اليواقيت، وفيه الماس.

وفي جزائره أنواع الأفاويه، وشجر الساج، والله سبحانه أعلم.

ومما يلتحق بأخبار الهند وينتظم في سلكها قصة بابا رتن الصحابي، فلا بأس بذكرها لغرابتها: قرأت في تذكرة صلاح الدين الصفدي في الجزء

(١) هو أيوب بن زيد بن قيس الهلالي المعروف بابن القرية (بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة وتشديد الياء المفتوحة - في ع (ابن القرن) وفي ك و أ (ابن القربة) -: أعرابي أمي وخطيب يضرب المثل ببلاغته، قتله الحجاج سنة ٨٤ هـ (الأعلام ١/ ٣٨١) وترجم له الخونساري في روضات الجنات / ١١١ وسماه (اسماعيل بن زيد).

(٢) القلعي: نسبة إلى نوع من الرصاص الجيد يسمى القلعة (بتسكين اللام، وتحرك).

(٣) البباغي، كذا جاء في ك، والظاهر أنه يريد جمع ببغا، والمعروف أنها تجمع على ببغاوات. وفي ع (الساعي) وفي أ (الباغي). لم أجد الخبر في مروج الذهب ولعلني لم أهتد إليه.

الثامن[1] منها ما نصّه: نقلت من خطّ الفاضل علاء الدين علي بن مظفر[2] الكندي رحمه الله تعالى ما صورته:

حدثنا القاضي الأجل العالم جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن ابراهيم الكاتب من لفظه في يوم الأحد[3] خامس عشر ذي الحجة سنة احدى عشرة وسبعمائة بدار السعادة دمشق المحروسة. قال: أخبرني الشريف قاضي القضاة نور الدين أبو الحسن علي بن الشريف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن الحسين الحسيني الأثري الحنفي من لفظه في العشر الآخر من جمادى الأولى عام احدى وسبعمائة بالقاهرة قال أخبرني جدي الحسين بن محمد قال: كنت في زمن الصبا وأنا ابن سبع عشرة سنة أو ثماني عشرة سنة سافرت مع أبي محمد، وعمي عمر من خراسان إلى بلاد الهند في تجارة، فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى ضيعة من ضياع الهند، فعرّج القفل نحو الضيعة ونزلوا بها، وضجّ أهل القافلة فسألناهم عن الشأن فقالوا: هذه ضيعة الشيخ رتن (اسمه بالهندية) وعرّبه الناس وسموه بالمعمَّر لكونه عمّر عمراً خارجاً عن العادة. فلما نزلنا خارج الضيعة رأينا بفنائها شجرة عظيمة تظلّ خلقاً عظيماً، وتحتها جمع عظيم من أهل الضيعة، فتبادر الكلّ نحو الشجرة ونحن معهم، فلما رآنا أهل الضيعة سلّمنا عليهم وسلموا علينا، ورأينا زنبيلاً كبيرا معلقاً في بعض أغصان الشجرة، فسألنا عن ذلك فقالوا: هذا الزنبيل فيه الشيخ رَتَن الذي رأى رسول الله ﷺ مرتين ودعا له بطول العمر ست مرات، فسألنا جميع أهل الضيعة أن ينزل الشيخ[4] ونسمع كلامه، وكيف رأى رسول الله ﷺ وما يروي عنه. فتقدم شيخ من أهل الضيعة إلى الزنبيل - وكان ببكرة - فأنزله فإذا هو مملوء بالقطن، والشيخ في وسط القطن، ففتح رأس الزنبيل وإذا الشيخ فيه

---

(١) في كشف الظنون ١/ ٣٨٨ إنها بنحو ثلاثين مجلدا.

(٢) لعله علي بن المظفر بن ابراهيم الوداعي الكندي الاسكندراني ثم الدمشقي المتوفى سنة ٧١٦ هـ (الدرر الكامنة ٣/ ٢٠٤).

(٣) في ك (يوم الاربعاء).

(٤) في ك (فسألنا جميعنا أن ينزل الشيخ).

كالفرخ، فحسر عن وجهه ووضع فمه على أذنه وقال: يا جدّاه هؤلاء قوم قد قدموا من خراسان وفيهم شرفاء أولاد النبي ﷺ وقد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول الله ﷺ وماذا قال لك. فعند ذلك تنفس الشيخ وتكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية ونحن نسمع ونفهم كلامه فقال:

سافرت مع أبي وأنا شاب من هذه البلاد إلى الحجاز في تجارة، فلما بلغنا بعض أودية مكة وكان المطر قد ملأ الأودية، فرأيت غلاماً أسمر اللّون مليح الكون، حسن الشمائل وهو يرعى إبلاً في تلك الأودية وقد حال السيل بينه وبين إبله وهو يخشى من خوض السيل لقوّته فعلمت حاله، فأتيت إليه وحملته وخضت السيل إلى عند ابله من غير معرفة سابقة، فلما وضعته عند ابله نظر إليَّ وقال لي بالعربيّة: بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك. فتركته ومضيت إلى سبيلي إلى أن دخلنا مكة وقضينا ما كنّا أتينا إليه من أمر التجارة وعدنا إلى الوطن، فلما تطاولت المدة على ذلك، كنا جلوساً في فناء ضيعتنا هذه في ليلة مقمرة رأينا البدر في كبد السماء وقد انشقّ نصفين، فغرب نصف في المشرق، ونصف في المغرب ساعة زمانية، وأظلم الليل ثم طلع النصف من المشرق، والنصف الثاني من المغرب إلى أن التقيا في وسط السماء وعاد كما كان أوّل مرّة، فعجبنا من ذلك غاية العجب، ولم نعرف لذلك سبباً، وسألنا الركبان عن خبر ذلك وسببه فأخبرونا: أنّ رجلاً هاشمياً ظهر بمكة وادّعى أنه رسول الله إلى كافة العالم، وأن أهل مكّة سألوه معجزة كمعجزة سائر الأنبياء، وأنّهم اقترحوا عليه أن يأمر القمر فينشق في السماء ويغرب نصفه في المغرب، ونصفه في المشرق، ثم يعود إلى ما كان عليه ففعل لهم ذلك بقدرة الله تعالى. فلمّا سمعنا ذلك من السفار اشتقت (إلى أن أرى المذكور)[1] فتجهزت في تجارة وسافرت إلى أن دخلت مكة، وسألت عن الرجل الموصوف فدلّوني على موضعه، فأتيت إلى منزله واستأذنت عليه فأذن لي، ودخلت عليه فوجدته جالساً في صدر المنزل والأنوار تتلألأ في وجهه وقد

(١) في ك (إلى رؤية ذلك النبي).

(استثارت)[1] محاسنه وتغيّرت صفاته التي كنت أعهدها في السفرة الأولى فلم أعرفه. فلمّا سلّمت عليه نظر إليّ وتبسّم وعرفني وقال: وعليك السلام، أدن منّي، وكان بين يديه طبق فيه رطب، وحوله جماعة من أصحابه كالنجوم يعظّمونه ويبجّلونه، فتوقفت لهيبته، فقال ثانياً: أدن مني وكل فالموافقة من المروءة، والمنافقة من الزندقة. فتقدمت وجلست، وأكلت معهم من الرطب، وصار يناولني الرطب بيده المباركة إلى أن ناولني ست رطبات سوى ما أكلت بيدي. ثم نظر إليّ وتبسّم وقال لي: ألم تعرفني؟ قلت: كأني، غير أني ما تحققت، فقال لي: ألم تحملني في عام كذا وجاوزت بي السيل حين حال السيل بيني وبين ابلي، فعند ذلك عرفته بالعلامة، وقلت له: بلى والله يا صبيح الوجه، فقال لي: أمدد يدك إليّ، فمددت يدي اليمنى إليه فصافحني بيده اليمنى وقال لي: قل أشهد أن لا اله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقلت ذلك كما علّمني. فسرّ بذلك وقال لي عند خروجي من عنده: بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك، بارك الله في عمرك. فودعته وأنا مستبشر بلقائه وبالاسلام. فاستجاب الله دعاء نبيه ﷺ وبارك في عمري بكل دعوة مائة سنة، وها عمري اليوم نيف وستمائة سنة ازداد عمري بكلّ دعوة مائة سنة، وجميع من في هذه الضيعة العظيمة أولاد أولاد أولاد أولادي، وفتح الله عليّ وعليهم بكلّ خير، وبكلّ نعمة ببركة رسول الله ﷺ. تم بالخير والحمد لله.

قال الصفدي بعد نقل ذلك: كأني ببعض من يقف على حديث هذا المعمَّر يداخله شك في طول عمره إلى هذا الحدّ، ويراجع في صدقه، ويتردد فيه ويقول: إن كان ذلك مبلغه من العلم تقليداً لزاعمه. إن التجربة دلّت على أن غاية سن النمو ثلاثون سنة، وغاية سن الوقوف عشر فهذه أربعون. ويجب أن يكون غاية سنّ النقصان ضعف الأربعين المتقدمة، فيكون نهاية العمر مائة وعشرين سنة كما زعم الطبيعيون، وقالوا إنما صار زمان الفساد ضعف زمان الكون أمّا من السبب المادي فلأنّ في زمان نقصان البدن تغلب اليبوسة على

---

(١) كذا في ع و ك ، وأخالها (استنارت). وفي أ (استزادت).

البدن فتتمسك بالقوة، وأمّا من السبب الفاعلي فلأنّ الطبيعة تتأدى إلى الأفضل، وتتحامى عن الأنقص، أو كما زعم أصحاب النجوم من أنّ قوام العالم بالشمس، وسنوها الكبرى مائة وعشرين سنة فيقال له: ليس في قول الطائفتين برهان قطعي يدلّ على أنّ نهاية عمر الإنسان هذا القدر، أو قدر معيّن غيره. ولقد جاءت الكتب الإلهية صلوات الله على من أنزلت عليه بإثبات الأعمار الطويلة للأمم السالفة، قال الله تعالى في حقّ نوح (ع) «فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً»[1] والتوراة والانجيل مطابقان للقرآن العظيم في إثبات الأعمار الطويلة للآدميين، والاصرار على إنكار ذلك دليل على الجهل.

وقال الشيخ أبو الريحان البيروني في كتابه المسمّى بالآثار الباقية عن القرون الخالية[2]: وقد أنكر بعض أغمار الحشوية والدهرية ما وُصِف من طول أعمار الأمم الخالية، وخاصة ما ذكر فيما وراء زمان ابراهيم الخليل عليه السلام.

وذكر شيئاً من كلام المنجمين، ثم حكى عن ما شاء الله[3] أنه قال في أول كتابه في المواليد: يمكن أن يعيش أصحاب سنّي القِران الأوسط إذا اتّفق الميلاد عند تحويل القِران إلى الحَمَل ومثلثاته، والدلالات كانت على مثل ما ذكرنا أن يبقى المولود سني القِران الأعظم وهي تسعمائة وستون سنة بالتقريب حتى يعود القِران إلى موضعه.

وحكى أيضاً عن أبي سعيد بن شاذان في كتاب مذاكراته مع أبي معشر[4] في الأسرار: أنه أنفذ إلى أبي معشر مولوداً لابن ملك سرنديب وكان طالعه الجوزاء، وزحل في السرطان، والشمس في الجدي، فحكم أبو معشر

---

(١) الآية / ١٤ من سورة العنكبوت.

(٢) الآثار الباقية / ٧٨.

(٣) في الأصول (ثم حكى عما شاء الله) والتصويب من الآثار الباقية. وما شاء الله اسم رجل نعته البيروني في الآثار الباقية / ٧٩ بأنه أستاذ أصحاب أحكام النجوم.

(٤) هو أبو معشر الفلكي (جعفر بن محمد) المتوفى سنة ٢٧٢ هـ (الأعلام ٢ / ١٢٢).

بأن يعيش دور زحل (الأوسط، وقال: هؤلاء أهل اقليم قد تقدم بهم الحكم بطول الأعمار وصاحبهم زحل، ثم قال أبو معشر: وبلغني أن الإنسان إذا مات فيهم قبل دور زحل)[1] تعجبوا من سرعة موته. انتهى كلام أبي الريحان.

قلت[2] (وبقاء رتن المحكي عنه هذا العمر معجز لرسول الله ﷺ)[3]، وقد دعا رسول الله ﷺ لجماعة من أصحابه بكثرة الولد، وطول العمر وغير ذلك، مثل أنس بن مالك وغيره فبورك لهم في أولادهم وعمرهم. ونقل أصحاب التاريخ أنّه مات في عام وباءٍ لأنس بن مالك سبعون ولداً أو أكثر، فغير بدع لمن يدعو له ست مرات أن يعمّر ستمائة سنة مع إمكان ذلك. غاية ما في الباب أنْ نحن لم نشاهد أحداً وصل إلى ذلك، وعدم الدليل لا يدل على عدم المدلول.

قال محمد بن عبد الرحمن بن علي الزمرّدي الحنفي: وأخبرني القاضي معين الدين عبد المحسن بن القاضي جلال الدين عبدالله بن هشام بالحديث السابق سماعاً عليه قال: أخبرني بذلك قاضي القضاة (نور الدين المذكور بالسند)[4] المذكور في خامس عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، قال محمد الألفي: سألت شيخنا الحافظ الذهبي عن رتن الهندي فقال: هذا لا وجود له، بل هو اسم موضوع لأخبار مكذوبة، أو هو شيطان تبدّى لهم بصورة أنسيّ، زعم في حدود الستمائة أنّه صحب رسول الله ﷺ فافتضح بتلك الأحاديث الموضوعة، وبكلّ حال ابليس أسنّ منه. وقد صنّفتُ فيه جزءاً سمّيته كسر وثْنْ بابا رتنْ[5] ذكرت فيه طرق حديث رتن وضعفها.

---

(١) الذي بين القوسين غير موجود في ك.

(٢) القول للصفدي.

(٣) سقطت الجملة التي بين القوسين من ك.

(٤) وهذه الجملة أيضاً سقطت من ك.

(٥) وقال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٤٥ (رتن وما أدراك ما رتن. شيخ دجال بلا ريب ظهر بعد الستمائة فادعى الصحبة، والصحابة لا يكذبون، وهذا جرئ على الله ورسوله وقد ألفت في أمره جزءا، وقد قيل أنه مات سنة اثنتين وثلاثين وستمائة. =

انتهى ما قرأته في تذكرة الصفدي.

ورأيت في هامش النسخة التي نقلت منها بخط بعض الفضلاء ما صورته: وممّا يؤيد كون هذا الحديث كذباً أنّه قال في أوله في وصف رسول الله ﷺ: أسمر اللّون، وأنّه كان يرعى ابلاً. الأوّل كذب باتفاق، وأما كونه كان يرعى ابلاً فهذا ممّا لم يعرف، وإنّما الذي يعرف أنّه كان يرعى الغنم لقوله ﷺ: ما من نبيّ إلاّ ورعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة. انتهى.

وفي هامش النسخة المذكورة أيضاً منقول عن خط برهان الدين بن جماعة[1] ما مثاله: هذا الذي ذكره شيخنا الذهبي هو الحقّ، وما صدّر به الصفدي (من تجويز الوقوع لا يقتضي الوقوع، فكم من جائز ليس بواقع. وأمّا إنكار التردّد فيه والشك فخبط لا يلتفت إليه، والصواب عدم التردد في بطلانه، وليس الصفدي)[2] من رجال هذا المقام. انتهى.

وفي أوائل المجلّد الثاني من الكشكول[3]: الشيخ رضي الدين علي لالا الغزنوي وفاته سنة اثنتين وأربعين وستمائة. ذكر في أواخر الثلث الأخير من النفحات: أن هذا الشيخ سافر إلى الهند، وصحب أبا الرضا رتن، وأعطاه رتن مُشطاً زعم أنّه مشط رسول الله ﷺ. وذكر في النفحات أيضاً أنّ هذا المشط كان عند علاء الدولة السمناني كان وصل إليه من هذا الشيخ، وأن علاء الدولة لفّه في خرقة، ولفّ الخرقة في ورقة وكتب على الورقة بخطه: هذا المشط من أمشاط رسول الله ﷺ وصلةً من أبي الرضا رتن إلى هذا الضعيف. وذكر أيضاً: أنّ علاء الدولة كتب بخطّه: أنّه يقال أنّ ذلك كان أمانة من الرسول ﷺ ليصل

= ومع كونه كذابا فقد كذبوا عليه (جملة كبيرة من أسمج الكذب والمحال).

(١) هو القاضي برهان الدين بن عبد الرحيم بن محمد بن سعد الله بن جماعة. توفي سنة ٧٩٠ هـ (الدرر الكامنة ١/٣٩).

(٢) الذي بين القوسين ساقط من (ك).

(٣) كشكول البهائي ١/٢٨٦ وفي الرواية اختلاف، واضطراب هنا وهناك.

إلى الشيخ رضي الدين لالا. انتهى كلام النفحات وفيه نظر وكلام طويل. يظهر لمن رأى كلام صاحب القاموس في لفظ (رتن) وفيه رمز يعرفه من يعرفه، فحلّه إن أطقت والسلام. انتهى كلام الكشكول، وهذا كلام صاحب القاموس: رتن (محركاً) بن كربال بن رتن البترندي (قيل)[1] أنه ليس بصحابي وإنّما هو كذاب ظهر بالهند بعد الستمائة، فادَّعى الصحبة وصُدِّق، وروى أحاديث سمعناها من أصحاب أصحابه. انتهى والله أعلم.

وكانت ملوك الاسلام بالهند ستة، كلّ واحد منهم قد احتوى على قطر من أقطارها واستبدَّ بجهة من جهاتها. ومن غريب ما يحكى عن بعضهم وهو السلطان محمد شاه بن السلطان تغلق، أن المولى جمال الدين بن حسام الدين الشاعر قصده من العجم وامتدحه بقصيدة، فلما حضر مجلسه وأنشد المطلع أمره السلطان المذكور أن يكفّ عن الإنشاد وقال: إنّي لا أطيق القيام بصلتك إن أنشدتها بتمامها، ثم أمر الغلمان أن يأتوا ببدر الدنانير ويصبّوها حوله حتّى تساوي رأسه، فصبّوها فلما ساوت الدنانير رأسه قام الشاعر، فأعجب السلطان قيامه، فأمر أن يزيدوا في صبّ الدنانير حتى تساوي رأسه قائماً ففعلوا. وكانت وفاة السلطان المذكور سنة احدى وخمسين وسبعمائة.

ولم تزل ملوك الاسلام في الهند منقسمين ستة أقسام إلى أن قويت شوكة السلطان محمد همايون، وكان أكبر ملوكها، فوطئهم جميعاً واحتوى على جهاتهم ولم يقاومه أحد. ولم يبق من أولئك الملوك إلاّ ملوك الدكن مع الطاعة له والانقياد، وكانوا إذ ذاك أربعة، ثم جاء من خلف من أولاده فاحتووا على ملك ملكين منهم فبقي ملكان: أحدهما مولانا السلطان خلّد الله ملكه، والثاني عادل شاه صاحب أرض كوكن المقدم ذكره، وأكثر بلاد الهند في زماننا هذا في حوزة وِلد السلطان محمد همايون المذكور، والملك فيهم من سنة اثنتين وستين وتسعمائة، وهي السنة التي كسر فيها السلطان محمد همايون ملك دهلي[2] واحتوى على ملكه، ولم يزل في غاية من الأيد والازدياد والقوّة

---

(١) لا وجود لكلمة (قيل) في الكشكول ولا في القاموس.

(٢) (دهلي) وتسمى أيضاً (دلهي) يراجع القاموس الإسلامي ٢/٣٩٩.

والسداد، لم يطمح إليه طاكح ولم يجمح عنه جامح، والملك لله الواحد القهار.

ما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهارُ ولا ... دارَتْ نجومُ السَّماءِ في الفَلَكِ[1]

إلاَّ لِنقلِ السُّلطانِ مِن مَلِكٍ ... قد زالَ سلطانُهُ إلى مَلِكِ

وملكُ ذي العَرشِ لم يَزَلْ أبداً ... ليسَ بفانٍ ولا بمشتَرِكِ

لطيفة: كان الشيخ محمد بن حكيم الملك[2] دخل الديار الهندية فلم يطب له بها مقام، فكتب إلى القاضي تاج الدين المالكي(*) بمكة المشرَّفة كتاباً يشكو فيه أحواله، منه:

رحلت عن كعبة البطحاء والحَرم، ونزلت بساحة قوم لا يدرون ما حماية الحُرم، مثل من هو خارج من الأنوار إلى الظُّلم، ونُقلت من جوار البيت وسدنته إلى حيث خوار العجل وجوار عبدته، واستبدلت عن العكوف بالركن والمقام، الوقوف بين عبدة الأصنام، وهجرت مهابط الوحي والتنزيل ومتردَّد الروح الأمين جبرئيل، إلى مساقط أنداء الكفر والضلال ومرابط الأنعام والأفيال، وعوّضت بالمشاعر الاسلامية حيث فرض الفروض والسنن، معتكف أقوام يجرون في رفض الفرائض على سَنَن، وبُدّلت بزمزم والحطيم ومقام ابراهيم، زمزمة البراهمة على الحطيم[3]. بديار لا تطيب إلاّ لمن خلع ربقة الاسلام من عنقه، ولا ينعم بها سوى من (انعم)[4] في تخويده إلى ميادين

---

(١) وردت الأبيات منسوبة لأبي العتاهية اسماعيل ابن القاسم في هامش الصفحة / ٢٧٤ من ديوانه مع مصادر تخريجها وفي روايتها بعض الاختلاف. توفي أبو العتاهية سنة ٢١٢ هـ (أنوار الربيع ٢/٩٦).

(٢) هو الشيخ محمد بن الشيخ أحمد حكيم الملك المتوفى بالهند سنة ١٠٥٠ هـ (سلافة العصر / ١٥٨).

(٣) الحطيم - هنا - ما يبقى من نبات عام أول.

(٤) (أنعم) كذا ورد في الأصول، وفي سلافة العصر (أمعن) وهو الصواب، لأن الكلمتين وإن تعاقبتا في بعض المعاني كأن يقال: أنعم، وأمعن النظر في الأمر، فإنّ الثانية تنفرد بمعنى (العدو) فيقال: أمعن الفرس في عدوه، ولا يقال: أنعم.

الضلالة وعنقه[1]. لا يصفو لي بها عيش، ولا ألتذّ بالحياة في نعيم ولو أنّه على ما يقال: أيش وأيش.

كيفَ يَلتذُّ بالحَياةِ مُعنّىً بين أحشائهِ كوَرْي الزِّنادِ[2]

في قُرى الهِندِ جسمُه والاصيْحابُ حجازاً والقلبُ في أجْياد[3]

أقاسي من متاعب الوحدة كلّ محنة وشدّة، وأعاني من أهوال الغربة كلّ غمّة وكربة،

فما غُربةُ الإنسانِ في شُقَّه النَّوى ولكنَّها واللهِ في عَدم الشُّكلِ[4]

وإنّي غَريبٌ بينَ بُسْتَ وأهلِها وإن كانَ فيها أسْرَتي وبها أهْلي

انتهى. ومن إنشاء بعض فضلاء المتأخرين وكتبه إلى بعض أصدقائه، وكانا بالهند، وقد تلطّف أيم الله:

إن اختصاصي الأكيد، وإخلاصي الذي ما عليه مزيد، وشوقي الذي لا يكاد يوصف، ومودّتي التي ضميرك مني بها أعرف (علّة تامة في)[5] سرعة النهوض والمبادرة إلى التشرّف بتلك الذات التي جمعت بين مزايا الأدب ومفاخره ولكن حال القضاء المبرم دون المراد، وأقعدني عن القيام بهذا الموجب ما يقعد ويقيم من قواعد هذه البلاد. إذ ما من شخص إلاّ وعليه رقيب عتيد وما من نفس إلاّ ويكنفها شاهد وشهيد. تضبط الحركات والسكنات بأقلام غير الكرام الكاتبين، وترسم الدقيقة والجليلة في رقّ يقرأ من قرأه بأنّ عليكم

---

(١) التخويد: سير الوخد أي السريع، والعنق: السير الفسيح الواسع.

(٢) البيتان من قصيدة لابن الفارض (عمر بن علي) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (معجم المؤلفين ٧/ ٣٠١).

(٣) حور صاحب الرسالة هذا البيت إلى ما يوافق غرضه. والذي في الديوان (في قرى مصر) و (والاصيحاب شآما). أجياد: جبل، وهما أجيادان (كبير وصغير) وهما محلتان بمكة.

(٤) البيتان لأبي سليمان حمد بن محمد البستي، وقد تقدم ذكرهما مع التعريف بالشاعر.

(٥) في ك (تحثني على).

لحَافظين[١]. وجملة الأمر أن الحال كما قال من قال:

أتَــمــشَّــى فــي حــذارٍ مــثــلَ مَــن يــطــلــبُ صَــيْــدْ[٢]

وأنــا الــمــحــبُــوسُ لــكِــنْ لــيــسَ فــي رِجــلــيَ قَــيــدْ

انتهى. ومن قواعد أهل الدكن المأثورة ورسومهم المشهورة اعتناؤهم بعشر محرّم الحرام، وإحياؤهم لتلك اللّيالي والأيّام، فإنّهم منذ يستهلّون الشهر إلى أن تنقضي العشر لا يزالون في مآتم من الأحزان ومآثر من الأشجان، ينصبون أعلاماً قد جلّلوها بأنواع الحلل المزخرفة، ويعظّمونها ولا تعظيم شعائر الله المشرّفة، ويلقون عليها من أقسام الفلول[٣] والأزهار، ما يزدري بنواضر الرياض ذوات الأنوار، فيقيمون عندها النوح والمآتم، ويحيون سنناً قد افترضوها من فواتح وخواتم، فإذا أظلم الليل أجّجوا قريباً منها ناراً يعظمون هولها، ويندبون الحسين عليه السلام وهم يطوفون حولها. وما من بيت إلاّ وقد نصبوا فيه جملة من هذه الأعلام، زاعمين أنّ ذلك من أقرب القُرب وأعظم شعائر الاسلام. وكلّ منهم قد لبس ثوب الحداد، وتدرّع جلباب السّواد، وهم مع ذلك يجعلون حول هذه الأعلام من التماثيل ما يعدّ من الترهات والأباطيل، وينفقون على ذلك مئين وألوف، لشأن عندهم معروف ومألوف، فترى الأرض حديقة أخذت زخرفها وازّينت، وتنوعت (بريط)[٤] أزاهيرها وتلونت. فتبرز حينئذ ربّات الحجال إلى هذه المقترحات[٥] بين الرجال، فيأخذ كلّ من ذوي اللهو والشجو نصيبه المقسوم، ويتمتع كلّ من الفريقين بقيام هذه القواعد والرسوم. ولهم في هذه الأيام نوادر لا يبين عنها

---

(١) اقتباس من الآية العاشرة من سورة الانفطار (وأن عليكم لحافظين).

(٢) سقط هذا البيت من ع و أ.

(٣) الفلول، جمع الفل (بالضم): الياسمين المضاعف بالتركيب وهو زهر نقي البياض (التاج).

(٤) الريط جمع الريطة (بالفتح): كل ثوب لين رقيق غير مخيط يشبه الملحفة. لا وجود للكلمة في (ك).

(٥) المقترحات: المبتدعات، من اقترح الأمر: ابتدعه من غير سبق مثال.

البيان، ولا يفي بمعرفتها إلاّ العيان. وهذا متعارف عند صغيرهم وكبيرهم، ومأمورهم وأميرهم.

ومما اتّفق لي نظمه في عشر المحرم سنة أربع وسبعين في لابس سواده كتبت به إلى صاحبنا العفيف عبدالله بن حسين الثقفي(*):

لا تَقُلِ البدرُ لاحَ في الغَسقِ ... هذا سوادُ القُلوب والحَدقِ
إنسانُ عَيني بَدا بأسوَدِها ... فعادَ لي إذْ رَمقتُه رَمَقي
يا لابساً للسَّوادِ طبتَ شذاً ... ما المسكُ إلاَّ من نَشرِكَ العَبِقِ
لبستَ لونَ الدُّجى فسُرَّ وقَد ... أغرْتَ ضوءَ الصَّباح في الأُفُقِ
حتَّى بَدا فيه وهو مُنفلِقٌ ... يشقُّ ثوبَ الظَّلام من حَنَقِ

فأجاب وأجاد:

رُوحي فِدا من أعادَ لي رَمَقي ... لمَّا بَدا كالهِلال في الشَّفَقِ
يهتزُّ كالغُصنِ في غَلائِله ... ويَرشُقُ القلبَ منه بالرَّشَقِ
قلتُ له مُذ بَدا يُعاتِبُني ... ويمزجُ الهَزلَ منه بالحَنَقِ
لو أنصفَ الدَّهرُ يا شِفا سَقمي ... ما بِتُّ أرْعى النُّجومَ من أرَقِ
لكنْ عَسى عَطفَةٌ تُسَرُّ بها ... فيها سرُورُ القَلبِ والحَدَقِ

ووقف على ذلك السيد الجليل الأيّد المثيل[1] عبدالله بن محمد البحراني[2] فقال معارضاً، ودخل هذه الحلبة راكضاً:

أبدرُ تَمٍّ بَدا من الأفُقِ ... عمَّ جميعَ البِلادِ بالشَّرَقِ
أمْ سَبَتْ مهجَتي محاسنُهُ ... يَختالُ في ناعمٍ من السَّرَقِ[3]

---

(١) الأيد: القوي، المثيل: الفاضل، في ك (السيد الأيد الجليل، العديم المثيل).

(٢) هو السيد عبدالله بن محمد بن عبد الحسين آل شبانة البحراني، ترجم له المؤلف في سلافة العصر / ٥٠٥، وعنه أخذ المحبي في نفحة الريحانة ٣/ ١٩١ والبلادي في أنوار البدرين / ٩٧ ولم أقف على تاريخ وفاته.

(٣) السرق (محركة): الحرير (معرب).

أصبحَ من لبسِهِ وطَلْعَتِه ... يجمعُ بينَ الصَّباحِ والغَسَقِ

أبرزَهُ لبسُهُ السَّوادَ لنا ... بِمَنظرٍ ذي مَلاحَةٍ أنِقِ

قد قلتُ لما رأيتُ صورَتَهُ ... سُبحانَ بارِي الأنامِ من عَلَقِ

وبتُّ حتَّى الصَّباحِ في أرقٍ ... من هَيَمانٍ به وفي قَلَقِ[1]

أعيذُهُ والقُوى تُؤَمِّنُه ... بالنَّاسِ من شَرِّهم وبالفَلَقِ

ثم كتب إليَّ صاحبنا العفيف في عشر المحرّم من السنة المذكورة.

برُوحيَ مَجبُولاً على الحُبِّ قلبُهُ ... وقلبيَ مَجبولٌ على حُبِّه طَبْعا[2]

يُراقبُ أيَّامَ المحرَّمِ جاهِداً ... ويُطْلِعُ بَدراً والمحبُّ له يَرعَى

كلفتُ به أيّامَ دَهرِي مُنصِفٌ ... ووجهُ الصَّباطَلْقٌ وروضُ الهَوى مَرعى[3]

جَنَيْنا ثمارَ الوَصلِ من دَوحةِ المُنى ... ليالِيَ لا واشٍ ولا كاشحٍ يَسْعى[4]

فللَّه أيامٌ تَقَضَّت ولم تَعُدْ ... يحقُّ لعَيني أنْ تسحَّ لها دَمْعا

فأجبته بقولي:

بنَفسِيَ من قد حازَ لون الدُّجى فَرْعا ... ولم يَكفِه حتَّى تقمَّصَه دِرعا

بَدا فكأنَّ البدرَ في جُنحِ ليلةٍ ... تعلَّم منه كيفَ يَصدعُهُ صَدْعا[5]

نَمتهُ لنا عشرُ المحرَّمِ جَهْرَةً ... يُطارِحُ أتراباً تكنَّفَنَهُ سَبْعا

تبدَّى على رُزءِ الحُسينِ مُسَوَّداً ... وما زالَ يُولي في الهَوى كَربلا مَنْعا

وقد سَلَّ من جَفْنَيه عَضباً مُهنَّداً ... كأنَّ له في كلِّ جارحَةٍ وَقْعا

هناكَ رأيتُ الموتَ تَندى صِفاحُهُ ... وناعي الأسَى وأهلُ الهَوى صرعى

---

(١) في ك (في ضجر) مكان (في أرق).

(٢) في سلافة العصر / ٢٤١ ونفحة الريحانة ٤ / ١٤٢ (طبعه) مكان (قلبه).

(٣) في ك (وروض المنى).

(٤) في ك (فنلنا) مكان (جنينا) و (الهوى) مكان (المنى).

(٥) كذا ورد عجز البيت في الأصول، وسلافة العصر ونفحة الريحانة، وورد في ديوان المؤلف هكذا: (أو الشمس وافت في ظلام الدجى تسعى).

وما أحسن قول أحمد بن عيسى الهاشمي من ولد الواثق يعتذر من الكحل (في يوم عاشوراء)[1].

لَم أكتَحِلْ في صَباحِ يَومٍ اهْرِيقَ فيه دم الحُسينِ
إلاّ لِحُزْني وذاكَ أنّي سَوَّدتُ حتى بياضَ عَيْني

وقال آخر في ذلك:

ولائمٍ لامَ في اكتحالي يومَ أراقُوا دمَ الحُسينِ
فقلتُ دَعني أحقُّ عُضوٍ فيه بلبسِ السَّواد عَيْني[2]

(غريبة)[3]: نقلت من خط الصلاح الصفدي ما صورته: ذكر أنّ رجلاً من أهل نجران احتفر حفيرة فوجد فيها لوحاً من ذهب مكتوب فيه:

أيَرجُو مَعشرٌ قَتَلوا حُسَيْناً شَفاعَةَ جدِّه يومَ الحِسابِ[4]

كتب ابراهيم خليل الله، فجاؤا باللوح إلى النبي ﷺ فقرأه ثم بكى وقال من آذاني في عترتي لم تنله شفاعتي. انتهى.

(ومن العجيب ما حكاه)[5] أبو العباس ثعلب عن (السُّدِّي)[6] قال: أتيت كربلاء أبيع بضاعة لي فعمل لنا شيخ من طيء طعاما فتعشينا عنده، فذكر قتل الحسين (ع) فقلت: ما شرك في قتله أحد إلاّ مات بأسوء ميتة، فقال لي رجل: ما أكذبكم يا أهل العراق، فأنا ممن شرك في ذلك، فلم يبرح حتى دنا من

---

(١) لا وجود لهذه الجملة في ك، و أ.

(٢) يأتي في ك بعد هذا البيت ما نصه (وهذا خلاف الأنصاف والمروءة). وأخالها زيادة من الناسخ.

(٣) الكلمة غير موجودة في (ك) و (أ).

(٤) يأتي في ك بعد هذا البيت، البيت الآتي:

فلا والله ليس لهم شفيع وهم يوم القيامة في العذاب

(٥) في ك (وحكى) وفي أ (ومنه ما حكاه).

(٦) في ع (السعدي) وفي ك (الأسدي) وفي أ (السندي) والتصويب من مجالس ثعلب / ٣٣٩. تراجع ترجمة السدي المتوفى سنة ١٢٨ هـ في الأعلام ١/ ٣١٣.

المصباح وهو يتقد بنفط، فذهب ليخرج الفتيلة باصبعه فأخذت النار فيها، فذهب يطفئها بريقه فأخذت النار بلحيته، فعدا إلى الفرات فألقى نفسه في الماء فرأيته على الماء كأنه فحمة.

ويحكى عن الشيخ عماد الدين عبدالله بن الحسين بن النحاس[1] أنه سئل يوم عاشوراء من قبل الملك الناصر صاحب حلب[2] أن يذكر شيئا في مقتل الحسين (ع) فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى وأنشأ يقول وهو يبكي:

وَيلٌ لمن شُفعاؤهُ خُصَماؤه والصُّورُ في (نَفخ الخَلائقِ) يُنْفَخ[3]

لا بدَّ أن تَرِدَ القِيامَةَ فاطِمٌ وقميصُها بدمِ الحُسينِ مضمّخُ

ثم نزل عن المنبر وهو يبكي، وصعد الصالحية وهو يبكي فأبكى الناس.

قال ابن الأثير: كان الشيخ عماد الدين المذكور فاضلاً عالماً فصيحاً مشتغلاً بالمطالعة والعبادة، ومما أنشد عند موته:

مازلتَ تدأبُ في التَّاريخ مُجتهِداً حتّى رأيتُكَ في التَّاريخ مكتُوبا

ومن بديع المراثي في الحسين (ع) قول أبي الحسين الجزار(*):

ويعودُ عاشوراءُ يُذكرُني رُزءَ الحُسينِ فليتَ لم يَعُدِ

يومٌ سَبِيلي حين أذكرُهُ أن لا يَدورَ الصَّبرُ في خَلَدي

فليتَ عَيناً فيه قد كُحِلَتْ بِمروَدٍ لم تَخلُ من رَمَدِ[4]

---

(١) لعله عبدالله بن الحسن بن الحسن (وقيل الحسين) المعروف بالشيخ عماد الدين ابن النحاس المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (ذيل مرآة الزمان ١/ ٢٤، والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٥). في ك (أبو عبدالله ابن الحسين).

(٢) هو يوسف (الناصر) بن محمد بن الظاهر غازي آخر ملوك بني أيوب. توفي سنة ٦٥٩ هـ (الأعلام ٩/ ٣٣٠).

(٣) في ك (يوم القيامة ينفخ) وفي أ (في حشر الخلائق ينفخ).

(٤) في ك (في مرود لم تنج من رمد) والأبيات في أعيان الشيعة ٥٢/ ٤٥ والغدير ٥/ ٤٢٧ وفي رواية البيت الثالث اختلاف.

وَيَداً بِهِ لِشَمَاتَةٍ خُضِبَتْ   مَقْطُوعَةً مِن زَنْدِهَا بِيَدِي

أَمَّا وَقَد قُتِلَ الحُسَينُ بِهِ   فَأَبُو الحُسَينِ أَحَقُّ بِالكَمَدِ

وخمس أبو الحسين المذكور قصيدتي أبي تمام(*) يرثي بهما الحسين (ع)[1] أحدهما قوله (أصم بك الناعي وإن كان أسمعا)[2] والأخرى قوله (أي القلوب عليكم ليس ينصدع)[3] وخمس الموفق الحكيم المعروف بالورك[4] الدريديَّة مرثية فيه (ع).

قال رزق الله بن عبد العزيز الحنبلي[5]: اجتمعت بملحد المعرّة - يعني أبا العلاء المعري فقال لي: ما سمعت في مراثي الحسين بن علي عليهما السلام مرثية تكتب، فقلت قال بعض فلاحي بلادنا أبياتا تعجز عنها شيوخ تنوخ فقال: وما هي؟ قلت: قوله[6]:

---

(١) أي جعلهما في رثاء الحسين.

(٢) مطلع قصيدة في رثاء أبي نصر محمد بن حميد، وتمامه (وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا).

(٣) مطلع قصيدة في رثاء أبي نصر أيضاً وتمامه (وأي نوم عليكم ليس يمتنع) وجاء في ك بعد ذلك ما يأتي - وأخاله زيادة من الناسخ - (وكان الجزار بديع الشعر رقيقة، توفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة عن إحدى وسبعين سنة واسمه يحيى بن عبد العظيم).

(٤) جاء في ك (وخمس الموفق الحكيم المعروف بالوزان، الدريدية ونقلها إلى رثاء الحسين عليه السلام واسمه عبدالله بن عمر بن نصر الله الأنصاري، وهو شاعر مقتدر على النظم، طبيب بعلبكي توفي سنة سبع وسبعين وستمائة). أقول: أخال هذا الايضاح زيادة من الناسخ. وللحكيم المذكور ترجمة في فوات الوفيات ٤٨١/١ وفيه (المعروف بالوزان) وشذرات الذهب ٣٥٨/٥ وفيه (المعروف بالورل) وجاء في حاشية الشذرات (في تاريخ الاسلام للذهبي: المعروف بالورن).

(٥) هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز الحنبلي المتوفى سنة ٤٨٨ هـ عن سن عالية (طبقات الحنابلة ٢/ ٢٥٠). في ك (الحلبي) مكان (الحنبلي).

(٦) الأبيات في معجم الأدباء ١١/ ١١٠، والحماسة البصرية ١/ ٢٠٠ منسوبة لدعبل الخزاعي. وساق محقق الحماسة قصة رزق الله مع أبي العلاء، واثبت الاختلافات في الرواية.

رأسُ ابنِ بنتِ محمدٍ ووصيِّهِ   للمسلمينَ على قناةٍ يُرفَعُ
والمسلمونَ بمنظَرٍ وبمَسْمَعٍ   لا جازعٌ فيهم ولا مُستَرجِعُ
أيْقظتَ أجْفاناً وكنتَ أنَمْتَها   وأنمتَ عَيناً لم تكنْ بكَ تهجَعُ
ما رَوضةٌ إلاّ تمنَّت أنَّها   لكَ تربةٌ ولخَطِّ قبركَ موضِعُ

(انتهى من شرح الرسالة للصفدي)[1]

وقلت أنا أرثيه عليه السلام في عشر محرم سنة اثنتين وسبعين:

نَفسي الفداءُ لمقتولٍ على ظَمأً   لم يُسَقَ إلاّ بحدِّ البيضِ والأسَلِ
نَفسي الفداءُ له من هالِكٍ هلكَتْ   له الهِدايةُ مِن علمٍ ومن عَملِ
قَرَّتْ به أعينُ الأعداءِ شامتَةً   واسْخِنَتْ أعينُ الأمْلاكِ والرُّسُلِ
أفدِيه مُستَنصِراً قد قلَّ ناصرُهُ   ومُستَضاماً قليلَ الخَيلِ والخَوَلِ
يا صرعةً صُرِعَتْ شُمُّ الأنوفِ بها   وأصبحَ الدينُ منها عاثِرَ الأملِ
قد أثكلَتْ بَضْعةَ المختارِ فاطمةً   وأوجَعَتْ قلبَ خَيرِ الأوصياءِ عَلي

وأبدع الشريف الرضي (رض)(*) في قوله من قصيدة يرثيه (ع):

كأنَّ بيضَ المواضي وهيَ تَنهبُهُ   نارٌ تحكَّمُ في جسْمٍ من النُّورِ[2]

قال الصلاح الصفدي في شرح الرسالة: قيل لابن الجوزي وهو على المنبر: كيف يقال: أنّ يزيد قتل الحسين (ع) وهو بدمشق، والحسين قتل بكربلاء من أرض العراق؟ فأنشد:

سَهمٌ أصابَ وراميهِ بذي سَلَمٍ   من بالعِراقِ لقد أبْعدتِ مَرماكِ

والبيت للشريف الرضي من قصيدته التي أوّلها:

يا ظَبيةَ البانِ تَرعى في خَمائله   ليهنِكِ اليومَ أنَّ القلبَ مَرْعاكِ
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشارِبه   وليسَ يرويكِ إلاّ مدمعي الباكي

---

(١) سقطت هذه الجملة من (ك).

(٢) يأتي في ك بعد هذا البيت (وقال الشريف المرتضى أخوه من قصيدة فيه عليه السلام
فيا لها مظلمة أولجت   على رسول الله في القبر)

وهذه لمعة من بوارق البيان، وزهرة من حدائق الاحسان ممّا جمعته يد الأقلام، وابتزّته من صحائف الأعلام، آثرت إثباتها في هذا التأليف تأليفاً للنفوس، وتفويفا للطروس، وقد قيل: الشعر مؤتلف العقول، ومختلف النقول، وكفاه شرفاً وفخراً (أنَّ من الشعر لحكمة، وأن من البيان لسحراً). وللّه درّ ابن أوس الطائي[1] حيث يقول:

ولو لا خِلالٌ سَنَّها الشعرُ ما دَرى ... بُناةُ المعَالي أينَ تُبنَى المكارِمُ[2]

فمن ذلك لمعن بن أوس المزني[3].

لَعمرُكَ ما أهْويتُ كفِّي لريبَةٍ ... ولا حملَتْني نحوَ فاحشَةٍ رِجلي

ولا قادَني سَمْعي ولا بَصري لها ... ولا دَلَّني رَأيي عليها ولا عَقْلي

وأعلمُ أنّي لم تُصِبْني مُصِيبَةٌ ... من الدَّهرِ إلاَّ قد أصابَتْ فتىً قبلي

بعض العرب:

ولا يَشتكيني الجارُ إنْ سار ظاعِناً ... ولا يَشْتكي ابنُ العمِّ غَيبي ومَشْهدي

وإنِّـيَ إنْ أوْعَـدتُـه أو وَعَـدْتُـهُ ... لمَخلِفُ إيعادِي ومنجزُ مَوْعِدي

أبو الأسود الدؤلي(*) ينصح ابنه[4]:

العيشُ لا عَيْش إلاَّ ما اقتصدتَ فإنْ ... تُسْرِفْ وتُقتِرْ لَقيتَ الضُرَّ والعَطَبا

والعلمُ زينٌ وتشريفٌ لصاحِبِه ... فاطلُبْ هُدِيتَ فنونَ العِلمِ والأدَبا

لا خَير فيمَنْ له أصلٌ بلا أدَبٍ ... حتى يكونَ على ما زانَه حَدِبا

---

(١) هو أبو تمام الطائي وقد مرّ ذكره.

(٢) في ك (بغاة المعالي) وفي الديوان (بغاة الندى من أين تؤتى المكارم) وأثبت المحقق في الهامش روايات أخرى.

(٣) معن بن أوس: شاعر من مخضرمي الجاهلية والاسلام. عمر طويلاً وتوفي في زمن عبدالله بن الزبير (أنوار الربيع ٢/ ٨٤). عدد الأبيات في أمالي القالي ٢/ ٢٣٤ خمسة، وفي الصناعتين / ٥٥: أربعة.

(٤) في ديوان أبي الأسود (المستدرك) سبعة أبيات من القصيدة، وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

كم مِن حَسيبٍ أخي عيٍّ وطَمْطَمَةٍ ... فَدْمٍ لَدى القَوم مَعرُوف إذا انتَسَبا

في بيتِ مَكرُمَةٍ آباؤهُ نُجُبٌ ... كانوا رُؤوساً فأمسَى بَعدهم ذَنَبا

وخاملٍ مُقرفِ الآباءِ ذي أدَبٍ ... نالَ المَعاليَ بالآدابِ والرُّتَبا

أصْحَى عَزيزاً عظيمَ الشَّأنِ مُشتهِراً ... في خَدِّهِ صَعَرٌ قد ظَلَّ مُحتَجِبا

العلمُ كَنزٌ وذُخْرٌ لا نَفادَ له ... نِعم القَرينُ إذا ما صاحبٌ صَحِبا

قَد يجمعُ المرءُ مالاً ثمَّ يُسْلَبُه ... عمَّا قليلٍ فيلقَى الذُّلَّ والحَرَبا

وحامِلُ العِلم مَغبُوطٌ به أبَداً ... ولا يُحاذِرُ منه الفَوْتَ والسَّلَبا

يا جامِعَ العِلم نعمَ الذُّخر تَجمعُهُ ... لا تَعدِلَنَّ بِه دُرًّا ولا ذَهَبا

أحمد بن أبي طاهر[1] في التوسط بين الدنيا والدين (وقضاء حق كل منهما في حينه)[2].

رَكبتُ الصِّبا حتى إذا ما وَنَى الصِّبا ... نزلتُ من التَّقْوى بأكرَمِ مَنزِلِ

ودينُ الفَتى بينَ التَّماسُكِ والنُّهى ... ودُنيا الفَتى بين الهوى والتَّغزُّلِ

المعرِّي(*):

لئن كنتَ تَهوى العَيشَ فابْغِ تَوسُّطاً ... فعِندَ التَّناهي يَقصُرُ المُتطاوِلُ[3]

تُوقَّى البُدورُ النَّقصَ وهيَ أهِلَّةٌ ... ويُدْرِكُها النُّقصانُ وهيَ كوامِلُ

آخر وأجاد ما شاء:

وما الدَّهرُ إلاَّ شرُّهُ قبلَ خَيرِه ... ولذَّاتُ عَيشٍ غالَبَتْها الفَجائعُ

فثغرٌ بأيَّامِ المسرَّةِ ضاحِكٌ ... وطَرْفٌ بأيَّامِ الحَوادِثِ دامِعُ

بعض المحبين[4]:

أحسَنْتَ ظَنَّكَ بالأيَّامِ تَلبَسُها ... ولم تَخَفْ غِبَّ ما يَأتي به القَدَرُ

---

(١) هو أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور. توفي سنة ٢٨٠ هـ (أنوار الربيع ٢/ ١١٠).

(٢) سقطت هذه الجملة من ك، وسقط اسم أحمد بن أبي طاهر من (أ).

(٣) في شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٢ (وإن) مكان (لئن).

(٤) في ك (وقول الاخر) وفي أ (غيره).

وسالَمتْكَ اللَّيالي فاغتررتَ بها　　وعندَ صَفْوِ اللَّيالي يَحدُثُ الكَدَرُ

محمود الوراق[1]:

أظـهَـرُوا لـلـنَّـاسِ سَـمْـتـاً　　وعَـلـى الـمـنـقُـوشِ دارُوا

ولـه صـلُّـوا وصـامُـوا　　ولـه حَـجُّـوا وسـاروا

لـو رأوْهُ فـي الـثُّـرَيَّـا　　ولـهـم رِيـشٌ لـطـارُوا

أنشد أبو عبيدة[2] لبعضهم:

أدْنِ الرِّجالَ على مِقدارِ سَعْيِهم　　وأعْطِ كُلاًّ بما أبْلَى وما صَبَرا

واعْزِم على الرَّأي ما صحَّتْ مذاهبُهُ　　وما تحيَّرتَ فيه فاتْبَعِ الأثَرا[3]

ابن الرومي[4]:

تَغْنَوْنَ عن كلِّ تَقرِيظٍ بمَجْدكمُ　　غِنَى الظِّباءِ عن التَكحِيلِ بالكَحَلِ

تَلوحُ في دُوَلِ الاسلامِ دَولتُكم　　كأنَّها ملَّةُ الاسلامِ في المِلَلِ[5]

آخر وأجاد[6]:

سقَى اللهُ أيَّاماً لنا لَسْنَ رُجَّعاً　　علينا وعَصرَ العامِرِيَّةِ من عَصرِ

لياليَ أعطَيْتُ الصَّبابَةَ مِقوَدي　　تَمرُّ اللَّيالي والشُّهورُ ولا أدري

---

(١) هو محمود بن حسن الوراق المتوفى نحو سنة ٢٢٥ هـ (الأعلام ٨/ ٤٢). في (غيره وأجاد).

(٢) لعله أبو عبيدة النحوي (معمر بن المثنى) المتوفى سنة ٢٠٩ هـ (الأعلام ٨/ ١٩١).

(٣) صدر البيت في ك هكذا (وثق بمن لك قد صحت مذاهبه).

(٤) هو علي بن العباس المتوفى سنة ٢٨٣ هـ (أنوار الربيع ١/ ١٤٩). لا وجود للبيتين في ك. ووردا في أ بدون عزو.

(٥) في الديوان (اختيار كامل كيلاني) - دولة الأيام دولتكم).

(٦) لا وجود للبيتين في ك ، وهما لمجنون ليلى من قصيدة مثبتة في ديوانه، ووردا في سمط اللالي/ ٧٦٣ منسوبين لطلحة بن أبي الصفي الفقعسي، وفي أمالي القالي ٢/ ١٣٩ ، والبصائر والذخائر ٣/ ٢٨٣ بدون عزو.

بعضهم[1]:

لأشكُرَنَّكَ مَعرُوفاً هَمَمْتَ به   أنَّ اهتمامَكَ بالمعرُوفِ مَعروفُ

ولا ألومُكَ إنْ لم يُمْضِهِ قدرٌ   فالشيءُ بالقَدَرِ المحتومِ مَصْرُوفُ

بعض الأعراب في الأدعية المرفوعة[2]:

وساريةٍ لم تَسْرِ في الأرضِ تَبْتَغي   مَحلاً ولم يَقطَعْ لها السَّيرَ قاطِعُ

سَرَتْ حيثُ لم تُحدَ الركابُ ولم تُنَخْ   لِوِرْدٍ ولم يَمنَعْ لها السَّيرَ مانِعُ

تسيرُ وراءَ اللَّيلِ واللَّيلُ ساقِطٌ   بأرْواقِهِ فيه سَميرٌ وهاجِعُ

إذا ورَدَتْ لم يَرْدُدِ اللهُ وِرْدَها   على أهْلِها واللهُ راءٍ وسامِعُ

تَفَتَّحُ أبوابُ السَّماواتِ دُونَها   إذا قرعَ الأبوابَ منهنَّ قارِعُ

وإنِّي لأرجُو اللهَ حتَّى كأنَّما   أرَى بجميلِ الظَّنِّ ما اللهُ صانِعُ

فائدة: ذكر يعقوب بن اسحاق[3] في رسالة مقصورة على أوقات الدعاء: أن القمر وعطارد إذا قارنا كوكب كفّ الخضيب كان وقتا للدعاء بالغنى والشجاعة، ويستجاب له في وسط عمره، وإن قارنه زحل بسعود سعد الداعي من أوسط عمره إلى آخره وإن كان منحوساً افتقر وضعف، وذلك أن من الأدعية ما ينعكس على داعية فيصير إلى ضد ما يرتجيه. كما يحكى أن أهل طبرستان أجدبوا أيام الحسن بن زيد العلوي[4] فخرجوا يستسقون، فما فرغوا من دعائهم إلا والحريق مضطرم في أطراف البلد حتى قال أبو الغمر[5]:

---

(١) البيتان في نهاية الأرب للباهلي (لعله محمد بن حازم)، وفي التذكرة السعدية /٣٥٨ لعمر بن المبارك المتوفى نحو سنة ٢٠٠ هـ (الأعلام ٩/٢٥٩).

(٢) الأبيات في زهر الاداب ٢/٨٤٢ لمحمد بن حازم، وفي العقد الفريد ٣/٢٢٧، وعيون الأخبار ٢/٢٨٦ بدون عزو. وفي رواية بعضها اختلاف.

(٣) لعله يعقوب بن اسحاق الكندي الفيلسوف المشهور. له رسالة في التنجيم، واختيارات الأيام، توفي سنة ٢٦٠ هـ (الأعلام ٩/٢٥٥).

(٤) هو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل العلوي مؤسّس الدولة العلوية بطبرستان. توفي سنة ٢٧٠ هـ (الأعلام ٢/٢٠٦).

(٥) هو أبو الغمر الطمري (ولعله الطبري) واسمه هارون بن موسى (وقيل ابن محمد) =

خَرجُوا يَسألونَ صوبَ غَمامٍ   فأجِيبُوا بصَيِّبٍ من حَريقِ
جاءَهُمم ضِدُّ ما تمنَّوْهُ إذ جاءت   قُلوبٌ مَحشُوةٌ بفُسُوقِ

قال يعقوب: فإن قارن كف الخضيب المشتري نصر الداعي على ظالمه، وإن قارنته الزهرة أجيبت دعوته في المال[1] وقل عمره، وإن قارنه المريخ كان الداعي وقت دعائه ظالما من يدعو عليه وحرم الإجابة.

قلت: وهذا لا استبعاد فيه، فقد ذهب طائفة كثيرة من الأوائل والأواخر إلى أنه إذا استعين في الأدعية بأشكال من الكواكب في أوقات مسعودة كانت مؤثرة ومرجوة، وهو كما يستعان فيها بتجريد الفكر وتصحيح النية والبروز في الجماعات إلى الصحاري وغير ذلك، والله أعلم، وما أحسن قول القائل:

أتلعبُ بالدُّعاءِ وتَزْدَريهِ   فسوفَ يَبينُ ما صنعَ الدُّعاء[2]
سِهامُ اللَّيلِ لا تُحطي ولكِنْ   لها أمدٌ وللأمَدِ انقِضاءُ[3]

عروة بن حزام[4]:

جعلتُ لِعرّافِ اليَمامةِ حُكمَهُ   وعَرّافِ نَجدٍ إنْ هُما شَفَيَاني[5]
فما تَركا من سَلوةٍ يَعْرِفانِها   ولا رُقيَةٍ إلاَّ بها رَقَياني
فَقالا شَفاكَ اللهُ واللهِ ما لَنا   بما ضُمِّنتْ منكَ الضُّلوعُ يدانِ

آخر:

أعلِّلُ بالمُنى قَلبي لأنّي   أذُودُ الهَمَّ بالتَّعليلِ عَنّي

= كاتب الحسن بن زيد العلوي المتقدم ذكره (معجم الشعراء / ٤٦٣).

(١) في ك (في الحال) مكان (في المال).

(٢) في ك (أتهزأ بالدعاء).

(٣) في ك (وللأمد انتهاء).

(٤) هو عروة بن حزام العذري. توفي في أوائل أيام معاوية (أنوار الربيع ١/ ٣٧٧) لم يرد اسمه في (أ).

(٥) الأبيات من قصيدة في الأغاني ٢٣/ ٢٩٨ وفوات الوفيات ٢/ ٧٣ والشعر والشعراء / ٥١٩ وفي رواية بعض أبياتها اختلاف.

وأعلمُ أنَّ وصلَكَ لا يُرَجَّى ... ولكن لا أقَلَّ من التَّمنِّي

مجنون ليلى(*):

أمانيُّ من لَيلى حِسانٌ كأنَّما ... سَقَتْني بها لَيلى على ظَمأ بَرْدا[1]

مُنىً إن تكُنْ حقًّا تكن غايَةَ المُنى ... وإلاَّ فَقد عِشْنا بها زَمَناً رَغْدا[2]

بعضهم:

قلتُ لعَبْدي إذ عَصاني ولم ... يَنتَهِ عمَّا كنتُ أنْهاهُ

عصَيْتَ مَولاكَ اقتداءً به ... كما عَصى مَولاكَ مَوْلاهُ

الشيخ كمال الدين ميثم البحراني[3].

جمعتُ فنونَ العِلم أبْغي بها العُلى ... فقَصَّر بي عمَّا سَمَوْتُ به القِلُّ

فَقد بانَ لي أنَّ المَعالي بأسْرِها ... فروعٌ وأنَّ المالَ فيها هو الأصْلُ

قلت: بل الأمر أعظم من هذا، فقد قيل: ربّما يقدح في عدالة الرجل اقلاله، كما يحكى أنّ محمد بن عبد الرحمن بن الأسود شهد عند ابن أبي ليلى[4] شهادة فتوقّف في شهادته مع أنّه نسيج وحده في زمانه. قال سفيان بن عيينة[5] فناظرته وقلت: أنّى لك بالكوفة رجل مثله؟ قال: هو كذلك إلاّ أنّ الذي شهد به عظيم، والرجل فقير. فأعجبني هذا من قوله.

وقال آخر من أبيات[6]:

ذَريني للغِنى أسْعَى فإنِّي ... رأيتُ الناسَ شَرُّهُم الفقيرُ[7]

---

(1) لا وجود لهذين البيتين في ديوان مجنون ليلى، ووردا في (أ) بدون عزو.

(2) في ك (منى أن تكن حقا فقد أحسن المنى).

(3) هو ميثم بن علي البحراني (كمال الدين)، توفي سنة ٦٧٩ هـ (معجم المؤلفين ١٣/ ٥٥). والبيتان في أنوار البدرين /٦٨ وفي روايتهما اختلاف.

(4) هو محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى القاضي. توفي سنة ١٤٨ هـ (الأعلام ٧/ ٦٠).

(5) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي. توفي سنة ١٩٨ هـ (الأعلام ٣/ ١٥٩).

(6) هو عروة بن حزام، وقد تقدم ذكره.

(7) في الديوان (دعيني) مكان (ذريني).

وأبعدُهُم وأهوَنُهُمْ عليهم وإنْ أمْسَى له حَسبٌ وخِيرُ

القاضي أبو الحسن[1]:

ما تَطعَّمتُ لذَّةَ العَيشِ حتَّى صرتُ في وِحْدَتي لكُتبي جَليسا

ليسَ شيءٌ أجلَّ عِنديَ من نَفْسِي فلم أبتغِ سِواها أنِيسا

إنَّما الذُّلُّ في مُداخَلةِ النَّاسِ فدَعْها وعِشْ كريماً رئيسا

بعضهم وأجاد:

أناسٌ أمنَّاهُم فنمُّوا حَدِيثَنا فلمَّا كتَمْنا السِرَّ عَنهم تَقَوَّلوا

ولم يَحْفَظوا الودَّ الذي كان بَيْننا ولا حِينَ هَمُّوا بالقَطيعةِ أجْمَلوا

عبيد الله بن عبدالله بن طاهر[2]:

خَليليَّ لو كانَ الزَّمانُ مُساعدي وآذَيْتُماني لم يَضِقْ عَنكما صَدْري

فأمَّا إذا كانَ الزَّمانُ مُعانِدي فلا تَصْبَحا عَوناً عَليَّ مع الدَّهرِ

وهو من قول بعضهم: ليسع الرجل في اخوانه أن يكون جاراً[3] لهم من الحدثان، فإن لم يمكنه فليجهد أن لا يكون عليهم مع الزمان. ولي قريب من هذا المعنى من قصيدة:

اللهُ لي مِن واعدٍ وعدُهُ كذبٌ وفي الانجازِ مِن يَلْمَعِ

يمنعُني العَذْبَ ولمَّا يَزَلْ يُنهلُني بالآجنِ المُنْقَعِ

مالَ مع الدَّهرِ عَلى رَوْعَتي ولم يَمِلْ يوماً عليهِ مَعي[4]

المبرّد[5]:

---

(١) هو القاضي أبو الحسن الجرجاني (علي بن عبد العزيز) وقد تقدم ذكره.

(٢) هو عبيد الله بن عبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي المتوفى سنة ٣٠٠ هـ (الأعلام ٤/ ٣٥٠). في أ (عبدالله بن طاهر). والبيتان في حماسة الظرفاء ١/ ٢٠٦ لعبيد الله بن عبدالله المذكور، وفي البصائر والذخائر ٤/ ٩٩ بدون عزو. وفي روايتهما اختلاف.

(٣) الجار - هنا - بمعنى المستجير، والمجير، والمقصود المعنى الثاني.

(٤) في ك (على لوعتي).

(٥) هو محمد بن يزيد المبرد. توفي سنة ٢٨٥ هـ (معجم المؤلفين ١٢/ ١١٤) وفي ك (لبعضهم).

وكنتُ إذا الصَّديقُ أرادَ غَيظي ... وأشْرَقني على حَنقٍ بِريقي[1]
غفرتُ ذنوبَه وكظمتُ غَيظي ... مخافةَ أنْ أعيشَ بلا صَديقِ[2]

وهو من قول بشّار[3]:

إذا أنتَ لم تشرَبْ مراراً على القَذى ... ظمِئتَ وأيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشاربُهْ
فعِشْ واحداً أوصِلْ أخاكَ فإنَّه ... مُقارفُ ذَنبٍ مرَّةً ومُجانِبُهْ[4]

ولكثّير(*) في المعنى[5].

ومَن لم يُغمِّضْ عينَه عن صَدِيقِهِ ... وعن بَعضِ ما فيه يَمُتْ وهو عاتبُ
ومن يتَتَبَّع جاهداً كلَّ عَثْرَةٍ ... يَجِدْها ولم يَسلَمْ له الدَّهرَ صاحبُ

ومن كلام ابراهيم النخعي[6]: لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً. وهو من الحديث (اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه، وانتظروا فيئته).

ويحكى أن أخوين في السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة، فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟ فقال: أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت، وأنا حقيق بأن آخذ بيده، وأتلطَّف له في المعاتبة، وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه. وفي شعر عمر بن أبي ربيعة(*) زيادة على هذا، وهو:

وخلٍّ كانَ عينَ النُّصحِ منِّي ... ومستمعاً لما أهوى سَميعا[7]

---

(١) البيتان في الصداقة والصديق / ٣١ بدون عزو.

(٢) في الصداقة والصديق (عفوت ذنوبه وصفحت عنه).

(٣) توفي بشار بن برد سنة ١٦٧ هـ وقيل ١٦٨ (أنوار الربيع ١/٣٦، ومقدمة ديوان بشار).

(٤) في الديوان (مفارق) مكان (مقارف) ولكل من الروايتين وجه مقبول أوضحه المحقق.

(٥) البيتان في الصداقة والصديق / ٢٤٤ مع اختلاف في الرواية والترتيب، وما أثبته المؤلف موافق لرواية حماسة البحتري / ٧٢.

(٦) هو ابراهيم بن يزيد النخعي فقيه تابعي توفي سنة ٩٦ هـ (الأعلام ١/٧٦).

(٧) رواية البيت في الديوان هكذا:

وخل كان عين النصح مني ... إذا نظرت ومستمعا سميعا

أطافَ بغيِّه فنهيتُ عَنها وقلتُ له أرى أمراً شَنِيعا

أردتُ رَشادَه جَهدي فلمَّا أبَى وعَصى أتَيْناها جَميعا

وممّا يستملح من كلام بعضهم: يُستحب من الخريف الخصب، ومن الربيع الزهر، ومن الجارية الملاحة، ومن الغلام الكيس، ومن الصاحب الرفق، ومن القريب الانبساط، ومن الغريب الانقباض.

وقيل: لا شيء أسوأ لصحبة الأحرار من هتك أعراضهم، فإن الحرّ لا يرضيه عن عرضه شيء.

وعلى ذلك يحكى: أنّه كان للفضل بن يحيى كاتب نافذ في صناعته، فبينما الفضل يوماً قد خلا به في بيت يملي عليه كتاباً ويخفض صوته، فاحتاج الكاتب أن يستفهمه ما يخفى عليه من كلامه فاستعاده حرفين، فشق ذلك على الفضل، فقال للكاتب: كم تستعيدني يا بيطار ؟ وكان الفضل صلفاً تيّاهاً بنفسه. فلما قال للكاتب هذا القول ألقى قلمه في دواته وأطبقها وقال للفضل: بهذا تعاشر الأحرار، وهذا ما كنت أرجو منك؟ فندم الفضل على ما كان منه وقال له: عد إلى كتابك. فحلف الكاتب بأغلظ الأيمان لا يكتب له أبداً، فقلق الفضل من ذلك، ودار بينهما كلام كثير، وتأدّى الخبر إلى يحيى بن خالد، فركب من ساعته حماراً مصرياً كان يركبه من داره إلى دار ولده. فما شعر الفضل إلاّ أن هجم عليه. فلما رأى أباه قام وقعد يحيى في الصدر، وجلس الفضل، ثم أمر الكاتب أن يجلس وقال: فبماذا أنتم؟ فقال الفضل: كنت أملي عليه كتاباً، قال: بلغني الخبر، وصدق الرجل. فإنّ الملوك لا يُخدمون إلاّ للاعتزاز بهم، فإذا أسمعت كاتبك مثل هذا الكلام وأوغرت صدره فبماذا تجتلب نصحه؟ ثم أقبل على الكاتب وقال: قد أعفيناك مما كرهت، وأمرنا لك بمائة ألف درهم. فاختلف إلينا لنشغلك في بعض الأعمال التي تصلح لها.

بعضهم(١):

إنْ كنتَ تَبغي العلم أو أهلَه وشاهِداً يُخبرُ عن غائِبِ

---

(١) البيتان في العقد الفريد ٢/ ٣١١ من دون عزو، وفي روايتهما اختلاف.

فاعتَبر الأرضَ بأسْمائها واعتبر الصَّاحبَ بالصَّاحِبِ

آخر:

ألا ربَّ باغي حاجةٍ لا ينالُها وآخر قد تُقضَى له وهو آيِسُ

يكدُّ لها هذا وتُقضَى لغيرِه وتأتي الذي تُقضَى له وهو جالِسُ

آخر:

إذا كان جَدُّ المرء في الأمر مُقبلاً تأتَّتْ له الأشياءُ من كلِّ جانبِ

وإن أدبَرتْ دنياهُ يوماً توعَّرت عليه فأعيَتْه وجوهُ المَطالبِ

آخر:

نهايةُ أهواءِ القُلوب بَعيدةٌ ومِن دُونها للحادثاتِ مصائدُ

فنحنُ كطَيرٍ يبتَغي الحَبَّ مُسرِعاً ودونَ الذي يَبْغيهِ فَخٌّ وصائدُ

لطيفة: قيل: أنّ عصفوراً بلغ إلى فخّ موضوع في التراب، فقال له العصفور: من أنت؟ قال: عبد من عبيد الله، قال: فلم جلست على التراب؟ قال: تواضعاً، قال: فلم انحنى ظهرك؟ قال: من خشية الله، قال: فلم شددت وسطك؟ قال: للخدمة، قال: فما هذه القصبة؟ قال: هذه عصاي أتوكأ عليها، قال: فما هذه الحبَّة؟ قال حبّة أتصدّق بها، فقال العصفور: أتجوّز لي أن التقطها؟ فقال الفخ إن احتجت فافعل، فدنا العصفور من الحبّة فانطبق عليه الفخ وأخذ بحلقه، فقال العصفور: حيق حيق، فقال له الفخّ: قل ما شئت فما لخلاصك من سبيل، فقال العصفور: اللهم إني أعوذ بك من شخص ذاك قوله وهذا فعله.

لبعضهم:

يجدُّ بنا الزَّمانُ ونحنُ نَلهُو ولا نَدري متى يَردُ الحِمامُ

ويخدعُنا الهَوى في ظِلِّ عيشٍ يمرُّ بنا كما مرَّ الغَمامُ

كركبِ سَفينةٍ في لُجِّ بَحرٍ تسيرُ بهم وهُم فيها نِيامُ

آخر:

تقولُ سُلَيْمى ما لجِسمِكَ شاحِباً ... ووجهُكَ أضْحى ساهِمَ اللَّون أغْبَرا

فقلتُ لها يا سَلْمُ من كان هَمُّهُ ... كهمِّي ولاقى ما لقيتُ تَغيَّرا

آخر[1]:

خَليليَّ لو أنَّ همَّ النُّفُوسِ ... دامَ عليها قَليلاً قَتَلْ[2]

ولكنَّ شَيئاً يُسمَّى السُّرورُ ... قَديماً سَمِعنا به ما فَعَلْ

آخر:

باتا بأنْعمِ عيشةٍ حتَّى بَدا ... صبحٌ تألَّق كالأغرِّ الأشقر[3]

آخر:

لاذا أتَى طلباً ولاذا يَأتلي ... هَرباً فذا تعِبٌ وذا مَكدُودُ[4]

كاللَّيل يطلبُه النَّهارُ بضَوئه ... وظلامُه بضيائه مطرُودُ

آخر:

ما للمعيلِ ولِلمعالي إنَّما ... يَسعى اليهنّ الدَّؤوبُ الفارِدُ[5]

كالشَّمس في أفق السَّماء تجوبُها ... وأبو البَناتِ النَّعشُ فيها راكِدُ[6]

آخر:

قد كنتُ أعذلُ في الصَّبابة أهلَها ... فاعجَبْ لما تأتي بِهِ الأيَّامُ

واليوم أعذرُهم وأعلمُ إنَّما ... سبلُ الغواية والهُدى أقسامُ

آخر:

---

(١) البيتان في التمثيل والمحاضرة ١٠٤ منسوبان لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر بن الحسين الخزاعي.

(٢) في التمثيل والمحاضرة (ثلاثا) مكان قليلا).

(٣) في ك (وجه الصباح كما الأغر الأشقر).

(٤) يأتلي: يقصر، ويبطئ.

(٥) الفارد: المنفرد.

(٦) في ك (وأبو بنات النعش).

بـلـوتُ أخـلاَّءَ هـذا الـزَّمـانِ فأقْللتُ بالهَجرِ منه نَصيبي
وكـلُّـهـمُ إنْ تـأمَّـلـتَـهُـم صديقُ العِيانِ عدُو المغيبِ

آخر[1]:

الصبرُ مفتاحُ ما يُرجَّى وكلُّ صَعْبٍ به يَهُونُ
فاصبِرْ وإن طالَتِ اللَّيالي فربَّما أمْكنَ الحَرُونُ
وربَّما نِيلَ باصْطِبارٍ ما قيلَ هَيهاتَ لا يَكونُ

بعضهم:

ما عضَّني زمنٌ إلاَّ لبستُ له ثَوباً من الصَّبر لا يَبْلى على الزَّمنِ
إنَّ الكريمَ إذا نابَتْهُ نائبةٌ ألفيتَه وجميلَ الصَّبرِ في قَرَنِ

حاضر، مولى يحيى بن عبدالله بن الحسن[2]:

تعوَّدتُ مسَّ الضُرِّ حتى ألِفْتُه وأسْلَمني حسنُ العَزاءِ إلى الصَّبرِ[3]
وصَيَّرني يَأسي من النَّاسِ واثقاً بحسنِ صَنيعِ اللهِ من حيثُ لا أدري
ووسَّع صَدري بالأذى كثرةُ الأذى وقد كنتُ أحياناً يَضيقُ به صَدري
إذا أنا لم أقبَلْ من الدَّهرِ كلَّ ما تكرَّهتُ منه طالَ عَتبي على الدهرِ

التهامي[4]:

لله درُّ الحادثاتِ فإنَّها صَدأُ اللِّئام وصَيْقَلُ الأحْرارِ[5]
ما كنتُ إلاَّ زَبرةً فطبَعْنَني سَيفاً وأطلقَ حدَّهنَّ غِراري[6]

---

(١) البيتان في الفرج بعد الشدة / ٤٦١ بدون عزو.

(٢) تراجع الأبيات وأخبار الشاعر في الأغاني ٤/ ٩٤ ومقاتل الطالبيين / ٤٢٥ و ٦٢٢، ووفيات الأعيان ١/ ٢٠٢، وعمدة الطالب / ٢٣٠، وأعيان الشيعة ١٨/ ٣٦٦.

(٣) في ع، و ك (حسن البلاء) والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية المصادر التقدم ذكرها.

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد التهامي المتوفى سنة ٤١٦ هـ (أنوار الربيع ١/ ٦٢).

(٥) في الديوان (النائبات) مكان (الحادثات).

(٦) في الديوان / ٦٣ (هل كنت) و (وأطلق صرفهن).

آخر[1]:

لقد فارقَ الناسُ الأحبَّةَ قبلَنا ... وأعيا دواء الموتِ كلَّ طَبيبِ[2]

فربَّ كئيبٍ ليسَ تذري جفونُه ... وربَّ كثيرِ الدَّمع غيرُ كئيبِ[3]

آخر:

لقد خفتُ حتَّى لو تمرُّ حمامةٌ ... لقلتُ عدوٌّ أو طَليعَة معشرِ

فإنْ قِيلَ خيرٌ قلتُ هذي خديعةٌ ... وإن قيل شرٌّ قلتُ حقٌّ فشمِّرِ

مجنون ليلى(*)[4].

قَضى اللهُ حُبَّ العامرية فاصطَبِرْ ... عليه وقد تَجري الأمورُ على قَدرِ

ألا ليقُلْ من شاءَ ما شاءَ إنَّما ... يلامُ الفَتى فيما اسْتطاعَ من الأمرِ

محبّ آخر:

وإنِّي لصبَّارٌ على كلِّ حادثٍ ... ولكنَّني من خطَّة البَين أجْزَعُ

ومَن ذا يُطيقُ الصَّبرَ بعدَ خليلهِ ... ومن ذا لِوَشْكِ البَين لا يَتضَعْضَعُ

آخر:

إذا ما دَجاها اللَّيلُ كنَّا كواكباً ... جُلوساً حَواليها وكانت هي البَدرُ[5]

سهادٌ ولكن دُونَه لذَّةُ الكَرى ... وليلٌ ولكن دُونَ إشراقِهِ الفَجرُ

آخر[6]:

لحى اللهُ مَن لا ينفعُ الودُّ عندَه ... ومَن حبلَه إن مُدَّ غيرُ مَتينِ

---

(١) هو أبو الطيب المتنبي وقد تقدم ذكره.

(٢) في الديوان (وقد فارق).

(٣) في الديوان (ليس تندى)

(٤) لا وجود للبيتين في الديوان، ووردا في ك ، و أ بدون عزو.

(٥) في ك (كن) مكان (كنا).

(٦) في عيون الأخبار ٧٨/٣ (وأنشد ابن الاعرابي).

ومن هو ذُو لَوْنينٍ ليس بدائمٍ   على العَهْدِ خوَّان لكلِّ أمِينِ[1]

ابن نباتة السعدي(*):

فلا تحقرنَّ عَدوًّا رماكَ   وإنْ كان في ساعدَيْهِ قِصَرْ

فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرِّقابَ   وتعجزُ عمَّا تَنالُ الأبَرْ[2]

آخر[3]:

وقائلٍ فيمَ تهاجَرْتُما   فقلتُ قولاً فيه إنصافُ

لم يكُ من شَكلي ففارقتُهُ   والناسُ أشكالٌ والآفُ

آخر[4]:

لَنْ يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كرُمُوا   حتَّى يذِلُّوا - وإن عزُّوا - لأقْوامِ

ويُشتَموا فَتَرى الألوانَ مُسفِرةً   لا صَفْحَ ذُلٍّ ولكن صَفحَ أحْلامِ

آخر[5]:

فإنْ لا أكنْ أهلاً لما أنتَ أهلُه   فأنتَ أميرَ المؤمنينَ له أهْلُ

ففضلَكَ أرجو لا البراءَةَ إنَّه   أبى اللهُ إلاَّ أن يَكونَ لَكَ الفَضلُ

قيس بن الخطيم[6]:

وما بعضُ الإقامَةِ في دِيارٍ   يُهانُ بها الفَتى إلاَّ عَناءُ[7]

---

(١) لا وجود لهذا البيت في عيون الأخبار، وجاء بمحله البيت الآتي:

ومن هوان يحدث له الغير نظرة   يقطع بها أسباب كل قرين

(٢) في الديوان ٢/ ٧٢ (فإن الحسام يحز) و (يعجز).

(٣) البيتان في نهاية الارب ٢/ ١٣٦ بدون عزو أيضاً.

(٤) البيتان في البصائر والذخائر ٢/ ٨٣٥ منسوبان للنظام (ابراهيم بن سيار) المتوفى سنة ٢٣١ هـ (الأعلام ١/ ٣٢)، ووردا في العقد الفريد ٢/ ٣٧٩، وعيون الأخبار ١/ ٢٨٧ بدون عزو. وفي رواية البيت الثاني اختلاف.

(٥) لا وجود لهذين البيتين في ك.

(٦) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، شاعر جاهلي (الأعلام ٦/ ٥٥).

(٧) البيتان الأول والثاني من قطعة وردت في ديوانه وفي روايتهما اختلاف طفيف، أما =

يـريـدُ الـمرءُ أن يُـعـطـى مُـناهُ ويـأبـى اللهُ إلاَّ مـا يَـشـاءُ
وكـلُّ شَـديـدَةٍ نـزلَـتْ بـقـومٍ سَـيـأتـي بـعـدَ شِـدَّتِـهـا رَخـاءُ

ابن المعتز[1]:

من لي بقَلبٍ صِيغَ من صَخرَةٍ فـي جَـسـدٍ مِـن لُـؤلُـؤٍ رَطْـبِ
جَرحتُ خَدَّيه بلَحْظي فما برحتُ حتَّى اقْتَصَّ من قَلبي

آخر[2]:

وجاؤا إليه بالتَّعاوِيذِ والرُّقى وصَبُّوا عليه الماءَ من أَلَم النّكسِ
وقالوا به من أعيُنِ الجِنِّ نَظْرَةٌ ولو عَلِمُوا قالوا به نَظرَةُ الأنْسِ[3]

المجنون(*):

لقد هتَفَتْ في جُنح لَيلٍ حَمامَةٌ على فَنَنٍ تَبكي وإنِّي لَنائِمُ[4]
كَذبتُ وبَيتِ اللهِ لو كنتُ عاشِقاً لما سَبَقتني بالبُكاءِ الحَمائمُ

وله:

إلى اللهِ أشكُو نيَّةً شقَّتِ العَصا هي اليوم شتَّى وهيَ أمسِ جَميعُ[5]
مَضى زمنٌ والناسُ يَسْتشفعُونَ بي فهلْ لي إلى لَيلى الغَداةَ شَفِيعُ

بعضهم وأجاد[6]:

= البيت الثالث فلا وجود له في الديوان غير أنه مثبت له في حماسة أبي تمام شرح المرزوقي ٣/ ١١٨٨.

(١) هو عبدالله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ (أنوار الربيع ١/ ٨٩) ولا وجود للبيتين في ديوانه طبع دار صادر ببيروت، ووردا في ك، و أ بدون عزو.

(٢) هو مجنون ليلى والبيتان في ديوانه.

(٣) في الديوان (ولو عقلوا) وفي أنوار الربيع ٢/ ٢٠٦ (ولو صدقوا).

(٤) في الديوان (وهناً) مكان (تبكي).

(٥) النية - هنا - الرحلة البعيدة، يريد بشق العصا: التفرق.

(٦) الأبيات لقيس بن ذريح المتوفى سنة ٦٨ هـ (الأعلام ٦/ ٥٥) وهي موجودة في الأغاني ٩/ ١٩٤، ونهاية الأرب للنويري ٢/ ١٦٠، وفي الرواية والترتيب اختلاف.

لقد كانَ حَسْبَ النَّفسِ لو دامَ وصلُنا ولكنَّما الدُّنيا مَتاعُ غُرُورِ
وكنَّا قَديماً قبلَ أن تَظهر النَّوى بأحسنِ حالٍ غِبطَةٍ وسُرُورِ
فما برحَ الأيَّامَ حتى بدَتْ لنا بطونُ الهَوى مَقلوبةٌ لِظُهُورِ

أبو فراس[1]:

فإنَّكَ لا عَدِمَتْكَ العُلى أخٌ لا كأخوَةِ هذا الزَّمانِ
كسَوْنا أخوَّتَنا بالصَّفاءِ كما كُسِيَتْ بالكَلام المعاني

فائدة: تارة يجعل المعنى ظرفاً للَّفظ من جهة كونه حاصراً له آخذاً بجوانبه، بحيث لا يخرج ظرف من اللفظ عن ظرف المعنى وهو أمر شائع. يقال: هذه الآية في حكم كذا، وهذا الكتاب في علم كذا، وهذه القصيدة في مدح فلان. وتارة يجعل اللفظ ظرفاً للمعنى كما يقال: هذه المسألة في كتاب كذا، وهو ظاهر حتى شاع أنّ الألفاظ أوعية للمعاني وقوالب لها، وبمنزلة الكسوة واللباس كما في بيتي أبي فراس المذكورين والله أعلم.

بعضهم:

وأصعبُ ما يَلقى الفَتى في زَمانِه إذا حلَّ نَجمُ السَّعدِ في بُرج نَحْسِهِ
أقامتُه في أرضٍ مَنْ لا يَودُّهُ وصحبتُه مع غير أبناءِ جنسِهِ

آخر[2]:

وإذا تكامَلَ للفَتى من عُمرِهِ خمسُونَ وهو إلى التُّقى لا يَجْنَحُ
عكفَتْ عليه المُخزِياتُ فما لَه مُتأخَّرٌ عنها ولا مُتَزَحْزَحُ
وإذا رأى الشَّيطانُ صورةَ وجهِهِ حَيَّى وقالَ فَدَيتُ من لا يُفْلحُ

آخر[3]:

---

(١) هو الحارث بن سعيد بن حمدان (أبو فراس). قتل سنة ٣٥٧ هـ (أنوار الربيع ١/ ١١٩).

(٢) الأبيات في نفحة الريحانة ٢/ ٢٠٤ ويلوح لي أنها منسوبة إلى المؤلّف فضل الله المحبي المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ وفي روايتها اختلاف.

(٣) البيتان في نفحة الريحانة ٤/ ٣٥٤، وقد نسبهما المؤلف لابن المعتز ولا وجود لهما =

عجباً للزَّمانِ في حالَتَيْهِ وبلاءٍ دُفِعتُ منه إليهِ
ربَّ يومٍ بكيتُ منه فلمَّا صرتُ في غَيره بَكيتُ عليهِ

ابن النجم الواعظ:

تحسَّنْ بأفعالكَ الصَّالحاتِ ولا تَحفلنَّ بحُسْنٍ جَليلِ
فحسنُ النِّساءِ جَمالُ الوُجُوهِ وحسنُ الرِّجال وجُوه الجَميلِ

آخر[1]:

وكنتَ متى أرسَلْتَ طرفَكَ رائداً [لقلبكَ] يوماً أتعبَتْكَ المناظِرُ[2]
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادِرٌ عليه ولا عَن بَعضِه أنت صابرُ

بعض الأعراب:

أبعدَ عَشرٍ قد خَلا بعدَها عشرُونَ عاماً بعدها عَشْرُ
تَلهو عن الجَدِّ وتَرضى الهَوى وتطَّبيكَ الكاعبُ البكرُ

الحمداني الموصلي[3]:

يا رسولَ الحَبيبِ ويحَكَ قد أَلْـ قَى عليكَ الحبيبُ حُسناً وطِيبا
ولقد كِدتُ أن أضمَّكَ لَولا أن يُسيءَ الظُّنونَ أو يَسْتَرِيبا
خيفةً أن يكونَ ذاكَ كما قِيـ ـلَ قَديماً صارَ الرَّسول حَبيبا[4]

بعضهم:

= في ديوانه وورد البيت الثاني في التمثيل والمحاضرة /١٠٦ ونهاية الارب ٣/١٠٢ منسوب لابن بسام (علي بن محمد البغدادي) المتوفى سنة ٣٠٢ هـ (أنوار الربيع ٢/ ٣٧٢).

(١) البيتان في عيون الأخبار ٤/٢٢ منسوبان لامرأة.

(٢) في ع (لعينك) وفي ك، و أ (لعينيك) مكان (لقلبك) والتصويب من عيون الأخبار.

(٣) الأبيات في يتيمة الدهر ١/١٠٥ (لحمدان الموصلي).

(٤) في ك (خيفة أن تقول أنت كما قيل). وورد البيت في (أ) منفصلاً عن البيتين السابقين، ومصدرا بكلمة (آخر) وقافيته (صار الحبيب رسولا).

على هذه الأيّام ما تَستحقُّهُ فكم قد أضاعَت منك حقًّا مؤكَّدا
فلو أنصفَتْ شادَت محلَّك بالسُّها علوًّا وصاغَتْ شِسه نعلِك عَسْجَدا

ابن خفاجة(*):

لقد جُبتُ دونَ الحيِّ كلَّ تَنُوفةٍ يحومُ بها نَسْر السَّماءِ على وكرِ
وخُضتُ ظلامَ اللَّيل يَسْودُّ فحمُهُ ودُستُ عرينَ اللَّيث يتظرُ عن جَمرِ
وجئتُ ديار الحيِّ والليلُ مطرَفٌ مُنمنمُ ثوب الأفقِ بالأنجُمِ الزُّهرِ[1]
أشيمُ بها برقَ الحَديدِ ورُبَّما عثرتُ بأطرافِ المثقَّفةِ السُّمرِ[2]
فلم ألقَ إلاَّ صَعدةً فوقَ لامةٍ فقلتُ قضيبٌ قد أطلَّ على نَهرِ
ولا شِمتُ إلاَّ غرَّةً فوقَ شُقرةٍ فقلتُ حَبابٌ يَستديرُ على خَمرِ
وسرتُ وقلبُ الأفقِ يخفقُ غَيْرةً هناكَ وعينُ النَّجم تنظرُ عَن شَزْرِ[3]

أبو البركات علي بن الحسين الديباج[4]:

وأغيدَ سحَّارٍ بألحاظِ عَينِهِ حَكى لي تَثنِّيهِ من البانِ امْلُودا
سلختُ بذكراهُ عن الصُّبحِ ليلةً أسامرُهُ والكأسَ والنايَ والعودا[5]
تَرى أنجَم الجَوزاءِ والنَّجمُ فوقَها كباسِطِ كفَّيهِ ليقطُفَ عُنقُودا

القاضي علي بن الحسين بهراة:

ربَّما قصَّرَ الصَّديقُ المُقِلُّ عن حقُوقٍ بهنَّ لا يَستَقِلُّ

---

(١) في الأصول (مطرق) مكان (مطرف) والتصويب من الديوان.

(٢) في الديوان (الردينية السمر).

(٣) في الديوان (فسرت وقلب البرق).

(٤) هو أبو البركات علي بن الحسين بن علي بن جعفر بن محمد الجور بن الحسين بن علي الخارصي ابن محمد الديباج بن الإمام جعفر الصادق، كان في زمن السلطان محمود بن سبكتكين المتوفى سنة ٤٢١ هـ (يتيمة الدهر ٤/ ٤٢٠ وعمدة الطالب / ٢٠١ والدرجات الرفيعة / ٥٠٠).

(٥) في يتيمة الدهر والدرجات الرفيعة (أنادمه والكأس).

ولـئـن قـلَّ نـائـلٌ فَـوَفـاءٌ فـي ودادٍ وخـلّـةٍ لا يَـقِـلُّ[1]
أرخ سِـتـراً عـلـى حَـقـارة ودّي هتكُ سترِ الصَّديق ليسَ يحلُّ[2]

الأحوص[3]:

إذا رمتُ عنها سَلوةً قالَ شافعٌ من الحبِّ ميعاد السُلوّ المقابرُ
سَيَبقى لها في مُضمرِ القَلبِ والحَشا سَرائرُ حُبٍّ يومَ تُبلى السَّرائرُ[4]

مما استملح من كلام الصابي[5] في الخضاب قوله:

خضابٌ تَقاسَمْناهُ بَيني وبَيْنها ولكنَّ شَأني فيه خالفَ شَأنَها
فيا قُبحَه إذ حلَّ منّي بمَفْرقي ويا حُسنَه إذ حلَّ منها بَنانَها
وسُحقاً له في لمَّتي حيث شانها وأهلاً به في كفِّها حيثُ زانَها

وأطربُ لقول مهيار الديلمي(*) في الشيب:

قالوا المشيبُ لبسةٌ جَديدةٌ خذُوا الجَديدَ واستردّوا لي الخَلَقْ

جميل بثينة[6]:

وإنّي لأرضَى من بُثَيْنةَ بالَّذي لَو أبْصَرَهُ الواشي لقرَّت بَلابِلُهْ
بِلا وبألاّ أستَطيعَ وبالمُنَى وبالوَعدِ حتَّى يَسأمَ الوعدَ آملُهْ
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أواخرُهُ لا نَـلـتَـقـي وأوائـلُـهْ

---

(١) ورد البيت في ك هكذا:
فـلـئـن قـل نـائـل ثـم وفـى بـوداد فـخـلـه لا تـقـل
(٢) سقط هذا البيت من ك ، و أ .
(٣) هو عبدالله بن محمد الأنصاري المعروف بالأحوص، توفي سنة ١٠٥ هـ (أنوار الربيع ٢/٢٣٨).
(٤) في الديوان (ستبقى لها) و (سريرة ود) وما أثبته المؤلف موافق لرواية أخرى أثبتها المحقق في الهامش).
(٥) هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي، وقد تقدم ذكره.
(٦) هو جميل بن عبدالله العذري (صاحب بثينة). توفي سنة ٨٢ هـ (أنوار الربيع ١/٦٦).

بعضهم:

لم يُعطِكَ اللهُ ما أعطاكَ من نعمٍ إلاَّ لتُوسعَ من يَرجوكَ إحسانا
وإن مَنعتَ فأخْلِقْ أن تصادفها تطيرُ عنكَ زُرافاتٍ ووحْدانا

آخر[1]:

إذا أعجَبتكَ خصالُ امرئٍ فكُنْهُ يكنْ فيكَ ما يُعجِبُكْ
فليسَ على المَجْدِ والمكرُماتِ إذا شِئْتَها حاجبٌ يحجبُكْ

آخر[2]:

يخوضُ أناسٌ في الكَلام ليُوجِزوا ولَلصَّمتُ في بَعض الأحايين أوجزُ
إذا كنتَ عن أن تُحسِن الصَّمتَ عاجزاً فأنتَ عن الابلاغِ في القَول أعْجَزُ

النعيمي[3]:

إذا أضمأتكَ أكفُّ اللِّئام كفَتكَ القناعَةُ شِبعاً وريَّا[4]
فكن رَجلاً رجلُهُ في الثَّرى وهامةُ هِمَّتِه في الثُّريَّا
أبِيًّا بنفسِكَ عن باخلٍ تَراه بما في يَدَيْه أبِيًّا[5]
فإن إراقةَ ماءِ الحَياةِ دُونَ إرقةِ ماءِ المُحَيَّا

آخر[6]:

---

(١) في أ (للخفاجي) والصحيح أن الخفاجي أوردهما في ريحانة الألباء ١/ ٥٣ ضمن كلام منثور في تقريظ شخص ولم ينسبهما لنفسه. وفي روايته لهما اختلاف.

(٢) لا وجود للبيتين في ك.

(٣) هو أبو الحسن النعيمي، ترجم له الثعالبي في تتمة اليتيمة ١/ ٦١ ترجمة مختصرة، وفيها من هذه الأبيات الأول والثاني والرابع. وورد البيتان الأول والثاني في معاهد التنصيص ٢/ ٧٨، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي/ ٢٦، وأنوار الربيع ١/ ١٢١ من دون عزو.

(٤) في المصادر المذكورة عدا تتمة اليتيمة (إذا أعطشتك).

(٥) انفردت (ك) بإيراد هذا البيت.

(٦) البيتان من قصيدة وردت في الصداقة والصديق/ ٥٢ من دون عزو، ونسبهما ابن =

إذا خنتُمُ بالغَيب عَهدي فما لكم تُدِلُّونَ إدلالَ المُقيمِ على العَهْدِ
صِلُوا وافعَلوا فِعلَ المُدلِّ بوَصْلِهِ وإلاَّ فصدُّوا وافْعَلوا فِعْلَ ذي الصَّدِّ[1]

آخر:

مـا لـلـمُـطـيـعِ هَـواهُ مـن الـمَـلام مَـلاذُ
فـاخـتـر لـنـفـسـك هـذا مَـجـدٌ وهـذا الـتـذاذ

ابن النجم الواعظ[2] من أبيات كتبها إلى بعض أصدقائه:

فلا تَحسبُوا أنّي تغيَّرتُ بعدَكُم عن العَهد لا كانَ المُغيِّرُ لِلعَهدِ
غَرامي غَرامي والهَوى ذلك الهَوى ووَجْدي بكُم وجدي ووِدِّي لكم ودّي
وليسَ مُحبًّا من يَدُومُ وَدادُهُ مع الوَصْل لكن من يَدومُ مع الصَّدِّ

آخر:

مَررْنا بأكنافِ العَقيقِ فأعشَبَتْ أباطحُ من أجفانِنا ومَسايِلُ
فمن واقِفٍ في جَفنِه الدمعُ واقفٌ ومن سائلٍ في خدِّه الدمعُ سائلُ
تأسَّ بيأسٍ أو تعزَّ بسلوةٍ فما لكَ في أطلالِ عَزَّةَ طائلُ

عمر بن الوردي[3]:

ودَّعَتْني يومَ الفراقِ وقالَتْ وهيَ تَبكي من لَوعةِ الافْتِراقِ
ما الذي أنتَ صانِعٌ بَعد بُعدي قلتُ قُولي هذا لمن هو باقِ

بعضهم[4]:

= خلكان في وفيات الأعيان ١/ ٤٢٥ إلى الخليع (الحسين ابن الضحاك) المتوفى سنة ٢٥٠ هـ (أنوار الربيع ٤/ ٦٠).

(١) في ك (ذي البعد) وفي أ (ذي العهد) وفي الصداقة والصديق (ذي الضد).

(٢) في ك (أبو النجم الواعظ) وفي أ (الواعظ).

(٣) هو أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (أنوار الربيع ١/ ٣١٢).

(٤) البيتان في التمثيل والمحاضرة / ٨٥ ونهاية الأرب ٣/ ٨٨ منسوبان لمحمود الوراق. =

الدهرُ لا يَبقى على حالَةٍ　　لكنَّهُ يُقبلُ أو يُدْبِرُ
فإنْ تَلقَّاكَ بمَكرُوهِهِ　　فاصبِرْ فإنَّ الدَّهرَ لا يَصبَرُ

آخر[1]:

لقد شاع عنِّي حبُّ ليلى وإنَّني　　كلِفتُ بها شَوقاً وهمتُ بها وَجْدا
وواللهِ ما حبِّي لها جازَ حدَّهُ　　ولكنَّها في حُسنِها جازَتِ الحَدَّا

الصفيّ الحليّ[2] رحمه الله:

إذا لم أبَرقِعْ بالحَيا وَجْهَ عِفَّتي　　فلا أشبَهَتْهُ راحَتي في التَّكرُّمِ[3]
ولا كنتُ ممَّن يكسُرُ الجَفْنَ في الوَغى　　إذا أنا لم أغضضه عن كلِّ محرمِ[4]

الشريف الرضي(*):

أأبقَى كذا نِضوَ الهمُومِ كأنَّما　　سَقتْني اللَّيالي من عَقابيلِها سَمَّا[5]
وأكبرُ آمالي من الدَّهرِ أنَّني　　أبيتُ خَليًّا لا سُرُوراً ولا هَمَّا
أكرُّ أحاديثَ المطامعِ ضِلَّةً　　والقِحُ من هذي المُنى أبْطُناً عُقْما
فلا جامعاً مالاً ولا مُدركاً عُلاً　　ولا مُحرِزاً أجراً ولا طالباً عِلْما
بأرجوحَةٍ بين الخَصاصَةِ والغِنَى　　ومَنزلةٍ بين الشَّقاوَةِ والنُّعمَى

وله رحمه الله:

عارَضا بِي ركبَ الحجازِ أسائلْ　　هُ مَتى عهدُه بأيَّامِ جَمْعِ[6]

= وفي رواية نهاية الأرب اختلاف في الروي على النحو الآتي (لا بد أن يقبل أو يدبرا) و (فاصبر فإن الدهر لن يصبرا).

(١) في أ (لمجنون ليلى) ولا وجود للبيتين في ديوانه.

(٢) هو عبد العزيز سرايا الحلي السنبسي (صفي الدين)، توفي سنة ٧٥٠ هـ وقيل ٧٥٢. (معجم المؤلفين ٥/٢٤٧).

(٣) في الديوان (لئن) مكان (إذا).

(٤) في الديوان (عن رأي محرم).

(٥) العقابيل: الشدائد، في الديوان (أأبقى على نضو الهموم).

(٦) جمع: المزدلفة بمكة المكرمة. في الديوان (متى عهده بسكان سلع).

واستَمِلاً حديثَ من سَكنَ الخَيْـ ـفَ ولا تـكـتُـبـاهُ إلاَّ بـدَمْـعـي
فاتـني أن أرى الـدِّيـارَ بطـرَفي فلعلّي أرى الـدِّيـارَ بسَمْـعي

عبيد الله بن عبدالله بن طاهر(*):

إلى كم يكونُ العَتبُ في كلِّ ساعةٍ وكم لا تَمَلِّينَ القَطيعةَ والهَجْرا[1]
رُويـدَكِ إنَّ الـدَّهـرَ فـيـه كـفـايـةٌ لتَفريقِ ذاتِ البَينِ فانتظري الدهرا

بعضهم وأجاد:

كأنَّكَ لم تسمَعْ بأخبارِ من مَضى ولم ترَ بالباقِينَ ما يصنَع الدَّهرُ
فإن كنتَ لا تَدري فتلكَ ديارُهـمْ عَفاها فحالَتْ بعدَك الريحُ والقَطرُ
وهلْ أبصرَتْ عيناكَ حيًّا بمنزِلٍ على الدَّهر إلاَّ بالعَراءِ له قَبرُ
فلا تَحسبنَّ الوفرَ مالاً جمعتَهُ ولكنَّ ما قدَّمتَ من صالحٍ وَفْرُ
مَضى جامعُو الأموالِ لم يَتزوَّدوا سِوى الفَقرِ يا بُوسَى لمن زاده الفَقرُ
فحتَّامَ لا تَصحُوا وقد قرُبَ المَدى وحتَّامَ لا يَنجابُ عن قلبكَ السُّكرُ
بلى سَوفَ تَصحُو حينَ ينكشِفُ الغِطا وتذكرُ قَولي حينَ لا يَنفعُ الذِكرُ
فصبراً على الأيَّامِ حتَّى تَجُوزَها فعمَّا قَليلٍ بعدَها يُحمَدُ الصَّبرُ

آخر[2]:

غَنينا بِنا عن كلِّ من لا يريدُنا وإنْ كـثُـرَتْ أوصـافُـه ونـعـوتُـهُ
ومن صدَّ عنَّا حسبُه الصَّدُّ والقِلى ومـن فـاتَـنـا يـكـفِـيه أنَّـا نَـفُـوتُـه

الجمال ابن نباتة(*):

يا مُشتَكي الهمِّ دَعْه وانتظِرْ فَرَجاً ودارِ وقتَكَ من حينٍ إلى حينِ[3]
ولا تُعانِد إذا أمْسَيتَ في كدَرٍ فإنَّما أنتَ من ماءٍ ومِن طينِ[4]

---

(١) البيتان في أمالي المرتضى ١/١١٩ منسوبان للشاعر المذكور، وفي (أ) لعبدالله بن طاهر.
(٢) لا وجود للبيتين في ك ، و أ .
(٣) لا وجود لهذين البيتين في ك.
(٤) في الديوان (أصبحت) مكان (أمسيت).

ابن القوبرة:

كانَت دُموعيَ حُمراً قبلَ بينهُمُ ... فَمذْ نأوا قصَّرَتْها لَوعةُ الحُرَقِ[1]

قطفتُ باللَّحظِ ورداً من خُدُودِهم ... فاستَقْطَرَ البُعدُ ماءَ الوَردِ من حَدَقي

ليلى في صاحبها المجنون[2]:

ألا ليتَ شِعري والخطوبُ كثيرةٌ ... متى رَحلُ قيسٍ مستقِلٌ فراجعُ

بنفسيَ من لا يَستقلُّ بنَفْسِهِ ... ومن هو إنْ لم يَحفَظِ اللهُ ضائعُ[3]

بعضهم:

وأعظمُ من مُصيباتِ اللَّيالي ... عليَّ وصَرفِها خلٌّ خَؤُونُ

يقابلُني بودٍّ مُستَميلٍ ... وبينَ ضُلوعِهِ داءٌ دَفينُ

إذا عاتبتُهُ أبدَى مُجوناً ... وعلَّةُ ذلكَ العَتبِ المجُونُ

ومن جَعلَ السُّمومَ له دَواءً ... فيُوشِكُ أن يُفاجِئَه المنُونُ

أهمُّ بأن أحابِيهِ فَيأبى ... عَليَّ الأصلُ والعِرْضُ المصُونُ[4]

أرى هزل الكلام المحض غثًّا ... فيَرْدَعُني عن الغَثِّ السَّمينُ[5]

ولم يُزعجْ زَئيرُ اللَّيثِ حِلمي ... أيزعجُهُ من الذَّرِّ الطَّنِينُ

الوزير أبو محمد ابن سفيان[6]:

نَفسي فِداكَ وعَدْتني بزِيارَةٍ ... فظلَلْتُ أرقبها إلى الامساءِ

---

(١) لا وجود لهذين البيتين في (ك) ووردا في (أ) من دون عزو.

(٢) هي ليلى بنت المهدي صاحبة قيس بن الملوح. توفيت حوالي سنة ٦٨ هـ (الأعلام ٦/١١٧).

(٣) في الأغاني ٢/٧١ (برحله) مكان (بنفسه).

(٤) حاباه: مال إليه، ولعلها (أحابيه) أي أكلفه الحياء. في ع و ك (أجابئه) وهو تصحيف.

(٥) لا وجود لهذا البيت والذي بعده في ك.

(٦) أبو محمد بن سفيان: من وزراء آل ذي النون بالأندلس في القرن الخامس الهجري (قلائد العقيان / ١٤١). لا وجود للبيتين في ك.

حتى رأيتُ قسيمَ وجهِكَ طالعاً ... لم تَنتَقِصْهُ غَضاضَةُ اسْتِحياءِ

ابن بقيّ(*):

وفتيةٍ لَبسُوا الأدراعَ تحسبُها ... سَلْخَ الأراقم إلاَّ أنَّها رُسُبُ[1]

إذا الغديرُ كَسا أعطافَهم حَلَقاً ... طفا من البَيْضِ في هاماتِهم حَبَبُ

ابن باجة[2]:

ايه يا برقُ قل حَديثَك عن نَجْدٍ ... فحيَّا الإلهُ عنِّيَ نَجْدا[3]

قلْ وإن كانَ ما تحدِّثُهُ زوراً ... فقد تبرد الأسى والوجد

وله[4]:

أسكَّانَ نَعمان الأراكِ تيقَّنُوا ... بأنَّكُم في رَبع قَلبيَ سُكَّانُ

ودُوموا على حفظِ الوداد فإنَّنا ... بُلينا بأقوامٍ إذا أتُمِنوا خانُوا

سلوا اللَّيلَ عنِّي مذ تناءَتْ ديارُكم ... هل اكتحلَتْ لي فيه بالنَّوم أجْفانُ

وهل أغمِدَتْ يوماً سيوفُ بُرُوقِكم ... فكانت لها إلاَّ جُفونيَ أجْفانُ

الإمام الخطيب جنيد بن الحسن[5]:

رَوتْ لي أحاديثَ الغرامِ صَبابَتي ... بإسنادِها عن بانَة العَلَم الفرْدِ

وحدَّثني مرُّ النَّسيم عن الحمى ... عن الدَّوحِ عَن وادي الغَضا عن ربى نَجْدِ

عن الدمع عن جفني القريح عن الجوى ... عن الشَّوقِ عن قَلبي الجَريح عَن الوَجْدِ[6]

---

(١) رسب (بضمتين): ثابتة.

(٢) هو أبو بكر محمد بن باجة المعروف بابن الصائغ الأندلسي. توفي سنة ٥٣٣ هـ (أنوار الربيع ٤/١١٩).

(٣) في ع و ك (أين) مكان (أيه) والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية قلائد العقيان / ٣١٥.

(٤) الأبيات في نفح الطيب ٧/ ٢٤، أنوار الربيع ٤/ ١١٩ وفي رواية بعضها اختلاف.

(٥) في أنوار الربيع ٢/ ٢٦٢ (جند بن الحسن).

(٦) سقط هذا البيت من (ع).

بأنَّ غَرامي والأسَى قد تَلازَما فلن يَبْرحا حتَّى أوسَّدَ في لَحْدي

نصر ابن أحمد الخبز أرزي[1]:

كم أناسٍ وفَوا لنا حينَ غابُوا وأناسٍ جَفَوا وهُم حُضَّارُ

عَرَضوا ثم أعْرَضُوا واسْتَمالوا ثم مالُوا وجاوَرُوا ثمَّ جارُوا

لا تَلمهُمْ على التَّجنِّي فلَوْ لَم يتجنُّوا لم يَحسُنِ الاعتِذارُ

الشريف الرضي(*)[2]:

أتُرى الأحبابُ مُذ ظَعنُوا وجَدوا للبَيْنِ ما أجِدُ

كان زُوراً بعدَ بَيْنهِمْ وغُروراً ذلكَ الجَلَدُ

ومَتى يَدنُ النَّوى بهُمُ يَجدُوا قَلبي كما عَهِدُوا[3]

(الأخ الأعز المحرز من فنون المجد ما غلا وعز، محمد يحيى(*) أحياه الله أعزّ محَيا، وكتبه إلى بعض أصدقائه)[4]:

وما شَوقُ مقصُوصِ الجَناحَيْنِ مُقعَدٍ
على الضيمِ لم يَقدرْ على الطَّيرانِ[5]

بأكثر مَن شَوقي إليكَ وإنَّما
زَماني بهذا البُعد عنكَ زَماني

وله بلَّغه الله أمله:

تجمَّل فميعادُ الفراقِ قَريبُ وما نحنُ إلاَّ ساعةً ونَغيبُ

هو الدهرُ لا يَنفكُّ يا أمَّ مالِكٍ تَذوبُ لما يُبديه منه قُلوبُ

---

(١) هو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري الخبزأرزي. توفي سنة ٣١٧ هـ وقيل غير ذلك (أنوار الربيع ٤/٩٨).

(٢) لا وجود لهذه الجملة والأبيات التي بعدها في ك.

(٣) في الديوان (ومتى تدن الديار بهم).

(٤) جاء في ك عوضاً عن الجملة المحصورة بين القوسين (الأخ محمد يحيى).

(٥) في ك (عن العيش) مكان (على الضيم) وما أثبته موافق لرواية سلافة العصر/٣٦.

سلُوا كلَّ ذي حُبٍّ أدامَ له الهَوى — وساعَفَه فيما أرادَ حَبيبُ
ألا لا سَقى اللهُ الحمائمَ إنَّها — إذا ما شَدَتْ دَمعي لهنَّ مُجِيبُ
تذكِّرني أيّامَ ظَمياءَ والصِّبا — فأطرب شوقاً والكريم طروبُ
أبيتُ وفي قَلبي من الشَّوقِ لَوعةٌ — وكم مثلها عندي جَوىً وكروبُ

وله[1]:

ألا لا سَقى اللهُ البعادَ وجَورَهُ — فإنَّ قَليلاً منه عنكَ خَطيرُ
وواللهِ لو كانَ التَّباعُدُ ساعةً — وأنتَ بَعيدٌ أنَّه لكَثيرُ

وله[2]:

ألا يا زماناً طالَ فيه تَباعُدي — أما رَحمةٌ تَدنُو بها وتَجودُ
لألقَى الَّذي فارقتُ أنسِي مُذ نَأى — فها أنا مَسلُوبُ الفُؤاد فَريدُ

وله[3]:

تذكَّرتُ أيّامَ الحَجِيج فَأسْبَلَتْ — جُفوني دماءً واسْتجدَّ بيَ الوَجْدُ
وأيّامَنا بالمَشْعَرين التي مَضَتْ — وبالخَيْفِ إذ حادي الرِّكاب بنا يَحدوا

وله:

مَن لصبٍّ مُتيَّمٍ — قَسَمَ الدَّهرُ صَبْرَه
يَتمنَّى وصالَ مَن — قد قَضى اللهُ هَجْرَه[4]
قُلْ لأسماءَ كُلُّ ما — كانَ أرضاكِ سَرَّه
كيفما شِئتِ فأمْري — فلقد حزتِ أمْرَه
هو ذاكَ الذي يَرى — حبَّكِ الدَّهرَ فَخْرَه
وَطرٌ ما انقَضَى ولكنَّ — قَضَى فيه عُمْرَه

---

(١) لا وجود لهذين البيتين في ك ، ووردا في (أ) من دون عزو.

(٢) لم ترد هذه القطعة في ك ، ووردت في (أ) غير منسوبة.

(٣) وهذه القطعة أيضاً لم ترد في ك ، وجاءت في (أ) من دون عزو.

(٤) في ع ، و أ (تقصد الدهر هجره).

بعضهم وهو لسان حال مؤلفه عفي عنه

ألفَ الهمومُ أضالِعي فألفتُها   بعدَ التَّنافُرِ والكَريمُ ألُوفُ

ليس البَلاءُ لديَّ صنفاً واحداً   عندي بحمدِ الله منه صُنُوفُ

وما أحسن قول الصلاح الصفدي[1] وهو جدير (بأن ينشد بعد ذلك)[2]:

باللهِ لا تأسَفْ على فائتٍ   مَضى ولا تَيأسْ من اللُّطْفِ[3]

فقد يجيء الدهرُ مع قَسوَةٍ   فيه بوقتٍ لَيِّن العِطفِ

وعلى هذا فلنذكر هنا حكاية غريبة فيها تسلية لكلِّ مهموم، وتعزية لكلّ مغموم، تؤكّد التمسّك بألطاف الله، وتنهى عن اليأس من روح الله، والحامل على تخصيصها بالذكر (ما منيت)[4] به في هذه المدة عموماً، وهذه السنة خصوصاً وهي سنة أربع وسبعين، سنة تأليف هذه الرحلة من أنواع الهموم الممضَّة، والغموم الممرضة التي شرح بعضها الرضي(*) رحمه الله تعالى بقوله من قصيدة:

أتاني ومَمْطولٌ من النَّأي بَيننا

قَوارضُ تَنبُو بالجُفونِ عَن الغُمْضِ[5]

ومولىً وَرَى قَلبي بِلَذْعةِ مِيسَمٍ

مِن الكلِم العوراء مضًّا على مضِّ

فعذراً لأعدائي إذا كان أقْرَبي

يشَذِّبُ من عُودي ويَعْرُقُ من نَحضي

إذا ما رمى عِرضي القَريبُ بسَهمِهِ

عذرتُ بعيدَ القَومِ امَّا رَمى عِرضي

---

(١) هو صلاح الدين الصفدي (خليل بن أيبك) المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (معجم المؤلفين ٤/ ١١٤).

(٢) في ك (أن يتبع السابق).

(٣) في ك (ماض) مكان (مضى).

(٤) في ك (ما بليت).

(٥) الغمض (بالضم): النوم.

لـقـد أمْـسَـتِ الأرحـامُ مـنَّـا عـلـى شَـفـا
فـأخْـلِـقْ بـمُـشْـفٍ لا يُـعـلَّـلُ أن يَـقْـضـي
على غُصَصٍ لـو كـنَّ في البَدر لـم يُنِرْ
وفي العُودِ لم يُورقْ وفي العَضْب لم يَمْضِ[1]

وجملة الحال الآن كما قال الصلاح الصفدي(*):

لزمتُ بَيتي مثلَ ما قِيلَ لي ... ولـم أعـانِـدْ حـادثَ الـدَّهـرِ
ولـيـسَ لـي درعٌ يـردُّ الـرَّدى ... أسـتـغـفـر اللهَ سِـوى صَـبْـري
علماً بأن البؤسَ رهنُ الرّخا ... وغـايـةَ الـعُـسـرِ إلـى الـيُـسْـرِ
وقد يُسلُّ السيف من غمده ... ويُـخـرَجُ الـدرُّ مـن الـبَـحـرِ
وتُـبـرَزُ الـصَّـهـبـاءُ مـن دَنِّـهـا ... ويَـرجَـعُ الـنُّـورُ إلـى الـبَـدرِ

والحكاية المشار إليها هي هذه:

حدّث بعضهم قال: كنت بالشام متصرّفاً في بعض أعمال السلطان فلم تنبسط يدي لأداء ما لزمني من المال، فأدخلت في الحبس - حبس الجرائم - فرأيت ساعة حصلت فيه من عظيم بلاء أهله، وقبح صورهم، وموحش أمرهم، وما كانوا عليه من وسخ الثياب ونتن الروائح ما حبَّبَ إليَّ الموت، وصارت بليتي بواحدة عشراً، واندفعت أبكي وأنتحب وأدعو وأتململ. فأقبل عليَّ أهل السجن وقالوا: ما لك تبكي؟ أما لك بنا أسوةٌ وفينا سلوةٌ؟ . فلم يكن قولي إلاّ أن قلت: اعذروني فإنني ما ألفت الشقاء وبؤس المعيشة، ورزاحة الحال وسوء المسكن. فقالوا: ولا كلّنا أهل بلاء وشقاء، وفينا ضروب من المترفين المنعّمين، وفينا من ظَلَمه خمارويه بن طولون[2] على غير حقّ ليقتلنا، وعساك حبست على مال، وأخذت بواجب. ثم انّ في هذا الحبس واحداً من أولاد الأمراء لم نَر أنبل منه ولا أجلّ ولا أرفع محلاً، ولا أسوء -

---

(١) في الديوان (وفي السهم لم يمض).

(٢) هو خمارويه بن أحمد بن طولون من ملوك الدولة الطولونية. قتل سنة ٢٨٢ هـ (الأعلام ٢/ ٣٧٠).

مع ذلك - حالاً. وهو مع ذلك لا يألو فرحاً ونشاطاً، فهلمَّ إليه فعساك يخفّف عنك بعض ما ضقت به ذرعاً، فقمت منهم وانتهيت إلى شاب في عنقه جامعة، وفي يديه غلّ، وفي رجليه أربعة أزواج قيود، فإذا هو جميل الوجه طيّب الرائحة، وبين يديه غلام معه زكرة[1] شراب يسقيه منه ويجعل القدح على فم هذا الشاب فيكرع الفتى منه، فإذا استوفى الشراب تغنّى بهذا الشعر:

وما زلتُ أبكي بالدِّيارِ وإنَّما بكائي عَلى الأحْباب ليس على الدَّارِ

قال: فلما رأيت حاله غاظني والله كلَّ الغيظ، وبلغ منّي كلَّ مبلغ استنكاراً لمثل هذا السرور والابتهاج في حال توجب ضدّ ذلك، فدنوت منه وقلت: أبو مَنْ سرَّك الله؟ فقال: أبو الفوارس، فقلت: ممّن النسب؟ قال: من صميم كلب وعزِّها وفخرها. فقلت: يا أبا الفوارس، أما فيك من الرأي ما يفرّق بين النعيم والبؤس، والرخاء والبلاء؟ أما فيما دُفعت إليه من البلاء العظيم ما يصدُّك عن الغناء والشراب؟ فتبسّم ضاحكاً ثم قال: وهل يجوز أن يكون أعظم ممّا أنا فيه؟ قلت: لا والله، قال: بلى والله، فإنّي من غدٍ على ميعاد القتل والصّلب. فلما سمعت منه ما قال هالني الأمر، وأنسيت ما كنت فيه من استعظام ما رأيت به فقلت: وتراك مع هذا تسيغ الشراب وتستوفي الألحان؟ فقال: (يا بائس)[2] بيني وبين هذا بقية يومي، وطول ليلتي، وإلى ذلك يقضي الله أموراً لا يحصيها غيره، ويبدّل أموراً لا يملك تغييرها وتبديلها سواه، وما كنت ليطّلع الله عليَّ آيساً من روحه فواق ناقة. (فكأنه)[3] جاءني ما لم أعرفه، فقلت: اي والله إنَّ الأمر الإلهيّ لكذلك. ثم أعرض عني وأخذ في شربه وغنائه، فلما صلينا الصبح جاءنا السَّجان فقال: قد قتل خمارويه وهرب أصحابه، فاجمعوا لي شيئاً اخلِّ لكم باب السجن وأهرب، فوزعنا له بيننا ألفي درهم، وهرب في جوف اللّيل، وفتح باب السجن. فما بقي أحد إلاّ وصار إلى أهله ونعمته كما كان. ولله درّ القائل:

---

(١) الزكرة (بالضم): زق صغير للخمر. في ك، و أ (ركوة) والركوة: إناء صغير للماء.

(٢) في ك (يا آيس).

(٣) في ك (قال: فكاني).

دَعِ المقادِير تَجري في أعِنَّتها ولا تَبِيتَنَّ إلاّ خاليَ البالِ
ما بينَ غَمضَةِ عَينٍ وانتباهَتِها يُغيِّرُ اللهُ من حالٍ إلى حالِ[1]

ولقتل خمارويه هذا خبر غريب، وذلك أنه رأى قبل قتله بأيّام في منامه رجلاً يشير إليه بأصابع يده الخمس ويكرّر ذلك عليه. فاستوحش ممّا رأى وقال: هذه مدة عمري إمّا خمسة أيام، أو خمسة أشهر، أو خمس سنين فأحضر رجلاً يحسن التعبير وقصَّ عليه رؤياه. فتخوّفه من التأويل الذي وقع له وقال: لا شيء عليك وفسَّره بقول الله تعالى في سورة لقمان من الآية المفردة بالخمسة الأشياء التي لم يطّلع عليها أحد من خلقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[2] فسرّي عنه، وأمر للمعبّر بجائزة سنية. فلما كان بعد ثلاثة أيام رأى أبو الجيش - وهو خمارويه المذكور - في منامه كأنه قد صعد نخلة، فلما وصل إلى رأسها أقبل يقوّر جمّارها وقلبها فيرمى به، حتى بان في النخلة مكان ما تقوَّر من قلبها، وقد صار في موضع التقوير دم. واستيقظ فقصَّ ذلك على هذا المعبّر فقال: خيراً رأى الأمير، وخيراً يلقاه، فقال له: أبِنْ على كلِّ حال، فقال: يعفيني الأمير، فلم يعفه ولجَّ في المطالبة بالتفسير، فسأله الأمان على نفسه وماله، فأعطاه ذلك، فقال له: أيُّها الأمير إنِّي أخاف عليك أن يغتالك بعض خاصّتك. قال: ومن أين؟ قال: لأنّك أنت النخلة، وتقويرك بيدك قلبها وهو أفضل ما في جسدك وهو قلبك بأيدي قوم اصطنعتهم وهم غرس يدك، فاحترس. فلما كان في تلك الليلة وهي الخامسة من الرؤيا قتله الخدم ذبحاً على منامه، فضم المنامان والله أعلم.

فائدة: أكثر التعبير للرؤيا إنما يجري على هذا الوجه من الاعتبار بما رأى على طريقة التمثيل. وكثير من معاني القرآن أيضاً جرى على التمثيل والتشبيه، وذلك نحو قوله تعالى ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾[3] فإنّه على

---

(١) في ك، و أ (نومة) مكان (غمضة).

(٢) الآية (٣٤) من سورة لقمان.

(٣) سورة الرعد / ١٧.

تمثيل العلم بالماء، والقلب بالأودية والينابيع، والضلال بالزبد. على ما نبّه عليه في آخرها بقوله عزّ من قائل «كذلك يضرب الله الأمثال». والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهذه نبذة من شعر الجامع عفا الله عنه. قال في سنة ثلاث وسبعين يمدح أباه مدَّ الله ظلّه[1]:

لمن الكتائبُ في العَجاجِ الأكدَرِ	يخطُرْنَ في زَردِ الحَديد الأخضَرِ
ضربَتْ عليهنَّ الرماحُ سُرادقاً	عُمِدَتْ بساعِدِ كلِّ شهمٍ أصْعَرِ[2]
والبيضُ تلمعُ في القَتام كأنَّها	لمعُ البَوارقِ في رُكام كنَهْوَرِ[3]
وصَليلُ وَقْعِ المُرهَفاتِ كأنَّه	رعدٌ يُجلجلُ في أجشَّ مُزَمْجِرِ[4]
والرَّايةُ الحمراءُ يخفقُ ظِلُّها	يَهفُو عليها كلُّ لَيثٍ مُزْئرِ
والخيلُ قد حملَتْ على صَهَواتِها	من كلِّ أصْيدَ باسلٍ ذي مِغفَرِ
مُتَسربلٍ بالقلبِ فوقَ دِلاصِهِ	مُتلثِّمٍ بالنَّقعِ لمَّا يَسْفِرِ
في مَوقِفٍ كسفَ الظهيرةَ نَقعُهُ	فأضاءَها بشرُوقِ وجهٍ مُقْمِرِ
يختالُ في حَلَقِ الدِّلاصِ كأنَّه	يختالُ مِنها في مُفوَّفِ عَبقَري[5]
من فتيةٍ ألِفُوا الأسنَّةَ والقَنا	فقُبابهُم قصبُ الوَشيجِ الأسْمَرِ
يَقْرُونَ بيضَهم الرِّقابَ ويُنْهِلُوا	زُرقَ الأسِنَّةِ من نَجيعٍ أحْمرِ[6]
شادُوا عِمادَهُم بكلِّ مثقَّفٍ	لَدْنٍ ومجدَهُم بكلِّ مُشهَّرِ

---

(١) لا وجود لهذه القصيدة في (ع) وهي مثبتة في ديوان المؤلف، وكتابه سلافة العصر/ ٨٤.

(٢) في الديوان (دعمت) مكان (عمدت).

(٣) في ك (تلمع في العظام) والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية الديوان. الكنهور من السحاب: قطع أمثال الجبال، أو المتراكم منه.

(٤) في ك (مجهر) مكان (مزمجر)، والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية الديوان.

(٥) في ك (حلق الدروع) والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية الديوان.

(٦) حذف النون من (ينهلون) للضروة، وهو وارد في الشعر العربي.

حَلُّوا من العَلياءِ قِمَّةَ رأسِها حَوَوا البَسالةَ أكبراً عن أكبرِ[1]

مَن مِنهمُ الملِكُ المَهيبُ إذا بَدى خَضعَتْ له ذُلاً رقابُ الأعْصُرِ[2]

فَخرُ المفاخِرِ والمآثِرِ والمحافِلِ والجَحافِلِ والعُلى والمِنبرِ[3]

القائدُ الجَيْشَ العَرَمْرَمَ مُعْلَماً من كلِّ ليثٍ ذي بَراثِنَ قَسْورِ

السائقُ الجُردَ المَذاكي شُزَّباً تَخطُو وتخطُرُ بالرِّماحِ الخُطَّرِ

الفالقُ الهاماتِ في يَوم الوَغى والسُّمرُ بينَ مُحطَّمٍ ومكسَّرِ

والشامِخُ النَّسبَين بينَ ذوي العُلى والباذخُ الحَسبَينِ يومَ المَفْخرِ

والواهبُ البَدْراتِ يَتبعُها النَّدى من كفِّه بسحاب تبرٍ ممطرِ[4]

يَجلُو دُجى الآمالِ منهُ بِنائلٍ متلألئٍ وبِصُبحِ جودٍ مُسْفِرِ

ولكم جَلا رَهجَ القَتامِ بِباتِرٍ متألِّقٍ وسِنانِ أسْمرَ سَمْهَرِي

ملكٌ إذا ما جادَ يَوماً أو سَطا فالخلقُ بينَ مُمَلَّكٍ ومُعفَّرِ

من دَوحَةِ المَجدِ الرَّفيعِ عِمادُهُ والفرعُ يُعربُ عن زكيِّ العُنصرِ

ما يَنقَضي يوماً شَهيرُ نَوالهِ إلاَّ وأتبعَهُ بآخرَ أشْهَرِ

هذا الذي صَدعَ القلوبَ مهابةً وأذلَّ كلَّ عملَّسٍ وغَضَنْفَرِ

هذا الذي غمرَ الأنامَ سَماحةً من جُودِه الطَّامي الجَليلِ الأوفرِ[5]

هذا الذي حازَ المكارِمَ قُعَّساً وسِواهُ يلطمُ خدَّ سَبْسَب أقْفَرِ[6]

هذا نظامُ الدِّينِ وابنُ نِظامِهِ نسبٌ يَؤولُ إلى النَّبيِّ الأطهَرِ

لمعَتْ أسِرَّةُ نورِه في وَجْههِ فازورَّ عنها كلُّ لحظ أخْزَرِ

---

(١) في الديوان (وحووا بسالة أكبر).

(٢) في ك (ملوك الاعصر) والمثبت عن (أ) وهو موافق لرواية الديوان.

(٣) في الديوان: تقديم الجحافل على المحافل. والمثبت موافق لرواية سلافة العصر / ٨٤.

(٤) في الديوان (من جوده) مكان (من كفه). وفي ك (قمطر) مكان (ممطر).

(٥) في الديوان (الجليل الابهر).

(٦) في الديوان (خد حزن أقفر).

يَجلُو لنا في حِلمِهِ مَعْ حَزْمِهِ — أخلاقَ أحمدَ في بَسالةِ حَيدَرِ[1]

بينا تَراهُ مُصدَّراً في دَسْتِهِ — ملكاً تراهُ فوقَ صَهوةِ أشْقَرِ

أرَبيبَ حجرِ المكرُماتِ وربُّها — ورَضيعَ ثَدي العارِضِ المُثعَنْجِرِ

للهِ جدُّك أيُّ مجدٍ حُزْتَهُ — فشأوتَ كلَّ مقدَّمٍ ومؤخَّرِ

أنت الذي أحْرزتَ كلَّ فضيلةٍ — ووردْتَ بحرَ الفَضلِ غيرَ مُكدَّرِ

ظَمِئَتْ أمانيُّ الرِّجالِ لَدى العُلى — فوردْتَ منهلَها ولمَّا تَصْدُرِ

واليكها غرَّاءَ قد أبرزتُها — تُجلى بشُكرِكَ في نَدِيِّ المَحضَرِ

أحكمتُ نظمَ قَريضِها فتناسَقَتْ — كالعِقْدِ يَزْهُو في مُقَلَّد جُؤذَرِ

يذكو بمَدحِكَ نشرُها فكأنَّني — أذكيتُها منه بمِسْكٍ أذفَرِ

ما ضاعَ نشرُ ثَنائها في مَجلسٍ — إلاَّ تفتَّقَ عن ذكيِّ العَنبَرِ

واسلَمْ على دَرَج المَعالي راقِياً — بأجلِّ خُبْرٍ في الأنامِ ومَخْبَرِ[2]

وقال في غرض[3]:

أظننتَ أنَّ الوجدَ مُكتمِنُ — وخَفيُّ سِرِّكَ في الهَوى عَلَنُ[4]

أنَّى لقَلبِكَ أن يُقالَ صَحا — وثَنى جَموحَ ضَلالِه الرَّسَنُ

قَد طالَ مَكثُكَ حيثُ لا فَرَحٌ — يَصفُو به عَيشٌ ولا حَزَنُ[5]

وأضرَّ قلبَكَ طولُ مُغترَبٍ — لا منيةٌ تَدنُو ولا وَطَنُ[6]

فالامَ تَرضى - لا رَضيتَ - بأنْ — يُنمى إليكَ العَجزُ والجُبُنُ

---

(١) في الديوان (من حلمه في حزنه).

(٢) في الديوان (بأجل أخبار وأصدق مخبر).

(٣) هذه قطعة من قصيدة مثبتة في ديوان المؤلف.

(٤) رواية الديوان لصدر البيت هكذا (تبدي السلو وأنت مرتهن).

(٥) في الديوان (حيث لا وطر) و (عيش ولا وطن).

(٦) عجز البيت في الديوان (لا مسكن يدنو ولا سكن).

فكأنَّ لا عَربٌ ولا عَجَمٌ وكأنَّ لا شامٌ ولا يَمنُ[1]
أحَلا لنفسِك أن يُقالَ لها هذا عَليٌّ حَطَّهُ الزمنُ
حَصلَ الجهولُ عَلى مآرِبهِ ومَضى بغيرِ طِلابِه القَمِنُ
حتَّى متى قولٌ ولا عَمَلٌ وإلى مَتى قَصدٌ ولا سَنَنُ
ما شانَ شأنَك قطُّ مُنتَقِصٌ أنت العليُّ وذكرُكَ الحَسَنُ
فاقطَعْ برَحْلِكَ حيثُ لا عتَبٌ واربأ بعِرضِكَ حيثُ لا دَرَنُ
وافخَرْ بسَبْقِكَ لا بسبَقِ أبٍ أوَ ليسَ أنتَ السَّابقُ الأرِنُ[2]
أن يَبلَ ثوبُكَ فالنُّهى جُنَنٌ أو تود خيلُك فالعلى حُصُنُ[3]
لا تَبتَئسْ لمُلِمَّةٍ عَرضَتْ لا فرحَةٌ تَبقى ولا حَزَنُ

وقال معاتبا[4]:

أتركتَني دَنِفاً ورُحتَ مُعافى نَفسي فداؤكَ ما كذا مَن صافى[5]
هلاَّ ذكرتَ لَيالياً بِتْنا بِها نَرعى النُّجومَ ونَذكرُ الألاَّفا
كيفَ انفرادُكَ بَعد ما كنَّا معاً حاشا لمثلِكَ ينقُضُ الأحْلافا
أنَسِيتَ لا أنسِيتَ فضلَ صَبابةٍ كنَّا بها نَسْتَسْعِفُ اسْتِسعافا
فاليومَ رحتَ وقد قَوِيتَ على الهوى وجَوانحي أمسَتْ عليه ضِعافا
وألِفْتَ آنَسَ مَضْجَعٍ متبوَّأٍ ومَضاجِعي لا تَعرفُ إلا يِلافا[6]
لو كنتَ تَحفظُ في الهَوى أنصَفْتَني أو كنتَ تعرفُ في الهَوى إنصافا
أتَظلُّ تُسقَى في الغَرام سُلافَةً وأظَلُّ أسْقى في الغَرام ذُعافا

(١) لا وجود لهذا البيت في الديوان.
(٢) الأرن: النشيط. في الديوان (فخرا فأنت السابق الأرن).
(٣) في ك (فالنهى أزر) والمثبت موافق للديوان.
(٤) في الديوان (خاطب بها أخاه محمد يحيى). لا وجود لهذه القصيدة في (ع).
(٥) في الديوان (مهلا فديتك ما كذا من صافى).
(٦) في ك (وألفت أنسأ مضجعا متبوأ) والمثبت موافق لرواية الديوان.

وأبيتُ في حَرِّ الصُّدودِ مُقاطَعاً ... وتبيتُ في بَرْد الوِصالِ مُوافى[1]
ما جارَ من مَنَع الحبيبَ وإنَّما ... جارَ الذي قَبضَ الحبيبَ وحافا[2]
ناصَفْتَني حملَ الهَوى وتركتَني ... حتَّى جملتُ من الهَوى أضْعافا
فليُهنِنكَ اليومَ الوصالُ فإنَّني ... باقٍ وإنْ أخْلَفْتَني إخلافا

وقال[3]:

دعاهُ على سَهلِ الغَرام وصَعْبِه ... فماذا عَليكم إنْ أضرَّ بقَلْبِهِ
أقِلاًّ عليه في المَلامِ فإنَّه ... يَرى الموتَ أصْفى من كدورةِ خطبِهِ
وليسَ بمُجْدٍ يا خليليَّ لومُه ... فإنَّ الهَوى قد سِيطَ منه بلُبِّهِ
ولو ذُقتُما ما ذاقَ من لاعجِ الهَوى ... لأيْقَنتُما أنَّ العذابَ بعَذْبِهِ
يبيتُ على جَمرِ الغَرام وينْطَوي ... وتُصبِيهِ ذكرَى غَورِ سَلْعٍ ومن بِهِ
يحنُّ إلى أوطانِهِ ثمَّ يَنثني ... عَلى قلبِهِ كيْلا يذوبَ بكَربِهِ
وإن لاحَ من نجدٍ ومِضٌ توقَّدَتْ ... بأحشائه نارُ الغَرام وجَنبِهِ
وليسَ لهُ عَن مَنهج الحبِّ مَنْهجٌ ... وكيفَ ومَهما أوْمضَ البرقُ يُصْبِهِ

وقال[4]:

ما بالُ قلبكَ لم يَزل مُتأوِّها ... لا الحلمُ يردَعُه الغداةَ ولا النُّهى[5]
أأعادَ عِيدَ غَرامِه طَيرٌ شَدا ... فغدا يحنُّ إلى زَمانٍ قَد زَها
ما زادَه الواشُونَ عذلاً في الهوى ... إلاَّ وزادَ تَولُّعاً وتَدلُّها[6]
وتوجُّعاً وتحزُّناً وتَمَلْمُلاً ... وتشوُّقاً وتولُّهاً وتأوُّها[7]

---

(١) في الديوان (حر الغرام).

(٢) في ك (ما حاف) مكان (ما جار).

(٣) لا وجود لهذه القطعة في (ع).

(٤) لا وجود لهذه القصيدة في (ع) وهي مثبتة في ديوان المؤلف.

(٥) في الديوان (ما بال قلبك لا يزال مولها).

(٦) في الديوان (ما زاده اللاحون) و (تولها) مكان (تدلها).

(٧) في الديوان (تحرقا) مكان (تولها).

ما أنتَ أوّلَ من نَأى عن دارهِ ... ورَمَتْ به أيدي النّوى فَتَولَّها[1]
قد آن أن تثني غَرامَك سَلْوةٌ ... وتُفيقَ منه طائعاً أو مُكرَها
أصَفا لدَمعِكَ أنْ يبيتَ مُرَقْرَقاً ... وحَلا لقلبِكَ أن يَظَلَّ مُولَّها
عَبثَتْ طُروقُ النَّائباتِ به فَلا ... جَزَعٌ يُؤوِّبُه ولا صَبرٌ وهَي
ما إنْ شدَتْ وَرقاءُ فوقَ أراكةٍ ... إلاّ وكانَ له حَنينٌ مثلَها[2]
أظَننتَ أنَّ العَهدَ بعدكَ مُوثَقٌ ... والدَّارَ دارٌ والمَها تلكَ المَها[3]
قد أخلِيَتْ تلكَ الرُّبُوعُ وفُرِّقَتْ ... تلكَ الجموعُ فما البَها ذاكَ البَها[4]
أقصِرْ فقد خَلتِ الدِّيارُ فَلا هَوىً ... يُصبَى إليهِ ولا مَليحٌ يُشْتَهي[5]
لم تبقَ إلاَّ لوعةٌ أو حَسْرةٌ ... يُمسي بها الصَّخرُ الأصمُّ مُدَلَّها

وقال[6]:

ذكرَ الخَيْفَ والحِمى وحُجُونَهْ ... فذَرى دمعَه وأبْدى مَصونَهْ[7]
وأعادَ الهَوى له عيدَ وَجْدٍ ... منعَ النّومَ طرفَه وجُفُونَه
لا تَلومُوهُ إنْ بَكى من فراقٍ ... وأجدَّ الأسَى عليه جنُونَهْ
كلُّ صبٍّ إذا تذكَّرَ يَوماً ... هيَّجَ الذكرُ وجدَه وشجُونَهْ
يا نُزولاً ببَطنِ مكّةَ عَطْفاً ... بِمحبٍّ أبَحْتُمُ اليومَ هُونَهْ
مُولَعٍ بالأسَى عَزيزٍ تَأسٍّ ... قرَّحَ الدَّمعُ خدَّه وشُؤونَهْ

---

(١) في الديوان (فتدلها) مكان (فتولها).

(٢) لا وجود لهذا البيت في الديوان.

(٣) رواية الديوان لهذا البيت هكذا (لا تحسبن أن المعاهد بالحمى - تلك المعاهد والمها... الخ).

(٤) في الديوان (فلا البهي ولا البها).

(٥) لا وجود لهذا البيت في الديوان.

(٦) سقطت هذه القطعة من (ع).

(٧) في الديوان (بالبكاء جفونه).

ثم إنْ شِئتُمُ صِلُوا أو فَصدُّوا ما عَليه إذا قَضَيْتُمْ ديُونَهْ

وقال[1]:

وربَّ ساقٍ قلبُه قلبُه أفديهِ من قاسٍ ومن ساقِ

تحاربَ العُشَّاقُ في حبِّهِ وقامَتِ الحربُ على ساقِ[2]

وقال[3]:

أيّ ذَنبٍ في الهَوى قد أذْنَبَهْ من رأى شيئاً عَجيباً أعجَبَه[4]

مغرمٌ إن لاحَ بَرقٌ شاقَهُ وإذا هَبَّ نَسيمٌ أطْرَبَهْ[5]

لا تَلومُوهُ على طُولِ الأسَى إنْ بكى وَجْداً وأبدَى حَرَبَهْ[6]

ليسَ ما يَلقاهُ هَيْناً في الهَوى فالهَوى مَرْقاهُ صَعْب العَقَبَهْ[7]

يا نُزولَ الخَيْفِ ما ظَرَّكُمُ لو وَصَلْتُم من قَطَعْتُم سَبَبَهْ

مُستهامٌ خانَه الصَّبرُ فمُذْ بَعُدَتْ أظعانُهُ ما قَربَهْ

شفَّه الوجدُ وأضْناهُ الأسَى ورماه البين سهماً ضربه (كذا)[8]

وإذا رامَ هُجُوعاً طَرفُهُ هَزَّه الشَّوقُ إليكم فانْتَبَهْ

وقال[9]:

هذا الحجازُ وذاكَ ضَالُهُ قد قُلِّصتْ عنه ظِلالُهْ

---

(١) لا وجود لهذين البيتين في (ع).

(٢) في الديوان (في حسنه) مكان (في حبه).

(٣) لا وجود لهذه القطعة في (ع).

(٤) عجز البيت في الديوان (مغرم لم يقض منكم أربه).

(٥) في الديوان (كلما لاح بريق شاقه).

(٦) ورد البيت في الديوان على النحو الآتي:

لا تلوموه إذا هام بكم وصبا شوقاً وأبدى وَصَبه

(٧) لا وجود لهذا البيت في الديوان.

(٨) لا وجود لهذا البيت في الديوان.

(٩) لا وجود لهذه القصيدة في (ع) وهي في الديوان (٣١) بيتاً.

ماذا بكاءُ المُسْتَهامِ   بِرَقمتَيْه وما سُؤالُهْ
إن كانَ أطمَعَهُ الحِمى   فاليومَ تُؤيِسُهُ رمالُهْ
قد بانَ عَنه جَميلُهُ   في نأيِهِمْ ونأى جَمالُهْ[1]
أينَ المعاهد والعهودُ   وأينَ مَن مالَ اعْتِدالُهْ
لَهفي عَلى الرَّشا الذي   قد أفلِتَتْ منّي حِبالُهْ
يَصفُو ويكدُرُ حبُّهُ   والحبُّ أكدَرُهُ مَلالُهْ
ما إنْ حَلا لي وَعْدُه   إلاّ وم رَّرَه مِطالُهْ
منَعَ الكَرى عن ناظِري   كيْ لا يُلمَّ به خيالُهْ[2]
لو أنَّ ما بِي من هَواهُ   بيَذْبُلٍ ذابَتْ قِلالُهْ
يا ويحَ قَلبي قَدْ تَفَرَّغَ   في هَواهُ به اشتِغالُهْ
حمَّلتُه ما لَمْ يُطِقْ   واليومَ قد قلَّ احتِمالُهْ
ولكلِّ خطبٍ حِيلَةٌ   والبينُ قُلْ لي ما احْتِيالُهْ

وقال:

سَقى اللهُ أيَّامَنا بالحِجازِ   ولا جازَها الغَيْدقُ الهاطِلُ
فما كانَ أرغَدَ عَيشي بِها   إذ المَنزِلُ القَفرُ بي آهِلُ
لقد طالَ وَجْدي وذِكري لَها   وليسَ لعَصرٍ مَضى طائل[3]
فيا لهفَ نَفسي لهُ ماضِياً   ترحَّلَ والوَجدُ بي نازِلُ
تُرى مَن عَزائي به خارِجُ   وداءُ الأسَى في الحَشا داخِلُ[4]

---

(١) سقط هذا البيت من (أ). في الديوان (جماله) مكان (جميله) وفيه عجز البيت (وتحملت منه جماله).

(٢) في الديوان (بنا) مكان (به).

(٣) في الديوان (وليس لما قد مضى طائل).

(٤) رواية الديوان لهذا البيت كالآتي:

ترى من غرامي به دائم   وحالي من فقده حائل

دَرى أنَّ وَجْدي بِه لا يَزُولُ وصَبْرِيَ مِن بَعدِهِ زائِلُ
يَقولونَ لي إنَّهُ خاذِلٌ وخيرُ الظِّبا الشَّادِنُ الخاذِلُ[1]
أتعذلني جاهِلاً حالَهُ لكَ الويلُ يا أيُّها العاذِلُ[2]
تجيبُ الصَّفاةُ وليس يُجِيبُ ودَمعي على وَجْنَتي سائِلُ[3]

وقال[4]:

أما لِلَيل المُسْتَهام إشْراقْ
أم هكذا يَطولُ ليلُ العُشَّاقْ
كم لَوعةٍ لا تَنقضي وأشْواقْ
تزيدُ قَلبي في الغَرام إقلاقْ
جسمٌ عليلٌ وفؤادٌ خفَّاقْ
ومدمعٌ على الخُدودِ رَقْراقْ[5]
في كلِّ حينٍ غَرقٌ وإحْراقْ
من طَرفيَ الباكي وقَلبي المُشتاقْ
إنَّ الهوى ما زالَ نائي الأعماقْ[6]
يَقصُرُ عنه سابِقٌ ولحَّاقْ
ماذا عَلى من شاقَني وما اشتاقْ
لو لَم يَضُنَّ بالخَيال الطَّرَّاقْ
اللهُ لي من ذي مَلالٍ مَذَّاقْ

---

(١) الخاذل من الظباء: المتخلفة عن صواحبها.

(٢) في ك (بالهوى) مكان (حاله).

(٣) لا وجود لهذا البيت في ك.

(٤) لا وجود لهذه الأرجوزة في ك.

(٥) في أ (دفاق) مكان (رقراق).

(٦) هذا الشطر، والشطران اللذان بعده غير موجودة في (أ).

أصفيتُه الودَّ بقلبٍ ملاَّقْ
إنَّ مَودَّاتِ القلوبِ أرْزاقْ

وقال[1]:

يا مُتعِباً بنقُوشِ الخَطِّ أنملَهُ ... وساهرَ اللَّيلِ لم يَرقُدْ ولم يَنَم
دَعْ عنكَ ما راحَتِ الأقْلام تَنقشُهُ ... في صَفحةِ السَّيفِ ما يُغني عن القَلَمِ

وقال وهو معنى غريب[2]:

من ذا الَّذي شَرَع المحبَّةَ ... والتَّواصُلَ والودادْ
فكأنَّه لم يَدرِ ما ... مِحَنُ التَّفرُّقِ والبِعادْ

وقال[3]:

سَلْ عن فؤادِكَ يومَ طاشَ بكَ الهَوى
إن كنتَ تملِكُ في الغَرام فُؤادا[4]
هيهاتَ عَهدي يومَ مُنعَرَجِ اللِّوى
قادت أزمتَه النوى فانقادا[5]

وقال[6]:

رِيعَتْ وقد أبصرَتْ نَبتَ العِذارِ بَدا ... كالرَّوضِ يَفْترُّ عن غِبِّ من الدِّيَمِ
فقلتُ ما الشَّعْرُ هذا ما تَرَينَ بهِ ... وإنَّما هُو نبتُ الحِلْمِ والكَرَمِ

وقال:

أفدِيهِ من رشأ تَبدَّى واختَفَى ... كالبَدرِ عندَ طُلوعِهِ ومَغِيبِهِ[7]

---

(١) لا وجود لهذين البيتين في (ك).
(٢) خلت (ك) من هذين البيتين أيضاً.
(٣) لا وجود لهذين البيتين في (ك).
(٤) في الديوان (حين طاش).
(٥) في الديوان (الهوى) مكان (النوى).
(٦) لا وجود لهذين البيتين في (ك).
(٧) في ك (بدا وقد اختفى).

يَجفُو ويَهجُرُ مُعرِضاً مُتَدلِّلاً ... ويَصُدُّ مُعتذِراً بخوفِ رَقيبِه

نَفسي الفِداءُ له حَسُن الهَوى ... فيه وطابَ بحُسْنِه وبِطيبِه

ما شاءَ فليَصْنَعْ فقَلبي طَوْعَه ... ودَعِ العَذُولَ يَلجُّ في تَأنِيبِهِ

وقال:

ذاكَ الحجازُ وهذه كُثبانُهُ ... فاحْفَظْ فؤادَكَ إنْ رَنَتْ غِزلانُهُ

واسفَحْ دموعَكَ إنْ مرَرْتَ بسَفْحِهِ ... شغفاً به إنَّ الدُّموعَ جُمانُهُ

وسَلِ المنازِلَ عن هوًى قَضَّيتُهُ ... هَل عائدٌ ذاكَ الهَوى وزَمانُهُ

لهَفي على ذاكَ الزَّمانِ وأهلِه ... وسقاهُ من صَوبِ الحَيا هتَّانُهُ

إذ كانَ حبلُ الوَصْلِ متَّصِلاً بِنا ... والعيشُ مُورِقَةٌ به أغْصانُهُ

وإذِ المعاهدُ مُشرِقاتٌ بالمُنى ... والرَّبعُ مَغنىً لم يَبِنْ سُكَّانُه[1]

يا عاذليَّ دَعا فؤادي والجَوى ... لا تَعذُلاهُ فإنَّه دَيْدانُهُ

وارحَمتا لمتيَّمٍ قذفت به ... أيْدي النَّوى وتباعَدت أوطانُهُ

هبَّت له من نحوِ نَجدٍ نَسمةٌ ... فتزايدَت لهبُوبِها أشجانُهُ

يُمسِي ويُصبح والهاً متوجِّعاً ... تبكي عليه من الضَّنى اخوانُهُ[2]

ما إنْ تذكَّرَ بالحجازِ زمانَهُ ... إلاَّ وشبَّت في الحَشا نِيرانُهُ

فسَقى الحجازَ ومن بذَيَّاك الحِمى ... صوبُ المَدامع هاطِلاً هَمَلانُهُ

لا انفكَّ للدَّمع الهَتُونِ تَقاطرٌ ... بعد الحجاز ولا رقَتْ أجفانُهُ

وقال:

تذكَّر والذكرى تَهيجُ أخا الوَجْدِ ... مراتِعَ ما بَين الغُوَيْرِ إلى نَجدِ[3]

أسيرٌ يُعاني من نَوائبِ دَهرِه ... حوادثَ لا تَنفكُّ تَترى على عَمْدِ

---

(١) في الديوان (والسفح) مكان (والربع).

(٢) في الديوان (يمسي ويصبح بالفراق موجعا).

(٣) في ك (مرابع) مكان (مراتع) والمثبت موافق لرواية الديوان.

إذا شاقَه من نَحوِ رامةَ بارقٌ ذرى عَبرةً من مُقْلتَيهِ على الخَدِّ

يحنُّ إلى أحياءِ لَيلى بذي الغَضا
وأينَ الغَضاوَيْب المَشوق من الهِنْدِ[1]

ويَبكي بطَرفٍ يَمْتَري الشوقُ دمعَهُ
إذا ما شدَتْ ورقٌ على فَنَنَيْ رَنْدِ[2]

هي الدارُ لا غبَّت مراتعُ سَفْحِها
ذِهابُ الغَوادي الجَوْن تُزجر بالرَّعدِ[3]

تحلُّ بها غَيْداءُ من آلِ عامرٍ كلِيلةُ رَجْع الطَّرفِ مائسةُ القدِّ

يُرنِّحُها زهْوُ الصِّباحين تنثني كما رنَّحَتْ ريحُ الصَّبا عذَبَ المُلْدِ

نمتْها سَراةٌ من ذُؤابةِ عامرٍ
إلى سَرواتِ المَجد والحَسَبِ العِدِّ[4]

فيا ليتَ شِعري والأماني تَعِلَّةٌ
وجَورُ النَّوى يُهدي إلى القَلب ما يُهدي

أنُصبِحُ والشملُ المبدَّدُ مجمعٌ فيَخبُو جَوىً بين الجَوانح ذُو وَقْدِ

وتغدُو على رَغم الزَّمانِ وقد صفَتْ
مواردُ وصلٍ رنَّقَتْها يدُ البُعدِ

بلى ان الله على كلِّ شيء قدير، وبالإجابة متى دعي جدير. والله أسأل أن يسنَّ بالعود على أحسن الوجوه، ويوفق لإتمام هذه الرحلة على أكمل وجه أرجوه.

---

(١) ويب: مثل ويل وزناً ومعنى.

(٢) (فنني رند) كذا ورد في الديوان أيضاً، ولعله (فنن الرند). في ك (إذا شدت الورقاء في فنن الرند).

(٣) الذهاب (بالكسر)، جمع الذهبة: المطرة. في الديوان (غيدها) مكان (سفحها).

(٤) العد (بالكسر): الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع.

وهنا انقطعت بنا المادة، فوقفنا على هذه الجادة سائلين الله سبحانه أن يرزقنا الأوب إلى حرمه، ويقضي لنا بالرجوع إلى جوار بيته المحرَّم بجوده وكرمه.

ومتى سنح إن شاء الله تعالى شيء يليق الحاقة ألحقناه في سفر آخر.

قال مؤلفها الفقير إلى ربه الغني علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم ابن أحمد نظام الدين بن ابراهيم الحسيني الحسني عفا الله عنهم: كان الفراغ من هذا السِّفر (سلوة الغريب وأسوة الأريب) يوم الجمعة لليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وألف[1] والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين.



---

(١) نص المؤلف في ص / ٢٩٣ على أنه ألف رحلته هذه سنة ١٠٧٤، ويظهر أنه تاريخ بداية العمل، وكان الانتهاء منه سنة ١٠٧٥ كما ذكر هنا وهو النص الحرفي المنقول من المخطوطة المرموز إليها بحرف (ع). وجاء في المخطوطة المرموز إليها بحرف (أ) حكاية عن المؤلف قوله (وكان الفراغ من تسويد هذه الرحلة في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين بعد الألف. أما المخطوطة المرموز إليها بحرف (ك) فقد سقط منها تاريخ الفراغ من التأليف أو التسويد.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مراجع التحقيق

١ - الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروتي (محمد بن أحمد). نسخة مصورة عن الأصل المطبوع بأوربا.

٢ - الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب. تحقيق عبدالله عنان. دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٥ م.

٣ - الاحتجاج للطبرسي (أحمد بن علي بن أبي طالب). منشورات دار النعمان في النجف الأشرف سنة ١٩٦٦ م.

٤ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي المعروف بالبشاري. مصور عن الأصل المطبوع بليدن سنة ١٩٠٦ م.

٥ - أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي (محمد بن عبدالله بن أحمد). تحقيق رشدي الصالح مِلْحسن. مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة ١٩٦٥ م.

٦ - أساس البلاغة للزمخشري (محمود جارالله بن عمر) دار مطابع الشعب بالقاهرة سنة ١٩٦٠ م.

٧ - الأصنام للكلبي (هشام بن محمد بن السائب) تحقيق أحمد زكي. مصور عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ م.

٨ - أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين العاملي. طبع دمشق وبيروت.

٩ - الأعلام للزركلي (خير الدين). الطبعة الثانية. دمشق.

١٠ - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين). طبع دار الثقافة ببيروت الطبعة الثالثة ١٩٦٢ - ١٩٦٤ م).

١١ - أقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد لسعيد الشرتوني. طبعة مصورة في إيران عن الأصل المطبوع في بيروت.

١٢ - أمالي القالي (أبي علي اسماعيل بن القاسم) مع الذيل والنوادر. تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي. مصور من قبل دار المكتب التجاري ببيروت عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٣ - الإكليل للهمداني (الحسن بن أحمد) الجزءان الأول والثاني. تحقيق محمد بن علي الأكوع. مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٩٦٣ - ١٩٦٦م.

١٤ - أمالي المرتضى - الغرر والدرر - للشريف المرتضى (علي ابن الحسين). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مصر ١٩٥٤ م.

١٥ - أنباه الرواة في أنباء النحاة للقفطي (علي بن يوسف). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ - ١٩٧٣ م.

١٦ - أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين للشيخ علي بن حسن البلادي البحراني. مطبعة النعمان في النجف الأشرف ١٩٦٠ م.

١٧ - أنوار الربيع في أنواع البديع لابن معصوم المدني (السيد علي صدر الدين) تحقيق شاكر هادي شكر. مطبعة النعمان في النجف الأشرف ١٩٦٨ - ١٩٦٩ م.

١٨ - الأوراق - أخبار الشعراء - للصولي (محمد بن يحيى) مطبعة الصاوي بمصر سنة ١٩٣٤ م.

١٩ - ايضاح المكنون لاسماعيل باشا البغدادي . تصوير المكتبة الاسلامية بايران سنة ١٩٦٧على الاصل المطبوع باستنبول.

٢٠ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني. مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٨ م.

٢١ - البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي. تحقيق الدكتور ابراهيم

الكيلاني. نشر مكتبة أطلس، ومطبعة الإنشاء بدمشق ١٩٦٤ م.

٢٢ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي. تصوير مكتبة المثنى عن الأصل المطبوع في مدينة مجريط سنة ١٨٨٤م.

٢٣ - بغية الوعاة في طبقاة اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٤ م.

٢٤ - تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (١ - ١٦) وزارة الإعلام في الكويت.

٢٥ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. نشر دار الكتاب العربي بيروت (أوفست).

٢٦ - تاريخ الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير). تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار المعارف بمصر ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م.

٢٧ - تاريخ المشعشعيين وتراجم أعلامهم. تأليف جاسم السيد حسن شبر. مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٩٦٥ م.

٢٨ - تتمة يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي (عبد الملك بن محمد). نشر عباس إقبال. مطبعة فريدون بطهران ١٣٥٣ هـ.

٢٩ - التذكرة السعدية في الأشعار العربية لمحمد بن عبد الرحمن ابن عبد المجيد العبيدي. تحقيق الدكتور عبدالله الجبوري. مطبعة النعمان في النجف الأشرف ١٩٧٢ م.

٣٠ - تقويم البلدان لأبي الفداء السلطاني عماد الدين اسماعيل ابن محمد. مصور من قبل مكتبة المثنى ببغداد عن الأصل المطبوع بباريس سنة ١٨٤٠ م.

٣١ - التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي (عبد الملك بن محمد). تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٦١م.

٣٢ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد). تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م.

٣٣ - جدوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس لمحمد بن نصر الحميدي. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي. نشر مكتبة الثقافة الإسلامية بمصر. الطبعة الأولى ١٩٥٢ م.

٣٤ - حديقة الأفراح للشيرواني (أحمد بن محمد الأنصاري اليمني). مصر ١٣٠٥ م.

٣٤ أ - حكمة الإشراق للسهروردي يحيى بن حبش. مطبعة انستيتو بطهران ١٩٥٢ م.

٣٥ - حلبة الكميت للنواجي (شمس الدين محمد بن الحسن) المكتبة العلامية بمصر ١٩٣٨ م.

٣٦ - حلية الأولياء لأبي نعيم (أحمد بن عبدالله الأصبهاني). دار الكتاب العربي ببيروت.

٣٧ - حماسة أبي تمام الطائي (حبيب بن أوس). شرح المرزوقي. تحقيق أحمد أمين وعبد السلام محمد هارون. لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٦٧ م.

٣٨ - حماسة البحتري (أبي عبادة الوليد بن عبيد) ضبط وتعليق لويس شيخو. دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٦٧ م.

٣٩ - الحماسة البصرية لصدر الدين ابن أبي الفرج. تصحيح وشرح مختار الدين أحمد. طبع حيدر آباد ١٩٦٤ م.

٤٠ - الحماسة الشجرية لهبة الله بن علي المعروف بابن الشجري. تحقيق عبد المعين الملوحي، وأسماء الحمصي. منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٠ م.

٤١ - حماسة الظرفاء (الأول) لعبدالله بن محمد العبدلكاني الزوزني. تحقيق محمد جبار المعيبد. منشورات وزارة الإعلام العراقية ١٩٧٣ م.

٤٢ - حياة الحيوان الكبرى للدميري. مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٨٣هـ.

٤٣ - الحيوان للجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر). تحقيق عبد السلام محمد هارون. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٤٥ م.

٤٤ - خريدة القصر (شعراء العراق) للعماد الأصبهاني (محمد بن صفي الدين). تحقيق محمد بهجت الأثري. نشر المجمع العلمي ثم وزارة الإعلام العراقية.

٤٥ - خريدة القصر (شعراء مصر) تحقيق أحمد أمين، وشوقي ضيف، وإحسان عباس. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م.

٤٦ - خزانة الأدب لابن حجة الحموي (تقي الدين أبو بكر بن علي). تصوير دار القاموس الحديث ببيروت عن الأصل المطبوع بالمطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٤ هـ.

٤٧ - خلاصة الأثر للمحبي (محمد أمين بن فضل الله). أعادت تصويره مكتبة خياط ببيروت.

٤٨ - دائرة المعارف الإسلامية (١ - ١٤) مصورة في إيران عن المترجم والمطبوع بمصر.

٤٩ - دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي، أعادت تصويرها دار المعرفة ببيروت عن الأصل المطبوع في القاهرة.

٥٠ - الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة للسيد علي صدر الدين بن معصوم المدني. المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ١٣٨٢ هـ.

٥١ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد). تحقيق محمد سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٦ م.

٥٢ - دمية القصر للباخرزي (علي بن الحسن بن علي) المطبعة العلمية بحلب سنة ١٩٣٠ م، والجزءان الأول والثاني من المطبعة المصرية تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو.

٥٣ - ديوان ابن حمديس الصقلي (عبد الجبار بن أبي بكر). طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٠ م.

٥٤ - ديوان ابن خفاجة الأندلسي (ابراهيم بن عبدالله) طبع دار صادر ببيروت ١٩٦١ م.

٥٥ - ديوان ابن الخياط الدمشقي (أحمد بن محمد) تحقيق خليل مردم. المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٨ م.

٥٦ - ديوان ابن دقيق العيد (محمد بن علي) اختيار الصفدي. تحقيق علي صافي حسين. دار المعارف بمصر.

٥٧ - ديوان ابن رشيق القيرواني (الحسن بن رشيق) جمع وتحقيق عبد الرحمن باغي نشر دار الثقافة ببيروت.

٥٨ - ديوان ابن الرومي - اختيار كامل كيلاني. مطبعة التوفيق بمصر ١٩٢٤ م، والأجزاء (١ - ٣) من الديوان تحقيق الدكتور حسين نصار، طبع دار الكتب المصرية ١٩٧٣ - ١٩٧٦ م.

٥٩ - ديوان ابن عنين (محمد بن نصر) تحقيق خليل مردم. مطبعة دمشق ١٩٦٤ م.

٦٠ - ديوان ابن الفارض (عمر بن علي) طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٢م.

٦١ - ديوان ابن المعتز (عبدالله بن المعتز) طبع دار صادر ببيروت ١٩٦١م.

٦٢ - ديوان ابن معصوم المدني (علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين) تحقيق شاكر هادي شكر. جاهز للطبع.

٦٣ - ديوان ابن نباتة المصري (محمد بن محمد) مطبعة التمدن بعابدين - القاهرة - ١٩٠٥ م.

٦٤ - ديوان أبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو) تحقيق وتكملة الشيخ محمد حسن آل ياسين. مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٤ م.

٦٥ - ديوان أبي تمام الطائي (حبيب بن أوس) شرح الخطيب التبريزي. تحقيق محمد عبده عزام. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م.

٦٦ - ديوان أبي الحسن التهامي (علي بن محمد) من منشورات المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦٤ م.

٦٧ - ديوان أبي حيان الأندلسي (أثير الدين محمد بن يوسف) تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي، والدكتور أحمد مطلوب. مطبعة العاني ببغداد ١٩٦٩ م.

٦٨ - ديوان أبي العتاهية (اسماعيل بن القاسم). تحقيق الدكتور شكري فيصل. مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٥ م.

٦٩ - ديوان أبي العلاء المعري (أحمد بن عبدالله) - سقط الزند - شروح التبريزي، والبطليموسي، والخوارزمي. تحقيق مصطفى السقا، وعبد الرحيم محمود، وعبد السلام محمد هارون، وابراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد. مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٧٤ م.

٧٠ - ديوان أبي فراس الحمداني (الحارث بن سعيد). طبع دار صادر ببيروت ١٩٦١ م.

٧١ - ديوان أبي نواس (الحسن بن هاني). تحقيق أحمد عبد الحميد الغزالي. طبع دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٥٣ م.

٧٢ - ديوان الأحوص الأنصاري (عبدالله بن محمد). تحقيق عادل سليمان. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠ م.

٧٣ - ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) شرح وتعليق الدكتور م. محمد حسين. المطبعة النموذجية بمصر ١٩٥٠ م.

٧٤ - ديوان البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد). تحقيق كامل الصيرفي. طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣ - ١٩٦٤ م.

٧٥ - ديوان بشار بن برد. تحقيق وتكملة محمد الطاهر بن عاشور. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٥٠ م.

٧٦ - ديوان جميل بثينة بن عبدالله العذري. طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٦م.

٧٧ - ديوان دعبل بن علي الخزاعي. جمع وتحقيق الدكتور عبد الكريم الأشتر. المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٤ م.

٧٨ - ديوان الرضي (الشريف الرضي محمد بن الحسين). طبع دار صادر ببيروت ١٩٦١ م.

٧٩ - ديوان السري الرفاء بن أحمد الكندي. نشر مكتبة القدسي بمصر ١٣٥٥ هـ.

٨٠ - ديوان الشاب الظريف (شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان التلمساني) تكملة وتحقيق شاكر هادي شكر. مطبعة النجف في النجف الأشرف ١٩٦٧ م.

٨١ - ديوان الشافعي (الإمام محمد بن ادريس) جمع وتحقيق زهدي يكن. طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٦١ م.

٨٢ - ديوان صفي الدين الحلي (عبد العزيز بن سرايا) طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٢ م.

٨٣ - ديوان عروة بن الورد. طبعدار صادر ببيروت ١٩٦٤ م.

٨٤ - ديوان عمر بن أبي ربيعة. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٠ م.

٨٥ - ديوان عنترة بن شداد العبسي. طبع دار صادر ببيروت ١٩٥٨ م.

٨٦ - ديوان قيس بن الخطيم تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور أحمد مطلوب. مطبعة العاني ببغداد ١٩٦٢ م.

٨٧ - ديوان المتنبي (أحمد بن الحسين) شرح الواحدي طبع برلين ١٨٦١ م. وشرح العكبري مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٦، وشرح البرقوقي نشر دار الكتاب العربي ببيروت، وشرح اليازجي، المطبعة الأدبية ببيروت.

٨٨ - ديوان مجنون ليلى (قيس بن الملوح) جمع وتحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار مصر للثقافة.

٨٩ - ديوان مسلّم بن الوليد (صريع الغواني). تحقيق الدكتور سامي الدهان. دار المعارف بمصر ١٩٥٧ م.
٩٠ - ديوان مهيار بن مرزويه الديلمي. طبع دار الكتب المصرية ١٩٢٥م.
٩١ - ديوان النامي (أحمد بن محمد) جمع وتحقيق صبيح رديف. بغداد ١٩٧٠ م.
٩٢ - ديوان الهذليين. طبع دار الكتب المصرية في السنوات ٩٤٥ و٩٤٨ و١٩٥٠ م.
٩٣ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة لآغا بزرك الطهراني، الطبعة الأولى.
٩٤ - ذيل مرآة الزمان لليونيني (موسى بن محمد) طبع حيدر آباد ١٩٥٤ م.
٩٥ - رجال الطوسي (أبي جعفر محمد بن الحسن) تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم. المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف ١٣٨١ هـ.
٩٦ - رحلة ابن جبير (محمد بن أحمد). طبع دار صادر ببيروت ١٩٦٤م.
٩٧ - رسائل الجاحظ (أبي عثمان عمرو بن بحر). تحقيق عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٤.
٩٨ - روضات الجنات للخونساري (محمد باقر بن زين العابدين). الطبعة الحجرية الثانية. إيران سنة ١٣٦٧ هـ.
٩٩ - ريحانة الألباء لشهاب الدين الخفاجي (أحمد بن محمد) تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسي البابي الحلبي بمصر ١٩٦٧ م.
١٠٠ - زهر الآداب للحصري القيرواني (ابراهيم بن علي) تحقيق علي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٣ م.
١٠١ - الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني - القسم الثاني - تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي، والدكتور نوري حمودي القيسي. منشورات وزارة الاعلام ببغداد ١٩٧٥ م.
١٠٢ - سراج الملوك للطرطوشي (أبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري). المطبعة المحمودية بمصر ١٩٣٥ م.

١٠٣ - سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر. للسيد علي صدر الدين بن السيد أحمد نظام الدين بن معصوم المدني. تصوير المكتبة المرتضوية بإيران عن طبعة مكتبة الخانجي بمصر ١٣٢٤ هـ.

١٠٤ - سمط اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري تحقيق عبد العزيز الميمني. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م.

١٠٥ - صمت النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي لعبد الملك بن حسين العصامي المكي. المطبعة السلفية بمصر ١٣٨٠ هـ.

١٠٦ - السيرة النبوية لابن هشام (عبد الملك بن هشام). تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ م.

١٠٧- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن العماد). تصوير المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت.

١٠٨ - الشعر والشعراء لابن قتيبة (عبدالله بن مسلم). دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤ م.

١٠٩ - شعراء النصرانية قبل الإسلام للويس شيخو اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦٧ م.

١١٠ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للحافظ تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٦ م.

١١١ - الضوء اللامع للسخاوي (محمد بن عبد الرحمن). تصوير دار مكتبة الحياة ببيروت.

١١٢ - الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد للأرفوي (كمال الدين جعفر بن ثعلب). تحقيق سعد محمد حسن. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م.

١١٣ - طبقات الحنابلة لمحمد بن أبي يعلى. مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٩٥٢ م.

١١٤ - طبقات الشافعية للسبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن علي) تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح محمد الحلو. مطبعة عيسى البابي الحلبي. الطبعة الأولى ١٩٦٤ - ١٩٧٦ م.

١١٥ - طبقات الشعراء لابن المعتز (عبدالله بن المعتز) تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م.

١١٦ - العالم الإسلامي لعمر رضا كحالة. المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٥٨م.

١١٧ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني (زكريا ابن محمد). مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٦ م.

١١٨ - عشائر العراق لعباس العزاوي المحامي. شركة التجارة والطباعة المحدودة ببغداد - الطبعة الأولى.

١١٩ - العقد الفريد لابن عبد ربه (أحمد بن محمد). تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، وابراهيم الأبياري، لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٨ م.

١٢٠- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، لأحمد بن علي الحسني. منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.

١٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة (عبدالله بن مسلم الدينوري) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٢٢ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم). منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٥ م.

١٢٣ - الغدير للأميني (الشيخ عبد الحسين أحمد). الطبعة الثانية.

١٢٤ - الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقا (محمد بن علي بن طباطبا). دار صادر ببيروت ١٩٦٦ م.

١٢٥ - الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي (المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد). مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد ١٩٥٥ م.

١٢٦ - الفهرست لابن النديم. تصوير مكتبة خياط ببيروت عن طبعة أوربا.

١٢٧ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥١ م.

١٢٨ - في ظلال القرآن لسيد قطب. دار إحياء التراث العربي ببيروت. الطبعة السابعة ١٩٧١ م.

١٢٩ - القاموس الإسلامي (١ - ٤) لأحمد عطية الله. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣ - ١٩٧٦ م.

١٣٠ - القاموس المحيط للفيروز أبادي (محمد بن يعقوب) مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٢ م.

١٣١ - قلائد العقيان للفتح بن خاقان. مطبعة التقدم العلمية بمصر ١٣٢٠ هـ.

١٣٢ - الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (عز الدين علي ابن محمد). المطبعة المنيرية، ومطبعة الاستقامة بمصر ١٣٤٨ - ١٣٥٣ هـ.

١٣٣ - كشف الظنون للحاج خليفة (مصطفى بن عبدالله) نسخة مصورة عن الأصل المطبوع باستنبول.

١٣٤ - الكشكول لبهاء الدين العاملي (محمد بن الحسين الحارثي) تحقيق طاهر أحمد الزاوي. دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١ م.

١٣٥ - لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف الطريحي. تحقيق محمد صادق بحر العلوم. مطبعة النعمان في النجف الأشرف.

١٣٦ - لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) نشر دار صادر، ودار بيروت ببيروت ١٩٦٨ م.

١٣٧ - مباحث عراقية ليعقوب سركيس. شركة التجارة والطباعة المحدودة. بغداد ١٩٤٨ - ١٩٥٥.

١٣٨ - مجالس ثعلب (أحمد بن يحيى). تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.

١٣٩ - المجالس السنية للسيد محسن الأمين العاملي. مطبعة النعمان في النجف الأشرف.

١٤٠ - مجمع البحرين للطريحي (فخر الدين بن الشيخ محمد علي). تحقيق أحمد علي الحسيني. مطبعة الآداب في النجف الأشرف.

١٤١ - مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٠ م.

١٤٢ - مرآة الجنان لليافعي (عبدالله بن أسعد بن علي) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت ١٩٧٠ م.

١٤٣ - مراصد الاطلاع لصفي الدين بن عبد الحق البغدادي. تحقيق علي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤ م.

١٤٤ - مروج الذهب للمسعودي (علي بن الحسين). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٤ - ١٩٦٥ (الطبعة الرابعة).

١٤٥ - مصارع العشاق لأبي محمد جعفر بن أحمد السراج. طبع دار صادر ببيروت ١٩٥٨ م.

١٤٦ - المصباح المنير لأحمد بن محمد المقري الفيومي. تصحيح مصطفى السقا. مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٠ م.

١٤٧ - معاهد التنصيص للعباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن) المطبعة البهية بمصر ١٣١٦ هـ.

١٤٨ - معجم الأدباء لياقوت الحموي. تحقيق أحمد فريد الرفاعي. من منشورات دار المأمون بمصر.

١٤٩ - معجم ألفاظ القرآن. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. الطبعة الثانية ١٩٧٠ م.

١٥٠ - معجم البلدان لياقوت الحموي. نسخة مصورة في إيران عن طبعة أوربا ١٨٦٩ م.

١٥١ - المعجم الزوولوجي لمحمد كاظم الملكي. مطبعة النعمان في النجف الأشرف.

١٥٢ - معجم الشعراء للمرزباني (محمد بن عمران بن موسى) تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٣٧٩ هـ.

١٥٣ - معجم ما استعجم لأبي عبيد البكري. تحقيق مصطفى السقا. لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤٩ م.

١٥٤ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة. مطبعة الترقي بدمشق ١٩٦١.

١٥٥ - معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا. دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٥٨ - ١٩٦٠ م.

١٥٦ - معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس مطبعة سركيس بمصر سنة ١٩٢٨ م.

١٥٧ - معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس. تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار إحياء الكتب العربية بمصر الطبعة الأولى.

١٥٨ - المغرب في حلى المغرب لعلي بن موسى بن سعيد. تحقيق شوقي ضيف. دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م.

١٥٩ - مغني اللبيب لابن هشام (عبدالله بن يوسف الأنصاري) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

١٦٠ - مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) تحقيق السيد أحمد صقر. دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٤٩ م.

١٦١ - مقامات الحريري (القاسم بن علي) شرح الشريشي (أحمد بن عبد المؤمن). نشر عبد الحميد أحمد حنفي بمصر. الطبعة الأولى.

١٦٢ - المناقب لابن شهر اشوب (رشيد الدين محمد بن علي). المطبعة العلمية بقم. إيران.

١٦٣ - ميزان الاعتدال للذهبي (محمد بن أحمد) تحقيق علي محمد البجاوي. مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣ م.

١٦٤ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف). نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٦٥ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء لعبد الرحمن بن محمد الأنباري. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. دار نهضة مصر ١٩٦٧ م.
١٦٦ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني - تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
١٦٧ - نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة للمحبي (محمد أمين بن فضل الله. تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو). مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٧ م.
١٦٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (أحمد بن عبد الوهاب). دار الكتب المصرية.
١٦٩ - النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري (مجد الدين المبارك بن محمد). تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣ م.
١٧٠ - نوادر المخطوطات جمع وتحقيق عبد السلام محمد هارون لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٥١ م.
١٧١ - هدية العارفين لاسماعيل باشا البغدادي. نسخة مصورة عن الأصل المطبوع في المطبعة البهية بالأستانة ١٩٥٥ م.
١٧٢ - الوافي بالوفيات للصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) (١ - ٤) مصور في إيران، منشورات جهان.
١٧٣ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (أحمد ابن محمد). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٨م.
١٧٤ - وقعة صفين لنصر بن مزاحم. تحقيق عبد السلام محمد هارون. مطبعة المدني بمصر ١٣٨٢ هـ.
١٧٥ - يتيمة الدهر للثعالبي (عبد الملك بن محمد). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٦ م.

فهرس الكتاب